فقال ابن سلام : إنهم يا رسول الله قد وثبوا وأغفلوا الآية .

وهكذا انتبه الجميع إلى أن رؤساء اليهود أرادوا أن يتخطوا حكما لله موجودا عندهم وأرادوا أن ينكروه ، كما فعلواوأحدثوا فى وصف النبى عليه الصلاة والسلام ومحوا هذا الوصف ، ولم يتركوا له أثرا ، لكن الله أنساهم بعض الأشياء لتكون بينة وآية على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما أحل الرسول صلى الله عليه وسلم الإبل وألبانها، قالوا : هذه محرمة من أيام إبراهيم ومن قبله من أيام نوح ، ولا يمكن أن نقبل تحليلها ، فوضح النبى صلى الله عليه وسلم لهم أنها ليست محرمة ، الله أحلها .

وكان يجب أن يفهموا أن الإبل وألبانها حتى وإن كانت محرمة من قبل إلا أن رسولا قد جاء من عند الله بتشريع له أن ينسخ ما قبله مع أنّ الإبل وألبانها لم تكن محرمة ، لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحتكم إلى التوراة . وهذه هى العظمة النورانية المحمدية ، فلا يمكن أن يقول صلى الله عليه وسلم : « نحتكم إلى التوراة » إلا وهو واثق أن التوراة إنما تأتى بالحكم الذى يؤيد ما يقول ، مع أنه لا يقرأ ولا يكتب . ويحضرون التوراة ، فيجدون الكلام مطابقا لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قال الله :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وحين يحرم نبى الله يعقوب ـ إسرائيل ـ طعاما ما ، فهو حر ؛ فقد يحرم على نفسه طعاما كنذر ، أو كوسيلة علاج أو زهادة ، لكن الله لم يحرم عليه شيئا ، وما تحتجون به أيها اليهود إنما هو خصوصية لسيدنا يعقوب « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل

إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فلماذا تقولون : إن الإبل وألبانها كانت محرمة ؟

لقد فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يستروا على أنفسهم نقيصة لا يحبون أن يُفْضحوا بها ، وتلك هى النقيصة التى كشفها القرآن بالقول الكريم :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فهناك أشياء قد حُرمت على اليهود لأنهم ظلموا ، وهذه الآية الكريمة هى التى أوضحت أن الحق قد حرم عليهم هذه الأطعمة لظلمهم . ومعنى : « كل ذى ظفر » أى القدم التى تكون أصابعها مندمجة ومتصلة ، فليست الأصابع منفصلة ، ونجدها فى الإبل والنعام والأوز ، والبط ، وهذه كلها تسمى ذوات الظفر « إلا ما حملت ظهورهما » يعنى الشحم الذى على الظهر . أما « الحوايا » فهى الدهون التى فى الأمعاء الغليظة « أو ما اختلط بعظم » . أى الشحم الذى يختلط بالعظم إن التحريم هنا لم يكن لأن هذه الأشياء ضارة ، ولكن التحريم إنما كان عقابا لهم على ظلمهم لأنفسهم وبغيهم على غيرهم .

وأقول ذلك حتى لا يقول كل راغب فى الانفلات من حكم الله ما الضرر فى تحريم الأمر الفلانى ؟ إن محاولة البحث عن الضرر فيما حرمه الله هى رغبة فى الانفلات عن حكم الله . فالتحريم قد يأتى أدبا وتأديبا ، ونحن على المستوى البشرى ـ ولله المثل الأعلى ـ يمنع الإنسان منا « المصروف » عن ابنه تأديبا ، أو يمنع عنه الحلوى ، لأن الابن خرج عن طاعة أمه ، إذن كان التحريم جزاءً لهم وعقابا قال تعالى :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ

كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾

(سورة النساء)

وذلك هو الجزاء الذى أراده الله عليهم .

إن التشريع السماوى حينما يأتى لظالم يخرج عن منهج الله فكأنه يقول له ما هو القصد من خروجه عن منهج الله ؟ لماذا يظلم ؟ لماذا يأخذ الربا ؟ لماذا يصد عن سبيل الله ؟ لماذا يأكل أموال الناس بالباطل ؟ إن الظالم يفعل ذلك حتى يمتع نفسه بشىء أكثر من حقه ، لذلك يأتى التشريع السماوى ليفوت عليه حظ المتعة ، وكان هذا الحظ من المتعة حقا وحلا له ، لكن التشريع يحرمه . ومثال ذلك القاتل يحرم من ميراث من يقتله ؟ لأن القاتل استعجل ما أخره الله ، وأراد أن يعجل لنفسه المتعة بالميراث ، فارتكب جريمة قتل ، لذلك يأتى التشريع ليحرمه من الميراث .

كأن التشريع يقول له : « مادامت نيتك هكذا فأنت محروم من الميراث » والتشريع حين وضع ذلك إنما حمى كل مورث ، وإلا لكان كل مورث عرضة لتعدى ورثته عليه بالقتل لينتقل إليهم ما يملك ، فقال : لا . نحرمه من الميراث وكذلك هنا نجد الظلم بأنواعه المختلفة ، الظلم بإنكار الحق ، والصد عن سبيل الله ، وأخذ الربا ، وأكل أموال الناس بالباطل ، ومادام اليهود قد أدخلوا على أنفسهم أشياء ليست لهم فالتشريع يسلب منهم أشياء كانت حقا لهم .

وكان اليهود فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغبون ألا يُشاع عنهم هذا الأمر فقالوا : إن هذا الطعام محرم على بنى إسرائيل . وبعد ذلك وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا اللون من الطعام حلال فى التوراة ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الذى فضحهم .

ولماذا تجىء هذه الآية بعد قوله الحق فى الآية السابقة : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ؟ ونحن نعرف أن آية « لن تنالوا البر » قد جاءت بعد آية توضح النفقة غير المقبولة من الله . ولنذكر ما قلناه أولا ، عن تداعى المعانى فى الملكات

الإنسانية : إن فى النفس الإنسانية ملكة تستقبل ، فتتحرك ملكة أخرى ، وحين يقول الحق: « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل » فالذين يسمعون هذا سينفعلون انفعالات مختلفة ، فالشبعان من الناس لن يلتفت إلى هذه المسألة بانتباه بالغ ، ومن عنده بعض الطعام فإن نفسه قد تتحرك إلى ألوان أخرى من الطعام ، أما من ليس عنده طعام فلسوف يلتفت بانتباه شديد ليتعرف على الحلال من الطعام والحرام منه .

إذن فقبل أن يأتى الله بالحكم الذى يحلل ويحرم ، هذا الحكم الذى يثير عند الجائع شجن الافتقار وشجن ذكر الطعام الذى يسيل له لعابه ، إن الحق قبل أن يحرك معدما على غير موجود معه ، فإنه يحرك معطيا على موجود معه ، لذلك فقبل أن يأتى الحق سبحانه ويذكر الطعام ، وقبل أن يُقلب الأمر على النفس الإنسانية التى لا تجد طعاما ، نجد الرسول قد نطق قبلها بما أنزله عليه الحق « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . فبتداعى المعانى فى النفس الإنسانية يكون ـ سبحانه ـ قد حرك ملكة واجدة ومالكة قبل أن يحرك ملكة معدمة . وهكذا يكون التوازن الذى أراده الله فى الكون المخلوق له .

إنه رب يحكم كونه ، فلا ينسى شيئا ويذكر شيئا . « لا يضل ربى ولا ينسى ، » إن كل شيء فى علمه كما قَدّره وهو الخلاق القدير العليم ، وهو لا يذكر بعضا من الخلق ، وينسى بعضا آخر ، فهو قد كتب العدم لحكمة ، وأعطى النعمة لحكمة .

لقد جعل الفقير عبرة ، ولكنه لم يتركه ، وذلك حتى يرى كل إنسان أن القدرة على الكسب ليست إلا عرضا زائلا ، فمن الممكن أن يصبح القادر الآن عاجزا بعد دقائق أو ساعات ، ومن الممكن أن يصبح القوى ضعيفا ، فإذا ما علم القوى أو القادر ذلك فإنه يتحرك إلى إعطاء الآخرين ؛ حتى يضمن لنفسه التأمين الإلهى لو صار ضعيفا ، فيعطيه الأقوياء ، فعندما يأمر الله الأقوياء بأن يعطوا وينفقوا فإن عليهم أن يستجيبوا ؛ لأن الواحد منهم لو صار ضعيفا فسوف يأخذ .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » هذا القول قد خدم قضية سبقتها ، وهى أنه لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به ، مادام كافرا ، إنها نفقة مرفوضة لا اعتبار لها ، إنها هدر . ويأتى من بعد ذلك بتحديد النفقة التى ليست هدرا ، ثم يفضح اليهود بقضية توجد عندهم فى التوراة

ولكنهم كذبوها ، وهى قضية تتعرض للطعام ، ومادامت القضية تتعرض للطعام فهناك الكثير من الملكات التى يمكن أن تتحرك ، فملكات الواجد حين تتحرك فحركتها تكون بأسلوب غير الأسلوب الذى تتحرك به ملكات المعدم . فقبل أن يُحرك وجدان المعدم إلى أنه معدم ، حتى لا يتلقى ذلك بحسرة ، فإنه سبحانه يكون قد عمل رصيدا لهذا المعدم ، فيرقق قلب الواجد أولا « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » وبعد ذلك يأتى قوله الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ومعنى كلمة « حل » هو « حلال » ، ويقابلها « حرام » وحل هى مصدر ، ومادامت مصدرا فلا نقول « هذان حلالان » بل نقول : « هذان حل » ، ونقول : « هؤلاء حل » وإن شئت فاقرأ قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الممتحنة)

« لا هن » هذه لجماعة النساء ، والحل مفرد ، وعندما يقول الحق سبحانه : « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فهذا يعنى أنه قد حرم بعضا من الطعام على نفسه فهو حر فى أن يأخذ أو يترك ، أو أنه قد حرمه على نفسه فوافقه الله ؛ لأن الناذر حين ينذر شيئا لم يفرضه الله عليه فهو قد ألزم نفسه بالنذر أمام الله .

إن الزمن الذى حرم فيه إسرائيل على نفسه بعضا من الأطعمة هو « من قبل أن تنزل التوراة » أى أن هذا التحريم لم يحرمه الله ، ويأتى الأمر لرسوله الكريم أن يخاطب بنى إسرائيل : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » إنه قد كشف سترهم ، وعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن النص الذى

يؤيد صدقه موجود فى التوراة ، ولهذا لم يأت اليهود بالتوراة ، وذلك لعلمهم أن فيها نصا صريحا يصدق ما جاء به رسول الله ، ولا يحتمل اللجاجة ، أو المجادلة ، وماداموا لم يحضروا التوراة فهذا يعنى أنهم غير صادقين . ويقول الحق :

﴿ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

إن فى هذا القول التحذير الواضح ألا يختلق أحد على الله شيئا لم ينزل به رسول أو كتاب فمن يفترى الكذب على الله لا يظلم إلا نفسه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

يأمر الحق رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا » .

ونعرف أن ملة إبراهيم هى التى سمّت كل المؤمنين بالله المسلمين ، والدعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم هى لإيضاح أن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف ، فركب الإيمان والرسل والأنبياء هو ركب واحد ، وكلمة « اتبعوا » تعنى أن هناك مقدما كما أن هناك تابعا . و« الملة » تشمل المعتقدات والتشريعات العامة ، كما أن الشريعة تشمل الأحكام ، والدين يكون لبيان العقائد .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وقد عرفنا من قبل أن كلمة « حنيفا » تعنى الذى يسير على خط مستقيم ، ويتبع منهجا قويما ومستويا ، ونحن نسمى ملتنا « الحنيفية السمحاء » ومع ذلك فالحنف هو ميل فى الساقين ، اليمين مقوسة إلى اليمين ، واليسار مقوسة إلى اليسار ، فكيف إذن نقول عن الدين الحق الهادى لمنهج الله وشريعته : إنه حنيف ؟

لقد قلنا : إن السماء لا تتدخل بإرسال الرسل إلا حين يعم الفساد ، ومادام الفساد قد عم فإن الذى يميل منحرفا عن الفساد هو الذى اهتدى إلى الصراط المستقيم ، فالحنيف معناه مائل عن الفساد ، فالمائل عن المعوج معتدل ، « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

« صدق الله » نعم ؛ لأن الصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلا ، وحين يتكلم الحق وهو العليم أزلا فما الذى يحدث ؟ لابد أن يوافق الواقع ما يقوله سبحانه وتعالى فليس من المعقول أن يتكلم الله كلاما يأتى على لسان رسول ، أو على لسان أتباع الرسول ، وبعد ذلك يأتى واقع الحياة فينقض قول الحق ويخالفه ، إن الحق العليم أزلا يُنزل من الكلام ما هو فى صالح الدعوة إلى منهجه .

إذن فحين يطلق الله قضية من قضايا الإيمان فإنه ـ سبحانه ـ عليم أزلا أنها سوف تحدث على وفق ما قال ، وإن كان الظرف الذى قيلت فيه لا يشجع على استيعابها وفهمها . إن المؤمنين كانوا فى أول الأمر مضطهدين ، ومرهقين وإن لم يكن للواحد منهم عشيرة تحميه فإنه يهاجر عن البلاد ، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يُعَذب ويُضطهد . وفى هذه الفترة الشديدة القاسية وفى قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

وعندما يسمع سيدنا عمر عليه رضوان الله هذا القول يتساءل : أى جمع هذا ؟ إن الواقع لا يساعد على هذا،ثم جاءت بدر ، وهزم المؤمنون الجمعَ وولوا الدبر ، وهذا دليل على أن الله قد أطلق قضية وضمن أنها ستحدث كما قال وكما أخبر ، وهذا مطلق الصدق . إن الإنسان يمكنه أن يستبعد الصدق لو أن الذى قال غير الذى

خلق ، لكن الذى قال ذلك هو الذى خلق ويخلق ويعلم ، فمن أين يأتى التناقض ؟ وهذا معنى القول الكريم :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه قول حق جاء من عند العليم أزلا ، ومن العجيب أن أهل الكتاب من يهود ونصارى يتمسحون فى سيدنا إبراهيم ، فقال بعضهم: إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا ، وبعضهم قال: إن إبراهيم كان نصرانيا . وكان يجب أن يفهموا أن اليهودية والنصرانية إنما جاءتا من بعد إبراهيم ، فكيف يكون يهوديا أو نصرانيا وهذه الملل قد جاءت من بعده ؟ لذلك جاء القرآن الكريم قائلا :

﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وقد أوضح الحق بعد ذلك دين إبراهيم عليه السلام :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فكيف يمكن أن يختلقوا على إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ؟ إنه كلام لا يصدر إلا عن قلة فطنة وغفلة بالغة . وعندما يقول الحق عن إبراهيم: « وما كان من المشركين » فهل أهل الكتاب مشركون ؟ نعم ؛ لأنهم حين يؤمنون بالبنوة لعزير ، ويؤمنون بالبنوة لعيسى فهذا إشراك بالله ، وأيضا كان العرب عبدة الأصنام يقولون : إنهم على ملة إبراهيم ؛ لأن شعائر الحج جاء بها إبراهيم عليه السلام ، ولهذا ينزه الحق سبحانه سيدنا إبراهيم عن ذلك ، ويقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين» وذلك يدل على أن ملة إبراهيم وما جاء به

موافق لملة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

لقد عرفنا من قبل كيف كان تداعى المعانى سببا فى إرواء الحق لكل ملكات الإنسانية ، وقبل هذه الآية التى تتحدث عن بناء البيت الحرام بمكة المكرمة كان هناك حديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال الحق :

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلة بالبيت الحرام ، وكان رفع قواعد البيت الحرام على يده بعد أن طمر وستر بالطوفان فى عهد نوح عليه السلام ، فحين يأتى الكلام فى رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فلابد أن تأتى أكبر حادثة فى تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهى حادثة بناء البيت الحرام ، كما أن الحق سبحانه حينما تكلم عن المحاجاة بين المسلمين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده القرآن ، وبين أهل الكتاب وفى أيديهم التوراة المحرفة والإنجيل المحرف أراد سبحانه أن يردنا إلى شيء واحد هو ملة إبراهيم الذى سمانا مسلمين . ومعنى ذلك أن الله يريد منا أن تسيطر قيم السماء على حركة أهل الأرض ؛ لأن حركة أهل الأرض إن اتبعت الأهواء تصادمت الحركات ، ومادامت الحركات قد تصادمت فإن ما ينتج عنها هو ضياع مجهود الحركة الإنسانية ، ويصير هذا المجهود مبددا .

ولكن الإنسان الذى يحمل القيم التى تتركز عقيدة فى قلبه ـ بعد أن يبحثها بفكره ـ هذا الإنسان له قالب تنفذ به تشريعات الله ، ولولا وجود القالب هذا لما استطاع

الإنسان أن يطبق تشريعات الله ، ولَمّا استطاع أن يؤدى هذه التشريعات ، ولما استطاع أن يطيع الله بجوارحه ؛ فالإنسان بغير قالب لا يستطيع أن يؤدى الحركة المطلوبة .

إذن فلابد للقالب الإنسانى ـ البدن ـ فى التشريع من عملية أخرى وهى أن ينصب القالب ويكون له عمل حين يتوجه إلى بيت واحد لله ، وبذلك يصبح للقالب نصيب فى العبادة أيضا .

ولهذا كان لابد أن يوجد للقالب ـ أيضا ـ مُتّجَهٌ وهذا المُتّجه يحكم القالب نفسه ، فكان المؤمن المسلم محكومًا قلبا وقالبا ، فحين نأتى للصلاة لنكون فى حضرة الله نتحرى أن يكون قالبنا متجها إلى المكان الذى أمرنا الله أن نتوجه إليه ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى ساعة يعطى رحمته وبركته وتنزلاته وإشراقاته يريد أن يكون الجسم فى وضع مؤهل لاستقبال هذه التجليات ، ولذلك كان لابد أن يكون لله بيت يتجه إليه الجميع حتى يعطى للتدين وحدة ، فكما أعطى الحق لموكب الرسالات وحدة ، فإنه يعطى أيضا وحدة فى القالب الإنسانى والمتجَه ، وكل مكان يعبد الله فيه بالنسبة للإسلام يُعتبر مسجدا ، وقد يسر الله الأمر على أمة سيدنا محمد ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « جعلت لى الأرض مسجدًا وطهورا »[1] .

وكان لقاء الله وعبادته فى الديانات السابقة يقتضى مكانا محددا ولكن قد وسع رحمته على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن تراب الأرض طهور ، إننا عندما نفتقد الماء الطهور فإن التراب الذى قد يبدو للوهلة السطحية أنه سبب فى عدم النظافة قد جعله الله لنا طهورا .

إن الإنسان يمكنه أن يتيمم ويتطهر بالتراب ، وكأن الله قد أراد أن يكون لقاء كل فرد من أمة محمد به ميسرا تيسيرا كبيرا . وكل مكان نعبد فيه الله ويسجد فيه المسلم لله يصير مسجدا .

(١) هذا جزء من حديث شريف أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه ، والإمام مسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه ، والإمام أحمد فى مسنده وغيرهم من أصحاب السنن .

لكن هناك فارقا بين أى مكان نعبد الله فيه والمسجد ، فنحن نرى العامل يعبد الله فى المصنع والتلميذ يعبد الله فى الفصل ، والفلاح يعبد الله ويؤدى الفروض فى الحقل ، ويمكن للسائر في الشارع أن يؤدى صلاته فى أى مكان ، وأن يزاول عمله بعد ذلك ، ولكن حين يُحَيِّزُ الإنسان مكانا ليكونِ بيتا لله ، فمحظور أن يزاول فيه نشاطا آخر من نشاطات الحياة ؛ إنه مكان مُحيز .

إن العبادة كلها مقبولة ، ولكن هناك فارقا بين مكان تعمل فيه ومكان تخصصه ليصير مسجدا . فالمسجد هو مكان لايزاول فيه إلا لقاء الله ، ولذلك أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا نستغل هذا الحيز فى أى أمر يتعلق بدنيانا ، وقد أوضح لنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الذى يعقد صفقة فى المسجد لن يبارك الله فيها ، والذى ينشد فيه شيئا ضالا له لن يجده . فقد دعا الرسول ألا يرد الله عليه ضالته .

إن أمور الدنيا يكفيها أن تأخذ من الإنسان كل يوم ثلاثا وعشرين ساعة، فليخصص الإنسان المؤمن ساعة لله وحده ، وليخلع كل أغراض الحياة الدنيا كما يخلع النعال على باب المسجد . فليس من حسن الأدب واللياقة أن ينشغل الإنسان بأى شيء غير لقاء الله فى الوقت المخصص للقاء الله ، وفى المكان المخصص لهذا اللقاء .

فساعة تدخل المسجد ينبغى أن تمنع نفسك من أن يتكلم معك أحد فى فضول الكلام ولغوه ، وأن تنوى الاعتكاف لتستفيد من وجودك فى المسجد . وساعة أن نخصص حيزا ما ليكون مسجدا ، فكيف يكون الاتجاه داخل المسجد ؟ أيترك الأمر لكل واحد أن يختار له متجها ؟

لا ، إن المؤمن ملتزم بالاتجاه إلى مكان واحد ، هذا المكان الواحد هو بيت لله باختيار الله بينما المساجد الأخرى هى بيوت لله باختيار خلق الله ، فبيوت الله باختيار خلق الله متجهها جميعا هو بيت الله الحرام.

وحين تنظر هذه النظرة ستجد العالم متواجها ؛ لأن كل عابد سيكون اتجاهه إلى بيت الله مع بقية العابدين لله ، فيلتف المؤمنون كلهم حول بيت الله ، ويتواجهون ، إن وجوهنا كلها تقابل بعضها بعضا ، ولكن ما ضرورة الاتجاه للكعبة ؟ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

نقول : إن هذه الآية تؤيد ما نقوله ، فمادام لله المشرق والمغرب ، فهذا هو المعنى العام ، فالناس أول ما عرفوا الكون تعرفوا على المشرق والمغرب ثم الشمال والجنوب أيضا ، وبعد أن توصل العلم إلى تحديد الجهات الفرعية بجانب الجهات الأصلية الأربع المعروفة عرفنا « الشمال الشرقى » و« الشمال الغربى » و« الجنوب الشرقى » و« الجنوب الغربى » . إذن فكل المتجهات لله ، والاتجاه للكعبة يحقق هذا القول الكريم .

وعندما يتجه إنسان إلى الكعبة فقد يكون الشرق خلفه ، ويكون الغرب أمامه ، ويتجه إليها إنسان آخر إلى الكعبة ، فيتقابل وجهه مع وجه المتجه للكعبة ، وثالث يتجه إلى الكعبة ، فيكون فى زاوية أخرى ناظرا إليها ، وهكذا يلتف البشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب وكل الجهات الفرعية حول الكعبة .

إذن فقول الحق : « ولله المشرق والمغرب » أى جميع الخلق متجه إلى الكعبة ، وبذلك لا تكون هناك جهة أولى بالله من جهة أخرى . وأنا لا أريد أن أدخل فى متاهة أنّ الكعبة مركز الأرض وأن الأرض خلقت منها ؛ لأن الشيء إذا كان مكورا فأى نقطة فيه تكون مركزا للجميع ، لذلك فلنترك مثل هذا الكلام ، لكن ألَا يكفى أن يرجحها أن الله قد اختارها ؟ إن ذلك يكفى وزيادة ، وبذلك ينتهى الأمر ، إنها كذلك ؛ لأنها بيت الله باختيار الله ، وهذا يكفى .

لقد علّمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأشياء التى تقف فيها العقول وليست من صلب العقائد أو الدين لا يصح أن تكون محل خلاف أو جدل . يقول سيدنا على كرم الله وجهه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : سأله رجل ، « أذلك أول بيت لله ؟ » فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكن هو أول بيت وُضِع للناس . وهذا إيضاح أن الله قد جعل الكعبة هى أول بيت له يتعبد فيه جنس البشر ، وذلك لقول الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين » . ولكن إن كانت هناك أجناس سابقة على الجنس البشرى فمن المؤكد أنه كانت هناك لله بيوت لا نعرفها .

وما آدم فى منطق العقل واحد ... ولكنه عند القياس أوادم

ولذلك فوجود البيت الحرام كبيت لله لا يصطدم مع منطق الناس الذين لا يملكون إلا الثقافة الدينية الضحلة ، فساعة أن يسمع الواحد منهم ، أن هناك اكتشافا لحفريات من كذا مليون سنة فهو يتساءل قائلا : كيف وآدم لم يمر عليه ملايين السنين ؟ لنفترض أن هناك خمسة أجيال لإدريس عليه السلام وثلاثة أجيال لنوح عليه السلام ، وأحد عشر جيلا لإبراهيم عليه السلام وثلاثين جيلا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهكذا يكون الوجود البشرى محددا بآلاف السنوات لا ملايينها .

لهذا الإنسان نقول : وهل قال لك أحد : إن آدم أول من عَمَرَ الأرض ؟ إن الدين لم يقل ذلك ، لكن الدين قال : إن آدم هو أول هذا الجنس البشرى ، ولكنه ليس أول من سكن الأرض ، لذلك فليقل العلماء : إن عمر هذه الأرض ملايين السنين ولنسمع جميعا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) ﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فلا مجال لهذا البحث ، لذلك قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لا ، بل قبله بيوت » .

والحق سبحانه وتعالى يقول ما يوضح أن الجن قد سكنوا الأرض قبلنا :

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾

(سورة الحجر)

ألم يقل الحق سبحانه إن الإنسان خليفة ، وردّت عليه الملائكة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾

(سورة البقرة)

إن الذين قالوا ذلك ليسوا من البشر ، إذن فكلام الله يؤكد أن الكعبة هى أول بيت وُضع للناس ، أى للجنس البشرى ، ولذلك فلا داعى أن نتكلم فى الأشياء التى يقف فيها العقل حتى لا ندخل فى متاهة . ولو كان الله قد أراد أن يعلمنا أن الكعبة هى أول بيت فى الأرض لقال لنا : « إنه أول بيت وضع فى الأرض » ، ولم يكن قد حدد الجنس الذى وضع البيت من أجله ، لكن الحق سبحانه قال : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ، ولذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكنه أول بيت وضع للناس . إنه جواب يتسع لكل ما يأتى به العلم .

وحين ننظر إلى القول الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » ما معنى « أول » ؟ إنه الابتداء ، وهل كل ابتداء له انتهاء ؟ لا ، إن هناك أمورا لها « أول » وليس لها « آخر » ومثال ذلك العدد « واحد » وما بعده ليس له آخر ، فآخر ما بعد العدد واحد هو ما يمكن الإنسان أن يحسبه عجزا فى التقديرات الدشليونية ، ولكن ما بعد الدشليون هناك أعداد أخرى ، وكان الإنسان قديما يقف عند الألف ، ثم يقول عن المليون « ألف ألف » ، وكذلك الجنة لها أول وليس لها آخر .

إذن فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة . وعندما نرى كلمة « وُضع » نجدها فعلا ، ونرى أنه قد وُضِع للناس . ومادام هذا البيت قد وضع للناس لذلك فمن اللازم حين تأتى كلمة « ناس » أن يكون هناك « بيت » و« آدم » من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وُضِع له . وحين يقال : إن البيت قد تم بناؤه قبل آدم فإننا نقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول : « إن أول بيت وضع للناس » فلماذا نحرم آدم من أن يكون له بيت عند الله ؟ إذن فالبيت موجود من قبل آدم . وبعض الناس تظن أن إبراهيم عليه السلام هو الذى بنى البيت ، ولأصحاب هذا الظن نقول : لنفهم القرآن معا ، إن مثل هذا القول يناقض القرآن ؛ لأن القرآن قد قال : « إن أول بيت وضع للناس » وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قبله أناس سابقون له ، فكيف لا يكون للناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل مجىء إبراهيم عليه السلام لهم الحقوق نفسها عند الله التى وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلابد أن الله قد جعل بيته لهم ، والنص القرآنى

« إن أول بيت وضع للناس » مؤكد ذلك ، ومادام قد جاء الفعل مَبْنياً للمفعول فواضعه غير الناس ، فـ « وُضِع » هو فعل مبنى على ما لم يسم فاعله ، فمن الذى وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟

قد يصح ذلك وهو أن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه : « هدى للعالمين » وهذا يعنى أن البيت هدى للملائكة ؛ لأنهم عالم،وهذا يعنى أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك ، إن أحدًا لا يقدر أن يجعل الكون على قدر العقل البشرى ، إن على العقل البشرى أن يكون فى ركاب الكون ، وإياك أن تجعل الكون فى ركاب عقلك . أما مسألة أن إبراهيم قد بنى الكعبة أولاً فهذا عدم فهم للنص القرآنى القائل :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فما هو الرفع ؟ إنه إيجاد البُعد الثالث وهو الارتفاع ، فالطول والعرض موجودان إذن فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت . وهكذا نستنتج أن الذى كان مطموسا هو القاعدة والارتفاع ، مع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان ، أما البناء فهو الذى يحدد « المكين » وعندما انهدم البيت الحرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه . ونحن عندما نصلى فى الدور الثالث فى الحرم ، فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة ، ولو حفرنا نفقا تحت الأرض بألف متر ، وأردنا أن نصلى فإننا سنتجه إلى جذر الكعبة ، وهكذا نعرف أن جو الكعبة كعبة .

إذن فعمل إبراهيم عليه السلام كان فى إيجاد المكين لا المكان ، ولنقرأ بالفهم الإيمانى ما حدث لإبراهيم عليه السلام . لقد أخذ إبراهيم هاجر وابنها إسماعيل ، وخرج بهما ليضعهما فى هذا المكان . « وهاجر » تعرف أن مكونات الحياة هى المياه والهواء والقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ، لذلك قالت هاجر سائلة إبراهيم عليه السلام : كيف تتركنا هنا ؟ هل أنزلتنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟

فقال لها إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله ، لذلك قالت : « لقد اطمأننت ، والله لا يضيعنا أبدا » . لم تقلق هاجر لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان فى قمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأى قلب لأم تترك أب الطفل يذهب بعيدا عنها وتعيش مع ابنها فى هذا المكان الذى لا يوجد به طعام أو ماء ، فهى لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد القول الحق على لسان إبراهيم :

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هكذا نعرف أنه ساعة إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت وأن هذا البيت محرم ، وعندما نقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام .

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمن فى إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلنا على أن إسماعيل نشأ طفلا فى هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودا من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما ندقق النظر فى معنى كلمة « بكة » التى وردت فى هذا القول الكريم: « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » فإننا نعرف أن هناك اسما لمكان البيت الحرام هو « بكة » وهناك اسم آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن « الميم » و« الباء » يتعاونان ، ونلحظ ذلك

فى الإنسان « الأخنف » أو المصاب بزكام ، إنه ينطق « الميم » كأنها « باء » . والميم و« الباء » حرفان قريبان فى النطق ، والألفاظ منها تأتى قريبة المعنى من بعضها .

ولننظر إلى اشتقاق « مكة » واشتقاق « بكة » . إننا نقرأ « بكّ المكان » أى ازدحم المكان ، وهكذا نعرف من قوله الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا » أى أنه مكان الازدحام الذى يأتى إليه كل الناس وكل الوفود لتزور بيت الله الحرام ، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء يختلط بعضهم ببعض ، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ، ولا يدرى أنه يسير وقد يلمس امرأة أثناء الطواف .

و« بكة » هى المكان الذى فيه الطواف والكعبة ، أى هى اسم مكان البيت الحرام ، و« مكة » اسم البلد كلها الذى يوجد به البيت الحرام . و« مكة » مأخوذة من ماذا ؟ إن « مكة » مأخوذة من « مك الفصيل الضرع » أو « امتك الفصيل الضرع » ، أى امتص كل ما فيه من لبن ، والفصيل كما نعرف هو صغير الإبل أو صغير البقر . ومادام الفصيل قد امتص كل ما فى الضرع من لبنْ فمعنى هذا أنه جائع ، ومكة كما نعرف ليس فيها مياه ، والناس تجهد وتبالغ فى أن تمتص المياه القليلة عندما تجدها فى مكة .

وفى كلمة « مباركا » نجد أنها مأخوذة من « الباء والراء والكاف » والمادة كلها تدور حول شيء اسمه الثبات ، فهل هو الثبات الجامد ، أم الثبات المعطى النامى الذى مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضا ؟ إننا فى حياتنا اليومية نقول : « إن هذا المال فيه بركة . مهما صرفت منه فإنه لا ينتهى » ، أى أنه ثابت لا يضيع ، ويعطى ولا ينفد . وكلمة « بِرْكة » فى حياتنا تعنى أنها تَجَمعُ الماء تأخذ منها مهما تأخذ فيأتى إليها ماء آخر .

وكلمة « تبارك الله » تعنى « بت الحق » ولم يزل أزلا ولا يزال هو واحداً أحداً ، إنه الثبوت المطلق . وهكذا نجد أن الثبات يأتى فى معنى البيت الحرام . إن البيت الحرام مبارك أبدا « كيف » ؟ أليست تضاعف فيه الحسنة ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه ؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تُجبى إليه ثمرات كل شيء ولا تنقطع ؟ فقديما كان الذاهب إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن ، ويأخذ الإبرة والخيط ، والملح ، والآن فإن الزائر لبيت الله الحرام يذهب ليأتى بكماليات

الحياة من هناك . ويقول سبحانه عن هذا البيت الحرام المبارك : إنه « هدى للعالمين » . ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية ، ومن يَزُرْ البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فهل اهتدى للجنة أم لا ؟ إنه ـ رف بزيارة البيت الحرام الطريق إلى الجنة . وحينما ننظر إلى هذه المسألة نجد أن الحق سبحانه وتعالى عندما تكلم عن البيت لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه هى مقام إبراهيم مع أن فيه آيات كثيرة .

قال الحق :

﴿ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧ ﴾

إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة فى قوله الحق : « فيه آيات » و« بينات »وهى وصف الجمع . وبعد ذلك قال الحق : « مقام إبراهيم » إنه سبحانه لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات ، والمقام آية واحدة ، وهذا يدل على أن مقام إبراهيم فيه الآيات البينات ، ونحن نقرأ « مقام إبراهيم » بفتح الميم الأولى فى كلمة « مقام » ولا ننطقها « مقام » بضم الميم الأولى لأن المقام بضم الميم تعنى مكان إقامة إبراهيم،أما مقام بفتح الميم فمكان القيام ، لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام ؟

لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على « حجر » . وعندما ننظر إلى مقام إبراهيم فإنك تجد فيه كل الآيات البينات ؛ لأن الله طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذى يؤديه طول يديه ، وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب الله ـ كما قلنا من قبل ـ لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع

الله أن يؤدى كل تكليفات الله بعشق وحب وإكمال وإتمام ، فقال إبراهيم فى نفسه : « ولماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداى ؟» ولم تكن هناك فى ذلك الزمن القديم فكرة « السقالات » ، ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا ابنه إسماعيل . وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرا ، ووقف عليه ؛ ليرفع القواعد قدر الحجر .

إذن فإبراهيم خليل الرحمن أراد أن ينفذ أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية فقط ،ولكن بقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه الله ، وهذا معنى قول الله عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أى أنه أدى مطلوب الله أداء كاملا ، ولا أدل على هذا الأداء الكامل من أنه أتى بحجر ليقف عليه ليزيد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر . ونعرف أن الذى ساعده وشاركه فى رفع القواعد هو ابنه إسماعيل . ومن أكرمه الله برؤية مقام إبراهيم يجد أن الحجر يسع وقوف إنسان واحد ، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار ، أما مكان الأقدام الموجودة فى هذا الحجر ، فهذا يعنى أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرا من المفروض أن يحمله أثنان فإن هذا يتطلب ثبات القدمين فى مكان آمن حتى لا يقع .

فهل يا ترى أن الله سبحانه وتعالى جلت قدرته ساعة رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخليله : سأكفيك مؤنة ذلك . وجعل الحق القدمين تغوصان فى الحجر غوصا يسندهما حتى لا تقعا . والذى لا يتسع ذهنه إلى أن الله ألآنَ لإبراهيم الحجر ، نقول له : إن إبراهيم قد احتال ، وخاف أن تزل قدمه ، فنحت مكانا فى الحجر على قدر قدمه حتى تثبت قدمه حين يحمل ويرفع الحجر ، وهذه آيات بينات . فخذ ما يتسع ذهنك وفهمك له ، إن الله أعان إبراهيم لأنه فكر أن يبنى القواعد ويرفعها أكثر مما تطول يداه ، وقد مكّن الله له فى ذلك وأعانه عليه ، ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

« فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا » ، والآيات هى الأمور العجيبة ، وعندما تراها فإنك لا تستطيع أن تنكرها . ودخول البيت يعنى الأمن للإنسان الذى يدخله ، ونحن نعلم أن البيت قد تم بناؤه فى هذا المكان . وهذا المكان تجتمع فيه القبائل ، وبين بعض هذه القبائل ثارات ودماء وحروب ، لذلك بيّن الله الوضع الذى بمقتضاه تحقن الدماء « ومن دخله كان آمنا » لماذا ؟ لأنه بيت الرب ولا يصح أن يدخل واحد بيت الرب ويُعاقب حتى ولو كان قد أجرم جرما يوجب الله عليه الحد فيه . ولذلك قال سيدنا عمر رضى الله عنه : لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب ـ والده لم أتعرض له .

ولكن يُضَيّق الخناق على المجرم حتى يخرج . وهذا الأمن محدد بأيِ أمر اقترفه فى دنياه ، أما من دخله كان آمنا يوم القيامة فالحكم فيه شيء آخر ، إنها درجة عالية من فضل الله ، والآيات البينات الواضحة فى البيت الحرام يراها من زار البيت الحرام ، وليحقق الله أمل كل راغب فى زيارة البيت الحرام ، وأن يكرر الزيارة لمن ذهب وأراد أن يعود للزيارة مرة أخرى . فساعة تدخل البيت الحرام فأنت هنا تتجه إلى مكان فى البيت والمقابل لك فى الكرة الأرضية يتجه إلى المكان المقابل ، إلى أن تصير الاتجاهات مشتملة على الكعبة كلها . ونحن عندما نكون فى الكعبة فإننا نوجه وجوهنا إلى المبنى لأننا نراها ، ونحن نوجه الوجوه إلى المبنى المقطوع بأنه منها ، والحطيم ، وهو القوس المبنى حول حجر إسماعيل ، هو من الكعبة أيضا ، ولكن النفقة قصرت ، فجعلوه ليحدد مكان الكعبة ، فظل هكذا ، فإذا غاب الإنسان عن الكعبة واتجه إليها فإنه يكفى أن يتجه إلى جهتها .

ولذلك نجد الصفوف فى الصلاة حول الكعبة تتخذ شكل الدائرة ؛ لأن الذين يصلون فى داخل الحرم يشاهدونها ، أما الذين يصلون خارجها فيكفى أن يتجهوا إلى جهتها ولو طال الصف إلى ألف متر ، لذلك فالصف للمصلين خارج الحرم يكون معتدلا ، أما فى داخل الحرم فالصفوف تأخذ شكل الدائرة لأن أقصى بُعد فى الكعبة هو اثنا عشر مترا وربع المتر،ونجد من الآيات العجيبة أنك إذا ما نظرت إلى الحجر الأسود تجد الناس تتهافت على تقبيله ، والحجر يمثل أدنى أجناس الكون ، ونعلم

جميعا أن الإنسان مستخلف كسيد فى الكون ، ومن بعده الحيوان أقل منه فى الفكر ومسخر ، ومن بعد الحيوان يكون جنس النبات ، ومن بعد ذلك يأتى جنس الجماد ومنه الحجر .

إننا نرى هذا الإنسان السيد فى الكون لا يقبل الله منه النسك القبول التام الحسن إلا إذا قبل الحجر ، أو حياه ، وهكذا ينقل الحق أعلى الأجناس إلى أدناها . والناس تزدحم حول الحجر ، ومن لم يقبل الحجر يحس أنه افتقد شيئا كثيرا ، وهكذا ترى استطراقا وسلوكا من الخلق إلى باب الله ، فالإنسان المتكبر الذى يتوهم أنه سيد على غيره ، يأتى إليه أمر فى النسك بتقبيل الحجر أو تحيته بالسلام ، وهذا الإنسان برغم أن الحق ـ سبحانه ـ يقبل منه أن يحيى الحجر الأسود بالسلام ولم يفرض عليه أن يقبّله ولكنه مع ذلك يحاول أن يقبل الحجر ، وهو أدنى الأجناس ، لأن الله قد عظمه ، وهذا أول كسر لأنف غرور الإنسان ، وحتى لا يظن ظان أنها حجرية أو وثنية ، يأتى الأمر من الحق برجم حجر آخر .

إذن فالحجرية لا ملحظ لها هنا ، فنحن نجد حجرا يُقدس ، وحجرا آخر يُرجم . نجد حجرا يقبله الإنسان ويعظمه وحجرا آخر يزدريه ويحقره . وذلك يدل على رضوخنا لإرادة الآمر سبحانه وتعالى فقط ، فعندما يأمرنا بأن نعظم حجرا فالمؤمن يؤدى حق التعظيم بالسمع والطاعة ، وعندما يأمرنا سبحانه برجم حجر آخر ، فالمؤمن يرجم هذا الحجر بالسمع والطاعة لله أيضا ، فالذاتية الحجرية لا دخل لها على الإطلاق . وبعض من أصحاب الظن السيىء قالوا:إن الإسلام قد استبقى بعض الوثنية .

ولهؤلاء نقول : ولماذا تذكرون تعظيم الحجر الأسود ، ولم تذكروا رجم إبليس وهو ثلاثة أحجار ؟ لقد عظم المؤمن المؤدى للنسك حجرا واحدا ورجم ثلاثة أحجار ، إن المؤمن إنما يطيع أمر الله ، فليست للحجر أى ذاتية فى النسك أو العبادة . لقد رفعنا الحق من حضيض عبادة الأصنام التى هى عين الكفر ، لكنه قال لنا : « قبلوا الحجر الأسود » فقد قبلنا الحجر احتراما لأمر الآمر ، وذلك هو منتهى اليقين . لقد نقلنا الحق من مساو إلى مساو ، من عبادة الحجر إلى تعظيم وتقديس حجر مثله ، لكن الأصنام كانت منتهى الشرك ، وتقبيل الحجر الأسود منتهى اليقين . أليست هذه آيات بينات ؟

وزمزم التى توجد فى حضن الكعبة ، أليست آيات بينات ؟ إن « هاجر » تترك الكعبة وتروح إلى « الصفا » وتصعد إلى « المروة » بعد أن تضع « إسماعيل » بجانب الكعبة ، وتدور بحثا عن المياه . وسعت هاجر سبعة أشواط لعلها ترى طيرا أو تجد إنسانا يعرف طريق المياه لأن ابنها يحتاج إلى الشرب ، ولو أنها وجدت على الصفا أو المروة مياها فى أول سعيها أكانت تجد تصديقا لقولها لإبراهيم عندما جاء بها للإقامة فى هذا المكان « إن الله لا يضيعنا » إنها سعت .

وكأن الله يقول لها ولكل إنسان : عليك بالسعى ، ولكن لن أعطيك من السعى ، إنما أعطيك الماء من تحت رجل إسماعيل،إذن فصدقت فى قولها: لن يضيعنا الله ، لقد جعلها الحق سبحانه تسعى سبعة أشواط ، ولا يمكن لامرأة فى مثل عمرها أن تقدر على أكثر من ذلك ، وهذا يعلمنا أن الإنسان عليه أن يباشر الأسباب ، ولكن القلب عليه أن يتعلق بمسبب الأسباب ، وهو الله سبحانه،وفى هذا ما يعدل سلوك الناس جميعا . فساعة يرى الإنسان أن البئر مكان قدم إسماعيل وعلى البعد تكون الصفا والمروة ، وتسعى بينهما ، وبعد ذلك تجد زمزم مكان ضربة قدم إسماعيل ، أليس فى هذا آيات بينات تهدى الإنسان أن يباشر الأسباب ويأخذ بها ، ويتعلق القلب بمسبب الأسباب ؟

إن هذا يعطى المؤمن إيمانية التوكل ، وهى تختلف عن الكسل و« بلادة التواكل » فإيمانية التوكل هى أن الجوارح تعمل ، والقلوب تتوكل ، أما الكسل عن الأخذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل فهذه بلادة ، ومثل هذا الكسول المتواكل عندما يأتى الأكل أمامه يأكل بنهم وشره ، ولو كان صادقا لترك اللقمة تقفز إلى فمه ، ولماذا يمضغها إذن ؟ لماذا يختار التواكل والكسل ، وعدم العمل ، ثم يمد يده ليأكل ؟ إن هذه هى « صفات التواكل » .

إننا نأخذ من سعى « هاجر » وتفجر الماء عبرة ، هى الأخذ بأسباب الله ، وبعد ذلك فإننا نجد كل إنسان فى البيت الحرام مشغولا بنفسه مع ربه ، ومن فرط انشغاله يكون غافلا عمّن يكون معه ، ولو كان أحب إنسان له فإنه لا يدرى به . وساعة تدخل وتنظر إلى الكعبة ينفض من عقلك كل فكر فى أى شىء من الأشياء ، لا تذكر أولادك أو مالك ، لكنك بعد أن تفرغ من المناسك تعود للتفكير فى أولادك وعملك ، وإلا لو ظل حبك وشوقك وتعلقك ومواجيدك بهذه البقعة لضاق المكان

بالناس جميعا . بعد ذلك يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام : « ومن دخله كان آمنا » . وهنا يجب أن نفهم أن هناك فارقا بين أن يكون « الخبر » تاريخا للواقع ، وبين أن يكون « الخبر » خبرا تكليفيا فلو كان « وَمَنْ دخله كان آمنا » تاريخا للواقع لتم نقض ذلك بأشياء كثيرة ، فقد وجد فيه قوم ولم يأْمَنُوا .

ونحن نعرف حادث الاعتداء الأخير الذى حاوله جهيمان منذ سنوات قال الناس: إن جهيمان عندما اعتدى على الناس ، لم يستطع حجيج بيت الرحمن أن يكونوا آمنين فى البيت وتساءل بعضهم ، فكيف قال الحق : « ومن دخله كان آمنا » ؟ بل قال بعض أهل الانحراف : إذن مسألة دخول جهيمان إلى البيت الحرام تجعل « ومن دخله كان آمنا » ليست صادقة ! ولهؤلاء نقول :

إن هناك فرقا بين إخبار الحق بواقع قد حدث ، وبين إخبار بتكليف . إن الإخبار بالواقع كان معناه ألا يدخل أحد البيت الحرام ويهيجه أو يهاجمه أحد أبدا ، ولكن الإخبار التكليفى معناه : أن يخبر الله بخبر ويقصد به تكليف خلقه به ، والتكليف كما نعرف عرضة لأن يطاع ، وعرضة لأن يعصى ، فإذا قال الله سبحانه : « ومن دخله كان آمنا » فهذا معناه : يأيها المؤمنون ، من دخل البيت الحرام فأمنوه . ونضرب المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ تقول أنت لولدك: يا بنى هذا بيت يفتح للضيوف من دخله يكرم . أهذا يدل على إنجاز الإكرام لكل من دخل هذا البيت وحصوله له بالفعل وأن هذا لا يتخلف أبدًا أم أنك قلت الخبر وتريد لولدك أن ينفذه ؟

إن هذا خبر يحمل أمرا لابنك هو ضرورة إكرام من يدخل هذا البيت ، وتلك الوصية عرضة لتطاع وعرضة لأن تخالف ، لذلك فنحن نفهم من قول الحق : « ومن دخله كان آمنا » على أساس أنها أمر تكليفى ، عرضة للطاعة وللعصيان ، ومثال آخر على ذلك هو قول الله تعالى :

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة النور)

بعض الناس يقول : نجد واقع الحياة غير ذلك ، حيث نجد امرأة طيبة تقع فى

عصمة رجل غير طيب وتتزوجه . ونجد رجلا طيبا يقع مع امرأة غير طيبة ويتزوجها ، فكيف يقول الله ذلك ؟ ونحن نرد على أصحاب هذا القول : إن الله لم يقل ذلك تأريخا للواقع . ولكنه أمر تكليفى . أىْ افعلوا ذلك ، وحكمى وتكليفى أن يكون الطيبات للطيبين والطيبون يكونون للطيبات . فإذا امتثل الخلق أمر الحق فعليهم أن يفعلوا ذلك ، وإن لم يمتثل بعض الخلق لأمر الحق فإن الواقع ينبىء بحدوث وجود طيبين لغير طيبات أو العكس .

إذن فقول الحق : « ومن دخله كان آمنا » هو خبر يراد به أمر تكليفى ، فمن أراد أن يكون صادقا فيما كلفه الله به فليُؤَمن مَن دخل البيت الحرام . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وحين تسمع « لـ » و« على » ، فافهم أن الفائدة تقع على ما دخلت عليه « اللام » ، والتبعة تقع على ما دخلت عليه « على » . فحين نقول : « لفلان عَلَى فلان كذا » فالنفعية لِفلان الأول والتبعة على فلان الثانى . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « ولله على الناس حج البيت » . فعلى هذا فالنفعية هنا تكون لله ، والتبعة هنا تكون على الناس ، لكن لو فطنا إلى سر العبارة لوجدنا أن الله لا ينتفع بشىء من تكليفه لنا ، فالحج لله ، ولكنه يعود إليك ، فما لله عاد إليك ، وما عليك عاد لك .

وكل تكليف عليك فأثره لك ، فإياك أن تفهم من ذلك القول الكريم : « ولله على الناس حج البيت » أن اللام الأولى للنفعية ، وإياك أن تفهم أن « على » هى للتبعة ، نعم إن الحج لله ، ولكن الفائدة لا تعود إلا عليك ، وهو تكليف عليك ، وفائدته تعود عليك ، فالحق سبحانه وتعالى منزه عن أن يُفيد من حكم من أحكامه ، وهو سبحانه حين ينزل حكما تكليفيا فعلى العبد المؤمن أن يعرف أن فائدة الحكم عائدة عليه وعلى حياته ، ولله يكون القصد والحج ، لا لشىء سواه .

ولماذا يقول الحق : إن على العبد المؤمن أن يحج البيت الحرام ؟ لأنه الخالق وهو

خبير وعليم بأن التكليف شاق على النفس ، ولكن على المؤمن المكلف حين يجد تكليفا شاقا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم ، فإن نظر إلى الفائدة من الحكم وجد أنها تعود عليه ، ولذلك يسهل على العبد المؤمن أمر الطاعة . والذى لا يقبل على الطاعة ويهمل الجزاء عليها ويغفل عنه . تكون الطاعة شاقة عليه . والذى يقبل على المعصية ويهمل الجزاء عليها تكون المعصية هينة عليه . ولكن الطائع لو استحضر غاية الطاعة لعلم أنها له لا عليه .

ولو أن العاصى استحضر العذاب على المعصية لعلم أنها عليه لا له ؛ فالعاصى قد يحقق لنفسه شهوة ، لكنها شهوة عاجلة ، أمدها قصير ، ولو استحضر العاصى العقوبة على المعصية وقت عملها ما أقدم على معصيته أبدا . ولكن الذين يرتكبون المعصية ينظرون إلى الشهوة الطارئة ، ويعزلون جزاء المعصية عنها ، ولو أنصفوا أنفسهم ، لاستحضروا العقاب على المعصية فى وقت الرغبة فى ارتكابها . وحين يستحضرون جزاء المعصية مع المعصية فإن شهوة المعصية تنتهى منهم ، وأضرب هذا المثل دائما عن أعنف غرائز الإنسان وهى غريزة الجنس .

هب أن هناك واحدا رأى فتاة جميلة ثم أراد أن ينالها نقول لهذا المتشرد جنسيا : استحضر العذاب على هذا العمل ، وإن أخذت هذه الفتاة فتعال لنريك بعينيك ما أعده الله لك حين تتمتع بهذه الفتاة خارجا عن شرع الله ، وأوقد له فرنا مسجورًا ومحمياً ، وقُل له : فى مثل هذا ستدخل بل وأشد منه إن نلت من الفتاة .

أيقبل هذا المتشرد على ارتكاب تلك المعصية ؟ لا ؛ فشهوة المعصية تضيع عندما يَستحضر العذاب عليها . إن الحق سبحانه يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » والسبيل هو الطريق الموصل للغاية ، والطريق الموصل للغاية عادة ما يكون مطروقا ، وعندما يتجه الإنسان لأداء فريضة الحج فهو طارق للطريق ، أى سيسير عليه ، هكذا تعرف أن هناك ثلاثة أشياء :

طارق ، وهو من كتب الله عليه الحج وهو المكلف .
وسبيل مطروق .
وغاية ، وهى حج البيت .

ومادام الطارق سيسلك طريقا فلا بد أن يكون عنده قدرة على أن يسلك هذا الطريق فكيف تتأتى هذه القدرة ؟ إن أول شيء فى القدرة هو الزاد ، وثانى شيء فى القدرة هو المطية التى يركبها ، وهكذا نتبين أننا نحتاج إلى زاد وراحلة لطارق الحج . والسبيل الذى يطرقه ، أيكون محفوفا بالمخاطر ؟ لا ، بل يُفترض أن يكون السبيل آمنا . إذن فالاستطاعة تلزمها ثلاث حاجات ، هى : الزاد ، والراحلة ، وأمن الطريق . والزاد عادة يخص الإنسان نفسه ، ولكن ماذا يكون الحال إن كان الإنسان يعول أسرة وصغارا ؟

إذا كان الإنسان على هذا الحال فمن الاستطاعة أن يكون قد ترك زادا لمن يعولهم إلى أن يعود . وعلينا أن ننتبه إلى أن الله قال فى كل تكليف : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم » . ولكنه سبحانه جاء فى فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله على الناس وليس لمن أسلموا فقط ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل الكتاب الذين كانوا يتمحكون فى إبراهيم عليه السلام أن يحجوا البيت الحرام ، فامتنعوا عن الحج ، ولو كان الحج للمسلمين المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لما عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى أن يحجوا ليكون ذلك جمعًا لهم على أن يتجه الخلق جميعا إلى بيت الله ويعبدوا إلها واحدًا هو ربّ هذا البيت ، ولكنهم امتنعوا عن الحج . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيمن لم يحج بدون مرض حابس ، أو سلطان جائر ، أو فقر وعوز ، يقول فى الحديث الشريف :

عن على رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا ، وذلك أن الله تعالى يقول : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا »)[1] .

ولذلك نجد التكليف بالحج قد اتبع مباشرة بقول الحق : « ومن كفر » فهل يقع من لا يحج بدون مانع قاهر فى الكفر ؟ هنا يقف العلماء وقفة . العلماء يقولون : نعم إنه يدخل فى الكفر ، لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان كفر بالله ، أو كفر بنعمة

(١) رواه الترمذى ، والحديث وإن كان فى إسناده هلال بن عبدالله مجهول إلا أنه ورد فى طرق أخرى حسان وكلها تدل على أن مناط الوجوب فى توافر الزاد والراحلة .

الله ، ومثال ذلك قوله ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

أو هو الكفر ، كأن يموت الإنسان يهوديا أو نصرانيا ، وهنا نقول : انتبه ، لا تأخذ الحكم من زاوية وتترك الزاوية الأخرى . إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله : « ولله على الناس حج البيت » . فهل تعارضون فى هذا التكليف ؟ أو تؤمنون به ولكن لا تنفذونه ؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هى « ولله على الناس حج البيت » فهل أنت مؤمن بها أو لا ؟ سنجد الإجابة من كل المؤمنين بـ « نعم » . ولكن الموقف يختلف مِنْ مؤمن إلى آخر ؛ فنحن نجد مؤمنا يحرص على أداء الحكم من الله ، وهو الطائع ، ونجد مؤمنا آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصيا .

ونجد فى هذا الموقف أن الكفر نوعان ، هناك من يكفر بحكم الحج ، أى من كفر فى الاعتقاد بأن لله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقا ، لكنْ هناك نوع آخر وهو الذى يرتكب معصية الكفران بالنعمة ؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة من زاد ، ومن راحلة ، ومن أمن طريق ، ومن قدرة على زاد يكفى من يعولهم إلى أن يعود ، وهنا كان يجب على مثل هذا الإنسان أن يسعى إلى الحج . لذلك قال بعض العارفين لو أن أحدهم أُخْبِر بأن له ميراثا بمكة لذهب إليه حبوًا .

إذن فقوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت » هى قضية إيمانية ، فمن اعتقدها يبرأ من الكفر ، ومن خالفها وأنكرها فهو فى الكفر . ومن قام بالحج فهو طائع ، ومن لم يفعل وهو مؤمن بالحج فهو عاصٍ .

ولننظر إلى دقة الأداء القرآنى حين يقول الحق : ومن كفر فإن الله غنى عن

العالمين . قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غنى عنه ؟ وقال : « فإن الله غنى عن العالمين » ؟ ونقول : إنّ الله غنىٌّ عن كل مخلوقاته ، وإيّاك أن تفهم أن الذى لم يكفر وآمن ، وأدى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منفعة لله ؛ إن الله غنى عن الذى أدَّى وعن الذى لم يؤد ، إياك أن تظن أن من أدّى قد صنع لله معروفا ، أو قدم لله يدا ؛ « فإن الله غنى عن العالمين » عمن لا يفعل ، وعمن يفعل . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

وحين تسمع « قل » فهى أمر من الله لرسوله كما قلنا من قبل ؛ إنك إذا كلفت إنسانا أن يقول جملة لمن ترسله إليه فهل هذا الإنسان يأتى بالأمر « قل » أو يؤدى الجملة ؟ إنه يؤدى الجملة ، ومثال ذلك حين تقول لابنك مثلا:« قل لعمك : إن أبى سيأتيك غدا » فابنك يذهب إلى عمه قائلا : « أبى يأتيك غدا » .

وقد يقول قائل : ألم يكن يكفى أن يقول الله للرسول:« قل يا محمد » فيبلغنا رسول الله يا أهل الكتاب لم تكفرون ؟ كان ذلك يكفى ، ولكن الرسول مبلغ الأمر نفسه من الله ، فكأنه قال ما تلقاه من الله ، والذى تلقاه الرسول من الله هو : « قل يا أهل الكتاب » وهذا يدل على أن الرسول يبلغ حرفيا ما سمعه عن الله . وهناك آيات كثيرة فى القرآن تبدأ بقول الحق : « يا أهل الكتاب » ولا يأتى فيها قول الحق : « قل » . وهناك آيات تأتى مسبوقة بـ« قل » « ما الفرق بين الاثنين » ؟

نحن نجد أن الحق مرة يتلطف مع خلقه ، فيجعلهم أهلا لخطابه ، فيقول : « يا أهل الكتاب » إنه خطاب من الله لهم مباشرة . ومرة يقول لرسوله : قل لهم

يا محمد لأنهم لم يتساموا إلى مرتبة أن يُخاطبوا من الله مباشرة : فإذا ما وجدنا خطابا من الحق للخلق ، مرة مسبوقا بـ « قل » ومرة أخرى غير مسبوق فلْتعلم أن الحق سبحانه حين يخاطب خلقه الذين خلقهم يتلطف معهم مرة ، ويجعلهم أهلا لأن يخاطبهم ، ومرة حين يجد منهم اللجاج فإنه يبلغ رسوله صلى الله عليه وسلم : قل لهم .

والمثال على ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ فى حياتنا ، نجد الواحد منا يقول لمن بجانبه : قل لصاحب الصوت العالى أن يصمت . إن هذا القائل قد تَعَالَى عن أن يخاطب هذا الإنسان صاحب الصوت المرتفع فيطلب ممن يجلس بجانبه أن يأمر صاحب الصوت العالى بالسكوت . وحين يجىء الخطاب لأهل الكتاب فنحن نعرف أنهم اليهود أصحاب التوراة ، والنصارى أصحاب الإنجيل ، وهؤلاء هم من يقول عنهم الحق : « يا أهل الكتاب » .

ولم يقل أحد لنا :« يا أهل القرآن » لماذا ؟ لأن الحق حين يقول لهم:« يا أهل الكتاب » فنحن نعرف أن الكتاب يُطلق على كل مكتوب ، وكفرهم يعارض ما علم الله أنه موجود فى الكتاب الذى أنزل عليهم ؛ لأنه هو الذى أنزل الكتاب ، ويعلم أن ما فى الكتاب يدعو إلى الإيمان ، ولا يدعو إلى الكفر . ومادام هو الحق الذى نَزَّل الكتاب ، وهو الشاهد ، فيصبح من الحمق من أهل الكتاب أن يوقعوا أنفسهم فى فخ الكفر ؛ لأنهم بذلك يكذبون على الله : والله ـ سبحانه ـ يسجل عليهم أنهم خالفوا ما هو مكتوب ومنزل عليهم فى كتابهم . إنهم ـ أهل الكتاب ـ إن استطاعوا تعمية أهل الأرض فلن يستطيعوا ذلك بالنسبة لخالق الأرض والسماء .

والحق حين يقول : « لم تكفرون بآيات الله » فهل نفهم من ذلك أن كفرهم بآيات الله هو سترهم آيات الله سترا أوليا أو أنهم آمنوا بها ، ثم كفروا بها ؟ لنرى ماذا حدث منهم ، لقد كانت البشارات به صلى الله عليه وسلم مكتوبة فى التوراة، ومكتوبة فى الإنجيل وهم قد آمنوا بها قبل أن يجىء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا بها . وفى هذا جاء القول الحكيم :

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ

﴿ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لماذا كفروا به صلى الله عليه وسلم ؟ لأنه زحزح عنهم السلطة الزمنية ، فلم تعد لهم السلطة الزمنية التى كانوا يبيعون فيها الجنة ويبيعون فيها رضوان الله ويعملون ما يحقق لهم مصالحهم دون التفات لأحكام الله . وسبق أن قلت : إن قريشا قد امتنعت عن قول:« لا إله إلا الله » وهذا الامتناع دليل على أنها فهمت المراد من « لا إله إلا الله » ، فلو كانت مجرد كلمة تقال لقالوها ، لكنهم عرفوا وفهموا أنه لا معبود ولا مطاع ولا مشرع ، ولا مكلف إلا الله .

إن الحق يقول لأهل الكتاب :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

هب أنكم خبتم فى ذواتكم ، وحملتم وزر ضلالكم ؛ فلماذا تحملون وزر إضلالكم للناس ؟ . كان يكفى أن تحملوا وزر ضلالكم أنتم ، لا أن تحملوا أيضا وزر إضلالكم للناس ؟

إنّ الحق ـ سبحانه ـ قال :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة النحل)

إنه سبحانه قال ذلك مع أنه قد قال :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٨. سورة فاطر)

إن الذى لا يحمل وزرا مع وزره هو الضال الذى لم يُضِل غيره ، فهذا يتحمل إثمه فقط . أما الذى يحمل وزر نفسه ، ووزر غيره فهو الضال المضل لغيره ، وهنا يسألهم الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن » .

كأنه يقول لهم ماذا تريدون من الدين الذى يربط العبد بربه ؟ . إنكم لا تريدونه دينا قيما ، إنكم تريدونه دينا معوجا ، والمعوج عن الاستقامة إنما يكون معوجا لِغرض ؛ لأن المعوج يطيل المسافة . إنّ الذى يسير فى طريق مستقيم ما الذى يدعوه إلى أن ينحرف عن الطريق المستقيم ليطيل على نفسه السبيل ؟ . إن كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضل الطريق المستقيم . أما الذى ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يبغى الغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة ، وقد لا يصل إلى الغاية .

والحق يقول : « لم تصدون عن سبيل لله من آمن تبغونها عوجا » وساعة تسمع « عوجا » فإننا قد نسمعها مرة « عوج » بفتح العين . ومرة نسمعها « عوج » بكسر العين . حين نسمعها « عوج » بفتح العين ، فالعَوَج هو للشىء الذى له قيام ، كالحائط أو الرمح ، أما « العِوج » بكسر العين فهو فى المعانى والقيم ، لذلك يقول لهم الحق عن انحرافهم فى المعانى والقيم : « تبغونها عوجا وأنتم شهداء » .

إن الحق يبلغهم : أنتم تبغون الدين عوجا برغم أنكم شهداء على أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو الحق ، إنه جاء مبلغا بالصدق ، وكنتم تبشرون برسالة محمد ، وكنتم تستفتحون على الذين أشركوا من أهل مكة وتقولون : سيأتى نبى نتبعه ثم نقتلكم معه قتل عاد وإرم . أنتم ـ يا أهل الكتاب ـ شهود على صدق هذا الرسول .

لقد ارتكبوا سلسلة من المعاصى ؛ هم ضلوا وجهدوا أن يُضلوا غيرهم . ويا ليت

ذلك يتم عن جهل ، ولكنه أمر كان يتم بقصد وعن علم . وبلغت المسألة منهم مبلغ أنهم شهود على الحق . وبرغم ذلك أصروا على الضلال والإضلال . ومعنى « الشهود » ، أنهم عرفوا ما قالوا ورأوه رأى العين ، فالشهود هو رؤية لشىء تشهده ، وليس شيئا سمعته ، لذلك يذكرهم الحق سبحانه بقوله : « وما الله بغافل عما تعملون » .

إنَّ الرسالة التى جاء بها محمد مبلغا واضحة ، وهذا مذكور فى كتبكم السماوية . فما الذى يجعلكم ـ يا أهل الكتاب ـ لا تلتزمون طريق الحق وأنتم شهود ؟ لابد أنكم قد مستكم شبهة إن الله يغفل عن ذلك ، فقال لهم لا : « وما الله بغافل عما تعملون » .

وبعد ذلك يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

معنى ذلك أن الله نبّه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بالهم مادمتم أنتم ـ أيها المؤمنون ـ على الجادة ، ومادمتم مستقيمين ، ولن يهدأ للكافرين بآيات الله بال إلا أن يشككوا المؤمنين فى دينهم ، وأن يبغوها عوجا ، وأن يكفروهم من بعد إسلامهم .

وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الذين آمنوا ؛ لأن الذين يبغون الأمر عوجا قد ضلوا وأضلوا ، وهم يشهدون على هذا ، ويعلمون أنّ الله غير غافل عما يعملون ، فماذا يكون موقف الطائفة المؤمنة ؟ إن الحق سبحانه يوضحه بقوله : « يأيها الذين آمنوا » .

إن أهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن سبيل الله ، وليس المقصود بالصد ، أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان ، لا ، بل هى محاولة من أهل الكتاب لإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الإيمان الذى اعتنقوه ؛ فالمؤمنون هم الطائفة التى تلتزم بالتكليف من الله ، لذلك يحذرهم الحق سبحانه بقوله :

« إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب ، يردوكم بعد إيمانكم كافرين » الحق يحدد قسما من الذين أوتوا الكتاب ، وذلك تأريخ بنزاهة وصدق وحق ودون تحامل . كأن الحق سبحانه يبلغنا أن هناك فريقا من أهل الكتاب سيسلكون الطريق السوى ، ويجيئون إلى المسلمين أرسالا وجماعات وأفرادا مع الإسلام ؛ فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب . لذلك يقول الحق « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن الحق يؤرخ وهو يحمى الحقيقة ، ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

إنه استعظام وتعجيب من أن يأتى الكفر مرة أخرى من المؤمنين وهم فى نعيم المعرفة بالله ، فآيات الله تُتلى عليهم ، ورسول الله حق ومعهم وفيهم .

ويقول الحق سبحانه للمؤمنين : « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إنّ لذلك قصة ؛ فقد كان اليهود فى المدينة يملكون السلطة الاقتصادية ؛ لأنهم يجيدون التعامل فى المال ، وكل من يريد مالا يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا . وكان لليهود أيضا التفوق والتميز العلمى ؛ لأنهم يعلمون الكتاب ، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتابا سماويا . وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود

هو خبرتهم بالحرب ؛ فلهم قلاع وحصون . هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتميز :

المال يحقق الزعامة الاقتصادية ، والعلم . . بالكتاب وهو تفوق علمى ، ثم خبرتهم بفنون الحرب ، وكانوا فوق ذلك يحاولون إيجاد الخلاف بين الناس وتعميقه . مثل محاولتهم إثارة العداوات بين الأوس والخزرج . والمتاجرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة ، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التى يصنعونها ويمدون بها كل فريق من المتحاربين .

ولما جاء الاسلام وحّد الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادى . وجاء الاسلام بدين وكتاب مهيمن على الكتب ، فضاعت من اليهود المنزلة العلمية . وكذلك ضاعت من اليهود المنزلة الحربية ؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نكراء فى بدر ، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود فى المدينة ، لذلك أرادوا أن يعيدو الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يجىء الإسلام ، فقالوا فلنؤجج ونشعل ما بين الأوس والخزرج من العداوات ونهيجها ، وقال شخص اسمه « شأس بن قيس » وقد رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويشملهم الانسجام الإيمانى . وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء ، هيَّج ذلك شأس بن قيس وقال : « والله لابد أن نعيدها جذعة ونرجعهم إلى ما كانوا عليه من أحقاد وعداوات ، فلا استقرار لنا ماداموا قد اجتمعوا » .

فأرسل فتى من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم يسمى يوم « بعاث » ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وجلس الفتى اليهودى يذكر ويأتى بالشعر الذى قيل فى هذا اليوم فهيّج حمية الأوس والخزرج وحدث النزاع ، وحصل التفاخر واستيقظ التباغض ، وقالوا : « السلاح . . السلاح » وهكذا نجحت المكيدة ، ونمى الخبر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام صلى الله عليه وسلم ومعه صحابته ، حتى انتهَوْا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال على أشد درجات الهياج ، نزاع ، وتباغض ، وسلاح محمول ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أبِدَعْوَى الجاهلية وأنا بين أظهركم !!

أى كان من الواجب أن تخجلوا من أنفسكم ؛ لأن رسول الله بينكم ، وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، فماذا كانت مواقع كلمات الرسول فى نفوس القوم ؟ لقد دفعتهم كلماته صلى الله عليه وسلم إلى إلقاء السلاح ، وبكوا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم .

وعندما نتأمل ما فعله هؤلاء القوم من اليهود لإشعال الفتنة بين الأوس والخزرج نجد أنهم قد أدركوا طبيعة النزاع القديم بين الأوس والخزرج فأرادوا أن يهيجوا تلك العداوات والأحقاد القديمة ، وكذلك نجد أن تهييج المشاعر بين الأوس والخزرج جعل للانفلات بابا فكاد القتال يشتعل ، وعندما تكلم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هدأت المواجيد ، وألقوا السلاح ، وندموا على ما فعلوا .

وإذا أردنا أن نرى الأمر بعمق التصور لِمَا حدث فإننا نجد أن إدراك العداوة بين الأوس والخزرج من اليهود هو الذى دفع اليهود لتحريك هذا الإدراك الخاطىء وإحياء الثارات القديمة ، ثم كان انفعال الأوس والخزرج بتلك الثارات القديمة قد فتح الباب لحمل السلاح للاقتتال .

وهكذا نجد أن الإدراك للشىء ، يمر بثلاث مراتب : أولا : الإحساس بالشىء ، ثانيا : انفعال النفس له ، ثالثا ؛ النزوع السلوكى ، وعندما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أدرك الأوس والخزرج الأمر بطريقة عكسية فألقوا السلاح ، وهدأت مواجيد البغضاء ، وتركوا الإدراكات الخاطئة .

لقد ذكرهم النبى صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشياء هى : « أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية . وألف بين قلوبكم » . وقد استقبلوا ذلك بإلقاء السلاح أولا ، ثم البكاء ثانيا ، وهو أمر حركته المواجيد فيهم ثم تعانقوا أى صححوا الإدراكات ثالثا ، وهكذا حدث النزوع بالعكس . ولما حدث ذلك أصاب اليهود الغيظ والخيبة والنكد . وقال المؤرخ لهذه القصة : فما كان يوم فى الإسلام أسوأ أولا وأحسن آخراً إلّا ذلك اليوم .

لقد بدأ اليوم بعبوس ، وانتهى بإشراق الطمأنينة ، وبعد ذلك وُجدت الخلية التى تكوّن المناعة فى نفوس المؤمنين ، بعد أن قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك القول : « أبِدَعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم » .

لقد صار هذا القول الكريم مستحضرا عند كل نزع لشيطان ، أو كيد لعدو . لقد جعل الحق المناعة ضد فعل الكيد ، ونزغ الشيطان عند المؤمنين من الأوس والخزرج ، وهكذا نرى أن الله يسخر الكافر حتى فى رفعة شأن الإيمان ، فلو لم تحدث هذه المسألة ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بمنطقه المؤثر وهو بين القوم ليقول ذلك القول لما أصبح لدى المسلمين هذه المناعة من الارتفاع عن البغضاء فيما بينهم ، ولو كان أحد من أتباع الرسول قد قال مثل هذه الكلمة فقد كان من المحتمل أن يحدث هذا الأثر ، لكن عندما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أوجدت المناعة لغيرها من الأحداث التى تأتى وقد لا يكون الرسول موجودا .

ولذلك فأنت أيها المؤمن إن نظرت إلى الكافرين . فإنك تجد عقولهم خائبة . لقد نشروا الإسلام ـ دون إرادتهم ـ بمواقفهم الحمقاء ، فمثلا حين قالوا : سيأتى نبى نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فما الذى حدث ؟

إن الأنصار ساعة أن سمعوا بالدين الجديد قال بعضهم لبعض : اسمعوا يا قوم ، إنه الدين الذى بشرتكم به يهود ، فقبل أن يسبقونا إليه هيا بنا نسبق نحن اليهود إليه .

لقد كان استعلاء اليهود وتفاخرهم على الأوس والخزرج دافعا للأوس والخزرج على الدخول فى الإسلام ، وهكذا يجعل الحق سبحانه وتعالى كفر الكافر مؤثرا فى تثبيت إيمان المؤمن .

وحين يقول الحق سبحانه : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم » نفهم أنه استعظام وتعجيب يأتى من الحق . فساعة تسمع : « كيف تكفرون » فذلك أمر عجيب ، لأنه من

المستبعد أن يكفر المؤمنون وكتاب الله يتلى عليهم ، ورسول الله فيهم .

ويجىء من بعد ذلك الدعوة إلى الاعتصام بالله ، ومعنى الاعتصام : التمسك ، ولا يتأتى إلا فى علو ، فيقال : « اعتصمت بحبل الإيمان » لأن للإنسان ثقلا ذاتيا ، هذا الثقل الذاتى إن لم يرفعه سواه ، فإنه يقع بالإنسان . وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقا فى الجو ويمسك بحبل ولا يوجد من يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان بثقله الخاص يهبط إلى الأرض . فمن يعتصم بالله ويمسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهُوِىِّ والسقوط .

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما تُلِىَ علينا من الآيات ، وما سنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فباب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضرورى ، لأنهم كانوا منغمسين فى حمأة الجاهلية ، فلابد أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تضىء لهم ، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور . ولم يقبض الحق رسوله إلا بعد أن أكمل لنا الدين ، وأتم علينا النعمة ورضى لنا الإسلام دينا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتى »[1] .

هكذا نرى أن وجود آيات الله ، وسنة رسول الله هى العاصم الذى يهدى إلى صراط مستقيم . والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى الغاية المرجوة ، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين فالذى يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى ، وكل ما يدل إنسانا على الموصل للغاية اسمه هدى . والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعا ، وجعل بعض الخلق مقهورا ، وبعض الخلق مخيرا .

والمقهور من خلق الله هو كافة المخلوقات فى الكون ما عدا الإنسان . إلا فى بعض أموره فإنه مقهور فيها أيضا ولذلك قلنا : إن كل ما عدا الإنسان من خلق الله يؤدى مهمته كما طُلبت منه ، فما امتنعت الشمس أن تشرق على الناس يوما ، ولا امتنعت الريح أن تهب ، ولا امتنعت السماء عن أن تمطر ، ولم تقل الأرض للإنسان إنك

---

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .

تعصى الله فلا أنبت لك ، ولا جاء إنسان ليركب الدابة المسخرة فقالت : لا ؛ إنك عاصٍ ، ولذلك سأحرن فلا أمكنك من ركوب ظهرى .

هكذا نرى أن كل شيء ماعدا الإنسان مسخر مقهور للغاية المرجوة منه ، وهو خدمة ذلك الإنسان . والإنسان وحده هو الذى له اختيار . . ولذلك يجب أن نتنبه دائما إلى أن الله قد جعل للخلق تسخيرا وتسييرا ، وجعل الإجماع فى كل الأجناس ، ولكن الانقسام جاء عند الإنسان فقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

إن الجمادات الساجدة المسخرة هى : « الشمس والقمر والنجوم » ، والنبات الساجد المسخر هو « الشجر » ، وكذلك « الدواب » فهى ضمن الكائنات التى عليها حكم الحق بالإجماع ، بأنها كلها تسجد خاضعة مسخرة . أما الإنسان فقد قال الحق عنه : « وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب » .

إذن فالانقسام جاء عند من ؟ لقد جاء الانقسام عند الإنسان . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان مختارا . ألم يكن من الممكن أن يخلق الله الإنسان مسخرا كبقية الكائنات ؟ أليس التسخير دليلاً على قدرة المسخر ، وأن شيئا من خلقه لن يخرج من قدرته ، هذا صحيح ، لكن الحق سبحانه كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبية بالاختيار . فمن كان مختارا أن يؤمن أو يعصى ، ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان المحبوبية لله .

هكذا صنف الله الخلق بين قسم قهرى يثبت القدرة ، وقسم اختيارى يثبت المحبوبية ، ولهذا أراد الله للإنسان أن يكون مختارا أن يفعل أو لا يفعل . فلماذا - إذن - لا يفعل الإنسان كل أفعاله وهى منسجمة مع الإيمان ؟ لأن للشهوة بريقا سطحيا ، وهذا البريق السطحى يجذب الإنسان كما تجذب النارُ الفَرَاش .

عندما يوقد الإنسان نارًا ما فى الخلاء فضوؤها يجذب الفَرَاش ، ويحترق الفَراش بنيران الضوء ؛ فقد جذبه النور وأغراه ، ولكنه لم يعرف أن مصرعه فى تلك النار . والحكمة العربية تقول : « رب نفس عشقت مصرعها » كذلك فى الشهوات ، تتزين الشهوة للإنسان ، فتجذبه إليها فيكون فيها مصرع الإنسان .

لكن ما الحماية للإنسان من ذلك ؟

إن الحماية هى فى منهج الله « افعل » . و« لا تفعل » فمن يرد أن ينقذ نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس فعليه أن يخضع لمنهج الله فى « افعل » و« لا تفعل » . وقد قلت قديما : إنه من الحمق أن يصنع صانع صنعةً ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة . والإنسان فى حدود صناعته لا ينسى ذلك ، فما بالنا بالحق سبحانه بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق سبحانه وتعالى قد صنع الإنسان ، ووضع الحق سبحانه وتعالى قانون صيانة صنعته فى الإنسان فقال جل وعلا : افعل كذا ولا تفعل كذا ، فمن أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتى له نزغ شيطان أو كيد عدو ولا هوى نفس . فليعتصم بمنهج الله ؛ لأن الله هو الذى خلقه وهو الذى وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته ، وهو القانون الموجز فى « افعل ولا تفعل » .

ويقول الحق : « ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم » وكلمة الاعتصام أروع ما تكون عندما يكون الإنسان فى الهواء معلقا فى الفراغ ، وهو فى أثناء وجوده فى الفراغ فإن ثقله الذاتى هو الذى يوقعه ويسقطه ، لكن عندما يتمسك الإنسان بمنهج الله فإنه ينقذ نفسه من السقوط والهوى (بضم الهاء وكسر الواو) ومهمة الشيطان أن يزيّن المعصية بالبريق ، فتندفع شهوات النفس هائجة إلى المعصية ، ولذلك يأتى الشيطان يوم القيامة ويأخذ الحجة علينا . يقول الحق :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟

﴿أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢٢﴾

(سورة إبراهيم)

والسلطان كما نعرف نوعان : النوع الأول هو أن يقهر الشيطانُ الإنسانَ ، والشيطان لا قدرة له على ذلك . والنوع الثانى هو أن يقنع الشيطان الإنسان بأن يفعل ذلك الخطأ .

ما الفرق بين الإقناع والقهر فى هذا المجال ؟

إن القهر هو أن يجبر الشيطان الإنسان على أن يفعل شيئا لا يريده الإنسان . أما الإقناع فهو أن يزين الشيطان الأمر للإنسان فيفعله الإنسان بالاختيار ويعلن الشيطان يوم القيامة : لم يكن لى سلطان أقهرك به أيها الإنسان حتى تعصى الله ، لقد زينت لك المعصية أيها الإنسان فاستجبت لى .

إن الشيطان يوم القيامة يقول : « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى » ما معنى « مصرخكم » ؟ إنها مشتقة من « أصرخ » ، أى سمع صراخك فأغاثك وأنجدك ، فمصرخ : مغيث ومنجد ، والشيطان يعلن أنه لن يستطيع نجدة الإنسان ، ولا الإنسان بمستطيع أن ينجد الشيطان .

إذن ، فثقل النفس البشرية هو ما يوقع الإنسان فى الهاوية دون أن يلقيه أحد فيها ، ولا إنقاذ للإنسان من الهاوية إلا بالاعتصام بحبل الله . كأن منهج الله هو الحبل الممدود إلينا ، فمن يعتصم به ينجو من الهاوية .

ومادمنا نعتصم بحبل الله وهو القرآن المنزل من خالقنا والسنة النبوية المطهرة ، وسبحانه يعلم كيد النفس لصاحبها ـ فلابد أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

إن الله قد أعطى المؤمنين المناعة أولا بألا يسمعوا كلام أعداء الدين . وحين نسمع كلمة « اتقوا » فلنفهم أن هناك أشياء تسبب لك التعب والأذى ، فعليك أن تجعل بينك وبينها وقاية ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنه الحق يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية وحجابا يقيه منها . والحق سبحانه وتعالى حين يقول على سبيل المثال :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴾

(من الآية ٤ سورة المائدة)

أى اجعل بينك وبين الله حجابا يقيك من غضبه . وقد يقول قائل : كيف يكون ذلك وأنا كمؤمن أريد أن أعيش فى معية الله ؟

نقول : إنك تجعل الوقاية لنفسك من صفات جلال الله ، وأنت تستظل بصفات الجمال ، فالمؤمن الحق هو من يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال ، وهى القهر والجبروت وغيرها ، وكذلك النار إنّها من جنود صفات جلال الله . فحين يقول الحق : « اتقوا النار » أو « اتقوا الله » فالمعنى واحد . وعندما يسمع إنسان قول الحق سبحانه : « اتقوا الله حق تقاته » ماذا تعنى (حق تقاته) ؟ إن كلمة « حق » ـ كما نعرف ـ تعنى الشيء الثابت الذى لا يزول ولا يتزحزح ، أى لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

إذن ما حق التقى ؟ هو أن يكون إيمانك أيها المؤمن إيمانا راسخا لا يغادرك ولا تتذبذب معه ، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج

فلا يعصى ، ويُذكر فلا ينسى ، ويُشكر ولا يُكفر . وطريق الطاعة يوجد فى اتباع المنهج بـ « افعل » و« لا تفعل » ويذكر ولا ينسى ؛ لأن العبد قد يطيع الله ، وينفذ منهج الله ، ولكن النعم التى خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر فى كل نعمة من أنعم بها ، وإياك أن تنسيك النعمة المنعم .

ويشكر العبد الله ولا يكفر بالنعم التى وهبها له الله . ومادمت أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » ولا تكفر بالنعم أى أنك تؤدى حق النعمة ، وكل نعمة يؤدى العبد حقها تعنى أنها نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها .

و قيل فى معنى : « حق تقاته » أى أنه لا تأخذك فى الله لومة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يقال عنه « حق التقى » ، أى التقى الحق الذى يعتبر تقى بحق وصدق . وقال العلماء : إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة ، استضعف الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم : من يقدر على حق التقى ؟ ويقال : إن الله أنزل بعد ذلك :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

(من الآية ١٦ سورة التغابن)

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولا ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك : « فاتقوا الله ما استطعتم » ؟ لا ، إنه الحق سبحانه لا يكلف إلا بما فى الوسع ، والناس قد تخطىء الفهم لقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه . لا ، إن هذا فهم خاطىء ؛ إن قوله الحق : « فاتقوا الله ما استطعتم » أى إنك تتقى الله بما كان فى استطاعتك من الوسع ، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به . فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع ؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك .

وساعة تكون غير مستطيع فهو ـ سبحانه ـ الذى يخفف . . إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذى يعلم إذا كان الأمر خارجا عن

استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجًا عن استطاعتك فالله هو الذى يخفف عنك . ولذلك فعلى الإنسان ألا يستخدم القول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

(من الآية ٢٨٦ سورة البقرة)

فى غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوسع ، ثم يبنى التكليف على الوسع . بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق النفس ، وهو الذى أنزل التكليف لوسع النفس ، ومادام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج . إنه سبحانه الذى كلف ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت ، ولذلك فهو لا يكلف نفسا إلا وسعها . فإن كان سبحانه قد كلف فأعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما فى وسعك ، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كلف به تامًّا فهو ـ سبحانه ـ يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص . مثال ذلك : المريض أو الذى على سفر ، له رخصة الإفطار فى رمضان ، والمسافر له أن يقصر الصلاة .

إذن فالله سبحانه هو الذى علم حدود وسع النفس التى خلقها ، ولذلك لا تقدر وسعك أولا ثم تقدر التكليف عليه ، ولكن قَدّر التكليف أولا ، وقل : مادام الحق قد كلف فذلك فى الوسع . وفى تذييل الآية الكريمة بقوله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » نجد أنفسنا أمام نهى عن فعل وهو : عدم الموت إلا والإنسان مسلم .

كيف ذلك ؟ أيقول لك أحد : لا تمت ؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار ؛ لأنه أمر نازل عليك . فإذا قيل لك : لا تمت ، فإنك تتعجب ؛ لأن أحدا لا يملك ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهى عنه : لا تمت ليس فى قدرة الإنسان ، ولكن الحال الذى يقع عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، فى قدرة الإنسان ؛ لذلك تقول لنفسك : إن الموت يأتى بغير عمل منى ، ولكن كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهى باستطاعتى ، لأن الإسلام يكون باختيارى . صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك تحتاط والاحتياط يكون بأن تظل مسلما حتى يصادفك الموت فى أى لحظة وأنت مسلم .

إذن . . فقول الله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » هو نهى عن الفعل الأول وهو ليس باختيارنا . والحال الذى لنا فيه اختيار هو « وأنتم مسلمون » فكيف نوفق بين الأمرين ؟ إن الموت لا اختيار لأحد فيه ، ولا يعلم أحد منا متى يقع عليه ، ولذلك نأتى إلى الأمر الذى لنا فيه اختيار ، وهو أن نحرص على أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكا بأهداب الإسلام ، فإن صادف الموت فى أى لحظة يكون مسلما وكأن الحق سبحانه يقول لنا : تمسكوا بإسلامكم ؛ لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت .

وإخفاء الموت عن الإنسان ليس إبهاما كما يظن البعض ، لا ؛ إنه منتهى البيان الواسع ؛ لأن إخفاء الموت ، وميعاده عن الإنسان زمنا وحالا ، وسنا وسببا ، كل ذلك يوضح الموت أوضح بيان . لماذا ؟ لأن الله حين استأثر بعلم الموت فالإنسان منا يترقب الموت فى أى لحظة ومادام الإنسان مترقبا للموت فى أى لحظة فهذا بيان واسع بل هو أوسع بيان . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

جاء هذا القول الكريم لينبه كل المؤمنين ، من خلال التنبيه للأوس والخزرج ، وكأنه يقول : اعلموا أن التفاخر قبل الإسلام كان لأشياء وبأشياء ليست من الإسلام

فى شيء . لكن حين يجيء الإسلام فالتفاخر يكون بالإسلام وحده فإذا ما تغاضى إنسان بما قبل الإسلام بقوله : منا كذا . . ومنا كذا . فهنا يأتى الردّ : لا ؛ إن ذلك قبل الإسلام .

وقد حدث أن قال الأوس من بعد الإسلام : « منا خزيمة » فقال واحد من الخزرج : ومنا أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت فقال واحد من الأوس : منا حنظلة ابن الراهب وحنظلة هذا هو غسيل الملائكة ، وخزيمة بن ثابت صحابى جليل جعل الرسول صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين ؛ لأن خزيمة صاحب إيمان نورانى . ونورانية اليقين هدته إلى الحكم الصواب ؛ فقد اشترى النبى صلى الله عليه وسلم فرسا من أعرابى وذهب ليحضر له الثمن ، ولكن الأعرابى أنكر البيع لأن بعض الناس زاده فى ثمن الفرس دون علم أن الرسول قد اشتراه فنادى الأعرابى الرسول وقال له إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته .

فقال النبى للرجل : « ألست قد ابتعته منك » . فقال الرجل هات شاهدا يشهد بذلك . لقد انتهز الرجل فرصة أن النبى ابتاع منه دون وجود أحد فى هذا الوقت ، وكان سيدنا خزيمة جالسا لحظة مطالبته للنبى بشاهد . فقال سيدنا خزيمة : أنا أشهد يا رسول الله أنك قد بايعته .

ولأن الرجل كاذب ، قال لنفسه : لعل خزيمة رآنا وأنا أبيع الفرس للنّبى فسكت الرجل وانصرف ، وبعد أن انصرف الرجل نادى الرسول خزيمة . وقال له : « يا خزيمة بم تشهد ولم تكن معنا ؟» فقال : أنا أصدقك فى خبر السماء ولا أصدقك بما تقول ؟ أعلم أنك لا تقول إلا حقاً قد آمناك على أفضل من ذلك ، على ديننا . فعلم الرسول أن لخزيمة نورانية التصديق وحسن الاستنباط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من شهد له خزيمة فحسبه »[1] .

فالأمر الذى يحتاج شاهدين تكفى فيه شهادة خزيمة ، وبذلك أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم الوسام لخزيمة وجعل شهادته شهادة رجلين ، ولنر كيف جمع الله بين الأوس والخزرج فى جمع القرآن ، قال زيد بن ثابت :

---

(١) رواه أبو داود من طريق الزهرى عن عُمارة بن خزيمة بن ثابت .

فآليت على نفسى ألاّ أكتب آية إلاّ إذا وجدتها مكتوبة وشهد عليها اثنان ، إلاّ آخر التوبة فوجدتها مكتوبة ولم يشهد عليها إلاّ خزيمة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال فى خزيمة : « من شهد له خزيمة فحسبه » ولنا أن نعرف أن زيد بن ثابت من الخزرج وأن خزيمة من الأوس . لقد جمعهما الله فى جمع القرآن ، فنفع الأوسى الخزرجى ، وذلك ليدلنا الحق سبحانه دلالة جديدة ، وهى أن التفاخر قبل الإسلام كان بغير الإسلام ، لكن ساعة يجىء الإسلام فأى واحد من أى جنس مادام قد أحسن الإسلام ، فله أن يفخر به ، فإياك يا أوسىّ أن تقول : « منا خزيمة » ؛ فالخزرجى له الفخر بخزيمة أيضا ، وليس للخزرجى أن يقول : « منا زيد بن ثابت » فللأوسى أيضا أن يفخر به ، لأن كُلاّ منهما قد جمعه الله بالآخر فى القرآن ، والإسلام ، وهكذا يكون الاعتصام بحبل الله .

يقول الحق سبحانه وتعالى : « واعتصموا بحبلِ الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » إنّ الحرب ظلت مستعرة بين الأوس والخزرج مائة وعشرين عاما مع أن أصل القبيلتين واحد ، هما أخوان لأب وأم وعندما جاء الإسلام ألف الله بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا .

وهذا يدلنا على أن كل نزغةِ جارحةٍ من الجوارح لابد أن يكون وراءها هبة قلب وثورته وهياجه ، فاليد لا تصفع أحدا من فراغ ، ولكن الصفعة توجد فى القلب أولا « فألف بين قلوبكم » ، إن الحق سبحانه يقول : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » والشفا هى الحافة.ومرة يقال : « شفا » ، ومرة يقال:« شفة » . لقد كانوا على حافة النار ، ومن كان على الحافة فهو يوشك أن يقع ، فكأن الله يقول : لقد تداركتم بالإسلام ، ولولا الإسلام لهويتم فى النار .

ويقول سبحانه : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » وهكذا نرى نعمة الإسلام فى الدنيا ، فقدرة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى انتظار بل يستطيع المؤمن أن يراها فى الدنيا . ولقد كان العرب قبل الإسلام مؤرقين بالاختلافات ، وموزعين بالعصبية ، وكل يوم فى شقاق . ولما جاء الإسلام صاروا إخوانا ، وهذه نعمة عاجلة فى الدنيا ، والدنيا كما نعرف ليست دار جزاء ، فما بالك بما يكون فى الآخرة وهى دار الجزاء والبقاء .

وقوله الحق : « لعلكم تهتدون » المقصود به أن تظلوا على هدايتكم . لقد خاطبهم الحق : « إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » وساعة يطلب التشريع منك ما أنت عليه ، فاعلم أن التشريع يريد منك استدامته ، فعندما يقول الحق (يا أيها الذين آمنوا) أى مع الإيمان الذى معكم قبل كلامى ، جددوا إيمانا بعد كلامى ليستمر لكم الإيمان دائما . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾

وكلمة « أمة » تطلق مرة ، ويراد بها الجماعة التى تنتسب إلى جنس ، كأمة العرب ، أو أمة الفرس ، أو أمة الروم ، ومرة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الملة أى الدين ، ومرة ثالثة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الفترة الزمنية كقول الحق :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة يوسف)

إن الرجل الذى فسر له سيدنا يوسف الرؤيا تذكر سيدنا يوسف بعد أمة أى بعد فترة من الزمن ، ومرة تطلق كلمة « أمة » على الرجل الجامع لصفات الخير :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

لأن خصال الخير ليس من الضرورى أن تجتمع فى واحد ، ولكنها قد تجتمع فى عدد من الأفراد فيكون هناك فلان المتميز بالصفة الطيبة ، وغيره متصف بصفة أخرى طيبة ، وثالث فيه صفة طيبة ثالثة ، ومن مجموع الأمة تظهر صورة الكمال ، لكن إبراهيم عليه السلام اجتمعت فيه كل خصال الخير المكتمل .

وساعة أن تأتى لإنسان ونَقول له : ليكن منك شجاع فما معنى ذلك ؟ إن معناه ، أن يجرد الإنسان من نفسه ويخرج منها شخصا شجاعا ، وذلك بتدريبها وتعويدها على ذلك حتى يكون الإنسان شجاعا ، أو تقول لآخر : ليكن منك كريم ، أى أخرج من نفسك رجلا كريما .

وقوله الحق سبحانه : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » .

هذا القول يعنى أن يكون منكم أيها المخاطبون أمة تدعو إلى الخير ، ومعناه أيضا أن تكونوا جميعا أمة تدعو إلى الخير ، وبعض العلماء يرى أن هذا القول يعنى : أن تكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكنّ هناك فهما أعمق من هذا ، وهو أن هذه الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، أى أن هذه الآية تطالب كُلَّ أمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بل الواجب أن تكون أمة المسلمين كلها آمرة بالمعروف ، وناهية عن المنكر ، فمن يعرف حكما من الأحكام عليه أن يأمر به .

وهناك من العلماء من قال : إن الذى يأتى المنكر له حكم آخر أيضا وهو أن ينهى غيره عن المنكر ، أى أن الإنسان المؤمن مطالب بأمرين : الأول : ألاّ يصنع المنكر ، والثانى : أن ينهى عن المنكر . ولذلك إن جاء نصح من إنسان ينهاك عن المنكر ، وهو قد فعله ، فلا تقل له : أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولا ، لا تقل له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاعر :

خــذ بعلمى ولا تــركن إلى عمــلى
واجن الثــمار وخــل العــود للنــار

لكن الأجدر بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون أول العاملين بقوله حتى لا يدخل فى زمرة من قال الله فيهم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾

(سورة الصف)

إذن فقوله الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير » أى جردوا من أنفسكم أمة مجتمعة على أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، واستمعوا إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة العصر)

إن السورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها وهو الإيمان والعمل الصالح . وبعد ذلك قال الحق : « وتواصوا » ولم يقل « ووصوا » ما معنى « تواصوا » ؟ أى أن يعرف كل مؤمن أنه من الأغيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أحَدهما أمام معصية فيصنعها ، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية ، لذلك يكون على غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضا ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره . فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية ، بل كلنا موص ـ بكسر الصاد ـ حينما نجد مَنْ من يضعف أما معصية . وكلنا موصًى ، ـ بفتح الصاد ـ حين يكون ضعيفا أمام المعصية ؛ فالتواصى يقتضى التفاعل بين جانبين . . فمرة تكون موصيا ، ومرة تكون موصًى ، وكذلك التواصي بالصبر .

فساعة تحدث كارثة لواحد من المسلمين يأتى أخوه ليصبره ، وكذلك إن حدثت كارثة للأخ المسلم يصبره أخوه المسلم ، فعندما يحتاج مسلم فى وقت ما إلى أن يُصَبَّر ، يجد من إخوته من يصبره ، فالأمة كلها مطالبة : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

هكذا نفهم معنى قول الحق :« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . والدعوة إلى الخير يفسرها الحق بأن يأمر الإنسان بالمعروف ، وأن ينهى عن النكر .

ويقول الحق : « وأولئك هم المفلحون » أن كلمة « المفلحون » هى كلمة معها دليلها ، فالمفلح هو الذى أخذ الصفقة الرابحة . والكلمة مأخوذة ، من فلح الأرض . فالذى يفلح الأرض ويحرثها ثم يزرعها يجد الثمرة تجيئه فى النهاية ، وقد جاء الحق بالمسألة المعنوية من أمر محس . وبعد ذلك يريد الحق أن يعطينا شيئا آخر

فيقول : إياك أن تظن أن المشقة التى تصيبك حين تفعل خيرا لا تعود عليك بالراحة ، أو أن النقص الذى تفعل به الخير لا يعود عليك بالكمال ، فمثلا الإنسان الذى فلح الأرض وأخرج « كيلة » من القمح وبذرها فيها . هذا الإنسان قد تكون له زوجة حمقاء تقول له : إننا لا نملك إلا أربع « كيلات » من القمح فكيف تأخذ « كيلة » لترميها فى الأرض ، إن هذه المرأة لا تعرف أن « الكيلة » التى أخذها الزوج هى التى ستأتى بعدد من الأرادب من القمح . فإياك أن تفهم أن الإسلام يأخذ منك شيئا إلا وهو يريد أن يعطيك أشياء .

إن الفلاح الذى يشقى بالحرث وبالرى ، وتراه وقد علا جبهته العرق وتراب الأرض وتغوص أقدامه فى الطين والمياه ، إنك تراه يوم الحصاد وهو فرح مسرور بغلته . أما غيره الذى لم يشْقَ بالحرث ولم تعل جبهته حبات العرق ، فيأتى فى هذا اليوم وهو حزين ونادم.فإياك أن تنظر إلى تكاليف الدين على أنها أمور تحرمك النفع ، إنها أمور تربّب لك النفع أى تكثر لك النفع . وإياك أن تظن أن حكما من أحكام الله قد جاء ليجور على حريتك بل جاء ليمنع عنك اعتداء الآخرين .

وقلنا من قبل : إن الشرع حين كلف كل إنسان ألا يسرق مال أحد ، فهو تقييد من أجل حفظ أموال الملايين ، وهو أمر ضمنى لكل الناس ألاّ يسرقوا شيئا من هذا الإنسان ، وهنا نجد الأمان ينتشر بالإيمان بين الجميع .

ولو نظرت إلى ما منع الدين الناس أن يمارسوه معك لعرفت قيمة التكاليف الإيمانية . إن التكليف حين يأمر ألا يمد أحد عيونه إلى محارم جاره ، هذا التكليف صادر للناس جميعا حتى يحمى الله لك محارمك من عيون الناس ، لقد قيَّد التكليف حرية الآخرين من أجلك وهم كثيرون ، وقيد حريتك من أجل الآخرين وأنت واحد . .

إذن فيجب أن نذكر أن كل تكليف يعطى صلاحا وفلاحا ، فالأرض تأخذ الحبة ، وتعطيك سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ،فلا تنظر إلى ما أخذه التكليف من حريتك ، لأنه أخذ لك من حريات الآخرين أيضا . ولا تقل : إن التكليف قد نقص حركتى لنفسى ، لأنه سيعطيك ثمرات أكثر مما أفقدك .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وهذا القول الحكيم ينهى عن اتباع الهوى الذى يؤدى إلى الفرقة . برغم وضوح آيات الحق سبحانه لهم ، لأن لهؤلاء الذين يتبعون الهوى من بعد وضوح قضية الحق سيصليهم الله النار ، ولهم عظيم العذاب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات فى الدنيا ، فالشخص الأسود يزيد الله فى تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب البيئة ، لأن المادة الملونة للبشرة فى جسده موجودة بقوة ، لتعطيه اللون المناسب لمعايشة ظروف البيئة ، أما أبيض البشرة فلا يملك جسده القدر الكافى من المادة الملونة ، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة .

إذن فالسواد فى الدنيا لصالح المسود ، أما فى هذه الآية ، فهى تتحدث عما سوف نراه فى الآخرة حيث يكون السواد والبياض مختلفين ، تماما كما تتبدل الأرض غير

الأرض والسموات غير السموات ، وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض ، انه لن يكون سواداً أو بياضا من أجل البيئات . ولذلك ستتعجب يوم القيامة ؛ لأنك قد ترى إنسان كانا أسود فى الدنيا ، وتجده أبيض فى الآخر ، وتجد إنسانا آخر كان لونه أبيض فى الدنيا ثم صار أسود فى الآخرة .

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود فى الدنيا مكروه من الله ، لا ، إن الله يعطى كل واحد ما يناسبه ، بدليل أن الله قد أمده باللون الذى يقويه على البيئة التى يحيا فيها . وفى مجالنا البشرى ، نحن نعطى المصل لأى إنسان مسافر إلى مكان ما ، حتى نحميه من شر مرض فى المكان الذى يذهب إليه ، كذلك خَلْقُ الله فى الأرض فقد أعطى سبحانه لكل إنسان فى تكوينه المناعة التى تحفظه ؛ فالله لا يكره السواد لأنه حماية للإنسان من البيئة . وهذه المسألة ستتبدل يوم القيامة كما تتبدل الأرض غير الأرض ، وتبيض الوجوه المؤمنة ، وتسود الوجوه الكافرة .

أو أن البياض والسواد كليهما ، أمر اعتبارى ، بدليل أنك ترى واحدا أبيض ولكن وجهه عليه غبرة ترهقه قترة ، وترى واحداً آخر أسود اللون ، ولكن نور اليقين يملأ وجهه ، وبريق الصلاح يشع منه ، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن تديم النظر إليه ، ولذلك قال الحق :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة القيامة)

أى أن ما فى داخل النفس إنما ينضح على قالب الإنسان ؛ وتظهره ملامحه ، فقد يكون الأسود مضىء الوجه بالبشر والإشراق والتجلى بالجاذبية الآسرة ، وقد يكون الإنسان أبيض الوجه لكنه مظلم الروح .

وهكذا نفهم أن اسوداد بشرة إنسان فى الدنيا ، إنما هو لمساعدة الإنسان على التواؤم مع البيئة ، ومثال ذلك سواد العين وبياضها ، هل يستطيع أحد أن يقول : إن بياض العين أحسن من سوادها ؟ أو العكس ؟ . لا ؛ لأن كل شىء معد لمهمته .

ومثال آخر : عندما يأتى عامل البناء ليثنى عمود الحديد المستقيم ؛ ويلويه ، فهل

يقال : إن هذا الإنسان قد عوج الحديد ؟ . لا ؛ إنه يريد أن يشكل عود الحديد ليكون صالحا لمهمة معينة . وكذلك الاسوداد أو الابيضاض فى الدنيا ، إنما أراده الله ليتناسب مع ظروف الحياة فى البيئة ، أما فى الآخرة فالدنيا قد زالت وفنيت ، والأرض لن تكون هى الأرض والسماء لن تكون هى السماء ؛ فالحق يقول :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

فالمؤمن حين يرى ما أعده الله له من النعيم المقيم يقابل عطاء الله باستشراف نفس وسرور وانبساط ، أما الذى يرى مقعده من النار فلابد أن يكون مظلم الوجه . والحق سبحانه يوجه سؤالا لهؤلاء : « أكفرتم بعد إيمانكم » أو كأن هذا أمر يُفاجىء من كان يعرف هؤلاء الناس فى الدنيا ؛ فقد رأوهم فى الدنيا بيض الوجوه ، ولكن يرونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء وترهقهم قترة ، فيقولون لهم : « أكفرتم بعد إيمانكم »؟ . وكأن ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان . هذه هى سمتهم وعلامتهم فى الآخرة أى ما الذى صيركم إلى هذا اللون ؟ إنه الكفر بعد الإيمان .

فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان ؟

هذا يعنى أن الإيمان قد سبق ثم طرأ على الإيمان كفر ، وماتوا على ذلك الكفر ، وهذا قول ينطبق على الذين ارتدوا عن الإسلام مثل ابن الأسلت وغيره ، وهؤلاء كفروا بعد الإيمان . أو يكون « أكفرتم بعد إيمانكم » يجعلنا نقول : البعدية هنا لابد أن يكون لها قبلية : ألم يأخذ الله على خلقه عهدا فى عالم الذر حين استخرجهم من ظهر آدم ؟ وقال سبحانه :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

إنه إقرار إيمانى موجود فى عالم الذّر ، فمن جاء فى الواقع لينقض هذه المسألة فقد كفر بعد إيمان . أو أكفرتم بعد إيمانكم بمحمد ، بعد أن جاءتكم به البشارات التى

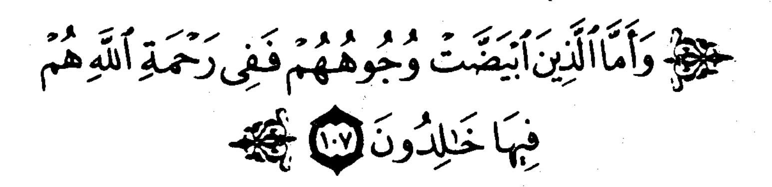
عرفتموها ، وقرأتموها فى التوراة والإنجيل ، وقد تأكدتم أنه قادم لا محالة ، وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل ، وانطبق عليكم قول الحق :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فهذا القول ، إما أن يكون فى المرتدين ، وإما أن يكون الكفر فى واقع الدنيا بعد الإيمان فى عالم الذر عندما أخذ الله العهد على الناس جميعا ، أو يكون الكفر بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءت به البشارة فى التوراة والإنجيل ، أو يكون ذلك من أهل الأهواء الذين أخذوا الدين وجعلوه شيعا ، كالفرق التى خرجت عن الإسلام ، وهى تدعى الانتساب إليه كالبهائية والقاديانية وغيرها . إن الآية تحتمل كل هذا ، وعندما نمعن النظر إلى النص القرآنى نجده يستوعب كل هذه المعانى .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه أورد فقط : « أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهذا قول يختص بالكفار فقط يذوقون العذاب بسبب الكفر ، وذلك يعنى أن المؤمن بإيمانه سينال ثواب عمله . يقول تعالى :



ولنلاحظ دائما أن الله حين يبين جزاءً لمؤمن على إيمانه وطاعته فسبحانه يقول مرة :

﴿ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأعراف)

ومرة أخرى يقول :

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

ما الفرق بين الاثنين ؟ إن الناس فى العبادة صنفان : منهم من يعبد الله ويريد نعيم الجنة ، فيعطيه الله الجنة جزاء لعبادته ولعمله الصالح . وآخر يعبد الله ؛ لأن الله يستحق العبادة ولا تمر الجنة على باله ، وهذا ينال ذات الرحمة ، إنه ينال لقاء وجه الله .

وما الفرق بين الجنة والرحمة ؟ إن الجنة مخلوقة لله ، فهى باقية بإبقاء الله لها ، ولكن الرحمة باقية ببقاء الله ، وهذا ضمان كاف ، فمن يرى الله فيه حسن العبادة لذاته ـ سبحانه ـ يضعه الله فى الرحمة .

وقلنا من قبل : إن هناك جنة من الجنات اسمها « عليّون » ليس فيها متعة من المتع التى سمعنا عنها فى الجنة ، كلحم الطير وغير ذلك ، وليس فيها إلا أن ترى الله . ومادام العبد لا يأكل عن جوع فى الآخرة ، فما الأفضل له ، جنة المتع ، أو متعة رؤية وجه الله ؟

أتتمتع بالنعمة أم بالمنعم ؟ لا جدال أن التمتع برؤية المنعم أرقى وأسمى من التمتع بالمتع الأخرى . والدقة الأدائية فى القرآن توضح لنا أن الرحمة تكتنف هؤلاء العباد الصالحين ، وتحيط بهم ، إنهم ظرف للرحمة وداخلون فيها فلا تمسهم الرحمة فقط ، ولكن تحيط بهم ، وهم خالدون فيها ، ويؤكدها الحق بظرفية جديدة بقوله: « هم فيها خالدون » فكأن هناك رحمة يُدخل فيها العباد ، ثم يطمئننا على أنها لا تُنزع منا أبدا . فـ « فيها » الثانية للخلود ، « وفى » الأولى للدخول فى الرحمة .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

إن آيات الله هى حججه وبراهينه وجزاءاته ، فمن اسود وجهه يوم القيامة نال العذاب ، ومن ابيض وجهه نال الرحمة وهو فيها خالد « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق » ، فما الذى يجعل إنسانا لا يخبر بالحق ؟ لابد أن هناك داعيا عند ذلك الإنسان ، فلأنّ الحق يُتعبه ، فهو يخبر بغير الحق . لكن هل هناك ما يتعب الخالق ؟ لا ؛ فسبحانه وتعالى منزه عن ذلك وعن كل نقص أو عيب إذن فلابد ألاّ يقول إلا الحق ، فلا شىء خارج عن ملكه بعد ذلك . يقول سبحانه : « وما الله يريد ظلما للعالمين » . إنه سبحانه ينفىْ الظلم عن نفسه كما قال :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة فصلت)

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه ، من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد . وكيف يأتى الظلم ؟ إن مظاهر الظلم هى ـ كما نعرف ـ أن تأخذ إنسانا بغير جرم . . هذا ظلم ، أو أن تعاقب إنسانا فوق الجرم . . هذا ظلم . أو ألا تعطى إنسانا مستوى إحسانه . . هذا ظلم . وماذا يفعل من يقوم بالظلم ؟ إنه يريد أن يعود الأمر بالنفع له ، فإن كان يريد أخذَ إنسانٍ بغير جرم فهو يفعل ذلك ليروى حقدا وغلا فى نفسه ، وقد يلفق لإنسان جرما ؛ لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يهدده فى أى مصلحة من المصالح ، وهو يعلم انحرافه فيها ، فيعتقله مثلا ، أو يضعه فى السجن حتى لا يفضحه .

إذن لا يمكن أن يذهب إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أن يحقق منفعة أو يدفع عن نفسه ضررا ، والله لن يحقق لذاته منفعة بظلم ، أو يدفع ضررا يقع من خلقه عليه ؛ إنه منزه عن ذلك ؛ فهو القاهر فوق عباده . والحديث القدسى يقول : « يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى . وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا »[1] .

(١) رواه أحمد فى المسند ، ورواه مسلم فى البر .

والظالم من البشر جاهل . لماذا ؟ لأنه قَوَّى الذى ظلمه ، ولم يضعفه ، فالظالم يظلم ليضعف المظلوم أمامه ، فنقول له : أنت غبى ، قليل الذكاء ؛ لأنك قويته على نفسك وفعلت عكس ما تريد . ولنوضحْ ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن جميعا عيال الله ، سننتقل إلى دائرة حياتنا اليومية ونرى عيالنا ، إن الواحد منا عندما يكون له أولاد ، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه فَقَلْبُ الوالد يكون مع المظلوم ، ويحاول الوالد أن يترضّى ابنه المظلوم . إذن فالولد الظالم ضر أخاه ضررا يناسب طفولته ، ولكنه أعطاه نفعا يناسب قوة والده ، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه .

ومادمنا جميعا عيال الله فماذا يفعل الله حين يرى سبحانه واحدا من خلقه يظلم آخر من خلقه ؟ لا بد أن الحق سيشمل المظلوم برعايته ، وهكذا يقوى الظالم المظلومَ ، والظالم بذلك يعلن عن غبائه ، فلو كان ذكيا ، لما ظلم ، ولضنّ على عدوه أن يظلمه ، ولقال : إنه لا يستأهل أن أظلمه ؛ لأنه عن طريق ظلمى له سيعطيه الله مكافأة كبرى ، وهى أن يجعله فى كنفه ورعايته مباشرة .

وقد نجد واحدا يظلم من أجل نفع عاجل ، وينسى هذا الإنسان أنه لن يشرد أبدا ممن خلقه . ونقول لمثل هذا الإنسان : أنت لن تشرد ممن خلقك ، ولكنك شردت من المخلوق وداريت نفسك ، وحاولت أن تحقق النفع العاجل لنفسك ، لكن الخالق قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . وكأن الحق سبحانه يطمئننا بأن ننام ملء جفوننا لأنه سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم .

« وما الله يريد ظلما للعالمين » لأن الظلم لا ينشأ إلا عن إرادة نفعية بغير حق ، أو إرادة الضرر بغير جرم ، والله غنى عن ذلك ؛ ولذلك نجد الحق يؤكد غناه عن الخلق وأنه مالك للكون كله فيقول :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ ﴾

إنه مالك الملك ، كل شيء له وبه وملكه ، وإليه يُرجع كل أمر . ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله بقراءات متعددة وقد ورد وفى بعضها (تَرجِعُ الأمور) بفتح التاء بالبناء للفاعل ، وفى قراءة أخرى : « ترجع الأمور » بضم التاء بالبناء للمفعول ، وكذلك (ترجعون) تأتى أيضا بضم التاء وفتحها ، وكلها ـ كما قلنا ـ قراءات من عند الله .

وعندما يقول الحق : « وإليه تَرجعون » بفتح التاء فمعنى ذلك أننا نعود إليه مختارين ؛ لأن المؤمن يُحبُّ ويرغب أنْ يصل إلى الآخرة ، لأن عمله طيب فى الدنيا ، فكأنه يجرى ويسارع إلى الآخرة ، ومرة يقول تعالى : « وإليه تُرجَعون » بضم التاء . وهذا ينطبق على الكافر أو العاصى . إنّ كُلًّا منهما يحاول ألا يذهب إلى الآخرة ، لكن المسألة ليست بإرادته ، إنه مقهور على العودة إلى الآخرة ولذلك نجد التعبير القرآنى :

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الطور)

هناك من يدفعهم إلى النار دفعا . وفى حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد الشرطى يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن . . ذلك هو الدع . وهكذا يكون قول الحق : « وإليه تُرجَعون » بضم التاء وفتح الجيم ، أى أنه مدفوع بقوة قاهرة إلى النهاية . أما المؤمن الواثق فهو يهرول إلى آخرته مشتاقا لوجه ربه .

وعندما تقرأ « وإلى الله تُرجع الأمور » . قد يقول قائل : ومتى خرجت الأمور منه حتى ترجع إليه ؟ ونقول : حين خلق الله الدنيا ، خلقها بقهر تسخيرى لنفع الإنسان ، وجعل فيها أشياء بالأسباب ، فإن فعل الإنسان السبب فإنه يأخذ المسبب ـ بفتح الباء ـ المشددة ، فالشمس تشرق علينا جميعا ، والضوء والدفء والحرارة ، هى ـ بأمر الله ـ للمؤمن والكافر معا ، ولم يصدر الله لها أمرا أن تختص المؤمن وحده بمزاياها ، والهواء لا يمر على المؤمن وحده ، إنما يمر على المؤمن والكافر ، وكذلك الماء ، والأرض يزرعها الكافر فيأخذ منها الثمار ، ويزرعها المؤمن كذلك .

إذن ففى الكون أشياء تسخيرية ، وهى التى لا تدخل فيها طاقة الإنسان ، وهناك

أشياء سببية ، فإن فعلت السبب يأت لك المسبب ، والله قد جعل الأسباب للمؤمن والكافر . وعندما يُمَلِّك الله بعض الخلق أسباب الخلق فهو القيوم فوق الجميع ، لكن فى الآخرة ، فلا أسباب ولا مسببات ؛ ولذلك يكون الأمر له وحده ، اقرأوا جيدا :

﴿ لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

إنّ فى الدنيا أناسا ـ بإرادة الله ـ تملك أسبابا ، وتملك عبيدا ، وتملك سلطانا ؛ لأن الدنيا هى دنيا الأسباب . أما فى الآخرة فلا مجال لذلك . لقد بدأت الدنيا بأسبابها مِنّة منه ، ورجعت مِنْهُ إليه « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » ومن يعتز بالسببية نقول له : كن أسير السببية لو كنت تستطيع . ومن يعتز بالقوة لأنها ـ ظاهرا ـ سبب للحركة ، نقول له : احتفظ بقوتك إن كنت قادرا . ومن يعتز بالملك نقول له : لتحتفظ بالملك لو كنت تستطيع . ولا أحد بقادر على أنْ يحتفظ بأى شىء ، فكل شىء مرده إلى الله ، وإن كان فى ظاهر الأمر أن بعض الأشياء لك الآن ، وفى الآخرة لله يكون كل أمر ، ويرجع إليه كل شىء ، لقد بدأت به ، ورجعت إليه . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

هذه الخيرية لها مواصفات وعناصر : « تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر

وتؤمنون بالله » . فإن تخلف عنصر من هذه العناصر ، انحلت عنكم الخيرية ، فالخيرية لكم بأشياء هى : أمر بالمعروف . نهى عن المنكر . إيمان بالله .

وساعة تسمع كلمة « معروف » و« منكر » فإنك تجد أن اللفظ موضوع فى المعنى الصحيح ، فـ« المعروف » هو ما يتعارف الناس عليه ويتفاخرون به ، ويَسُرُّ كل إنسان أن يعرفه الآخرون عنه . و« المنكر » هو الذى ينكره الناس ويخجلون منه ، فمظاهر الخير يحب كل إنسان أن يعرفها الآخرون عنه ، ومظاهر الشر ينكرها كل إنسان .

إن مظاهر الخير محبوبة ومحمودة حتى عند المنحرف ، ومظاهر المنكر مذمومة ومكروهة حتى عند المنحرف . فاللص نفسه عندما يوجد فى مجلس لا يعرفه فيه أحد ، ويسمع أن فلانًا قد سرق فإنه يعلن استنكاره لفعل اللص ، إنه أمر منكر ، حتى وإن كان هو يفعله . وهكذا تعرف أن « المعروف » و« المنكر » يخضعان لتقدير الفطرة . والفطرة السليمة تأتى للأمور الخيرة ، وتجعلها متعارفا عليها بين الناس ، وتنكر الفطرة السليمة الأمور المنكرة ، حتى ممن يفعلها .

ويورد الله مسألة الإيمان بالله من بعد الأمر بالمعروف والنهى المنكر ، لماذا ؟ لأنه من الجائز أن يوجد إنسان له صفات الأريحية والإنسانية ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويصنع الخير ، ويقدم الصدقات ، ويقيم مؤسسات رعاية للمحتاجين والعاجزين سواء كانت صحية أو اقتصادية ، لكنه يفعل ذلك من زاوية نفسه الإنسانية ، لا من زاوية منهج الله ، فيكون كل ما فعله حابطا ولا يُعتَرفُ له بشىء لأنه لم يفعل ذلك فى إطار الإيمان بالله ، ولذلك فلا تظن أن الذى يصنع الخير دون إيمان بالله له أجر عند الله ؛ فالله يجازى من كان على الإيمان به ، وأن يكون الله فى بال العبد ساعة يصنع الخير . فمن صنع خيرا من أجل الشهامة والإنسانية والجاه والمركز والسمعة فإنه ينال جزاءه ممن عمل له ، ومادام قد صنع ذلك من أجل أن يقال عنه ذلك فقد قيل ، وهو ما بيّنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

« إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها فقال : ما عملتَ فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ،

ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال:كذبت ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى أُلقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرّفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت فى سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها . قال : كذبت ولكنك فعلت ليُقال:هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر فسحب على وجهه ثم أُلقى فى النار »[1] .

إنه ينال جزاء عمله من قول الناس ، لكن الله يجازى فى الآخرة من كان الله فى باله ساعة أن عمل . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إن المؤمن يفعل العمل الصالح ، ويعلن أنه يفعل ذلك لأنه من المسلمين ، إنه لا يفعل الخير ، لأنه شيوعى ، أو وجودى ، أو إنسانى إلخ ، فمهما صنع إنسان من الخير ، وترك الاعتراف بالله فخيانة الكفر تفسد كل عمل . لأنه جحد وأنكر خالقه وكفر به ، والذى يعمل خيرا من أجل أحدٍ فلينل من هذا الأحد جزاء هذا العمل .

وهنا فى هذه الآية ، أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وإيمان بالله . ولكن ما الذى يجعلهم لا يؤمنون بالله وإن عملوا معروفا ؟ إنه حرصهم على الجاه الزائف ، فلمّا جاء الإسلام ، ظن أهل الجاه فى الديانات الأخرى أن الإسلام سيسلبهم الجاه والسلطة والمكانة والمنافع التى كانوا يحصلون عليها ، وكان من حماقة بعضهم أن باعوا الجنة على الأرض وخافوا على المركز والجاه والمنافع ، وكان ذلك من قلة الفطنة ، فالحق يقول :

﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

فلو آمنوا لظل لهم الجاه والسلطة فى ضوء الإيمان بالله ، فلا تجارة بالدين ، وكانوا سيحصلون على أجرهم مرتين ، أجر فى الدنيا ، وأجر فى الآخرة ، أو أجر على إيمانهم بنبيهم ، وأجر آخر لإيمانهم برسول الله ، ولكن هل معنى هذا القول أن أهل الكتاب لم يؤمنوا ؟ لا ، إن بعضهم قد آمن ، فالحق سبحانه وتعالى يؤرخ لهم تأريخا حقيقيا فيقول سبحانه : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » وكان القياس أن يأتى وصف بعضهم بالإيمان ، وأن يكون غيرهم من أبناء ملتهم كافرين ، لأن الإيمان يقابله الكفر ، لكن الحق يحدد المعنى المناسب لفعلهم فيقول : « وأكثرهم الفاسقون » .

إنه الحق سبحانه وتعالى الذى يتكلم فيورد كل كلمة بمنتهى الدقة ، فهناك فرق بين أن تكفر وليس عندك مقدمات الإيمان وأدلته ، وأن تكفر وأنت تعرف مقدمات الإيمان كقراءة التوراة والإنجيل .

لقد قرأ أهل الكتاب التوراة والإنجيل ورأوا الآيات البينات وعرفوا البشارات ؛ لذلك فهم عندما كفروا برسول الله ، فسقوا أيضا مع الكفر . إن الذين كفروا برسول الله من أهل الكتاب هم فاسقون حتى فى كفرهم ، لأن مقتضى معرفتهم للبشارات والآيات أن يعلنوا الإيمان برسالة رسول الله ، فالواحد منهم ليس كافرا عاديا ، بل هو فاسق حتى فى الكفر ؛ لأنه عرف الحق ، ثم خرج وفسق عنه .

ومادام الحق قد قال : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » إذن ماذا يفعل المؤمن منهم مع الفاسق ؟ سيتربص الفاسقون وهم الأكثرية فى اليهودية والنصرانية بالأقلية المؤمنة ليوقعوا بهم الأذى والضرر ، ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

لكن الحق سبحانه يطمئن هذه الأقلية من إضرار الأكثرية بهم فيقول : « لن يضروكم إلا أذى » . أى يا أيتها الأقلية التى آمنت من أهل الكتاب ـ مثل عبدالله بن سلام الذى أسلم وترك اليهودية ـ إياكم أن تظنوا أن الأكثرية الفاسقة قادرة على إنزال العذابكم ؛ فالحق ـ سبحانه ـ يعلن أن محاولة الأكثرية لإنزال الضرر بالأقلية التى آمنت منهم لن يتجاوز الأذى .

ما هو الضرر ؟ وما هو الأذى ؟

إن الأذى هو الحدث الذى يؤلم ساعة وقوعه ثم ينتهى ، أما الضرر فهو أذى يؤلم وقت وقوعه ، وتكون له آثار من بعد ذلك ، فعندما يصفع الإنسان إنسانا آخر صفعة بسيطة فالصفعة البسيطة تؤلم ، وألمها يذهب مباشرة ، لكن إن كانت الصفعة قوية وتتسبب فى كدمات وتورم فهذا هو الضرر . إذن فالأذى يؤلم ساعة يُباشَر الفعل فقط ، وقد يكون الأذى بالكلمة كالاستهزاء ، فالفاسق قد يستهزىء بالذى آمن ، فينطق بكلمة الكفر أو الفُجْر ، هذه الكلمة ليس لها ضرر فى ذات المؤمن ولكنها تؤذى سمعه . إن الحق سبحانه يطمئن المؤمنين على أن أهل الكفر لن يضروا المؤمنين إلا أذى ، وهذا أقصى ما فى استطاعتهم ، وليس لهذا الأذى أثر .

إذن فقول الحق : « لن يضروكم إلا أذى » يعنى أنهم لن يستطيعوا أن ينالوا منكم أبدا اللّهم إلا الاستهزاء أو الغمز واللمز ، أو إشارة بحركة تؤذى شعور المؤمن ، أو تمجد الكفر ، وتعظمه أو بنطق كلمة عهر أو فجر لا يوافق عليها الدين ، هذا أقصى ما يستطيعه أهل الفسق ، وهم لا يملكون الضرر لأهل الإيمان . وبعد ذلك نرى أن واقع الأمر قد سار على هذا المنوال مع الدعوة المحمدية ومع جنود سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد أطلقها الله كلمة : « لن يضروكم إلّا أذى » فصارت الكلمة قانونا . فقد وقعت الوقائع بين جند رسول الله وأهل الفسق ، وثبت أن أهل الفسق لم يستطيعوا ضرر أهل الإيمان إلا أذى .

ولننظر إلى ما حدث لبنى قينقاع ، ولما حدث لبنى قريظة ، ولما حدث لبنى النضير ، ولما حدث ليهود خيبر ، هل ضروا المؤمنين إلا أذى ؟ لقد قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوما أغرارا لا علم لهم بالحرب فانتصرت عليهم ، فإذا أنت حاربتنا فستعرف مَن الرجال . وكان ذلك هو مجرد كلام باللسان .

إن التاريخ يحمل لنا ما حدث لهم جميعا ، لقد هزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا أرادوا أن يرتفعوا عن الأذى إلى الضرر الحقيقى فلم يمكنهم الله ؛ لأن الحق يقول : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون » ، فإن أراد أهل الفسق أن يُصَعِّدوا الأذى للمؤمنين ليوقعوا ضررا حقيقيا ، فإن الكافرين يولون الأدبار أمام المؤمنين ، فهزيمتهم أمر لا مناص منه . ونحن نعرف فى اللغة أن هناك ما نسميه « الشرط » وما نسميه « الجواب » فـ « إنْ » حرف شرط تجزم فعل الشرط وجوابه فإنْ كان الفعل من الأفعال الخمسة فإنّنا نحذف النون ، ولذلك نجد القول الحق : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار » .

إن « يقاتلوكم » فعل شرط محذوفة منه النون . و« يولوكم الأدبار » أصلها يولونكم الأدبار . وهى جواب شرط حذفت منه النون ، وعندما يأتى العطف بعد ذلك ، فهل يكون بالرفع أو بالجزم ؟ إن العادة أن يكون العطف بالجزم !! لكن الحق يعطف بالرفع فيأتى قوله : « ثم لا يُنصرون » . إنها كِسرة إِعْرَابِيَّة تجعل الذهن العربى يلتفت إلى أن هناك أمرا جللا ، لأن المتكلم هو الله سبحانه . كيف جاءت « النون » ؟

هنا نقف وقفة فَلننطق الآية ككلام البشر : إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصروا . وهذا القول يكون تأريخا لمعركة واحدة ، لكن ما الذى سوف يحدث من بعد ذلك ؟ ماذا يحدث عندما يقاتل المؤمنون أهل الكفر والفسق ؟ وتكون الإجابة هى : « ثم لا ينصرون » إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة عن الشرط والجزاء ، إنها حكم من الله على أهل الفسق بأنهم لا يُنصرون أبدا سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا إنها قضية ثابتة منفصلة ، وليست معطوفة على الشرط ، فعلة عدم النصر ، ليست القتال ، ولكنها الكفر .

وإذا دققنا الفهم فى العبارة حروفا ـ بعد أن دققنا فيها الفهم جملا ـ لوجدنا معنى جديدا ، فقد يظن إنسان أن القول كان يفترض أن يتأتى على نحو مغاير ، هو « يولوكم الأدبار فلا ينصرون » لأن الذى يأتى بعد الـ « فاء » يعطى أنهم لا ينتصرون عليكم فى بداية عهدكم ، وهذا ما تفيده الفاء لأنها للترتيب والتعقيب . لكن الحق أورد حرف « ثم » وهو يفيد التراخى ، وهذا يعنى أنهم لا ينتصرون عليكم أيها

المؤمنون حتى لو استعدوا بعد فترة لمعركة يَرُدُّونَ بها على توليهم الأدبار . إنه حكم تأبيدى ، لأن « ثم » تأتى للتعقيب مع التراخى ، والفاء تأتى للتعقيب المباشر بدون تراخ . ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتى :

﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة عبس)

لأن دخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق :

﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة عبس)

فإذا كان هناك تعقيب بعد مدّة زمنية فالحق يأتى بـ «ثم » ، وإذا كان هناك تعقيب فورى بلا مدّة يأتى الحق بـ« ف » . والتعقيب فى الآية التى نتناولها يأتى بعد « ثم » ، وكأن هذا حكم مستمر من الحق بأن أهل الفسق لن ينتصروا على أهل الإيمان ، ولو بعد انتهاء المعركة القائمة الآن بينهم ، إنها هزيمة بحكم نهائى ، هذا هو القول الفصل : « ثم لا يُنصرون » وهو أشد وقعا مما لو جاء « لا ينتصرون » لماذا ؟ لأن من الممكن ألّا ينتصر أهل الكفر بذواتهم ، ولكن الإيضاح يؤكد أنهم ـ أهل الكفر ـ لا ينتصرون لا بذواتهم ، ولا يُنصرون بغيرهم أيضا .

إن « ثم لا ينصرون » قضية دائمة فليست المسألة مقصورة على عهد رسول الله فقط ، ولكنها ستظل إلى أبد الآبدين .

ومن السطحية فى الفهم أن نقول : إن الآية كانت تتطلب أن يكون القول « ثم لا ينصروا » لأن الاعراب يقتضى ذلك . لكن المعنى اللائق بالمتكلم وهو الحق سبحانه وتعالى الذى يعطى الضمان والاطمئنان للأمة المسلمة أمام خصومها لابد أن يقول : « ثم لا ينصرون » وهى أكثر دقة حتى من « لا ينتصرون » لأن « ينتصرون » فيها مدخلية الأسباب منهم ، أما « ثم لا ينصرون » فهى تعنى أن لا نصر لهم أبداً ، حتى وإن تعصب لأهل الفسق قوم غيرهم وحاولوا أن ينصروهم فلن يستطيعوا ذلك .

فإن رأيتم ـ أيها المسلمون ـ نصرا للكافرين عليكم منهم أو بتعصب قوم لهم

فاعلموا أنكم دخلتم معهم على غير منهج الله . وقد يأتى إنسان ويقول : كيف ينتصر علينا اليهود ونحن مسلمون ؟ ونقول : هل نحن نتبع الآن منهج وروح الإسلام ؟ وماذا عندنا من الإسلام ومن الإيمان ؟ هل تحسب نفسك على ربك أثناء هزيمتك ؟ وهل دخلت معركتك كمعركة إسلامية ؟

لا ، لقد انتبهنا إلى كل شىء إلاّ الإسلام . قدمنا الانتماء لعصبية وقومية وعرقية على الإيمان فكيف نطلب نصرا من الله ؟ لا يحق لنا أن نطلب نصرة لله إلا إذا دخلنا المعركة ونحن من جند الله . والهزيمة تحدث عندما لا نكون جنداً لله ؛ لأن الله ضمن النصر والغلبة لجنوده فقال :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

فإذا لم نغلب فتأكدوا أننا لسنا من جنود الله .. ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

ونحن نستخدم كلمة « ضرب » فى النقود ، عندما نقول : ضرب هذا الجنيه فى مصر ، ومعنى ذلك أن الصانع يقوم بصنع قالب من مادة أكثر صلابة ، من المادة التى يصنع منها النقد ويرسم فيها الحفريات التى تبرز الكتابة والصور على وجهى الجنيه ،

ثم يصب المادة فى ذلك القالَب ، وتخضع للقالب فتبرز الكتابة والصور ، ولا تتأبى المادة على القالب . كأن « ضُرب » معناها « أُلزم » بالبناء للمجهول فيهما ، وكأن المادة المصنوعة تَلْزَمُ القالبَ الذى تصب فيه ولا تتأبى عليه ولا يمكن أن تتشكل إلاّ به .

إذن فالضرب معناه الإلزام والقسر على الفعل . وعندما يقول الحق : « ضربت عليهم الذلة » أى لزمتهم الذلة لا يستطيعون الانفكاك عنها أبدا ، كما لا يستطيع المعدن المضروب نقدا أن ينفك عن القالب الذى صك عليه ، وكأن الذلة قبة ضربت عليهم ، وقالب لهم ، وقول الحق : « أينما ثقفوا » تفيد أنهم أذلاء أينما وُجدوا فى أى مكان . ولكن هناك استثناء لذلك ، ما هو ؟

إنه قول الحق : « إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس » إنهم لا يعانون من الذلة فى حالة وجود عهدٍ من الله أو عهد من أناس أقوياء أن يقدموا لهم الحماية . فلما كانوا فى عهد الله أولا وعهد رسوله ساعة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وأعطاهم العهد ، فكانوا آمنين ، ولما خانوا العهد ، ولم يُوفوا به ؛ ماذا حدث ؟ ضُربت عليهم الذلة مرة أخرى .

إذن لقد كانوا فى عهد الله آمنين لكنهم خانوا العهد ، وانقطع حبل الله عنهم ، فهيجوا الهيجة التى عرفناها ونزل بهم ما نزل ، وهو ما حدث لبنى قينقاع ولبنى النضير وبنى قريظة ويهود خيبر .

إذن فهم قبل ذلك كانوا فى عهد مع الله . وأنتم تعرفون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما نزل المدينة بنى المسجد وعقد العهد بينه وبين اليهود وعاشوا فى اطمئنان إلى أن خانوا العهد ، فضربت عليهم الذلة . وطُردوا من المدينة ، كما يقول الحق : « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس » .

لقد أخذوا العهد من الله من خلال من له الولاية على الناس ، فالرسول فى عهده كان قائما على أمر المسلمين ، وكذلك يكون الأمر معهم فى ظل القائمين على أمر الإسلام ، ويحدث هذا عندما تسير الأمور بمنهج الإسلام .

أما عن حبل الناس فذلك لأنهم لا يملكون أى عزة ذاتية ، إنهم دائما فى ذلة إلا أن يبتغوا العزة من جانب عهد وحبل من الله ، أو من جانب حماية من الناس . ونحن نراهم على هذا الحال فى حياتنا المعاصرة ، لابد لهم من العيش فى كنف أحد ؛ لذلك فعندما حاربنا « إسرائيل » فى حرب أكتوبر ، انتصرنا عليهم إلى أن تدخلت أمريكا بثقلها العسكرى . فقال رئيس الدولة المصرى : « لا جَلَدَ لى أن أحارب أمريكا » .

إذن لو كانت الحرب بيننا وبينهم فقط لانتهت قوتهم ؛ فهم بلا عزة ذاتية ، وتكون لهم عزة لو كانوا فى جانب حبل من الله ، أو حبل من الناس . يقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك : « وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » ولنا أن نلاحظ أن الذلة لها استثناء ، فهم ينالون العزة لو كانوا بجانب حبل من الله أو حبل من الناس ، أما المسكنة ، فلا استثناء فيها ، وقد قال الحق عنهم فى موضع آخر فى القرآن الكريم :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

لأن المسكنة أمر ذاتى فى النفس ، إنهم مساكين بأمر من الله ، أما الذلة فقد يأتى لهم من ينصرهم ويقف بجانبهم ؛ فالذلة أمر من خارج ، أما المسكنة فهى فى ذاتيتهم ، وعندما تكون المسكنة ذاتية ، فلا إنقاذ لهم منها ؛ لأنه لا حبل من الله يأتيهم فينجيهم منها ، ولا حبل من الناس يعصمهم من آثارها . ويقول الحق : « وباءوا بغضب من الله » وهل رأى أحد منا غضبا أكبر من أن الحق قد قطعهم فى الأرض ؟ ولنقرأ قول الله :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

المكان الوحيد الذى آواهم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الجزيرة العربية فى يثرب ، واستقروا قليلا ، وصارت لهم سيادة علمية ؛ لأنهم أهل كتاب ، وصارت لهم سيادة اقتصادية ، وكذلك سيادة حربية ، وهذا المكان الذى أواهم من الشتات فى الأرض هو المكان نفسه الذى تمردوا عليه . لقد كان السبب الذى من أجله قد جاءوا إلى يثرب هو ما كانوا يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة ؛ ففى التوراة

جاء ما يفيد أن نبيا سيأتى فى هذا المكان ولابد أن يتبعوه كالميثاق الذى قلنا عليه من قبل :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهذا الميثاق يقضى بأن يتولى الرسل بلاغ الأمم التى بُعِثوا إليها ، وأن يُبلغ أهلُ الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولا قادما من عند الله بالمنهج الكامل . - واليهود - لم يأتوا إلى يثرب إلا على أمل أن يتلقفوا النبى المنتظر ليؤمنوا به ، ومن بعد ذلك يكونون حربا على الكافرين بالله ، لكن ما الذى حدث ؟ إنه سبحانه يخبرنا بما حدث منهم فى قوله :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

فماذا بعد أن باءوا بغضب من الله . وبعد أن ختم الله قالبهم بالمسكنة ؟ وما السبب ؟ تكون الإجابة من الحق سبحانه : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق » لقد أرسل الله لهم آيات عجيبة ولكنهم كفروا بها ، تلك الآيات التى جاءنا ذكر منها فى قوله الحق :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة البقرة)

كثير من الآيات أرسلها الحق لبنى إسرائيل ، منها ما جاء فى قوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكنهم تولوا عن الإيمان وأمامهم ضرب موسى عليه السلام الحجر بالعصا فانفجرت منه عيون المياه ليشربوا .

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

وبرغم ذلك فقد قاموا بقتل الأنبياء بغير حق . وادعوا الكذب على أنبيائهم وقتلوهم ، وفى شأنهم يقول الحق : « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » كَانَ العصيانُ سبباً لأن تُضرب عليهم الذلة ، وأن يبوءوا بغضب من الله ، وأن تُضرب عليهم المسكنة ، وكل ذلك ناشىء من فعلهم . وهناك فرق بين أن يبدأهم الله بفعل ، وبين أن يعاقبهم الله على فعل ، وحتى نفهم ذلك فلنقرأ قوله الحق :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد حرم الله عليهم الطيبات بظلم منهم لأنفسهم ، لأن معنى تحريم الطيبات أن الله حرمهم متعة فى طيب ، وذلك لأنهم استحلوا متعة فى غير طيب ؛ لأن مرادات الشارع تأتى على عكس مرادات الخارجين عن أمر الشارع . وكما قلنا من قبل : إنّ الحق سبحانه وتعالى يؤرخ للحق وللواقع ولا يشملهم كلهم بحديث يجمعهم جميعا ، فقد كان منهم أناس تراودهم فكرة الإيمان بالرسول ، وفكرة الإيمان بالقرآن ، ومنهم من آمن فعلا ؛ لذلك كان من عدل الله أن يفصل بين الذين يفكرون فى الإيمان والمصرين على الكفر . لذلك يقول سبحانه :

﴿ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وهذا ما حدث بالفعل ، لكن أى آيات الله كانوا يتلونها ؟ إنها الآيات المهيمنة ، آيات القرآن ولماذا يقول الحق : « وهم يسجدون » وهل هناك قراءة للقرآن ساعة السجود ؟ حتى نعرف تفسير ذلك لابد لنا أن نعرف أن اليهود لا يصلون العتمة ، أى الصلاة فى الليل ، وحتى يعطيهم الله السمة الإسلامية قال عنهم : « يسجدون » ويُعَرِّفَهم بأنهم يقيمون صلاة العتمة ، ـ العشاء ـ وهى صلاة المسلمين ، وماداموا يصلون صلوات المسلمين ويسجدون ، إذن فهم مسلمون أو نفهم من قوله : « وهم يسجدون » أن الصلاة عنوان الخضوع ، والسجود أقوى سمات الخضوع فى الصلاة . وماداموا يصلون فلا بد أنهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل . ونعرف أن من حسن العبادة فى الإسلام ، ومن السنن المعروفة قراءة القرآن ليلا ، وصلاة التهجد ، وهذه فى مدارج العملية الإيمانية التى يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

و« آناء » جمع « إنى » مثلها مثل « أمعاء » جمع « مِعى » . و« الآناء » هى مجموع الأوقات فى الليل ، وليست فى «إنًى » واحد . فهناك مؤمن يقرأ القرآن فى وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ القرآن فى وقت آخر ، وكأن المؤمنين يقطعون الليل فى قراءة للقرآن ، والذى يدخل مع ربه فى مقام الإحسان ، فهو لا يصلى فقط صلاة العتمة وهى ستأخذ « إنًى » واحدا ، أى وقتا واحدا ، ولكنه عندما يصلى فى آناء الليل فذلك دليل على أنه يكرر الصلاة ، وزاد عن المفترض عليه ، ومادام قد زاد عن المفترض ، فهو لا يكتفى بتلاوة القرآن لأنه يريد أن يدخل فى مقام الإحسان ، أى أنه وجد ربه أهلا لأن يصلى له أكثر مما افترض عليه ، كأنه قد قال لنفسه : أنت كلفتنى يارب بخمس صلوات لكنك يارب تستحق أكثر من ذلك وكأن هذا البعض من أهل الكتاب لم يكتفوا بإعلان الإيمان بالإسلام فقط ، .ولكنهم دخلوا بثقلهم ، فصلوا آناء الليل . وأحبوا أن ينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ما معنى « محسن » ؟ إنها وصف للإنسان الذى آمن بربه فعبَد الله بأكثر مما افترض

تعبدنا الله بخمس صلوات فنزيدها لتصل إلى عشرين مَثَلاً ، ونحن تعبدنا الله بصيام شهر فى العام ومنا من يصوم فى كل شهر عددا من الأيام .

العام ومنا من يصوم فى كل شهر عددا من الأيام .

وتعبدنا بالزكاة بالنصاب ، ومنا من يزيد على النصاب ، وتعبدنا سبحانه بالحج مرة ، ومنا من يزيد عدد مرات الحج . فحين يريد العبد أن يدخل فى مقام الإحسان فبابه هو أداء عبادات من جنس ما تعبده الله به ؛ فالعبد لا يخترع أو يقترح العبادة التى يعبد بها الله ، ولكنه يزيد فيما افترضه الله . وهؤلاء الذين آمنوا بالله من أهل الكتاب ويتحدث عنهم القرآن ، لقد دخلوا بثقلهم فى الإسلام فصلوا آناء الليل وقرءوا القرآن ، ودخلوا مقام الإحسان ، وأرادوا أن يطبقوا القول الحق :

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

أى أنهم ماداموا قد صلوا فى الليل ، وقليلا ما هجعوا فلا بد أنهم قد أدوا الصلاة فى آناء كثيرة من الليل . ونحن حين ندخل فى مقام الإحسان ونصلى فى الليل ، ونكون بارزين إلى السماء فلا يفصلنا شىء عنها،وننظر فنجد نجوما لامعة تحت السماء الدنيا ، وأهل السماء ينظرون للأرض فيجدون مثلما نجد من النجوم المتلألئة اللامعة فى الأرض ، ويسألون عنها فيقال لهم : إنها البيوت التى يصلى أهلها آناء الليل وهم يسجدون ، وكل بيت فيه هذا يضىء كالنجوم لأهل السماء . ويضيف الحق فى صفات هؤلاء : « وبالأسحار هم يستغفرون » وهل فرض الله على خلقه بأن يصلوا آناء الليل فلا يهجعون إلا قليلا من الليل ؟ لا ، ولكن من يريد أن يدخل فى مقام الإحسان ، فهو يفعل ذلك . أما المسلم العادى فيكتفى بصلاة العشاء ، وعندما يأتى الصبح فهو يؤدى الفريضة . لكن من يدخل فى مقام الإحسان فقليلا من الليل ما يهجع . وينطبق عليه القول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

وهذه دقة البيان القرآنى التى توضح مقام الإحسان ، فيكون فى مالهم حق للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم للمال الذى يخرج ، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذى يعلو مقام الإيمان ، ومقام الإيمان ـ كما نعرف ـ قد جاء ذكره فى قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ (٢٤) لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) ﴾

(سورة المعارج)

فالإنسان فى مقام الإيمان قد يقيد الإخراج من ماله بحدود الزكاة أو فوقها قليلا ، لكن فى مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال . وهكذا نعرف أن أهل الكتاب ليسوا سواء ؛ فمنهم من دخل الإسلام من باب الإحسان ، فقال فيهم الحق : « ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » ، وكأن الحق بهذا الاستثناء الواضح . يؤكد لنا أننا لا يصح أن نظن أن أهل الكتاب جميعهم هم الذين جاء فيهم قوله : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » لا ؛ فأهل الكتاب ليسوا سواء ، ولذلك لا يكون حكم الله منسحبا عليهم جميعا ، فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بتلاوة القرآن آناء الليل وهم يسجدون ، إنهم أمة قائمة ، وكلمة « قائم » هى ضد « قاعد » ، والقعود غير الجلوس ، فالجلوس يكون عن الاضطجاع فيقال : كان مضطجعا فجلس .

لكن عندما نقول : « كان قائما » فإننا نقول فقعد،فالقعود يكون بعد القيام . والقعود فى الصلاة مريح ، أما القيام فهو غير مريح ، ونحن نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقف فى الصلاة حتى تتورم قدماه ؛ لأن الثقل كله على القدمين ، ولكن عندما نقعد فنحن نوزع الثقل على جملة أعضاء الجسم . وعندما يصفهم الحق : « من أهل الكتاب أمة قائمة » فمعنى ذلك أنهم أخذوا أمانة أداء الفروض بكل إخلاص ، وكانوا يؤدون الصلاة باستدامة وخشوع . ويستمر الحق فى وصفهم فى الآية التالية :

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾

وهم بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، إنما يتصفون بالصفات التى أوردها الله صفة لخير أمة أخرجت للناس وهى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . لقد دخل هذا البعض من أهل الكتاب بثقلهم ـ ومن أول الأمر ـ فى مقام الإحسان ، وماداموا قد دخلوا فى مقام الإحسان فهم بحق كانوا مستشرفين لظهور النبى الجديد . وبمجرد أن جاء النبى الجديد تلقفوا الخيط وآمنوا برسالته ، وصاروا من خير أمة أخرجت للناس . ويكمل الحق سبحانه صفاتهم بقوله : « ويسارعون فى الخيرات » وهذا كمثل قوله سبحانه وتعالى فى حق المؤمنين :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ونحن نعرف أن هناك فرقا بين « السرعة » و« العجلة » فـ« السرعة » و« العجلة » يلتقيان فى تقليل الزمن بالنسبة للحدث ، ومثال ذلك أن يقطع إنسان المسافة من مكان إلى مكان فى زمن معين،والذى يسرع فى قطع المسافة هو الذى يستغرق من الزمن أقل وقت ممكن ولكن هناك اختلاف بين السرعة والعجلة ، وأول خلاف بينهما يتضح فى المقابل ، فمقابل السرعة الإبطاء ، ويقال : فلان أسرع ، وعلان أبطأ ومقابل « العجلة » هو « الأناة » فيقال : فلان تأنى فى اتخاذ قراره . فالسرعة ممدوحة ومقابلها وهو « الإبطاء » مذموم ، « والعجلة » مذمومة ، ومقابلها وهو التأنى ممدوح ؛ لأن السرعة هى التقدم فيما ينبغى التقدم فيه ، والعجلة هى التقدم فيما لا ينبغى التقدم فيه ، ولذلك قيل فى الأمثال : « فى العجلة الندامة ، وفى التأنى السلامة » وقال الحق :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة آل عمران)

وهو سبحانه : هنا يقول « ويسارعون فى الخيرات » أى كلما لمحت لهم بارقة فى الخير فهم يسرعون إليها ، أى أنهم يتقدمون فيما ينبغى التقدم فيه ، إنهم يعلمون أن الإسراع إلى الخير حدث ، وكل حدث يقتضى حركة ، والحركة تقتضى متحركا ، والمتحرك يقتضى حياة ، فما الذى يضمن للإنسان أن تظل له حياة ، لذلك يجب أن تسرع إلى الخيرات ، وسيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وأرضاه كان ينام القيلولة ، وكان حاجبه يمنع الناس من إيقاظ الخليفة ، فجاء ابن عمر بن عبدالعزيز وقال للحاجب :

أريد أن أدخل على أمير المؤمنين الساعة ، فمنعه الحاجب قائلا : إنها ساعة يستريح فيها وهو لا يستريح من الليل أو النهار إلّا فيها ، فدعه ليستريح . وسمع سيدنا عمر بن عبدالعزيز الضجة ، فسأل الحاجب . قال الحاجب : إنه ابنك ، ويريد أن يدخل عليك وأنا أطالبه ألا يدخل حتى تستريح . قال عمر بن عبدالعزيز للحاجب : دعه يدخل . فلما دخل الابن على أبيه ، قال الابن : يا أبى بلغنى أنك ستخرج ضيعة كذا لتقفها فى سبيل الله . قال عمر بن عبدالعزيز ؛ أفعل إن شاء الله . غدا نبرمها . قال الابن متسائلا : هل يبقيك الله إلى غد ؟ فقال عمر بن عبدالعزيز وهو يبكى : الحمد لله الذى جعل من أولادى من يعيننى على الخير .

لقد أراد الابن من أبيه أن يسارع إلى الخير ، فمادامت هبة الخير قد هبَّت عليه فعلى الإنسان أن يأخذ بها ؛ لأن الإنسان لا يدرى أغيار الأحداث فى نفسه ، لذلك فعليه أن يسارع إلى اقتناص هبة الخير ، وها هو ذا ابن عمر بن عبدالعزيز يعين والده على الخير ، لكننا فى زماننا قد نجد من الأبناء من يطلب الحَجْر على أبيه إن فكر الأب فى فعل الخير ، متناسين قول الحق : « ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين » .

وهنا يبرز سؤال هو : لأى عمل هم صالحون ؟

والإجابة تقتضى قليلا من التأمل . إننا نقول فى حياتنا : « إن فلانا رجل صالح » ومقابله « رجل طالح » . والإنسان صالح للخلافة ، فقد جعل الله آدم وذريته خلفاء فى الأرض ، والرجل الصالح يرى الشىء الصالح فى ذاته فيترك هذا الشىء على ما هو عليه أو يزيده صلاحا . أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشىء الصالح فيفسده ، ولا يفعل صلاحا .

إن الرجل ـ على سبيل المثال ـ قد يجد بئرا يأخذ منه الناس الماء ، فإن لم يكن من أهل العزم فإنه يتركه على حاله . وإن كان طالحا فقد يردم البئر بالتراب . أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والعزم فهو يحاول أن يبدع فى خدمة الناس التى تستقى من البئر ، فيفكر ليبنى خزانا عاليا ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة ، ويخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت ، فيأخذ الناس المياه وهم فى المنازل ، إن هذا الرجل قد استخدم فكره فى زيادة صلاح البئر .

إذن فكلمة « رجل صالح » تعنى أنه صالح لأن يكون خليفة فى الأرض وصالح لاستعمار الأرض أى أن يجعلها عامرة ، فيترك الصالح فى ذاته ، أو يزيده صلاحا ، ويحاول أن يصلح أى أمر غير صالح . الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عن عمق علم ، فلا يقدم على العمل الذى يعطى سطحية نفع ثم يسبب الضرر من بعد ذلك .

ومثال ذلك حين اخترعوا المبيدات الحشرية ظنوا أنهم تغلبوا على الآفات فى الزراعة ، لكنهم لم يعرفوا أنهم قد أضروا بالزراعة وبالبيئة أكثر مما أفادوا ، لذلك عادوا يقولون : لا تستعملوا هذه المبيدات ؛ لأنها ذات أضرار جمة ؟ ولهذا لابد أن يكون كل عمل قائما على قواعد علمية سليمة ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقوله سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد أكرم الله من آمن من أهل الكتاب فوصفهم الوصف الحقيقى ، فهم يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون فى الخيرات ، ثم يحكم الحق عليهم حكما عاما بأنهم من الصالحين لعمارة الكون والخلافة فى الأرض .

ومن بعد ذلك يضيف الحق :

﴿ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

إنه سبحانه يعطيهم الجزاء العادل ، وإن شيئا لا يضيع عنده وهو الحق ؛ فالخير الذى يفعلونه لن يُجحد لهم أو يُستر عن الناس ؛ لأنه سبحانه عليم بالمتقين ، فمن الجائز أن يصنع إنسان الأعمال ولا يراها أحد ، أما الحق فهو يرى كل عمل ، وهو الذى يملك حسن الجزاء . وبعد ذلك يعود الحق لتبيان حال الذين كفروا فيقول :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

يظن الكافرون أن الأموال والأولاد قد تغنى من الله ، إنهم لا يحسنون التقدير ، فالأموال والأولاد هما من مظان الفتنة مصداقا لقوله تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الأنفال)

ومادامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أن نفهم الأمر على حقيقته ؛ فالفتنة ليست مذمومة فى ذاتها ؛ لأن معناها اختبار وامتحان ، وقد يمر الإنسان بالفتنة ، وينجح .

كأن يكون عنده الأموال والأولاد ، وهم فتنة بالفعل فلا يغره المال بل إنه استعمله فى الخير ، والأولاد لم يصيبوه بالغرور بل علمهم حمل منهج الله وجعلهم ينشأون على النماذج السلوكية فى الدين ، لذلك فساعة يسمع الإنسان أى أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيىء بل عليه أن يتذكر أن الفتنة هى اختبار وابتلاء وامتحان ، وعلى الإنسان أن ينجح مع هذه الفتنة ؛ فالفتنة إنما تضر من يخفق ويضعف عند مواجهتها . والكافرون لا ينجحون فى فتنة الأموال والأولاد ، بل سوف يأتى يوم لا يملكون فيه هذا المال ، ولا أولئك الأولاد ، وحتى إن ملكوا المال فلن يشتروا به فى الآخرة شيئا ، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولا بنفسه ، مصداقا لقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة لقمان)

إن كل امرىء له يوم القيامة شأن يلهيه عن الآخرين ، والكافرون فى الدنيا مشغولون بأموالهم وأولادهم وعندما نتأمل قوله : « لن تغنى عنهم » نجد أننا نقول : أغناه عن كذا أى جعله فى استغناء فمن هو الغنىُّ إذن ؟ الغنى هو من تكون له ذاتية غير محتاجة إلى غيره ، فإن كان جائعا فهو لا يأكل من يد الغير ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى غنى النفس »[1] .

والمقصود بالعَرَض هو متاع الحياة الدنيا قلّ أو كثر ، ومتاع ، وعرض الدنيا كالماء المالح ، كلما شربت منه ازددت ظمأ . إن الكافر من هؤلاء يخدع نفسه ويغشها ، ويغتر بالمال والأولاد وينسى أن الحياة تسير بأمر من يملك الملك كله ، إن الكافر يأخذ مسألة الحياة فى غير موقعها ، فالغرور بالمال والأولاد فى الحياة أمر خادع ، فالإنسان يستطيع أن يعيش الحياة بلا مال أو أولاد . ومن يغتر بالمال أو الأولاد فى الحياة يأتى يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرة عليه ، لماذا ؟ لأنه كلما تذكر أن المال والأولاد أبعداه عما يؤهله لهذا الموقف فهو يعانى من الأسى ويقع فى الحسرة .

(١) رواه أحمد فى المسند ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .

ويقول الحق سبحانه عن هذا المغتر بالمال والأولاد وهو كافر بالله : « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وهذا مصير يليق بمن يقع فى خديعة نفسه بالمال أو الأولاد . وكيف يكون الإنسان صاحباً للنار؟ لنعرف أولا معنى كلمة « الصاحب » ، إن الصاحب هو الملازم ؛ فنحن نقول : فلان صاحب فلان أى ملازمه ، لكن من أين تبدأ الصحبة ؟ . إن الذى يبدأ الصحبة هو « فلان » الأول ، لـ« فلان الثانى » الذى يقبل الصحبة أو يرفضها ، وهذا أمر قد نعرفه وقد لا نعرفه ، وعن الصحبة مع النار نرى أن الإنسان يلوم نفسه ويؤنبها على أنه اختار النار وصاحبها .

ألسنا نرى فى الحياة إنسانا قد ارتكب ذنبا وأصابه ضرر ، فيضرب نفسه ويقول : أنا الذى استأهل ما نزل بى وأستحقه ، وكذلك الإنسان الكافر يجد نفسه يوم القيامة ، وهو يدخل النار ، ويقول لنفسه : أنا أستحق ما فعلته بنفسى ، وتقول النار لحظتها ردا على سؤال الحق لها :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة ق)

وفى الآخرة نرى أبعاض الإنسان الكافر وهى تبغض صاحبها ، فإذا كان للإنسان ولاية على أبعاضه فى الدنيا ، وهى خاضعة لإرادته إلا أن هذه الأبعاض تأتى يوم القيامة وصاحبها خاضع لإرادتها . إن الظالم يقول ليده فى الدنيا ، « اضربى فلانا وشددى الصفعة » فلم تعصه يده فى الدنيا ؛ لأن الله خلقها خاضعة لإرادته ، والظالم لنفسه بالكفر يأمر لسانه أن ينطق كلمة الكفر ، فلا يعصاه اللسان فى الدنيا ، لماذا ؟ لأن أبعاضه خاضعة لإرادته فى الحياة الدنيا ، لكن ذلك الكافر يأتى يوم القيامة وتنعزل عنه إرادته ، فتتحرر أبعاضه ، ولا تكون مرغمة على أن تفعل الأفعال التى لا ترتضيها ، وتتمرد الأبعاض على صاحبها ، وتشهد عليه . قد يقول قائل : ولكن الأبعاض هى التى تتعذب . نعم ، ولكنها تقبل العذاب تكفيرا عما فعلت .

إذن فالصحبة تبدأ من الأبعاض للنار « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فإن رأينا كفارا يعملون خيرا فى الدنيا فليحذر كل منا نفسه قائلا : إياك يا نفس أن

تنخدعى بذلك الخير . لماذا ؟ لأن الكافر يعيش كفر القمة ، وكل عمل مع كفر القمة هو عمل حابط عندالله ، وإن كان غير حابط عند الناس . وبعد ذلك يقول الحق عن هؤلاء الكافرين :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

إن الحق يصف ما ينفقه هؤلاء الكافرون فى أثناء الحياة الدنيا وهم بعيدون عن منهج الله إنه ـ سبحانه ـ يشبهه بريح فيها صر ، أى شدة ، فمادة « الصاد والراء » تدل على الشدة والضجة والصخب ، ومثال ذلك ما قاله الحق عن امرأة إبراهيم :

﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إنها أتت وجاءت بضجيج ؛ لأنها عجوز وعقيم ويستحيل عادة أن تلد . ومثل قوله الحق :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

والريح الصرصر هى التى تحمل الصقيع ولها صوت مسموع .

وقوله الحق : « كمثل ريح فيها صر » أى أن الريح جعلت البرد شائعا وشديدا ، فالبرد قد يكون فى منطقة لا ريح فيها ، ويظل باقيا فى منطقته تلك ، وعندما تأتى

الريح فإنها تنقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به . وماذا تفعل الريح التى فيها شِدة برد ؟ إنها تفعل الكوارث ، ويقول عنها الحق : « أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته » وساعة نسمع كلمة « حرث » فنحن نعرف أنه الزرع ، وقد سماه الله حرثًا ، ليعرف الإنسان إنه إن لم يحرث فلن يحصد ، يقول الحق :

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

كأن الريح العارمة تفسد الحرث ، وهو العملية اللازمة للإنبات ؛ فالحرث إثارة للأرض ، أى جعل الأرض هشة لتنمو فيها الجذور البسيطة ، وتقوى على اختراقها ، وأخذ الغذاء منها ، وهذه الجذور تستطيع ـ أيضا ـ من خلال هشاشة الأرض المحروثة أن تأخذ الهواء اللازم للإنبات .

إن الحق سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل وهو عن جماعة غير مؤمنين أنفقوا أموالهم فى الخير ، لكن ذلك لا ينفعهم ولا جدوى منه . مصداقا لقوله تعالى : « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » وهكذا يكون مصير الإنفاق على نية غير مؤمنة ، كهيئة الحرث الذى هبت عليه ريح فيها صوت شديد مصحوب ببرد ، فالـ« صر » فيه الشدة والبرودة والعنف ، وحاتم الطائى كريم العرب يقول لعبده :

أوقد ؛ فإن الليل ليل قر ... والريح يا غلام ريح صر

عَلَّ يرى نارك من يمر ... إن جلبت ضيفا فأنت حر

إن هذا الرجل الكريم يطلق سراح العبد إذا ما هدى ضيفًا إلى منزل حاتم الطائى . « والليل القر » : هو الليل الشديد البرودة . و« الريح الصر » : هى

الريح الشديدة المصحوبة بالبرد . ونعرف فى قُرَانَا أن الصقيع ينزل على بعض المزروعات ، فيتلفها . ونلاحظ هنا أن الحق سبحانه قد جاء بهذه الآية الكريمة بعد أن أوضح لنا فى الآية السابقة عليها أن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا ومصيرهم النار ، وهو سبحانه يدفع أى شبهة تطرأ على السامع ، وهى أن هذه الأموال التى أنفقها الكافرون لعمل الخير ، لن تغنى عنهم شيئا فى الآخرة ؛ لأنهم لا يملكونها . لماذا ؟

لأن العمل إنما يراد للثواب عليه ، والنية دائما هى التى تحدد الهدف من كل حركة . . فهل كان فى نية الكفار حين أنفقوا أموالهم فى الخير الذى يعلمه الناس كالمساعدات ، وتفريج الكرب ، وإنشاء المستشفيات هل كان فى بال هؤلاء الكفار رَبُّ هذه النعم ، أو كانوا يعملونها طمعا فى جاه الدنيا ، وتقدير التاريخ وذكر الإنسانية ؟

لاشك أنهم كانوا يعملونها للجاه ، أو للتاريخ ، أو للإنسانية ؛ لأنهم لا يؤمنون بما وراء ذلك ، فهم لا يؤمنون بوجود إله ، ولا يؤمنون بوجود يوم آخر يُحاسبون فيه على ما قدموا . وقلنا من قبل : إن الذى يعمل عملا فليطلب أجره ممن عمل له ، وماداموا قد عملوا للدنيا وذكرها ، وجاهها ، والفخر فيها ، فقد أعطتهم الدنيا كل شىء .

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلا ، وهو الذى يضرب الأمثال للناس لعلهم يتذكرون . ومعنى المثل : أن يأتى إلى أمر معنوى قد يغيب عن بعض العقول فهمه ، فيشخصه ويمثله بأمر حسى يعرفه الجميع ، ونحن نعرف أن المحسات هى أصل المعنويات فى الفهم . ونعرف أن الطفل أول ما تتفتح إدراكاته يدرك الشىء المحس أولا ، ثم بعد ذلك يكوّن من المحسات المعقولات .

فالطفل ـ على سبيل المثال ـ يرى نارا فيمسكها فتحرقه ، فيتكون عند الطفل اقتناع بأن النار محرقة . ويشرب الطفل عسلا ، فيجده حلوا ، فيتكون عنده اقتناع بأن العسل حلو الطعم ، ويأكل الطفل شيئا مرا كالحنظل ، فتتكون عنده قضية معلومة وهى أن هذا الشىء مر الطعم ، فكل المعلومات التى يعرفها الإنسان بوسائل

إدراكه المتعددة إنما تأتى من الأمور المحسة أولا .

والأمور المحسة ـ كما علمنا ـ وسائلها الحواس الخمس الظاهرة ، وهى : العين لترى ، والأذن لتسمع ، والأنف ليشم ، واللسان ليذوق ، والأنامل لتلمس ، وهكذا نعرف أن كل حاسة ظاهرة لها غاية فى الإدراك . والإنسان يتمتع بحواس أخرى ندرك أعمالها ، ولكنا لا ندرك أجهزتها أو آلاتها .

مثال ذلك : حاسة البعد وهى أن يعرف الإنسان هل الشيء الذى يراه قريب منه أو بعيد عنه ؟ وكذلك حاسة الثقل فيحمل الإنسان الشيء فيعرف مدى ثقله ، إنه يدرك ذلك الثقل بحاسة غير الحواس الخمس الظاهرة ، هذه الحاسة هى حاسة الثقل يكتشف بها الإنسان أن شيئا أثقل من شيء آخر ؛ ذلك أن العضلات التى تحمل الشيء تعرف قدر الجهد المبذول فى الحمل . وهناك حاسة أخرى غير ظاهرة هى حاسة « البَين » فيمسك الإنسان القماش بأنامله ليعرف هل سمك هذا القماش أكبر من سمك قماش آخر ؟ ولمعرفة سمك الشيء لابد أن يكون واقعا بين لامسين . إذن فهناك حواس كثيرة تربى المعانى عندنا ؛ فكل الإدراكات بنت الحس ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

هذه هى الوسائل للإدراك ، وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولا لأنهما الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك « الأفئدة » وهى المختصة بالمعانى والقلبيات وغيرها ، فإذا أراد الله أن يضرب مثلا فى أمر معنوى قد تختلف فيه العقول فهو سبحانه يأتى بأمر حسىّ تتفق فيه الحواس . ونعلم أن فى اللغة أمرا اسمه « التشبيه » ، فعندما يجهل إنسان شيئا يقول لمعلمه : شبه لى الأمر الذى أجهله بأمر أعرفه . والإنسان منا قد يسأل صاحبه : أتعرف فلانا ؟ فيقول الصاحب : لا أعرفه ، فيقول الإنسان منا لصاحبه : إن فلانا الذى لا تعرفه يساوى فلانا فى الطول ، ويساوى فلانا فى اللون . وهكذا ينتقل الإنسان من أمر

لا يعرفه إلى أمر يعرفه . والحق سبحانه يضرب لنا المثل بالأمور الحسية ، لنفهم الأمور المعنوية ، والله يوضح لنا أن الذين كفروا ساعة تكون لهم آلهة متعددة فملكاتهم تصاب بالاضطراب يقول ـ سبحانه ـ :

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إنه سبحانه يوضح لنا بالمثل الواضح مصير وحال رجل مملوك لعدد من الشركاء ، والشركاء الذين يملكون هذا العبد ليسوا متفقين ، بل بينهم نزاع وشقاق ، وبطبيعة الحال لابد أن يكون هذا العبد مرهقا ، وهكذا تكون قضية الشرك بالله ، إن العبد فى مثل هذه الحالةيكون مُشتّتاً وموزع النفس بين الذين يملكونه وهم متشاكسون ، أما قضية التوحيد فالحق يشبهها بالقول : « ورجلا سلما لرجل » .

وهكذا ينقلنا الحق سبحانه ـ رحمة بنا ـ من المعنى العقدى العالى إلى معنى محس من الجميع ، لنرى أن الرجل المملوك لسيد واحد يتلقى أوامره من واحد فقط ، وكذلك يريد الله فى هذه الآية أن يضرب مثلا لمن ينفق شيئا على غير نية إرضاء الله فى طاعته ، فمهما أنفق هذا الإنسان فإن إنفاقه حابط . ونحن عندما نقرأ أمثال القرآن الكريم علينا ألا نأخذ جزئية فقط ، لا ، لكن يجب أن نأخذ الجملة كلها لنفهم المثل كله كصورة مؤتلفة مثلما ضرب الله لنا مثلا بالشركاء المتشاكسين الذين يملكون رجلا ، فعلينا إذن ألّا نأخذ المثل بحرفيته ، ولكن نأخذ الأمر بمجموع المثل . مثال آخر ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فهل الحياة الدنيا كالماء ؟ لا ، ولكن قصة الحياة كلها ، تشبه القصة التى يضربها الحق كمثل ، الماء حين ينزل يختلط بالأرض ، وبعد ذلك تهتز ، فتعطى نباتا ، والنبات ينتج الزهر الجميل ، وبعد ذلك ينتهى إلى هشيم ، هكذا هى الدنيا فى

زخرفتها ؛ فالبداية مزهرة ، فيها نضارة وخضرة وبهجة ، ونهاية مؤلمة ومدمرة .

إذن فالحق سبحانه ينقل لنا معنى الحياة الدنيا ويشبهها بالأزهار والنبات ونهايته أن يصبح هشيما تذروه الرياح ، وهو ما يقوله فى موضع آخر من القرآن الكريم .

﴿ فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يونس)

وعندما نمعن النظر فى قوله الحق :

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

نجد فى هذه الآية « مشبها » و« مشبها به » ، المُشَبَّه هم القوم الذين ينفقون أموالهم بغير نية الله ، أى كافرون بالله ، والمُشَبَّه به : هو الزرع الذى أصابته الريح وفيها الصر ، والنتيجة أنه لا جدوى هنا ، ولا هناك .

ولماذا تصيب الريح حرث قوم ظلموا أنفسهم ، وهل لا تصيب الريح حرث قوم لم يظلموا أنفسهم ؟

إن الذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة ، مثلهم فى ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة القلم)

لقد جزاهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلا لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ؟ إننا نرى ذلك فى الحياة ، والرجل الذى لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة ، ويصبر على كارثته ، يأخذ الجزاء والثواب من الله ، ولعل الله قد أهلك بها مالا كانت الغفلة قد أدخلته فى ماله من طريق غير مشروع .

هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء ، أو تكون تطهيرا للمال . أما الذى ينفق على غير نية الله وهو كافر ، فلا ثواب له .

ويذيل الحق الآية بقوله « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » فهو سبحانه لم يظلم الكافرين حين جعل نفقتهم بدون جدوى ولا حصيلة لها عنده ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، لأنهم أنفقوا النفقة على غير هيئة القبول ، وهم الذين صنعوا ذلك عندما ظلموا أنفسهم بالكفر فَحَبطت أعمالهم ، وتلك هى عدالة الحق سبحانه وتعالى :

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

حين يخاطب الله المؤمنين ويناديهم بقوله : « ياأيها الذين آمنوا » فلتعلم أن ما يجيء بعد ذلك هو تكليف من الحق سبحانه . فساعة ينادى الحق المؤمنين به ، فإنه ينادى ليكلف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا من آمن به ، أما حين يدعو غير المؤمن به إلى رحاب الإيمان ، فإنه يثير فيه القدرة على التفكير ، فيقول له :

فكّر فى السماء ، فكّر فى الأرض ، فكّر فى مظاهر الكون ، حتى تؤمن أن للكون إلها واحدا . فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول له مادمت قد آمنت بالإله الواحد ، فَتَلَقَّ عن الإله الحُكم .

إن الحق حين يقول : « ياأيها الذين آمنوا » فهو سبحانه يخاطب بالتكليف المؤمنين به ، وهو لا يكلف بـ « افعل » و« لا تفعل » إلا من آمن ، أما من لم يؤمن فيناديه الله ليدخل فى حظيرة الإيمان : « ياأيها الناس اعبدوا ربكم » فإذا ما دخل الإنسان فى حظيرة الإيمان فالحق سبحانه وتعالى يكرم هذا المؤمن بالتكليف بـ « افعل » و« لا تفعل » ومادام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق ، القيوم ، فليسمع من الإله ما يصلح حياته . ويجيء فى بعض الأحيان ما ظاهره أن الله ينادى مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان كقول الحق : « ياأيها الذين آمنوا آمنوا » .

ويتساءل الإنسان كيف ينادى الله مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان ؟ وهنا نرى أن المطلوب من كل مؤمن أن يؤدى أفعال الإيمان دائما ويضيف لها ليستمر ركب الإيمان قويا ، فالحق حين يطلب من المؤمن أمرًا موجودا فيه ؛ فلنعلم أن الله يريد من المؤمن الاستدامة على هذا اللون من السلوك الذى يحبه الله ، وكأن الحق حين يقول : « ياأيها الذين آمنوا آمنوا » إنما يحمل هذا القول الكريم أمرًا بالاستدامة على الإيمان ، لأن البشر من الأغيار . ونحن نعرف أن الله أفسح بالاختيار مجالا لقوم آمنوا فارتدوا ، فليس الأمر مجرد إعلان الإيمان ثم تنتهى المسألة ، لا ، إن المطلوب هو استدامة الإيمان .

وحين نقرأ قول الحق : « ياأيها الذين آمنوا » فلنفهم أن هناك تكليفا جديدا ، ومادام فى الأمر تكليف فعنصر الاختيار موجود ، إذن فحيثية كل حكم تكليفى من الله له مقدمة هى : « ياأيها الذين آمنوا » ولا تبحث أيها المؤمن فى علة الحكم ،

وتسأل: لماذا كلفتنى يارب بهذا الأمر ؟ فليس من حقك أيها المؤمن أن تسأل : « لماذا » مادمت قد آمنت ؛ فالحق سبحانه لم يكلف إلا من آمن به ، فإذا كنت ـ أيها المؤمن ـ قد آمنت بأنه إله صادق قادر حكيم فأمن الله على نفسك ، ونفذ مطلوب الله بـ « افعل » و« لا تفعل » سواء فهمت العلة أم لم تفهمها . وسبق أن ضربنا المثل ومازلنا نكرره .

إن المريض الذى يشكو من سوء الهضم بعد تناول الطعام يفكر أن جهازه الهضمى مصاب بعلة ، ويفكر فى اختيار الطبيب المعالج ويختار طبيبا متخصصا فى الجهاز الهضمى ، ويذهب إلى هذا الطبيب . وهنا ينتهى عمل العقل بالنسبة للمريض ؛ فقد اختار طبيبا وقرر الذهاب إليه ، والطبيب يجرى الفحص الدقيق ، ويطلب التحاليل اللازمة إن احتاج الأمر ، ويشخص الداء ، ثم يكتب الدواء ، وحين يكتب الطبيب الدواء للمريض ، فإن المريض لا يصح أن يقول للطبيب : لن آخذ هذا الدواء إلا إذا أقنعتنى بحكمته . بل عليه أن ينفذ كلام الطبيب ، وهكذا يطيع المريض الطبيب ، وكلاهما مساوٍ للآخر فى البشرية ، فكيف يكون أدب الإنسان مع خالقه ؟ إن كل عمل العقل عند المؤمن هو أن يؤمن بالله ، وبعد أن آمنت ـ أيها المؤمن ـ بالله حكيما ، فَتَلَقَّ عن الله الحكم ؛ لأنه مأمون على أن يوجهك لأنك أنت صنعته .

إن الحق يأمر المؤمن بالصلاة ، وعلى المؤمن أن يؤديها ، ولا يبحث عن علة الصلاة كأنها رياضة مثلا ، لا ، إن الأمر صادر من الحق بالصلاة ، وحين تصلى ، فإنك تلتفت إلى أن نفسك قد انشرحت بالصلاة وشعرت بالراحة ، فتقول لنفسك : ما أحلى راحة الإيمان ؛ هذه هى علة الحكم الإيمانى . إن علة الحكم الإيمانى يعرفها المؤمن بعد أن ينفذه ، ولذلك نجد الحق من فضل كرمه ، يقولنا لنا :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

فأنت ساعة أن تتقى الله فى الحكم ، يعطيك العلة ، ويعطيك راحة الإيمان ، إنك أيها العبد لا تسأل أولا عن الاقتناع بالعلة حتى تنفذ حكما لله ، لأن الحق

سبحانه قد يؤجل بعض حيثيات الأحكام لخلقه قرونا طويلة ، ومثال ذلك أننا ظللنا لا نعرف علة حكم من الأحكام لمدة أربعة عشر قرنا من الزمان مثل تحريم أكل لحم الخنزير ، فهل كان على العباد المؤمنين أن يؤجلوا أكل لحم الخنزير أربعة عشر قرنا إلى أن يمتلكوا معامل للتحليل حتى نعرف المضار التي فيه ؟ تلك المضار التي ثبتت معمليا .. لا .

إن العباد المؤمنين لم يؤجلوا تنفيذ الحكم ، ولكنهم نفذوه ، واكتشف أحفاد الأحفاد أن فيه ضررًا ، وهذا يدفعنا إلى تنفيذ كل حكم لا نعرف له علة ، إن هذا الحكم له حكمة عند الله قد لا يستطيع عقل الإنسان أن يفهمها ، ولكن ستأتى أشياء توضح بعض الأحكام فيما لم يكن يعرفه الإنسان ، وتعطينا تلك الإيضاحات الثقة في كل حكم لا تعرف له علة ، وتصبح علة كل حكم هى : « ياأيها الذين آمنوا » .

إن الحق بهذا القول ينادى كل عبد من عباده : يا من آمنت بى إلها خذ منى هذا التكليف . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ عندما يقول الطبيب : يا من صدقت أنى طبيب لمرضك خذ هذا الدواء وستشفى بإذن الله .

وعندما يزور الإنسان مريضا ويسأله : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فالمريض يجيب : لقد كتب الطبيب لى هذا الدواء ، فما بالنا بتنفيذ أحكام الله ؟ إنه يجب أن ننفذها لأن الله قالها ، ولذلك فالعاقلون بعمق وجدية يختلفون عن مُدعى العقل بسطحية ، هؤلاء العاقلون الجادون يقولون : إن هذا العقل مطية يوصلك إلى باب السلطان ولكن لا يدخل معك عليه . فكأن العقل يوصلك إلى أن تؤمن بالله ، ولكنه لا يحشر نفسه فيما ليس له قدرة عليه .

إن الحق سبحانه فى هذا التكليف القادم : « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم » أى إنكم مادمتم قد آمنتم ، فعليكم الحفاظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه نزغ الشيطان وكيد الأعداء . إن نزغ الشيطان وكيد الأعداء إنما يأتى من البطانة التى تتداخل مع الإنسان .

ولنفهم كلمة « بطانة » جيدا ، إن بطانة الرجل هم خاصته ، أى الناس الذين

يصاحبهم ويجلسون معه ويعرفون أسراره ، وكلمة « بطانة » مأخوذة أيضا من بطانة الثوب ؛ فنحن عندما نمسك أى قطعة من ثياب نرى أن الثوب خشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعومة وتسميلهم وتستعبدهم . ولذلك نجد النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « الأنصار شعار ، والناس دثار »[١] .

« والشعار » هو الثوب الذى يلامس شعر الجسد ، والنبى صلى الله عليه وسلم يُعلى من قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية بمودة وحب . وهكذا نعرف أن كلمة « بطانة » مأخوذة ـ كما قلنا ـ من بطانة الثوب ، لأنها التى تلتحم بالجسم حتى تحميه ؛ فنحن نرتدى الصوف ليعطينا الدفء ، ونضع بينه وبين الجسم بطانة لنبعد عن الجسم خشونة الصوف ، ويسمون البطانة بالوليجة ، أى التى تدخل فى حياة الناس ، وكل شر فى الوجود من هذه البطانة .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معصوم ومُوحًى إليه وله من الصحابة ما يطمح أى عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضا من وصفه فى حوار بين سيدنا الحسين رضوان الله عليه و أبيه سيدنا على كرم الله وجهه قال الحسين :

ياأبى قل لى عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال على كرم الله وجهه :

كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . وفى الحديث : « كان رسول الله يكثر الذكر »[٢] .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمن كان قائما فقعد فقد أدى حركة هى القعود ، ومن كان جالسا فقام ، فقد أدى حركة هى القيام . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل حركة ، شاكرا نعمة الخالق عز وجل ، والإنسان منا يستطيع أن يسأل نفسه : كم عضلة يحركها الإنسان حتى يقعد أو يقوم ؟

---

(١) رواه البخارى فى المغازى ، ورواه مسلم فى الزكاة ، ورواه ابن ماجه فى المقدمة ، ورواه أحمد فى مسنده .

(٢) رواه النسائى فى الجمعة .

إنها أعداد كبيرة من العضلات تتحرك لتوازن ارتفاع الجسم أو جلوسه ، وهى أعداد لا يعرفها الإنسان . فما الذى جعل هذه الأجهزة الصماء تفهم مراد الإنسان ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القيام ، فإنه يقوم ، وبمجرد أن يحاول الإنسان القعود ، فإنه يقعد ؟ إنك إذا رفعت يدك لا تعرف ما هى العضلات التى تتحرك لترفع اليد ، وتلك إدارة عالية يقول عنها الشاعر :

«وفيك انطوى العالم الأكبر»

كأن العالم الكبير قد انطوى وصار فى داخلك أنت . إنك إن أردت أن تنام فإنك تنام ، وتحب أن تقوم فتقوم . ويبين لك الحق أن أوامرك لعضلاتك وتحكمك فى مملكة جسدك ، هى من تسخير الله ؛ تدرك ذلك حين تنظر حولك فتجد أنه سبحانه قد سلب أحدا غيرك القدرة على رفع الذراع . وإياك أن تظن أن الحركة قد واتتك لمجرد أن لك يدا ، لا ، إن غيرك قد تكون له يد ؛ ولكنه لا يستطيع أن يأمرها فتتحرك . وهكذا نعرف أن كل الإرادات فى النفس إنما تتحرك بتسخير الحق لها لخدمة الإنسان .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا استيقظ أحدكم فليقل:الحمد لله الذى ردّ علىّ روحى وعافانى فى جسدى وأذِن لى بذكره »[1] .

انه يُوجه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعلمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أن نذكر الذى خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

وليسأل كل منا نفسه : كم حركة يتطلبها أمر من الإنسان بأن يحك ظهره مثلا ؟ إنه عدد غير معروف من الحركات . وهكذا علينا أن نحسن الأدب مع الله بأن نذكره فى كل حركة فهو الذى خلق كل إنسان منا صالحا لكل هذه القدرات .

---

(١) رواه ابن السنى .

ونعود إلى وصف على كرم الله وجهه مجلسَ الرسول صلى الله عليه وسلم : كان لا يجلس ولا يقوم إلا عن ذكر .

ولنتنبه إلى دقة الرسول فى التعامل مع البطانة من البشر ، فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يوطن الأماكن وينهى عن إيطانها . ويوطن المكان ، أى أن يخصص مكانا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان الرسول يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته ، فلا أحد يجلس دائما بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخرون أنه صاحب حظوة ؛ فكلهم سواسية ونحن نرى فى عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانا فى المسجد ، وهذا منهى عنه . فعن ابن عمرو رضى الله عنهما قال : (نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نقرة الغراب وافتراش السبع وأن يوطّن الرجل المكان فى المسجد كما يوطن البعير »[1] .

ويضيف على كرم الله وجهه فى وصف مجلس رسول الله : وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس ، « وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ، يعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك »[2] .

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهى به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا المثل حتى تتنوع اللقاءات ؛ فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وغدا يجلس كلاهما بجانب اثنين جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بتنوع اللقاءات .

ويقول على كرم الله وجهه : وكان رسول الله يعطى كل جلسائه نصيبهم من مجلسه حتى لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعطى نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والنسائى فى الصلاة والنهى عن نقرة الغراب أى تخفيف السجود بقدر وضع الغراب منقاره ، وافتراش السبع : هو بسط الذراعين فى السجود وعدم رفعهما ، وأن يوطن المكان : أى يلازمه فلا يصلى فى غيره .

(٢) رواه الطبرانى .

واحد فى مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطى كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ؛ وذلك حتى يعرف كل جليس للرسول أن المؤمنين سواسية ، وأنّه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الناس كافة ؛ وليس رسولا إلى قوم بعينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذى بعثه الله إليه .

هكذا كان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعطى القدوة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن التحام الناس بعضهم ببعض ؛ قد يسبب لواحد استغلال الالتحام فى غير صالح الإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه : ياأيها المؤمنون تنبهوا إلى أنكم فى معسكر من غير المؤمنين يقاتلكم ويعاند إيمانكم ، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم ، بل لابد أن يكيدوا لكم ، وهذا الكيد يتجلى فى أنهم يدسون لكم أشياء ، وينفذون إليكم .

ونعرف جميعا أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ؛ فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والجوار ، والأخوة من الرضاعة ، لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقولن مؤمن:هذا قريبى ، أو هذا صديقى ، أو هذا حليفى ، أو هذا أخى من الرضاعة ، فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا فإياكم أن تتخذوا أناسا يتداخلون معكم بالود ؛ لأن الشر يأتى من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم ستذهب أو تضيق ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان ، وهم ـ الكفار ـ لا يقصرون فى هذا أبدا ، لذلك يأتى الأمر من الحق :

ياأيها الذين آمنوا ، احموا هذا الإيمان فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلا يفسد عليكم أمور دينكم ؛ لأنهم لن يهدأوا ، لماذا ؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما يلى : « لا يألونكم خبالا » أى لا يقصرون أبدا فى الكيد لكم ، والخبال:هو الفساد للهيئة المدبرة للجسم وهو العقل ، ونحن نسمى اختلال العقل « خبلا » .

إن الحق يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ

﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالمنهى عنه ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهى عنه هو أن تتخذ بطانة من غير المؤمنين ؛ لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا تقصر فى لحظة واحدة فى أنها تريد للمؤمنين الخبال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يحبون العنت والمشقة للمؤمنين « ودوا ماعنتم » والحق سبحانه وتعالى لا يريد لنا العنت ، وفى هذا يقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

أى أنه سبحانه لو أراد ، لكلفكم بأمور كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يَسَّر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يودون إلا الخبال للمؤمنين ، ويحبون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمنا فأنت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخوا فى المؤمن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتوزع نفس المؤمن ، وبهذا النفخ تنقسم ملكات المؤمن على نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن القلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشآن عندما لا تعيش الملكات النفسية فى سلام وانسجام .

ونحن نرى ذلك فى المجتمعات التى وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية ميسرة كلها ، فالشيخوخة مُؤَمَّنة ، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية ، ودخل الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون فى تعب ، وترتفع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشذوذ ، والسبب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم النفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان ، ويطبق

تعاليم ما يؤمن به . فالرجل ـ على سبيل المثال ـ حين ينظر إلى حلاله ، أى زوجته ، ينظر إليها براحة ويشعر باطمئنان ؛ لأن ملكاته النفسية منسجمة ، أما عندما تتجه عيناه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يفزع وتتخبط ملكاته .

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين : إياكم من البطانة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبدا ولا يتركون جهدا من الجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يدخلوكم فى مشقة . والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف والاضطراب النفسى وتشتت الملكات مستغلا القرابة والصداقة ، مطالبا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر ؛ لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحس بالمشقة . والكافرون لا يتركون أى فرصة تأتى بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتنموها . « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم » .

ومادامت البغضاء قد بدت من أفواههم فكيف نتخذهم بطانة ؟ إنك حين تصنع لنفسك جماعة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضا من المنافقين غير المنسجمين مع أنفسهم . والمنافق له لسان يظهر خلاف ما يبطن . وعندما يذهب المنافق إلى غير المؤمنين فإن لسان المنافق ينقل بالسخرية كلام المؤمن .

هكذا تظهر البغضاء من أفواه المنافقين المذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا ينتمون إلى الإيمان ولا ينتمون إلى الكفر ، والذى يصل المؤمنين من بغضاء هؤلاء قليل ؛ لأن ما تخفى صدورهم أكبر . وحين تبدو البغضاء من أفواههم ، فإما أن يقولوها أمام منافقين ، وإما أن يقولها بعضهم لبعض ، فيتبادلوا الاستهزاء والسخرية بالمؤمن،والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيما بينهم فالله يكشفهم ويفضحهم لنا نحن المؤمنين .

إن الله تعالى يكشف بطلاقة علمه كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمنافقين أن يعلموا أن هناك إلها يرقب عملية الإيمان فى المؤمن حتى ينبهه إلى أدق الأشياء ، لكنهم كأهل كفر ونفاق فى غباء ، لقد كان مجرد نزول قول الحق:« قد بدت البغضاء من

أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » كان ذلك فرصة أمامهم ليدفعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم خالية من الحقد . لكنهم عرفوا أن الله قد علم ما فى صدورهم . إن الغيظ الذى فى قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد نضح على ألسنتهم ، ولكن مَن الذى نقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ما فى صدور الكافرين مما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله ـ جلت قدرته ـ قد فضحهم بما أنزل من قوله تعالى : « وما تخفى صدورهم أكبر » إذن لم يعد لمن آمن بالله حجة ؛ لأن الله أعطاه المناعات القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يدخروا وسعا أبدا فى إفساد انتمائهم لهذا الدين ، فيجب أن ينتبه المؤمنون .

وإذا ما دققنا التأمل فى تذييل الآية نجد أن الحق قال : « قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون » إذن ، فالآيات المنزلة من الله تعالى توضح ذلك ، وقد قلنا من قبل: إن الآيات ، إما أن تكون آيات قرآنية ، وإما أن تكون آيات كونية ، فالقرآن له آيات ، والكون له آيات . ولنسمع قول الحق بالنسبة للقرآن :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النحل)

وفى مجال الكون يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وهكذا نعلم أن الآية هى الشىء العجيب اللافت الذى يجب أن ننتبه إليه لنأخذ منه دستورا لحياتنا . وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطى المنهج ، والآيات الكونية

تؤيد صدق الآيات المنهجية . ويجب أن تتفطنوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات . والذى يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتفطنوا ، أن الآية الأولى بينت أنهم قد نهوا عن أن يتخذوا بطانة من دونهم - أى من غير المؤمنين - وها هى ذى الآية التالية تقول :

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾

ومازال الحديث والكلام عن البطانة ، وهويدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوى المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين ذاقوا حلاوة الإيمان حاولوا أن يغيروا من الكافرين . ولم يفلح الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يفلح الكافرون أيضا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا النفاق ، لذلك قالوا:« آمنا » . إن الآية تدلنا على أن المؤمنين قد عقلوا آيات الحق . ولماذا - إذن - جاء الحق بقوله :« تحبونهم ولا يحبونكم » ؟

لقد أحب المؤمنون الكافرين حين شرحوا لهم قضية الحق فى منهج الإسلام ، وأراد المؤمنون أن يجنبوا الكافرين متاعب الكفر فى الدنيا والآخرة ، وهذا هو الحب الحقيقى ، فهل بَادَلَهم الكافرون الحب ؟ لا ؛ لأن هؤلاء الكافرين أرادوا أخذ المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم المودة . ولم يستطع الكافرون تحقيق هذا المأرب ، ولذلك قالوا : « آمنا » ومعنى قولهم : « آمنا » يدلنا على أن موقف المسلمين كان موقفا صُلبا قويا ؛ لذلك لم يجد الكافرون بدًا من نفاقهم « وإذا لقوكم قالوا آمنا » قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء فى أفواههم ، ولم يكن سلوكهم مطابقا لما يقولون . وهنا بدأ المسلمون فى تحجيم وتقليل مودتهم للكافرين ؛ ولذلك

قال أهل الكفر : لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون . . وحتى يتجنبوا هذا الموقف ادعوا الإيمان فى الظاهر ، وينقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم ، ويصور الحق هذا الموقف فى قوله : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » فما هو العض ؟

إن العضَّ لغويا ، هو التقاء الفكين على شيء ليقضماه . وما الأنامل ؟ إنها أطراف الأصابع ، والأنامل فيها شيء من الدقة ، وشيء من خفة الحركة المأخوذة من خلية النمل ، ويسمون الأنامل أيضا البنان ، وعملية عض الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية قسرية . أى أن الفكر لا يرتبها ؛ فليس هناك من يرضى أن يظل مرتكبا لعملية عض أصابعه ، فعض الأصبع يسبب الألم ، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة قسرية نتيجة اضطراب وخلل فى الانفعال .

ومن أين يجىء الغيظ ؟.

لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين قيد شعرة عن منهج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون منها إلى المؤمنين لينشروا مفاسدهم ؛ ولذلك وقعوا فى الغيظ عندما لم يمكنهم المؤمنون من شيء من مرادهم .

إن الإنسان يقع أحيانا فريسة للغيظ حين لا يتمكن من إعلان غضبه على خصمه ؛ ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد فى فضله على هذا الإنسان ، وهنا يزداد هذا الخصم غيظا ومرارة ، أيضا نجد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يقابل السيئة التى يصنعها فيه آخر بسيئة ، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه ، ولكن يَتبع القول المأثور :

« إننا لا نكافىء من عصى الله فينا بأكثر من أن نطيع الله فيه »[1]

(١) هذا القول مسند إلى عبدالله بن مسعود رضى الله عنه عندما جاء رجل فقال له : إن لى جارا يؤذينى ويشتمنى ويضيق على فقال : « اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه » من كتاب « إحياء علوم الدين » للإمام الغزالى ـ فصل حقوق الجوار .

إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة ، وغيظا وحقدا على الإسلام وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب لقد كانوا جبالا إيمانية راسخة .

فخصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين ، لكنْ المسلمون يردون على سوء المعاملة بحسن المعاملة ، وساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يقعون فى بئر وحمأة الغيظ . وعندما يخلو الكافرون لأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ ، وهو كما أوضحت نتيجة الانفعال القسرى التابع للغضب والعجز عن تحقيق المأرب ؛ ذلك أن كل تأثير إدراكى فى النفس البشرية إنما يطرق مجالا وجدانيا فيها .

والمجال الوجدانى لابد أن يعبر عن نفسه بعملية نزوعية تظهر بالحركة ؛ فالإنسان عندما يسبب لواحد يعرفه لونا من الغضب فهو ينفعل بسرعة ويثور بالكلمات ، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب . أمَّا الذى لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه ؛ لأنه يخزن انفعالاته ، ويسيطر عليها ، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو ؛ ولذلك يقول الأثر : « اتقوا غيظ الحليم » فعندما تتجمع انفعالات جديدة فوق انفعالات قديمة متراكمة فى قلب الحليم فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل .

إذن فالإدراك ينشأ عنه وجدان ، فينفعل الإنسان بالنزوع الحركى . والتشريع الإسلامى لا يريد من الإنسان أن يكون حجرا أصم لا ينفعل ، لكنه يطلب من المسلم أن ينفعل انفعالا مهذبا ؛ ولذلك يضع الحق للمؤمن منهجا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إن القرآن يعترف بأن هناك من الأحداث ما يستدعى غيظ الإنسان ، والذى لا يغضب على الإطلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية ، والله يريد من الإنسان أن يكون إنساناً ، له عواطفه وشعوره وانفعالاته ، ولكن الله المربى الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان ، ولنا فى النبى صلى الله عليه وسلم القدوة

الحسنة ، فحين مات ولده إبراهيم :

قال عليه الصلاة والسلام : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[١] .

إن النبى صلى الله عليه وسلم يمزج بين العاطفة والإيمان ، فالعين تدمع ، والقلب يحزن ، والإنسان لا يكون أصمَّ أمام الأحداث ، إنما على الإنسان أن يكون منفعلا انفعالا مهذبا .

وعندما يعبِّر القرآن عن الإنسان السوىّ فهو لا يضع المؤمن فى قالب حديدى بحيث لا يستطيع أن يتغير فيقول سبحانه :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

إذن فليس المؤمن مطبوعا على الذلة ، ولا مطبوعا على العزة ، لكنه ينفعل للمواقف المختلفة ، فهذا موقف يتطلب ذلة وتواضعا للمؤمنين فيكون المؤمن ذليلا ، وهناك موقف آخر يتطلب عزة على الكافرين المتكبرين فيكون المؤمن عزيزا ، والحق سبحانه يقول عن المؤمنين :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية من سورة الفتح)

إن الرحمة ليست خلقا ثابتا ، ولا الشدة خلقا ثابتا ولكنَّ المؤمنين ينفعلون للأحداث ، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم ، وحين يكون فى مواجهة الكفار فهو قوى وشديد . والله سبحانه لا يريد المؤمن على قالب واحد متجمد ،

(١) رواه البخارى فى الجنائز ومسلم فى الفضائل ، وابن ماجه فى الجنائز ورواه أحمد فى المسند .

لذلك يقول الحق :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

إذن فالحق لم يمنع المؤمن من أن يعاقب أحدا على خطأ ، وذلك لأنه خلق الخلق وعليم بهم ، ولا يمكن أن يصادم طباعهم ، وذلك حتى لا يتهدد المؤمن فى إيمانه فيما بعد ، فالمؤمن لو ترك حقوقه فإن الكفار سيصولون ويجولون فى حقوق المسلمين ؛ ولهذا فالمؤمن يتدرب على توقيع العقاب حتى على المؤمن المخطئ ، وذلك ليعرف المؤمن كيف يعاقب أى مجترىء على حق من حقوق الله . والمؤمن أيضا مطالب بأن يرتقى بعقابه ، فهو إما أن يعاقب بمثل ما عوقب به ، وإما أن يرتقى أكثر ، ويستمع لِقول الحق :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

لقد وضع الحق منهج الارتقاء بعد أن أعطى المؤمن الحق فى توقيع العقاب قصاصا ، وهكذا لم يقسر الله طبع الإنسان ولو أراد سبحانه ذلك لما خلق هذا الطبع إنه سبحانه يوضح لنا أن هناك انفعالا بالغيظ ، وأن المؤمن عليه أن يحاول كظم الغيظ أى لا يعبر عن الغيظ نزوعيا ، فإن أخرج المؤمن هذا الأمر من قلبه فمعناه أنه قد برىء وشُفِىَ منه وارتقى .

إذن فكظم الغيظ هو ألا يعبر المؤمن عن الغيظ نزوعيا ، فإن سبّكَ أحدٌ فأنت لا تسبّه ، وهذا الكظم يعنى كتمان الانفعال فى القلب ، فإذا ارتقى المؤمن أكثر وتجاهل حتى الانفعال بذلك ، فإنه يُخرج الغيظ من قلبه ، وهو بذلك يرتقى ارتقاء

أعلى ، ويصفه الحق بأنه دخول إلى مرتبة الإحسان ، فهو القائل : « والله يحب المحسنين » وهكذا يحسن المؤمن إلى المسبب للغيظ بكلمة طيبة .

فماذا يكون موقف الذى تسبب فى غيظك أيها المؤمن وأنت قد كظمت الغيظ فى المرحلة الأولى وعفوت فى المرحلة الثانية وإن أخرجت الانفعال من قلبك ، وصلت إلى المرحلة الثالثة وهى التى تمثل قمة الإيمان إنها الإحسان . . « والله يحب المحسنين » لابد أن يراجع المسبب للغيظ نفسه ويندم على ما فعل .

إن الإسلام لم يتجاهل المشاعر الإنسانية عندما طالب المؤمنين أن يحسنوا لمن أساء إليهم ، فالذى يمعن النظر ويدقق الفهم يعرف أن الإسلام قد أعطى المؤمن الحق فى الطبع البشرى حين قال : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ولكنه ارتقى بالمؤمن . وعندما ننظر إلى هذا الأمر كقضية اقتصادية وتحسبها بـ« منه » و« له » فسنجد أنّ المؤمن قد كسب . . ومثال ذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ ساعة يجد الأب ابنا من أبنائه قام بظلم أخ له فإن قلب الأب يكون مع المظلوم . فهب أن إنسانا أساء لعبد من عباد الله فإن الله كربّ مربٍّ يغار له ونحن نعرف أن واحدا قال لعارف بالله :

أتحسن لمن أساء إليك ؟ فقال العارف بالله : أفلا أحسن لمن جعل الله فى جانبى ؟

ولنعد الآن إلى غيظ الكافرين من المؤمنين ، إن غيظ الكافر ناتج من أن خصمه المؤمن يحب له الإيمان وليس فى قلبه ضغينة بينما الكافر يغلى من الحقد ، وبسبب هذا الأمر يكاد يفقد صوابه ؛ لذلك يقول الحق : « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » .

و« خلوا » المقصود بها . أن الكافرين إذا ما أصبحوا فى مجتمع كفرى وليس معهم مسلم أعلنوا الغيظ من المؤمنين ، ولقد فعلوا هذا الأمر ـ عض الأنامل من الغيظ ـ فى غيبة الإيمان والمؤمنين بالله ، لو كان عند هؤلاء الكافرين ذرة من تعقل لفكروا كيف فضحهم القرآن ، وهم الذين ارتكبوا هذا الفعل بعيدا عن المؤمنين ؟

ألم يكن لتفكيرهم أن يصل إلى أن هناك ربًّا للمؤمنين يقول الخافىَ من الأمور لرسوله ، ويبلغها الرسول للمؤمنين .

لكنهم مع ذلك لم يفهموا هذا الفضح لهم « وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ » وهنا ينبغى أنْ نفهم أنَّ هناك أمرًا قد يغيظ ، ولكن الإنسان قد يجبن أن ينفث غيظه ، فإذا غاظك أحد فقد تذهب إليه وتنفعل عليه ، أو قد تنفعل على نفسك وذلك هو ما يسمى بـ « تحويل النزوع » . فالغاضب يمتلىء بطاقة غضبية ، ومن يغضب عليه قد يكون قويا وصاحب نفوذ ، فيخاف أن ينفعل عليه ، فينفث الغاضب طاقة غضبه على نفسه بأن يعض على أنامله ، ومادامت المسألة هكذا ، فقد قال الحق :

﴿ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة آل عمران)

ومعنى ذلك أن إغاظة المؤمنين لكم أيها الكافرون ستستمر إلى أن تموتوا من الغيظ ؛ لذلك فلا طائل من محاولتكم جذب المؤمنين إلى الكفر : « قل موتوا بغيظكم » .

ونحن قد عرفنا أنه ساعة يؤمر الإنسان بشىء ليس فى اختياره ـ لأن الموت ليس فى اختيارهم ـ وأن يختار بينه وبين شىء فى اختياره كالغيظ ، فمعنى ذلك أن الأمر قد صدر إليه ليظل أسير الأمر الذى يقدر عليه وهو الغيظ حتى يدركه الموت .

وعندما يقول الحق : « موتوا بغيظكم » فهذا يعنى أن الكافرين لن يستطيعوا الموت ، ولكن سيظلون فى حالة الغيظ إلى أن يموتوا ؛ لأنهم لا يعرفون متى يموتون ، وهكذا يظلون على حالهم من الغيظ من المؤمنين ، ومادام الكافرون فى حالة غيظ من المؤمنين فهذا دليل على أن المؤمنين يطبقون منهجهم بأسلوب صحيح .

وفى هذه الآية بشارة طيبة للمؤمنين ونذارة مؤلمة للكافرين « قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور » إن الحق يعلمنا أنه عليم بذات الصدور ، أى بالأمور التى

تطرأ على الفكر ، ولم تخرج بعد إلى مجال القول . وهو سبحانه القائل :

﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة آل عمران)

ومادام هو الحق العليم بما تخفى الصدور فهو قادر ليس فقط على الجزاء بما يفعلونه من عمل نزوعى ولكنه قادر على أن يجازيهم أيضا بأن يفضح الأعمال غير النزوعية الكامنة فى صدورهم ، وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ﴾

والقرآن كلام الله وله ـ سبحانه ـ الطلاقة التامة والغنى الكامل ، والعبارات فى المعنى الواحد قد تختلف لأن كل مقام له قوله ، وسبحانه يحدد بدقة متناهية اللفظ المناسب . . إنه هو سبحانه الذى قال :

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة المعارج)

وهو سبحانه الذى قال :

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَـٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنه جل وعلا يتكلم عن المس فى الشر والخير ، ومرة يتكلم عما يحدث للإنسان كإصابة فى الخير أو فى الشر ، وفى الآية التى نحن بصدد الخواطر عنها تجد خلافا فى الأسلوب فسبحانه يقول : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إنه لم يورد الأمر كله مَسًّا ، ولم يورده كله « إصابة » إنه كلام رب حكيم وعندما نتمعن فى المعنى فإن الواحد منا يقول : هذا كلام لا يقوله إلا رب حكيم .

ولنتعرف الآن على « المس » و« الإصابة » بعض العلماء قال : إن المس والإصابة بمعنى واحد ، بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ولكننا نقول إن المس هو إيجاد صلة بين الماس والممسوس ، فإذا مس الرجل امرأته ، فنحن نأمره بالوضوء فقط ، لأنه مجرد التقاء الماس بالممسوس ، والأمر ليس أكثر من التقاء لا تحدث به الجنابة فلا حاجة للغسل ، أما الإصابة فهى التقاء وزيادة ؛ فالذى يضرب واحدا صفعة فإنه قد يورم صدغه ، فالكف يلتقى بالخد ، ويصيب الصدغ ، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين المس والإصابة ، وحين يقول الحق : « إن تمسسكم حسنة تسؤهم » .

فمعنى ذلك أن الحسنة الواقعة بسيطة ، وليست كبيرة إنها مجرد غنيمة أو قليل من الخير . . وفى حياتنا اليومية نجد من يمتلىء غيظا لأن خصمه قد كسب عشرة قروش ، وقد يجد من يقول له : لماذا لا تدخر غيظك إلى أن يكسب مائة جنيه مثلا ؟ ومثل هذا الغيظ من الحسنة الصغيرة هو دليل على أن أى خير يأتى للمؤمنين إنما يسبب

التعب والكدر للكافرين . فمجرد مس الخير للمؤمنين يتعب الكافرين فماذا عن أمر السيئة ؟

إن الحق يقول : « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إن الكافرين يفرحون لأى سوء يصيب المؤمنين مع أنه كان مقتضى الإنسانية أن ينقلب الحاسد راحما :

وحسبك من حادث بامرىء
ترى حاسديه له راحمينا

يعنى حسبك من حادث ومصيبة تقع على إنسان أن الذى كان يحسده ينقلب راحما له ويقول : والله أنا حزنت من أجله .

إذن فلمّا تشتد إصابة المؤمنين أكانت تغير من موقف الكافرين ؟ . لا ، كان أهل الكفر يفرحون فى أهل الإيمان ، وإذا جاء خير أى خير للمؤمنين يحزنون فالحق يقول : « أن تمسسكم حسنة تسؤهم » والحسنة هى أى خير يمسهم مساً خفيفاً ، « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » ، فأنت مهما كادوا لك فلن يصيبوك بأذى .

إن المطلوب منك أن تصبر على عداوتهم ، وتصبر على شرّهم ، وتصبر على فرحهم فى المصائب ، وتصبر على حزنهم من النعمة تصيبك أو تمسك ، اصبر فيكون عندك مناعة ؛ وكيدهم لن ينال منك . اصبر واتق الله : لتضمن أن يكون الله فى جانبك ، « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » .
وما الكيد ؟ الكيد هو أن تبيت وتحتال على إيقاع الضرر بالغير بحيث يبدو أنه كيدٌ من غيرك ، أى تدبر لغيرك لتضره . وأصل الكيد مأخوذ من الكيد والكبد ، وهما بمعنى واحد ، فما يصيب الكبد يؤلم ؛ لأن الكبد هو البضع القوى فى الإنسان ، إذا أصابه شيء أعيى الإنسان وأعجزه ، ويقولون : فلان أصاب كبد الحقيقة أى توصل إلى نقطة القوة فى الموضوع الذى يحكى عنه .

وما معنى يبيتون ؟ قالوا : إن التبييت ليس دليل الشجاعة ، وساعة ترى واحداً

يبيت ويمكر فاعرف أنه جبان ؛ لأن الشجاع لا يكيد ولا يمكر ، إنما يمكر ويكيد الضعيف الذى لا يقدر على المواجهة ، فإن تصبروا على مقتضيات عداواتهم وتتقوا الله لا يضركم كيدهم شيئا ؛ لأن الله يكون معكم .

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم : « إن الله بما يعملون محيط » . وساعة ترى كلمة « محيط » فهذا يدلك على أنه عالم بكل شىء . والإحاطة : تعنى ألا تشرد حاجة منه . وها هى ذى تجربة واقعية فى تاريخ الإسلام ؛ يقول الحق فيها مؤكدا : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » وعلى كل منا أن يذكر صدق هذه القضية .

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ ﴾

إنه فى هذه المرة ـ فى غزوة أحد ـ جاء الكفار بثلاثة آلاف وكان المسلمون قلة ، سبعمائة مقاتل فقط ، وحتى يبين الحق صدق قضاياه فى قوله : « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » وليس المقصود هنا الكيد التبييتى بل عملهم العلنى ، أى واذكر صدق هذه القضية :

« وإذْ غدوت من أهلك » ، والغدوة هى : أول النهار ، والرواح : آخر النهار ، والأهل : تطلق ويراد بها الزوجة ، والمقصود هنا حجرة عائشة ؛ لأن الرسول كان فيها فى هذا الوقت الذى أراد فيه كفار قريش أن يثأروا لأنفسهم من قتلى بدر وأسراهم ، لقد جمعوا حشودهم ، فكل موتور من معركة بدر كان له فرسان وله رجال ، حتى أنهم بعد معركة بدر قال زعيمهم أبو سفيان لأصحابه : قل للنساء لا تبكين قتلاكم فإن البكاء يذهب الحزن ، فالدموع يسمونها غسيل الحزن ، أو ذوب المواجيد ، فساعة يبكى إنسان حزين يقول من حوله : دعوه يرتاح .

فلو حزنت النساء وبكين على قتلى بدر لهبطت جذوة الانتقام ؛ لذلك قال أبو سفيان : قل لهن لا يبكين . إنه يريد أن يظل الغيظ فى مسألة بدر موجوداً إلى أن يأخذوا الثأر . وفعلاً اجتمع معسكر الكفر فى ثلاثة آلاف مقاتل عند أحد ، وبعد ذلك استشار النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه المسألة أصحابه وأرسل إلى واحد من أكبر المنافقين هو عبدالله بن أبى بن سلول ، وما استدعاه إلا فى هذه المعركة ، فقال عبدالله بن أبى بن سلول وأكثر الأنصار :

يا رسول الله نحن لم نخرج إلى عدو خارج المدينة إلا نال منا ، ولم يدخل علينا عدو إلا نلنا منه ، فإنا نرى ألا تخرج إليهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن دخلوها قاتلهم الرجال فى وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين وأشار آخرون من الصحابة بالخروج إليهم ، وقالوا :

« يارسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنا عنهم وضعفنا ، ولم يترك أصحاب هذا الرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وافقهم على ما أرادوا »

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه ، وظن الذين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أنهم قد استكرهوه على ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن لنا ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ينبغى لنبى لبس لأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل »[(١)].

وخرجوا إلى الحرب ، وهذا هو الذى يُذَكِّرُ به القرآن صدقا للقضية التى جاءت فى الآية السابقة : « وإن تصبِروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » .

---

(١) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد ورواه الطبرانى بنحوه ، واللأمة : هى الدرع .

اذكر يا محمد :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

(الآية ١٢١ سورة آل عمران)

و« تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى توطن المؤمنين فى أماكن للقتال ، وبوأت فلانا يعنى : وطنته فى مكان يبوء إليه أى يرجع ، واسمه وطن ؛ لأن الوطن يرجع إليه الإنسان .

انظر إلى الدقة الأدائية لقول الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » أى تجعل لهم مباءة ووطنا . وكلمة « مقاعد » أى أماكن للثبات ، والحرب كرّ وفرّ وقيام ، والذى يحارب يثبته الله فى المعركة ، فكأنه مُوَطَّنٌ فى الميدان ، فكأن أمر الرسول إلى المقاتلين يتضمن ألا يلتفت أى منهم إلى موطن آخر غير موطنه الذى ثبّته وبوّأته فيه أى إن هذا هو وطنك الآن ؛ لأن مصيرك الإيمانى سيكون رهناً به .

إذن فقوله : « وإذْ غدوت من أهلك تبوىء » أى توطن « المؤمنين » وتقول لهم : إن وطنكم هو مقاعدكم التى ثبتكم بها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالرماة ؛ وأمّر عليهم « عبدالله بن جبير » وهم يومئذ خمسون رجلا وقال رسول الله لهم :

« قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا »(١) .

لكنهم لم يقدروا على هذه لأن نفوسهم مالت إلى الغنيمة ؛ وشاء الله أن يجعل التجربة فى محضر من رسوله صلى الله عليه وسلم : حتى يبين للمؤمنين فى كل المعارك التى تلى ذلك أن اتباع أمر القائد يجب أن يكون هو الأساس فى عملية الجندية . وإنكم إن خالفتم الرسول فلا بد أن تنهزموا .

---

(١) رواه ابن سعد وابن هشام والبخارى بنحوه .

وقد يقول قائل : الإسلام انهزم فى أُحُد . ونقول : لا ، إن الإسلام انتصر.ولو أن المسلمين انتصروا فى « أحد » مع مخالفة الرماة لأمر النبى صلى الله عليه وسلم ، أكان يستقيم لرسول الله أمر ؟

إذن فقد انهزم المسلمون الذين لم ينفذوا الأمر ، وكان لابد أن يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحينما هبت ريح النصر على المؤمنين فى أول المعركة ، ابتدأ المقاتلون فى الانشغال بالأسلاب والغنائم ، فقال الرماة : سيأخذ الأسلاب غيرنا ويتركوننا ونزلوا ليأخذوا الغنائم ، فانتهز خالد بن الوليد وكان على دين قومه انتهز الفرصة وطوقهم وحدث ما حدث وأذيع وفشا فى الناس خبر قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكفأوا وانهزموا فجعل رسول الله يدعو ويقول : « إلىّ عباد الله » حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا : يا رسول الله : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ، أتانا خبر قتلك فرعبت قلوبنا فولينا مدبرين

إن التحقيق التاريخى لمعركة أُحُد قد أكد أن المسألة لا تُعتبر هزيمة ولا انتصاراً ؛ لأن المعركة كانت لاتزال مائعة . وبعدها دعا الرسول من كان معه فى غزوة أحد إلى الخروج فى طلب العدو ، وأدركوهم فى حمراء الأسد وفرَّ الكافرون . إنّ الله أراد أن يعطى المؤمنين درساً فى التزام أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال الحق : « وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال » .

إن الحق يذكر بمسئوليات القائد ، الذى يوزع المهام ، فهذا جناح أيمن وذاك جناح أيسر ، وهذا مقدمة وهذا مؤخرة . ويذيل الحق هذا بقوله : « والله سميع عليم » حتى يعرف المؤمنون أنه سبحانه قد شهد أن رسوله قد بوأ المؤمنين مقاعد القتال ، وسبحانه « عليم » بما يكون فى النيات ؛ لأن المسألة فى الحرب دفاع عن الإيمان وليست انقياد قوالب ، ولكنها انقياد قلوب قبل انقياد القوالب .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ

وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

والفشل هو الجبن ، والطائفتان هما « بنو حارثة » من الأوس ، « وبنو سلمة » من الخزرج ، وهؤلاء كانوا الجناح اليمين والجناح اليسار ، فجاءوا فى الطريق إلى المعركة ، وسمعوا كلام المنافق ابن سلول ، إذ قال لهم : لن يحدث قتال ؛ لأنه بمجرد أن يرانا مقاتلو قريش سيهربون .

وقال ابن سلول المنافق للرسول : لو نعلم قتالاً لاتبعناكم . إلا أن عبدالله ابن حارثة قال : أنشدكم الله وأنشدكم رسول الله وأنشدكم دينكم . فساروا إلى القتال وثبتوا بعد أن همّوا فى التراجع .

وما معنى « الهمّ » هنا ؟ إن الهم هو تحرك الخاطر نحو عملية ما ، وهذا الخاطر يصير فى مرحلة ثانية قصداً وعزماً ، إذن فالذى حدث منهم هو مجرد هَمّ بخاطر الانسحاب ، لكنهم ثبتوا .

ولماذا ذلك ؟ لقد أراد الله بهذا أن يُثبت أن الإسلام منطقى فى نظرته إلى الإنسان ، فالإنسان تأتيه خواطر كثيرة . لذلك يورد الحق هذه المسألة ليعطينا العلاج . فقال : « إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا » .

وقد قال واحد من الطائفتين : والله ما يسرنى أنى لم أهم ـ أى لقد انشرح قلبى لأنى هممت ـ لأنى ضمنت أنى من الذين قال الله فيهم : « والله وليهما » ، وحسبى ولاية الله . لقد فرح لأنه أخذ الوسام ، وهو ولاية الله .

وهكذا نلتقط العبر الموحية من الآيات الكريمات حول غزوة أُحد ، ونحن نعلم أن هذه الغزوة كانت الغزوة التالية لغزوة بدر الكبرى . وغزوة بدر الكبرى انتهت بنصر المسلمين وهم قلة فى العدد والعُدة ، ففى بدر لم يذهب المسلمون إلى

المعركة ليشهدوا حرباً ، وإنما ليصادروا أموال قريش فى العِير تعويضاً لأموالهم التى تركوها فى مكة . ومع ذلك شاء الله ألاّ يواجهوا العِير المحملة ، ولكن ليواجهوا الفئة ذات الشوكة ، وجاء النصر لهم .

ولكن هذا النصر ، وإن يكن قد ربّى المهابة للمسلمين فى قلوب خصومهم ، فإنه قد جمّع همم أعداء الإسلام ليتجمعوا لتسديد ضربة يردون بها اعتبار الكفر ؛ ولذلك رأينا رءوس قريش وقد منعت نساءها أن يبكين على قتلاهم ؛ لأن البكاء يُريح النفس المتعبة ، وهم يُريدون أن يظل الحزن مكبوتاً ليصنع مواجيد حقدية تحرك النفس البشرية للأخذ بثأر هؤلاء ، هذا من ناحية العاطفة التى يحبون أن تظل مؤججة ، ومن ناحية المال فإنهم احتفظوا بمال العِير الذى نجا ليكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم .

وقد حاولوا قبل أُحد أن يفعلوا شيئاً ، ولكنهم كانوا يُرَدّون على أعقابهم . فمثلاً قاد أبو سفيان حملة مكونة من مائة ، وأراد أن يهاجم بها المدينة فلما نمى خبرها إلى سيدنا رسول الله نهض بصحابته إليهم ، فبلغ أبا سفيان خروج رسول الله ، ففرّ هارباً وألقى ما عنده من مؤنة فى الطريق ليخفف الحمل على الدواب لتسرع فى الحركة ، ولذلك يسمونها « غزوة السويق » لأنهم تركوا طعامهم من السويق . كَمَا حاول بعض الكفار أن يُغيروا على المدينة بعد ذلك أكثر من مرة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إليهم على رأس مقاتلين ، فمرة عددهم مائة ومرة مائة وخمسون ومرة مائتان ، وفعلاً شتت الرسول صلى الله عليه وسلم شملهم . وكان من خطته صلى الله عليه وسلم حين يذهب إلى قوم كان يبلغه أنهم يُريدون أن يتآمروا لغزو المدينة أن يظل فى بلدهم وفى معسكرهم وقتا ليس بالقليل .

كل ذلك سبق غزوة أُحُد . وبعد ذلك تجمعوا ليجيئوا لغزوة أُحُد ، وكان ما كان ، والآيات التى تعالج هذه الغزوة فيها إيحاءات بما جاء فى المعركة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم بوأ للمقاتلين مقاعد للقتال ، وأمرهم بالثبات فى تلك المواقع لكن بعضا من المقاتلين ترك مكانه ، والبعض الآخر همّ بالانسحاب ، لكنه ثبت أخيراً ، وفرّ كفار قريش . وقد تجلت فى هذه المعركة آيات الله الكبيرة .

فحين نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين « ببدر » وهم قلة ، لم يخرجوا لمعركة وإنما خرجوا لمصادرة عير . وربما ظن أناس أنهم بمجرد نسبتهم إلى الله وإلى الإسلام سينصرون على هذه الوتيرة ، ويتركون الأسباب فأراد الله أن يعلمهم أنه لابد من استنفاد الأسباب ، إعداداً لعدة ولعدد ، وطاعة لتوجيه قائد .

فلما خالفوا كان ولابد أن يكون ما كان . والمخالفة لم تنشأ إلا بعد استهلال بالنصر ، ولذلك سيجىء فيما بعد ستون آية حول هذه الغزوة ؛ لتبين لنا مناط العبرة فى كل أطوارها لنستخرج منها العظة والدرس . ونعلم أن المنتصرين عادةً يكون الجو معهم رخاءً . ولكن الكلام هنا عن هزيمة من لا يأخذون بأسباب الله ، وهذا أمر يحتاج إلى وقفة ، فجاء القرآن هنا ليقص علينا طرفاً من الغزوة لنستخرج منها العبرة والعظة ، العبرة الأولى :

أنهم حينما خرجوا ، تخلف المنافقون بقيادة ابن أبيّ ، إذن فالمعركة إنما جاءت لتمحص المؤمنين . والتمحيص يأتى فى الشىء الواحد ، أما التمييز فيأتى فى شيئين : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، إنما التمحيص يأتى للمؤمن ويعركه عركا ، ويبين منه مقدار ما هو عليه من الثبات ومن اليقين ، والحق إنما يمحص الفئة المؤمنة لأنها ستكون مأمونة فى التاريخ كله إلى أن تقوم الساعة على حماية هذه العقيدة ، فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أناس لهم قلوب ثابتة ، وجأش قوى عند الشدائد ، وهمة دونها زخارف الدنيا كلها .

وبعد ذلك يعالج النفس البشرية فى أوضاعها البشرية ، فعقائد الإيمان لا تنصب فى قلوب المسلمين بمجرد إعلان الإيمان ، ولكن كل مناسبة تعطى دفعة من العقيدة يتكون بعد ذلك الأمر العقدى كله . ولذلك يبين لنا الحق أن طائفتين من المؤمنين قد همت بالتراجع ، فهم نفوس بشرية ، ولكن أنفّذت الطائفتان ذلك الهم أم رجعت وفاءت إلى أمر الله ؟ لقد رجعت الطائفتان . وهكذا رأينا بين الذين أعلنوا إيمانهم فئة نكصت من أول الأمر ، وفئة خرجت ثم عادت .

لقد تحدثت النفوس ولكن أفراد تلك الفئة لم يقفوا عند حديث النفس بل ثبتوا إلى نهاية الأمر ، ومنهم من ثبت إلى الغاية السطحية من الأمر كالرماة الذين رأوا النصر أولا ، وهؤلاء من الذين ثبتوا ؛ ما فرّوا أولاً مع ابن أبيّ ، وما كانوا من الطائفة التى

همت ، ولكنهم كانوا من الذين ثبتوا . لكنهم عند بريق النصر الأول اشتاقوا للغنائم ، وخالفوا أمر الرسول ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وبعد ذلك تأتى لقطة أخرى وهى ألا نفتن فى أحد من البشر ، فخالد بن الوليد بطل معسكر الكفر فى أُحُد ، وهو الذى استغل فرصة نزول الرماة عن أماكنهم ، وبعد ذلك طوق جيش المؤمنين ، وكان ما كان ، من خالد قبل أن يسلم ، ألم يكن فى غزوة الخندق ؟ لقد كان فى غزوة الخندق . وكان فى غزوات كثيرة غيرها مع جند الشرك ، فأين كانت عبقريته فى هذه الغزوات ؟ . .

إن عبقرية البشر تتصارع مع عبقرية البشر ، ولكن لا توجد عبقرية بشرية تستطيع أن تصادر ترتيباً ربانياً ، ولذلك لم يظهر دور خالد فى معركة الخندق ، لقد ظهر دوره فى معركة أُحُد ؛ لأن المقابلين لخالد خالفوا أمر القيادة فبقيت عبقرية بشر لعبقرية بشر ، ولكنهم لو ظلوا فى حضن المنهج الإلهى فى التوجيه لما استطاعت عبقرية خالد أن تطفو على تدبيرات ربه أبداً .

والتحقيق التاريخى لكل العسكريين الذين درسوا معركة أُحُد قالوا : لا هزيمة للمسلمين ولا انتصار للكفار ؛ لأن النصر يقتضى أن يُجلى فريق فريقاً عن أرض المعركة ، ويظل الفريق الغالب فى أرض المعركة . فهل قريش ظلت فى أرض المعركة أو فرّت ؟ لقد فرّت قريش .

ويُفسر النصر أيضاً بأن يؤسر عدد من الطائفة المقابلة ، فهل أسرت قريش واحداً من المسلمين ؟ لا . ولقد علموا أن المدينة خالية من المؤمنين جميعاً وليس فيها إلا من تخلف من المنافقين والضعاف من النساء والأطفال ، ولم يؤهلهم فوزهم السطحى لأن

يدخلوا المدينة .

إذن فلا أسروا ، ولا أخذوا غنيمة ، ولا دخلوا المدينة ، ولا ظلوا فى أرض المعركة ، فكيف تسمى هذا نصراً ؟ فلنقل:إن المعركة ماعت . وظل المسلمون فى أرض المعركة .

وهنا تتجلّى البطولة الحقة ؛ لأننا كما قلنا فى حالة النصر يكون الأمر رخاء ، حتى من لم يُبْلِ فى المعركة بلاءً حسناً ينتهز فرصة النصر ويصول ويجول ، ولكن المهزومين والذين أصيب قائدهم صلى الله عليه وسلم ، وضعف أن يصعد الجبل ، حتى أن طلحة بن عبيد الله يطأطىء ظهره لرسول الله ليمتطيه فيصعد على الصخرة . ورسول الله يسيل منه الدم بعد أن كسرت رباعيته وتأتى حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ، بعد هذا ماذا يكون الأمر ؟ حتى لقد أرجف المرجفون وقالوا : إن رسول الله قد قُتل .

وكل هذا هو من التمحيص ، فمن يثبت مع هذا ، فهو الذى يؤتمن أن يحمل السلاح لنصرة كلمة الله إلى أن تقوم الساعة . ويتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطلاً من أبطال المسلمين كان حوله فلا يجده ، إنه « سعد بن الربيع » .

يقول عليه الصلاة والسلام : « مَن رجل ينظر لى ما فعلِ سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار هو أُبَىُّ بن كعب : فذهبت لأتحسسه ، فرأيته وقد طُعن سبعين طعنة ما بين ضربة سيف وطعنة رمح ورمية قوس . فلما رآه قال له : رسول الله يقرئك السلام ، ويقول لك : كيف تجدك ـ أى كيف حالك ـ ؟

قال سعد ابن الربيع : قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : جزاك الله عنَّا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وقل للأنصار ليس لكم عند الله عُذر إن خَلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف . ثم فاضت روحه .

انظروا آخر ما كان منه ، حين أُثخن فى المعركة فلم يقو على أن يحارب

بنصاله[1] ، انتهز بقية الحياة ليحارب بمقاله ، ولتصير كلماته دوياً فى آذان المسلمين . وليعلم أن هؤلاء الذين أثخنوه جراحاً ما صنعوا فيه إلا أن قربوه إلى لقاء ربه ، وأنه ذاهب إلى الجنة . وتلك هى الغاية التى يرجوها كل مؤمن .

ونجد أيضاً أن الذين يعذرهمْ القرآن فى أن يشهدوا معارك الحرب ، يتطوعون للمعارك ! فمثلا عمرو بن الجموح ؛ كُان أعرج ، والعرج عذر أقامه الله مع المرض والعمى ؛ لأنه سبحانه هو القائل :

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة النور)

وكان لعمرو بن الجموح بنون أربعة مثل الأسْد قد ذهبوا إلى المعركة ، ومع ذلك يطلب من رسول الله أن يذهب إلى المعركة ويقول له : يا رسول الله إن بَنِىّ يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمّا أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك . وقال لبنيه : ما عليكم ألاّ تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه فقتل .

وهذا مؤمن آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن ابنى الذى استشهد ببدر رأيته فى الرؤيا يقول لى : « يا أبت أقبلِ علينا » فأرجو أن تأذن لى بالقتال فى « أُحُد » فأذن له فقاتل فقُتل فصار شهيداً .

وتتجلّى الروعة الإيمانية والنسب الإسلامى فى حذيفة بن اليمان ، لقد كان أبوه شيخاً كبيرا مسلما فأخذ سيفه ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعل الله يرزقه الشهادة فى سبيل الله ، فدخل فى المعركة ولا يعلم به أحد فقتله المسلمون

---

(١) النِّصال : جمع نصل وهو حديدة السيف والسهم والرمح والسكين .

ولا يعرفونه ، فقال ابنه حذيفة : أبى والله . فقالوا والله ما عرفناه ، وصدقوا ، قال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤدى ديته ، فقال له حذيفة بن اليمان : وأنا تصدقت بها على المسلمين .

هذه الأحداث التى دارت فى المعركة تدلنا على أن غزوة أُحُد كان لابد أن تكون هكذا ، لتمحص المؤمنين تمحيصاً يؤهلهم لأن يحملوا كلمة الله ويعلوها فى الأرض . ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

لقد نقلهم من معركة فيها شبه هزيمة أو عدم انتصار إلى نصر ، فكأنه يريد أن يقول : إن الأمر بالنسبة لكم أمر إلهكم الذى يرقبكم ويعينكم ويمدكم ويرعاكم . وإياكم أن تعتمدوا على العدد والعُدة ولكن اعتمدوا على الحق سبحانه وتعالى وعلى ما يريده الحق توجيها لكم ، لأن مدد الله إنما يأتى لمُستَقْبل لمدد الله ، ولا يأتى المدد لغير مستقبل لمدد الله .

ونعرف أن فيه فرقاً بين الفاعل وبين القابل ، فالفاعل شىء والقابل للانفعال بالفعل شىء آخر . وضربنا لذلك مثلاً : بأن الفاعل قد يكون واحداً ، ولكن الانفعال يختلف ، وحتى نقرب المسألة نقول : كوب الشاى تأتى لتشرب منه فتجده ساخناً فتنفخ فيه ليبرد ، وفى الشتاء تصبح لتجد يدك باردة فتنفخ فيها لتدفأ ، إنك تنفخ مرة لتبرد كوب الشاى ، ومرة تنفخ لتدفىء يدك ، إذن فالفاعل واحد وهو النافخ ، ولكن القابل للانفعال شىء آخر ، ففيه فاعل وفيه قابل ، ومثال آخر : إن القرآن كلام الله ولو أنه نزل على الجبال لخرّت خاشعة ، ومع ذلك يسمعه أناس ،

لا يستر الله عليهم بل يكشفهم لنا ويفضحهم بعظمة ألوهيته :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

إنهم لم ينفعلوا بالقرآن ، وقولهم : « ماذا قال آنفاً » معناه استهتار بما قيل . ونجد الحق يرد على ذلك بقوله تعالى :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾

(سورة محمد)

إن الفاعل واحد والقابل مختلف . ويتابع الحق بلاغه الحكيم فى قوله :

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

)

إذن فمدد الله لكم إنما يتأتى لمستقبلٍ إيمانى ، فإن لم يوجد المستقبل ـ بكسر الباء ـ فلا يوجد المدد . فإذا كنت لا تستطيع أن تستقبل ما ترسله السماء من مدد نقول لك : أصلح جهاز استقبالك ؛ لأن جهاز الاستقبال كالمذياع الفاسد ، إن الإرسال من الإذاعات مستمر ، لكن المذياع الفاسد هو الذى لا يستقبل . إذن فإن كنت تريد أن تستقبل عن الله فلابد أن يكون جهاز استقبالك سليما . ويوضح الحق ذلك بقوله جل جلاله :

إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ

رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾

ويبين سبحانه وتعالى كيفية إصلاح جهاز الاستقبال لتلقى مدد الله فيقول :

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ضرب المثل بالصبر والتقوى فى بدر مع القلة فكان النصر ، وهنا فى أُحد لم تصبروا ؛ فساعة أن رأيتم الغنائم سال لعابكم فلم تصبروا عنها ، ولم تتقوا أمر الله المبلغ على لسان رسوله فى التزام أماكنكم . . فكيف تكونون أهلاً للمدد ؟

إذن من الذى يحدد المدد ؟ إن الله هوالذى يعطى المدد ، ولكن من الذى يستقبل المدد لينتفع به ؟ إنه القادر على الصبر والتقوى .

إذن فالصبر والتقوى هما العُدّة فى الحرب . لا تقل عدداً ولا عدة . ولذلك قال ربنا لنا : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ولم يقل : أعدوا لهم ما تظنون أنه يغلبهم ، لا . أنتم تعدون ما فى استطاعتكم ، وساعة تعدون ما فى استطاعتكم وأسبابكم قد انتهت . . فالله هو الذى يكملكم بالنصر .

والبشر فى ذواتهم يصنعون هذا ، فمثلا ـ ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد ـ

لنفترض أنك تاجر كبير . وتأتيك العربات الضخمة محملة بالبضائع ، صناديق وطرود كبيرة ، وأنت جالس بينما يفرغ العمال البضائع ، وجاء عامل لينزل الطرد فغلبه الطرد على عافيته ، وتجد نفسك بلا شعور منك ساعة تجده سيقع تهب وتقوم لنصرته ومعاونته ، لقد استنفد هذا العامل أسبابه ولم يقدر ، فالذى يعنيه الأمر يمد يده إليه ، فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى . كأنه يقول ابذل وقدّم أسبابك ، فإذا ما رأيت أسبابك انتهت والموقف أكبر منك ، فاعلم أنه أكبر منك أنت ولكنه ليس أكبر من ربك إنه سبحانه يقول :

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

فإياك أن تظن أن المدد بالثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف ، الذين أنزلهم الله وأمدكم بهم أو بالملائكة المدربين على القتال . . إياكم أن تظنوا أن هذا المدد ، هو شرط فى نصر الله لك . بذاتك أو بالملائكة ؛ إنه قادر على أن ينصرك بدرن ملائكة ، ولكنها بشرى لتؤنس المادة البشرية ، فساعة يرى المؤمنون أُعداداً كبيرة من المدد ، والكفار كانوا متفوقين عليهم فى العدد ، فإن أسباب المؤمنين تطمئن وتثق بالنصر . إذن فالملائكة مجرد بُشْرَى ، ولكن النصر من عند الله العزيز الذى لا يُغلب . وكل الأمور تسير بحكمته التى لا تعلوها حكمة أبداً . يقول الحق من بعد ذلك :



وقطع الطرف يتحدد بمعرفة ما هو طرف لماذا ؟ فإن كان الطرف هو العدد الكثير فقطع الطرف أن يُقتل بعضه . وإن كان الطرف هو أرضا واسعة فقطع الطرف أن يأخذ من أرضهم . ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد كانت الأرض الكُفْرِيّة تخسر كل يوم جزءاً منها لينضم هذا الجزء إلى الأرض الإيمانية ، هذا بالنسبة لسعة الأرض ، وافرض أن الطرف هو المال ، فقطع الطرف هنا يكون بأن نأخذ بعض المال كغنائم ، ثم هناك المنزلة التى كانت تهابها الجزيرة كلها ، كل الجزيرة تهاب قريشاً ، وقوافلها التجارية للشمال والجنوب لا تستطيع قبيلة أن تتعرض لها ؛ لأن كل القبائل تعرف أنها ستذهب إلى البيت فى موسم الحج ، فلا توجد قبيلة تتعرض لها لأنها غداً ستذهب إلى قريش ، إذن فالسيادة والعظمة كانت لقريش ، وساعة تعلم القبائل أن رجال قريش قد كسروا وانهزموا ، وأن رحلتهم إلى الشام أصبحت مهددة ، فإنهم يبحثون عن فريق آخر يذهبون إليه .

إن قطع الطرف كان على أشكال متعددة ، فإن كان طرفَ عددٍ فيقتل بعضهم ، وإن كان طرفَ أرض فبعضها يؤخذ وتذهب إلى أرض إيمانية ، وإن كانت عظمة وقهرا تأتهم الهزيمة ، وإن كان نفوذاً فى الجزيرة فهو يتزلزل « ليقطع طرفاً من الذين كفروا » .

ولنلحظ أن الحق قد قال : « ليقطع طرفاً » ـ لم يقل ليستأصل ـ لأن الله سبحانه وتعالى أبقى على بعض الكفار لأن له فى الإيمان دوراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممتلئا بالعطف والرحمة والحنان على أمته ، وكان يحسن الظن بالله أن يهديهم ، ولذلك تعددت آيات القرآن التى تتحدث فى هذا الأمر . ها هو ذا الحق يقول :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وفى موقع آخر بالقرآن الكريم يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾

(سورة الشعراء)

والله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فإنما عليك البلاغ » والرسول يحب أن يهتدى إلى الإيمان كل فرد فى أمته ، فقال الحق :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) ﴾

أى ليس لك يا محمد من الأمر شىء إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم ، أو يعذبهم ، فلا يحزنك ذلك لأنهم ظالمون أى ما عليك يا محمد إلّا البلاغ فقط . أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر . والظلم كما نعرف هو أخذ الحق من ذى الحق وإعطاؤه لغيره . وقمة الظلم هو إضفاء صفة الألوهية على غير الله ، وهو الشرك . ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

(من الآية ١٣ سورة لقمان)

إن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ (١٢٨) ﴾

« سورة آل عمران »

وهذه مسألة لم تخرج عن ملك الله ، لماذا ؟ لأن السماوات والأرض وما فيهن ملك لله : قيل أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن خضّب المشركون وجهه بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم ـ أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعو عليهم فنهاه الله لعلمه ـ سبحانه ـ أن فيهم من يؤمن وأنزل قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ ﴾

وبما أننا نتحدث عن ملامح فى غزوة أحد أريد أن أقول : « جبل أُحدٍ رضى الله عنه » ؛ لأننا سمعنا بعض العارفين بالله حين تذكر كلمة « أحد » قال : أحد رضى الله عنه ـ فتعجب القوم لقول الشيخ عبدالله الزيدان الذى قال ذلك ، فلما رأى عجبهم قال لهم : ألم يخاطبه رسول الله بقوله : « اثبت أحد فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان »[١] ، ألم يقل فيه رسول الله : « أحد جبل يحبنا ونحبه »[٢] أتريدون أحسن من ذلك فى الصحبة ! ، قل : أحد رضى الله عنه .

وقلنا سابقاً : إنك إذا وقف عقلك فى حاجة فلا تأخذها بمقاييسك أنت ، بل خذها بالمقاييس الأعلى . ونحن نقول هذا الكلام لأن العلم الآن يجرى ويسعى سعياً حثيثا مسرعاً حول استخراج بعض أسرار الله فى الكون ، فبين لنا أن الحيوانات لها لغات تتفاهم بها ، ويحاولون الآن أن يضعوا قاموسا للغة الأسماك . والحق سبحانه وتعالى ذكر لنا حكاية النملة مع سليمان ـ عليه السلام ـ فقال :

---

(١) رواه البخارى فى فضائل الصحابة ، وأبو داود فى السنة ورواه أحمد فى المسند .

(٢) رواه البخارى عن سهل بن سعد ، والترمذى ، والطبرانى عن أنس وأحمد والطبرانى والضياء عن سويد بن عامر الأنصارى .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة النمل)

هذا القول يدل على أنّ نملة خرجت وقامت بعمل (وردية) كى تحافظ على من معها ثم عادت لتتكلم مع أبناء فصيلتها ، وسمعها سيدنا سليمان ، فتبسم من قولها . إذن العلم يتسابق ويجد ويُسارع الآن ليثبت أن لكل جنس فى الوجود لغة يتفاهم بها ، وكل جنس فى الوجود له انفعال ، وكل جنس فى الوجود له تكاثر ، ولذلك قال الحق لنا على لسان سيدنا سليمان :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴾

(من الآية ١٦ سورةالنمل)

وكانت هذه خصوصية لسيدنا سليمان عليه السلام ، إذن فللطير منطق . وعندما نتسامى ونذهب إلى الجماد نسمع قول الحق سبحانه فى آل فرعون وعدم بكاء الجماد عليهم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

هل تبكى السماء والأرض ؟ إنه أمر عجيب ؛ فالجماد من سماء وأرض لا تتفاهم فقط ولكن لها عواطف أيضاً ؛ لأن البكاء إنما ينشأ عن انفعال عاطفى وجدانى .

وهذا يعنى أن الجمادات لا تتكلم فقط ، ولكنها تحس أيضاً . فالأرض تخرج أثقالها ، وتحدث أخبارها ، كيف ؟

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ ﴾

(سورة الزلزلة)

والسماء والأرض أتيا إلى الله فى منتهى الطاعة والخشوع :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فهناك ما هو أكثر من التفاهم ، إن لها عواطف مثلك تماما ، وكما تحزنك حاجة فالأرض أيضاً تبكى ، ومادامت تبكى إذن فلها مقابل بأن تفرح ، ويقول الله تعالى عن أرض فرعون : « فما بكت عليهم السماء والأرض » فلو أنها لم تبك مع بعض الناس ؛ لما كان لهذا الكلام ميزة .

لذلك قال الإمام على ـ كرم الله وجهه ـ : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع مصلاه ؛ لأنه سيحرم من نعمة الإيمان ، ومصعد عمله ، موضع فى الأرض وموضع فى السماء . إذن فلابد أن نفهم أن لكل شىء شعوراً . وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مات المؤمن استبشرت له بقاع الأرض فليس من بقعة إلا وهى تتمنى أن يدفن فيها »[1]

لماذا نقول هذا الكلام الآن ؟ نقول ذلك حتى إذا ثبت بالعلم أن لكل شىء لغة ، ولكل شىء فى أجناس الكون تفاهما ، يقال إن فيه ناساً هبت عليهم نسمات الإيمان فأدركوها وأحسوها من القرآن ، فلا يدعى أحد أنه ابتكر من ذات نفسه لأنها فى القرآن وإن كنا لا نعرف كيف تأتى .

---

(١) رواه الديلمى عن ابن عمر رض الله عنهما ، وتكملة الحديث : « . . . . وإذا مات الكافر أظلمت الأرض فليس من بقعة إلا وهى تستعيذ بالله أن يدفن فيها » .

وهذه المعركة ـ معركة أُحُد ـ التى أخذت ستين آية ، نجد أن الحق تكلم عنها هنا فقال : « وإذ غدوت من أهلك » و« إذ همت طائفتان » ، وقوله : « ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة » ، وبعد ذلك يترك الغزوة فى حرارتها ويأتينا بأشياء يضعها هنا ، ثم يأتى ليكمل الغزوة . لو أن هذه لقطة من الغزوة وتنتهى ثم يأتى موضوع آخر ، لما شغلنا أنفسنا ، إنما الغزوة ستأتى فيها ستون آية ، فكيف ينهى الكلام فى الغزوة ولا يعطينا إلا استهلال الغزوة ، وبعد ذلك ينصب القرآن على معانٍ بعيدة عن الغزوة ؟ فما الذى يجعله ـ سبحانه ـ يترك أمر الغزوة ليقول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لماذا لم يعطنا الحق إلا استهلال الغزوة وبعد ذلك انصب على قضايا أولها قضية الربا ، ما العلاقة بين هذه القضايا وتلك الغزوة ؟ . وأقول : رحم الله صاحب

الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب فقد استطاع أن يستخلص من هذه النقلة مبادىء إيمانية عقدية لو أن المسلمين فى جميع بقاع الأرض جعلوها نصب أعينهم لما كان لأى دولة من دول الكفر غلب علينا .

ونريد أن نفهم هذه اللقطات ، ولماذا استهلت بمسألة الربا ؟ لأن الذى كان سبباً فى الهزيمة أو عدم النصر فى معركة أُحُد أنهم طمعوا فى الغنيمة . والغنيمة مال زائد ، والربا فيه طمع فى مال زائد .

والقرآن حين يعالج هنا قضية حدثية ، والأحداث أغيار تمر وتنتهى ، فهو سبحانه يريد أن يستبقى عطاء الحدث ليشيع فى غير زمان الحدث ، وإلا فالحدث قد يمر بعظاته وعبره وينتهى ولا تكون له فائدة . والنفس حين تمر بالأحداث تكون ملكاتها متفتحة ؛ لأن الحدث - كما قال المغفور له الشيخ سيد قطب - يكون ساخناً ، فحين يستغل القرآن الحدث قبل أن يبرد فإن القضية التى تتعرض لها الموعظة تتمكن من النفس البشرية . وهو سبحانه لم يرد أن تمر أحداث أُحُد بما فيها من العبر والعظات إلا ويستغلها القرآن الكريم ليثبت بها قضايا إيمانية تشيع فى غير أزمنة الحدث من الحروب وغيرها لتنتظم أيضاً وقت السلام . فآية الربا هنا كأنما سقطت وسط النصوص التى تتعرض لغزوة أحد .

والسطحيون قد يقولون : ما الذى جعل القرآن ينتقل من الكلام عن أُحُد إلى أن يتكلم فى الربا مرة ثانية بعد أن تكلم عنه أولاً ؟

ونقول : إن القرآن لا يؤرخ الأحداث ، وإنما يُريد أن يستغل أحداثاً ليبسط ويوضح ما فيها من المعانى التى تجعل الحدث له عرض وله طول وله عمق ؛ لأن كل حدث فى الكون يأخذ من الزمن قدر الحدث ، والحدث له طول هو قدر من الزمن ، يكون ساعة أو ساعتين أو ليلة مثلا ، هذا هو طول الحدث .

والأحداث التى يجريها الله لها طول يحدده عمر الحدث الزمنى ، ولها عرض يعطيها الاتساع ، فبعد أن كانت خطاً مستقيماً صارت مساحة ، ويجعلها الحق شاملة لأشياء كثيرة ، فهو لا يريد للحدث أن يسير كخط مستقيم ، بل يريده طريقا واسعاً له

مساحة وله عرض . هذا العرض يعطيه رقعة مساحية تأخذ كثيراً من الأشياء ، وهذا أيضا قد ينتهى مع الحدث ، ولذلك يريد الله أن يعطى للحدث بعداً ثالثاً وهو العمق فى التاريخ فيعطى عطاءه ، كما نستفيد نحن الآن من عطاء حدث هو غزوة أُحُد .

إذن فالحدث له حجم أيضاً ، وهذا ما يجعل الناس تقف لتقول : إن صلة الرحم تطيل العمر ، والعمر له حد زمنى محدد وهو الخط المستقيم له ، فهناك واحد يزيد من عرض عمره ، فبدلاً من أن ينفع الناس فى مجال صغير فهو يعمل وينفع فى مجال أوسع ، إذن فهو يعطى لعمره مساحة .

وهناك إنسان آخر يريد أن يكون أقوى فى العمر ، فماذا يعمل ؟ إنه يعطى لعمره عمقاً ، فبدلاً من أن يعمل لمجرد حياته وينتهى عمره مهما كانت رقعته واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »[١] .

ولذلك يقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هى كلمة طيبة قيلت ، لكنّها مثل الشجرة الطيبة ؛ لأنها ترسخ فى أذن من يسمعها فتصير حركة خاضعة للكلمة ، وكلما فعل السامع لهذه الكلمة فعلاً ناتجاً من تأثير هذه الكلمة فإن بعض الثواب يعود إلى من قال هذه الكلمة حتى ولو كان قد مات .

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى والبخارى فى الأدب المفرد .

فكأن قائل هذه الكلمة مازال يعيش ، وكأن عمره قد طال بكلمته الطيبة . إذن فأعمال الخير التى تحدث من الإنسان ليس معناها أنها تطيل العمر ؛ لأن العمر محدود بأجل ، ولكنْ هناك إنسان يعطى عمره عرضاً ، وآخر يعطيه عمقاً ويظل العطاء منه موصولاً إلى أن تقوم الساعة ، فكأنه أعطى لنفسه عمراً خالداً . ويقولون : والذكر للإنسان عمر ثان .

والحق سبحانه وتعالى يوضح الدروس المستفادة من غزوة أُحُد ، إن أول مخالفة كانت سبباً ليس فى الهزيمة ، ولكن دعنا نقل : « فى عدم إتمام النصر » ، لأنهم بدأوا منتصرين ، ولم يتم النصر لأنه قد حدثت مخالفة ، ودوافع هذه المخالفة أنهم ساعة رأوا الغنائم ، اندفعوا إليها ، إذن فدوافعها هى طلب المال من غير وجه مشروع ؛ لأن النبى قال لهم : (انضحوا عنا الخيل ولا نؤتين من قبلكم ، الزموا أماكنكم إن كانت النوبة لنا أو علينا ، وإن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم) وبهذا صارت مبارحة المكان أمراً غير مشروع ، فتطلع النفس إلى شىء فى غير ما أمر به رسول الله يعتبر أمراً غير مشروع والتطلع هنا كان للمال ، وهكذا الربا .

وأراد الحق أن تكون سخونة الحدث ، والأثر الذى نشأ من الحدث فى أن المسلمين لم يتم نصرهم ، وتعبوا ، وكان مصدر التعب أن قليلاً منهم أحبوا المال الزائد من غير وجهه المشروع . فأراد ـ سبحانه ـ أن يكون ذلك مدخلا لبيان الأثر السيىء للتعامل بالربا .

إذن فهذه مناسبة فى أننا نجد آية الربا هنا وهى توضح الآثار السيئة للطمع فى المال الزائد عن طريق غير مشروع ، والقرآن فيه الكثير من المواقف التى توضح آثاراً تبدو فى ظاهرها غير مترابطة ، ولكن النظرة العميقة تؤكد الترابط .

وقلنا من قبل فى قول الله تعالى :

﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

قد يقول أحد السطحيين : إن الحق سبحانه وتعالى كان يتكلم عن الطلاق قبل هاتين الآيتين فقال سبحانه :

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويترك الحق الحديث عن الطلاق ويأمر بالحفاظ على الصلاة بقوله الحكيم : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين » .

وبعد ذلك يعود الحق لاستكمال حديث الطلاق والفراق بالموت .

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إنه يتكلم عن الطلاق ، والوفاة ، ثم ينزل بينهما آية الصلاة ، لماذا ؟ ليتضح لنا أن المنهج الإسلامى منهج متكامل . إياك أن تقول : إن الطلاق غير الصلاة ، غير الوفاة ، أبداً ، إنه منهج متكامل . ولأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن ينبهنا إلى أن لطلاق عملية تأتى والنفس فيها غضب ، وتأتى والزوج والزوجة وأهل الزوج وأهل لزوجة فى كدر ، فيقول لهم المنهج : لو كنتم تحسنون الفهم لفزعتم إلى الصلاة حين نواجهكم هذه الأمور التى فيها كدر .

وساعة تكون فى كدر قم وتوضأ وصَلِّ ، لأن النبى علمنا أنه إذا حَزَبَه أمر قام

إلى الصلاة ، فساعة تجد الجو المشحون بالتوتر بين الزوج والزوجة وأهلهما قل لهم : المسألة صارت أكبر من حيلنا ، فهيا نصل ليساعدنا الله على حل هذه المسائل الصعبة ، وأنا أتحدى ألا يوجد الله حلاً لمشكلة لجأ فيها المسلم إلى الصلاة قبلها .

وهكذا نفهم أن الحق قال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » لأن محافظتكم عليها هى التى ستنهى كل الخلافات ؛ لأن الله لا يكون فى بالكم ساعة ضيقكم وفى ساعة شدتكم فتستسلمون للضيق والشدة وتنسون الصلاة ، فى الوقت الذى يكون فيه الإنسان أحوج ما يكون إلى الصلاة . إنك فى وقت الضيق والشدة عليك أن تذهب إلى ربك ، وأقول هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ إن الولد الذى يضربه أصحابه يذهب إلى أبيه ، كذلك زوجتك إذا أغضبتها تذهب إلى أهلها ، فكيف لا تذهب إلى ربك وقت شدتك وكربك ؟ .

وهكذا نجد أن قوله الحق : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » جاء فى المكان الصحيح ، وهكذا آية الربا ، جاءت فى مكانها هنا وخصوصاً أنه تكلم عن الربا أولاً ، فتأتى الحادثة وسخونة الحدث وينزل هذا القول الكريم . كى يعرف كل من يريد مالاً زائداً على غير ما شرع الله أنّه سيأتى منه البلاء على نفسه وعلى غيره ، فالبلاء فى أُحُد شمل الجميع : الرماة وغير الرماة أيضا .

إذن فكل الدنيا تتعب عندما تخالف منهج الله ، والمال الزائد من غير ما شرع الله إن لم يترك فقد آذن الله من يأكله بحرب من الله ومن رسول الله .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

والربا زيادة فى المال ، فهل يؤكل ؟ نعم ؛ لأن كل المسائل المالية من أجل اللقمة

الَّتى تأكلها ، هذا هو الأصل . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أصبح منكم آمنا فى سِرْبِهِ مُعَافىً فى جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا »[١] .

ونعرف أنه عندما يكون الواحد منا فى منطقة ليس فيها رغيف خبز ، فلن تنفعه ملكية جبل من الذهب . « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » وقوله سبحانه : « أضعافا » و« مضاعفة » هو كلام اقتصادى على أحدث نظام ، فالأضعاف هى : الشيء الزائد بحيث إذا قارنته بالأصل صار الأصل ضعيفاً ، فعندما يكون أصل المال مائة ـ على سبيل المثال ـ وسيؤخذ عليها عشرون بالمائة كفائدة فيصبح المجموع مائة وعشرين . إذن فالمائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة ، هذا هو معنى أضعاف .

فماذا عن معنى « مضاعفة » ؟ إننا سنجد أن المائة والعشرين ستصبح رأس مال جديداً ، وعندما تمر سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضاً ، إذن فالأضعاف ضوعفت أيضاً ، وهذا ما يسمى بالربح المركب ، وهل معنى هذا أننا نأكله بغير أضعاف مضاعفة ؟! لا ؛ لأن الواقع فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هكذا .

وقد يقول لك واحد : أنا أفهم القرآن وأن المنهى هو الأضعاف المضاعفة ، فإذا لم تكن أضعافاً مضاعفة فهل يصح أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل فى نسبة فائدة على أصل المال فقط ؟ . ولكن مثل هذا القائل نرده إلى قول الله :

﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٧٩ سورة البقرة)

إن هذا القول الحكيم يوضح أن التوبة تقتضى أن يعود الإنسان إلى حدود رأس ماله ولا يشوب ذلك ربح بسيط أو مركب . وعندما نجد كلمة « أضعافا مضاعفة » فهى قد جاءت فقط لبيان الواقع الذى كان سائداً فى أيامها .

وبعد ذلك يقول الحق تذييلاً للآية : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » ونقول دائماً

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، والترمذى وابن ماجه عن عبدالله بن محصن .

ساعة نرى كلمة « اتقوا » يعنى اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، وهل تكون الوقاية بينكم وبين الله بكل صفات جماله وجلاله ؟ لا ، فالوقاية تكون مما يتعب ومما يؤلم ويؤذى ، إذن فاتقوا الله يعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله من جبروت وقهر وانتقام وقاية ، وعندما يقول الحق : « واتقوا النار » فهى مثل قوله : « واتقوا الله » ، لأن النار جند من جنود صفات الجلال .

وعندما يقول الحق : « لعلكم تفلحون » نعرف أن كلمة « الفلاح » هذه تأتى لترغيب المؤمن فى منهج الله ، وقد جاء الحق بها من الشيء المحس الذى نراه فى كل وقت ، ونراه لأنه متعلق ببقاء حياتنا ، وهو الزرع والفلاحة ، أنت تحرث وتبذر وتروى ، وبعد ذلك تحصد .

إذن فهو يريد أن يوضح لك أن المتاعب التى فى الحرث ، والمتاعب التى فى البذر ، والمتاعب التى فى السقى كلها متى ترى نتيجتها ؟ أنت ترى النتيجة ساعة الحصاد ، فالفلاح يأخذ (كيلتين) من القمح من مخزنه كى يزرع ربع فدان ، ولا نقول له : أنت أنقصت المخزن ؛ لأنه أنقص المخزن للزيادة ، ولذلك فالذى لم ينقص من مخزنه ولم يزرع ، يأتى يوم الحصاد يضع يده على خده نادماً ولا ينفع الندم حينئذ !

إن الحق يريد أن يقول لنا : إن المنهج وإن أتعبك ، وإن أخذ من حركتك شيئاً كثيراً إلا أنه سيعود عليك بالخير حسب نيتك وإقبالك على العمل ، ولقد ضرب لنا الله المثل فى قوله :

﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

(الآية ٢٦١ سورة البقرة)

هذا أمر واضح ، حبة نأخذها منك فتنقص ما عندك ، لكنها تعطيك سبعمائة ، إذن فساعة تؤخذ منك الحبة لا تقل : إنك نقصت ، إنما قَدِّرْ أنك ستزيد قدر كذا . ويعطينا الله ذلك المثل فى خلق من خلقه وهو الأرض ،

الأرض الصماء ، أنت تعطيها حبة فتعطيك سبعمائة . فإذا كان خلق من خلق الله وهو الأرض يعطيك أضعاف أضعاف ما أعطيت . أفلا يعطيك رَبّ هذه الأرض أضعافاً مضاعفة ؟ إنه قادر على أجزل العطاء ، هذا هو الفَلاحُ على حقيقته ، وبعد ذلك فإنه ساعة يتكلم عن الفلاح يقول لك : إنك لن تأخذ الفلاح فقط ولكنك تتقى النار أيضاً .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

إذن ففيه مسألتان : سلبُ لمضرّة ، وإيجابُ منفعة ، إنه يوجب لك منفعة الفلاح ويسلب منك مضرّة النار . ولذلك يقول تعالى :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

لأنه إذا زُحزح عن النار ولم يعد فى نار ولا فى جنه فهذا حسن ، فما بالك إذا زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ إن هذا هو الفوز الكبير ، وهذا السبب فى أن ربنا سبحانه وتعالى ساعة السير على الصراط سيُرينا النار ونمرُّ عليها ، لماذا ؟ كى نعرف كيف نجانا الإيمان من هذه ، وما الوسيلة كى نفلح ونتقى النار ؟ إن الوسيلة هى اتباع منهج الله الذى جاء به على لسان رسوله :

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

و« الرحمة » تتجلى فى ألا يوقعك فى المتعبة ، أما الشفاء فهو أن تقع فى المتعبة ثم تزول عنك ، لذلك فنحن إذا ما أخذنا المنهج من البدء فسنأخذ الرحمة .

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

إن الشفاء هو إزالة للذنب الذى تورطنا فيه ويكون القرآن علاجاً ، والرحمة تتجلى إذا ما أخذنا المنهج فى البداية فلا تأتى لنا أية متاعب . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

والسرعة ـ كما عرفنا ـ مقابلها العجلة ، إن السرعة هى : التقدم فيما ينبغى ، ومعنى أن تتقدم فيما ينبغى : أنك تجعل الحدث يأخذ زمناً أقل ، والمثال على ذلك عندما يسرع الإنسان بسيارته من القاهرة إلى الإسكندرية فهو يحاول أن يقطع المائتين والعشرة كيلو مترات فى زمن أقل ، فبدلاً من أن تأخذ منه ثلاث ساعات فى السيارة فهو يسرع كى تأخذ منه ساعتين . إذن فالسرعة هى : التقدم فيما ينبغى ، وهى محمودة ، وضدها : الإبطاء . فالسرعة محمودة ، والإبطاء مذموم .

لكن « العجلة » تقدم فيما لا ينبغى ، وهى مذمومة ، مقابلها « التأنى » ، والتأنى ممدوح ، إذن فالسرعة محمودة ، ومقابلها الإبطاء مذموم ، والعجلة مذمومة ، ومقابلها التأنّى ممدوح ، والمثل الشعبى يقول : فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة .

إن الحق يقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » أى : خذوا المغفرة وخذوا الجنة بسرعة ، لأنك لا تعرف كم ستبقى فى الدنيا ، إياك أن تؤجل عملاً من أعمال الدين أو عملا من أعمال الخير ؛ لأنك لا تعرف أتبقى له أم لا . فانتهز فرصة حياتك وخذ المغفرة وخذ الجنة ، هذا هو المعنى الذى يأتى فيه الأثر الشائع « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

الناس تفهمها فهماً يؤدى مطلوباتهم النفسية بمعنى : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً : يعنى اجمع الكثير من الدنيا كى يكفيك حتى يوم القيامة ، وليس هذا فهماً صحيحاً لكن الصحيح هو أن ما فاتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً وتأخذه غداً ، أمَّا أمر الآخرة فعليك أن تعجل به .

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض » ونحن نعرف أن المساحات لها طولٌ وعرض ، لأن الذى طوله كعرضه يكون مربعاً ، إنما الذى عرضه أقل من طوله فنحن نسميه « مستطيلا » ، وحين يقول الحق « عرضها السموات والأرض » نعرف أن العرض هو أقل البعدين ، أى أنها أوسع مما نراه ، فكأنه شبّه البعد الأقل فى الجنة بأوسع البعد لما نعرفه وهو السموات والأرض ملتصقة مع بعضها بعضا فأعطانا أوسع ممَّا نراه . فإذا كان عرضها أوسع ممَّا نعرف فما طولها ؟ أنه حد لا نعرفه نحن .

قد يقول قائل لماذا بيَّن عرضها فقال : « عرضها السموات والأرض » . فأين طولها إذن ؟ ونقول : وهل السموات والأرض هى الكون فقط ؟ إنّه سبحانه يقول :

﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

ويقول صلى الله عليه وسلم : (ما السموات والأرض وما بينهما إلا كحلقة ألقاها ملك فى فلاة) . أليست هذه من ملك الله ؟

وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أُعدت للمتقين ، ومعنى « أُعدت » أى هيئت وصُنعت وانتهت المسألة ! يؤكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول :

(عرضت عليّ الجنة ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت)[1] .

لماذا ؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعني أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك ، ولكن الوجود للحدث ينفي أن لا يوجد ؛ لأن وجوده صار واقعا ، فعندما يقول : « أُعدت » فمعناها أمر قد انتهى الحق من إعداده ، ولن يأخذ من خامات الدنيا وينتظر إلى أن ترتقى الدنيا عندكم ويأخذ وسائل وموادّ مما ارتقيتم ليعد بها الجنة ، لا .

لقد أخبر سبحانه عنها فقال :« فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، وأعد سبحانه الجنة كلها بـ « كن » ، فعندما يقول : « أُعدت » تكون مسألة مفروغاً منها . ومادامت مسألة مفروغاً منها إذن فالمصير إليها أو إلى مقابلها مفروغ منه ، والجنة أُعدت للمتقين ، فمن هم المتقون ؟

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٣٤ ﴾

هذه بعض من صفات المتقين « والكاظمين الغيظ » لأن المعركة ـ معركة أُحُد ـ ستعطينا هذه الصورة أيضاً . فحمزة وهو سيد الشهداء وعم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقتل . وليته يُقتل فقط ولكنه مُثِّل به ، وأُخذ بضع منه وهو الكبد فلاكته « هند » ، وهذا أمر أكثر من القتل . وهذه معناها ضغن دنىء .

وحينما جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مقتل حمزة وقالوا له : إن « هنداً »

(١) رواه البخارى فى الأذان ، وابن ماجه فى الإقامة ورواه أحمد فى المسند .

أخذت كبده ومضغتها ثم لفظتها ، إذ جعلها الله عَصِيَّة عليها ، قال : « ما كان الله ليعذب بعضاً من حمزة فى النار » كأنها ستذهب إلى النار ، ولو أكلتها لتمثلت فى جسمها خلايا ، وعَندما تدخل النار فكأن بعضاً من حمزة دخل النار ، فلابد أن ربها يجعل نفسها تجيش وتتهيأ للقىء وتلفظ تلك البضعة التى لاكتها من كبد سيد الشهداء .

وقد شبه النبى صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة بأنها أفظع ما لقى . إنها مقتل حمزة فقال : (لئن أظفرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم) .

وهنا جاء كظم الغيظ ليأخذ ذروة الحدث وقمته عند رسول الله فى واحد من أحب البشر إليه وفى أكبر حادث أغضبه ، وينزل قول الحق :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

كى نعرف أن ربنا ـ جل جلاله ـ لا ينفعل لأحد ؛ لأن الانفعال من الأغيار ، وهذا رسوله فأنزل ـ سبحانه ـ عليه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » ويأتى هنا الأمر بكظم الغيظ ، وهو سبحانه يأتى بهذا الأمر فى مسألة تخص الرسول وفى حدث « أُحُد » . وبعد ذلك يُشيعها قضية عامة لتكون فى السلم كما كانت فى الحرب . وتكون مع الناس دون رسول الله ؛ لأنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« والكاظمين الغيظ » ونعرف أن كل الأمور المعنوية مأخوذة من الحسّيات . وأصل الكظم أن تملأ القِرْبَة ، والقِرَب ـ كما نعرف ـ كان يحملها « السقا » فى الماضى ، وكانت وعاء نقل الماء عند العرب ، وهى من جلد مدبوغ ، فإذا مُلئت القربة بالماء شُدّ على رأسها أى رُبط رأسها ربطاً محكماً بحيث لا يخرج شىء مّما فيها ، ويقال عن هذا الفعل :« كظم القربة » أى ملأها وربطها ، و القربة لينة وعندما توضع على ظهر واحد أو على ظهر الدابة فمن ليونتها تخرج الماء فتكظم وتربط بإحكام كى لا يخرج منها شىء .

كذلك الغيظ يفعل فى النفس البشرية ، إنه يهيجها ، والله لا يمنع الهياج فى النفس لأنه انفعال طبيعى ، والانفعالات الطبيعية لو لم يردها الله لمنع أسبابها فى التكوين الإنسانى . إنما هو يريدها لأشياء مثلا : الغريزة الجنسية ، هو يريدها لبقاء النوع ، ويضع من التشريع ما يهذبها فقط ، وكذلك انفعال الغيظ ، إن الإسلام لا يريد من المؤمن أن يُصَبَّ فى قالب من حديد لا عواطف له ، لا ، هو سبحانه يريد للمؤمن أن ينفعل للأحداث أيضاً ، لكن الانفعال المناسب للحدث ، الانفعال السامى الانفعال المثمر ، ولا يأتى بالانفعال المدمر .

لذلك يقول الحق :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

فالمؤمن ليس مطبوعاً على الشدة ، ولا على الرحمة ، ولكن الموقف هو الذى يصنع عواطف الإنسان ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة المائدة)

وهل هناك من هو ذليلٌ عزيزٌ معاً ؟ نقول : المنهج الإيمانى يجعل المؤمن هكذا ، ذلة على أخيه المؤمن وعزة على الكافر . إذن فالإسلام لا يصب المؤمنين فى قالب كى لا ينفعلوا فى الأحداث .

ومثال آخر : ألم ينفعل الرسول صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم ؟ لقد انفعل وبكى وحزن . إن الله لا يريد المؤمن من حجر . بل هو يريد المؤمن أن ينفعل للأحداث ولكن يجعل الانفعال على قدر الحدث ، ولذلك قال سيدنا رسول الله عند فراق ابنه : (إن العين تدمع وإن القلب يحزن ولا نقول إلا مايرضى ربنا وإنّا بفراقك

يا إبراهيم لمحزونون)[١] .

ولا نقول لحظة الانفعال ما يسخط الرب . بل انفعال موجّه ، والغيظ يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعاً عن منهج الله ، ولكن على المؤمن أن يكظمه . . أى لا يجعل الانفعال غالبا على حسن السلوك والتدبير . والكظم ـ كما قلنا ـ مأخوذ من أمر محس . مثال ذلك : نحن نعرف أن الإبل أو العجماوات التى لها معدتان ، واحدة يُختزن فيها الطعام ، وأخرى يتغذى منها مباشرة كالجمل مثلاً ، إنه يجتر .

ومعنى : يجتر الجمل أى يسترجع الطعام من المعدة الإضافية ويمضغه ، هذا هو الاجترار . فإذا امتنع الجمل عن الاجترار يقال : إن الجمل قد كظم . والحق سبحانه يقول : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس » .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الانفعال فى ذاته ، فقد يبقى فى النفس وتكظمه ، ومعنى كظم الانفعال : أن الإنسان يستطيع أن يخرجه إلى حيز النزوع الانفعالى ، ولكنّه يكبح جماح هذا الانفعال . أما العفو فهو أن تخرج الغيظ من قلبك ، وكأن الأمر لم يحدث ، وهذه هى مرتبة ثانية . أما المرتبة الثالثة فهى : أن تنفعل انفعالاً مقابلاً ؛ أى أنك لا تقف عند هذا الحد فحسب ، بل إنك تستبدل بالإساءة الإحسان إلى من أساء إليك . إذن فهناك ثلاث مراحل : الأولى : كظم الغيظ . والثانية : العفو . والثالثة : أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسىء إليه .

وهذا هو الارتقاء فى مراتب اليقين ؛ لأنك إن لم تكظم غيظك وتنفعل ، فالمقابل لك أيضاً لن يستطيع أن يضبط انفعاله بحيث يساوى انفعالك ، ويمتلىء تجاهك بالحدة والغضب ، وقد يظل الغيظ نامياً وربما ورّث أجيالا من أبناء وأحفاد . لكن إذا ما كظمت الغيظ ، فقد يخجل الذى أمامك من نفسه وتنتهى المسألة .

« والعافين عن الناس » مأخوذة من « عفّى على الأثر » والأثر ما يتركه سير الناس

---

(١) رواه البخارى فى الجنائز ، ومسلم فى الفضائل ، وابن ماجه فى الجنائز ورواه أحمد فى المسند .

فى الصحراء مثلا ، ثم تأتى الريح لتمحو هذا الأثر . ويقول الحق فى تذييل الآية : « والله يحب المحسنين » .

وقلنا فى فلسفة ذلك : إننا جميعاً صنعة الله ، والخلق كلهم عيال الله . وما دمنا كلنا عيال الله فعندما يُسىء واحد لآخر فالله يقف فى صف الذى أسىء إليه ، ويعطيه من رحمته ومن عفوه ومن حنانه أشياء كثيرة . وهكذا يكون المُسَاء إليه قد كسب . أليس من واجب المُسَاء إليه أن يُحسِن للمسىء ؟ .

لكن العقل البشرى يفقد ذكاءه فى مواقف الغضب ؛ فالذى يسىء إلى إنسان يحسبه عدوًّا . لكن على الواحد منا أن يفهم أن الذى يسىء إليك إنما يجعل الله فى جانبك ؛ فالذى نالك من إيذائه هو أكثر مما سلبك هذا الإيذاء . هنا يجب أن تكون حسن الإيمان وتعطى المسىء إليك حسنة .

ويضيف الحق من بعد ذلك فى صفات أهل الجنة :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥ ﴾

والفاحشة هى:الذنب الفظيع . فهل معنى ذلك أن الرماة فى غزوة أحد حين تركوا مواقعهم ، قد خرجوا من الإيمان ؟ لا ، إنها زلة فقط ، لكنها اعتبرت كبيرة من الكبائر لمن أشار على المؤمنين أن ينزلوا ،واعتبرت صغيرة لمن حُرّض ـ بالبناء للمفعول ـ على أن ينزل من موقعه .

إذن فهو قول مناسب : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » وجاء الحق هنا بـ« ذكروا الله » كتنبيه لنا إلى أن من يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه هو من نسى الله ، فلحظة فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يكون الله على بال الإنسان الفاعل للفاحشة أو على بالٍ من ظلم نفسه ، والذى يُجرِّىء الإنسان على المعصية ليحقق لنفسه شهوة ، أنه لم ير الله ولم ير جزاءه وعقابه فى الآخرة ماثلا أمامه ، ولو تصور هذا لامتنع عن الفاحشة .

وكذلك الذى يهمل فى الطاعة أيضاً ، لم يذكر الله وعطاءه للمتقين . ولو ذكر الله وعطاءه للمتقين لما تكاسل عن طاعة الله . ولذلك يقول الحق : « ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم » فمن يستغفر لذنبه فقد ذكر الله .

•

وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف . بعض العلماء قال : إنها الكبيرة من الكبائر ، وظلم النفس صغيرة من الصغائر . وقال بعض آخر من العلماء : إن الفاحشة هى الزنا ؛ لأن القرآن نص عليها ، ومادون ذلك هو الصغيرة .

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا كبيرة مع الاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار)[1]

فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة . وحين ننظر إلى قول الله تعالى : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم » نجد أن الذى فعل الفاحشة ظالم لنفسه أيضا لأنه حقق لنفسه شهوة عارضة ، وأبقى على نفسه عذاباً خالداً .

ولماذا لم يقل الحق إذن : والذين ظلموا أنفسهم فقط ؟ أى يكون العطف بـ (الواو) لا بـ (أو) ؛ لأن الحق يريد أن يوضح لنا الاختلاف بين فعل الفاحشة وظلم النفس .

لأن الذى يفعل الفاحشة إنما يحقق لنفسه شهوة أو متعة ولو عاجلة ، لكن الذى

(١) رواه أبو الشيخ والديلمى عن ابن عباس رفعه ، ورواه البيهقى ـ عن ابن عباس ـ موقوفا ، وله شاهد عند البغوى ، ومن جهة الديلمى عن أنس مرفوعا ، وأخرجه الطبرانى عن أبى هريرة ، وزاد فى آخره « فطوبى لمن وجد فى كتابه استغفاراً كثيراً » لكن فى إسناده بشر بن عُبيد الفارسى متروك .

يظلم نفسه يذنب الذنب ولا يعود عليه شيء من النفع ؛ فالذى يشهد الزور - على سبيل المثال - إنه لا يحقق لنفسه النفع ، ولكن النفع يعود للمشهود له زوراً . إن شاهد الزور يظلم نفسه لأنه لبّى حاجة عاجلة لغيره ، ولم ينقذ نفسه من عذاب الآخرة . أما الإنسان الذى يرتكب الفاحشة فهو قد أخذ متعة فى الدنيا ، وبعد ذلك ينال العقاب فى الآخرة .

لكن الظالم لنفسه لا يفيد نفسه ، بل يضر نفسه ؛ فالذى هو شر أن تبيع دينك بدنياك ؛ إنك فى هذه الحالة قد تأخذ متعة من الدنيا وأمد الدنيا قليل . والحق لم ينه عن متاع الدنيا ، ولكنه قال عنه : « قل متاع الدنيا قليل » . وهناك من يبيع دينه بدنيا غيره ، وهو لا يأخذ شيئاً ويظلم نفسه .

ويقول الحق : « فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله » . ومعنى « ذنب » هو مخالفة لتوجيه منهج . فقد جاء أمر من المنهج ولم ينفذ الأمر . وجاء نهى من المنهج فلم يُلتزم به . ولا يسمى ذَنْباً إلا حين يعرفنا الله الذنوب ، ذلك هو تقنين السماء . وفى مجال التقنين البشرى نقول : لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم .

وهذا يعنى ضرورة إيضاح ما يعتبر جريمة ؛ حتى يمكن أن يحدث العقاب عليها ، ولا تكون هناك جريمة إلا بنص عليها . أى أنه يتم النص على الجريمة قبل أن يُنص على العقوبة ، فما بالنا بمنهج الله ؟ إنه يعرفنا الذنوب أولاً ، وبعد ذلك يحدد العقوبات التى يستحقها مرتكب الذنب .

ولننتبه إلى قول الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » إذن فالاستغفار ليس أن تردف الذنب بقولك ; أستغفر الله لا . إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله : أستغفر الله وأن يصر على ألا يفعل الذنب أبداً .

وليس معنى هذا ألا يقع الذنب منك مرة أخرى ؛ إن الذنب قد يقع منك ، ولكن ساعة أن تستغفر تصر على عدم العودة ، إن الذنب قد يقع ، ولكن بشرط ألا

يكون بنيّة مُسبقة ، وتقول لنفسك : سأرتكب الذنب ، وأستغفر لنفسى بعد ذلك . إنك بهذا تكون كالمستهزىء بربّك ، فضلا على أنك قد تصنع الذنب ولا يمهلك الله لتستغفر . وقوله الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » يوضح لنا أنه لا عقوبة إلا بتجريم ولا تجريم إلا بنص .

إن الحق يعلمنا ويعرفنا أولاً ما هو الذنب ؟ وما هو العقاب ؟ وكيفية الاستغفار ؟ ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

« أولئك » إشارة إلى ما تقدم فى قوله سبحانه :

﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

مع بيان أوصاف المتقين فى قوله :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

(الآية ١٣٤ سورة آل عمران)

إنهم ينفقون فى السراء نفقة الشكر . وينفقون فى الضراء نفقة الذكر والتضرع ،

لأن النعمة حين توجد بسرّاء تحتاج إلى شكر لهذه النعمة ، والنعمة حين تنفق فى الضراء تقتضى ضراعة إلى الله ليزحزح عن المنفق آثار النقمة والضراء . إذن فهم ينفقون سواء أكانوا فى عسر ، أم كانوا فى يسر .

إن كثيراً من الناس ينسيهم اليسر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم . وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسوا بآلام الغير ويشغلوا بآلام أنفسهم . لكن المؤمنين لا ينسون ربهم أبداً . وأمره بالإنفاق فى العسر واليسر . ولذلك قالوا : فلان لا يقبض يده فى يوم العرس ولا فى يوم الحبس .

وتتتابع أوصاف المتقين :

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفى ذلك لون من تطمين المؤمن على أغيار نفسه ، وعلى أنه عندما يستجيب مرة لنزغات الشيطان ، فهذه لا تخرجه من حظيرة التقوى ، لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين . فالفاحشة التى تكون من نزغ الشيطان وذكر العباد لله بعدها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تخرجهم أبداً عن وصفهم بأنهم متقون . لأن الحق هوالغفور : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

إنهم قد أُخبروا بذلك ، فلم يجرم الحق أحداً إلا بنص ، ولم يعاقب إلا بجريمة . وقول الحق سبحانه : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » هو إشارة لكل ما سبق . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للعاملين بهذا العمل من التقوى قوسين : القوس الأول الذى ابتدأ به هو قوله الحق : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » .

والقوس الثانى هوالذى أنهى الأمر : « أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار » .

فالجنة الأولى التى ذكرها الله إلهاباً للعواطف النفسية لتقبل على ما يؤدى لهذه الجنة ، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصناف وجعل الجنة أجراً . « ونعم أجر العاملين » .

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل . والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه . فزيادة الأجر ونقصه تقدير من صاحب العمل ، وأيضاً تقدير للعامل . فإن طلب أصحاب عمل متعددون عاملاً محدداً فله أن يطلب زيادة ، وإن لم يطلبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل .

إذن فالمسألة مسألة حاجة من صاحب عمل ، أو حاجة من عامل ، وحين ننظر إلى الصفقة فى الآخرة نجد أنها بين إله لا يحتاج إلى عملك . ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجراً .

ما هذه المسألة ؟ . هو ليس محتاجاً إلى عملك ، ويعطيك أجراً على عملك ويقول لك : إن هذا الأجر هو الحد الأدنى ، لكن لى أنا أن أضاعف هذا الأجر ، ولى أن أتفضل عليك بما فوق الأجر . فكم مرحلة إذن ؟ إنها ثلاث مراحل ، مع أنه سبحانه لا يستفيد من هذا العمل إلا أنه وضع ثلاث مراتب للأجر .

إذن فالحاجة من جهة واحدة هى جهتك أنت أيها العبد ، أنت تحتاج إلى خالقك وهو لا يحتاج إليك ، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط ، ولكن فوق ذلك بكثير . إن الذى تعمل له يوماً من العباد قد يعطيك ـ على سبيل المثال ـ ما يكفيك قوت يوم ، أو قوت يوم ونصف يوم . ولكنك حين تأخذ الأجر من يد الله فإنه يعطيك أجراً لا تنتهى مدة إنفاقه ؛ فهو القائل : « ونعم أجر العاملين » .

هذا هو الأجر الذى يقال فيه : نعم هذا الأجر ؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودى ، بل يفوق كل ما بذلتَ من جهد وقادم من جهة لا تحتاج إلى هذا المجهود .

إنه سبحانه متفضل على أولاً . ومتفضل على أخيراً ، ليدل الحق سبحانه وتعالى على أنك ـ أيها العبد ـ حين تعمل الطاعة يَعود أثر الطاعة على نفسك ومع ذلك فهو يعطيك أجراً على ما فعلت .

وأوضحنا أن هذه الآيات جاءت بين آيات معركة أُحُد إرشاداً واستمهارا للأحداث التي وقعت فى أُحُد ، حتى إذا عاش الإنسان فى تصور الأحداث فالأحداث تكون ساخنة ، ويكون التقاط العبرة منها قريباً إلى النفس ؛ لأن لها واقعاً يُحتّمها ويؤكدها . والحق سبحانه وتعالى يقول من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

أى أنتم لستم بدعاً فى هذه المسألة . و« خلت » تعنى « مضت » ، أى حصلت واقعا فى أزمان سبقت هذا الكلام . وعادة فالأخبار التى يتكلم بها الإنسان مرة تكون خبراً يحتمل الصدق والكذب ، لكن هذه المسألة لا تحتاج إلى صدق أو كذب ؛ لأن الواقع ليس أمراً مستقبلاً ، ولكنه أمر قد سبق ، فبمجرد أن يجىء الكلام لا ننتظر واقعاً يؤكد صدق الكلام ، لأنّ الواقع قد حدث من قبل ، فيقول سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » .

والسنن هى الطرق التى يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون ؛ ليضمن للإنسان ـ السيد فى هذا الكون ـ ما يحقق مصلحته ، ومصلحةالإنسان تتمثل فى أن يسود الحق فى حياة الإنسان المختار كما ساد الحق فى الكون المسيّر قبلَ الإنسان .

وقد قلنا إن فى هذا الكون تسخيراً : أى لا إرادة له ، لا إرادة للجماد ولا للنبات .

ولا للحيوان فى أن تفعل الخير لك أو لا تفعل . فلم يحدث أن جاء إنسان لأرض صالحة للزراعة ، ووضع فيها بذوراً ، فلم تنبت الأرض وقالت له : لن أعطيك ، ولم تقل الأرض يوماً عن إنسان : إنه كافر فلن أعطى له الرزق .

إن الأرض مسخرة لخدمة الإنسان مادام يأخذ بأسبابها ؛ فهى تؤدى له . والحيوانات أيضا مسخرة لخدمتك لا باختيارك ، ولا بقدرة تسخيرك لها ، ولكن بتسخير الله لها أن تفعل .

وقلنا: إن الإنسان قد تكون عنده مطية ، مثل بعض الفلاحين ، فمرة يجعلها صاحبها تحمل أكوام السباخ من روث الحيوان وفضلاته ، وبعد ذلك يلوح له أن يخرجها من عملها هذا ويجعلها ركوبة له ، ويدللها بالأشياء التى تعرفونها من لجام جميل وسرج أجمل ، ويرفهها فى حياتها وينظفها .

هل فى الحالة الأولى امتنعت المطية عن حمل السباخ أو امتنعت فى الحالة الثانية عن حمل الإنسان ؟ لا ؛ أنت تسيرها مثلما تريد أنت ، فليس لها اختيار . ولا النبات له اختيار ، ولا الجماد له اختيار ، ولا الحيوان أيضاً ، إنما الاختيار للإنسان .

وقد حكم الله اختيار الإنسان بمقادير يكون الإنسان مسخراً فيها حتى لا يظن أنه استقل بالسيادة فأصبحت له قدرة ذاتية . والحق يحكم الإنسان بأشياء يجعلها قهرية على الإنسان كى يظل فى إطار التسخير . ويترك الحق للإنسان أشياء ليبقى له فيها الاختيار . فإذا ما نظرنا إلى الكون وجدنا أن ما لا اختيار فيه لشىء يسير على أحدث نظام ولا تصادم فيه ، والذى فيه اختيار للإنسان هو الذى يختل ، لماذا ؟ .

لأن الإنسان قد يختار على غير منهج الذى خَلَق وهو الله ـ سبحانه وتعالى ـ فإذا أردت أن يستقيم لك الأمر أيها المختار فاجعل اختيارك فى إطار منهج الله . وحين تجعل اختيارك فى إطار منهج الله تكون قد أصبحت سويًّا كبقيّة الأجناس وتسير الأمور معك بانتظام .

وعندما تقارن بين شىء للإنسان فيه اختيار وعمل ، وشىء لا اختيار للإنسان فيه

ولا عمل ، فأنت تجد أن الشيء الذى لا اختيار للإنسان فيه مستقيم الأمر ، ولا خلاف فيه أبداً ، أما الشيء الذى فيه اختيار للإنسان ، فأنت تجد فيه الخلاف .

مثال ذلك : لو نظرنا إلى وسيلة مواصلات من الحيوانات كالجمال أو الخيل أو الحمير ، فإننا نجدها تسير فى طريق واحد ، وتتقابل جيئة وذَهابا فلا يحدث تصادم بين حمار وحمار ، ولا قتل لراكب أحد الحمارين .

إن الحيوانات يتفادى ويتحامى بعضها بعضاً حتى لو كان الراكب نائماً . ومهما كان الطريق مزدحماً فالحيوانات لا تتصادم ؛ لأن ذلك من نطاق تسخير الحق للحيوان .

ولننظر إلى الإنسان حين تدخَّل ليصنع وسيلة مواصلات ، صنع الإنسان ألوان السيارات ، يقودها الإنسان ، ومع أن الإنسان هو الذى يقود السيارات ، وبرغم ذلك بدأت تأتى المخالفات والمصادمات والحوادث ؛ لأن للإنسان يداً فى ذلك .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يدلك على أن ما خلق مسخراً بأمر الله وتوجيهه لا يتأتى منه فساد أبداً ، إنما يتأتى الفساد مما لك فيه اختيار ، فحاول أن تختار فى إطار منهج الله . فعندما يقول الحق لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فعليك أن تصدق وتطيع ؛ لأن الحق سبحانه عندما سخر الأشياء للإنسان سارت بانتظام رائع ، وأنت أيها العبد عندما تطيع الله فإن الأمور فى حياتك تمشى بيسر .

ولذلك قلنا : إن الناس لم تشتك قط أزمة شمس ، ولم يشتكوا أزمة هواء ، لكن لماذا اشتكوا أزمة طعام ؟ إن الإنسان له دخل فى إنتاج الطعام . فما للإنسان فيه دخل يجب أن يحكمه قانون التكليف من الله : « افعل كذا ولا تفعل كذا » .

الكون مخلوق بحق . ومعنى أنه مخلوق بحق أن كل شيء فى الوجود يؤدى مهمته كما أرادها الله ، وكما سُخر من أجله . وإذا ما قام الإنسان بتنفيذ التكليف فكل شيء يسير بحق . وإن ترك الإنسان التكليف وأخذ باختياره فإنه يصير إلى باطل ونتج ما هو باطل ، والكون مبنى على الحق .

﴿ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إن الحق جعل للكون قضايا ثابتة ، فلا شيء يعتدى على شيء آخر أبداً . واختيار الإنسان هو الذى يأتى بمقابل الحق وهو الباطل ، ولذلك يصون الله الكون بأن يبين أن الحق يصطدم بالباطل ، والباطل يصطدم بالحق لكن الحق يجيء ويبقى ، والباطل يزهق ويزول ، ويظهر الله لنا ذلك أمام أعيننا يقول تعالى :

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فقوله سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » يعنى : اعتبروا بما سبقكم وانظروا إلى اصطدام الباطل بالحق ، أدام وبقى اصطدام الباطل بالحق ؟ لا ؛ لأن الباطل كان زهوقا . ولذلك نحن نرى أمثلة عملية لذلك لا أقول فى مواكب الناس بعضهم مع بعض ، ولكن فى موكب الباطل مع حق السماء . وحق السماء يمثله الرسل والمناهج التى جاءت من عند الله وكل حق جاء من السماء وجاء من مناهج الله قابله قوم مبطلون .

لماذا ؟ . لأن السماء دائماً لا تتدخل إلا حين يشيع الفساد ، ومادام الفساد يشيع فإن هناك طائفة منتفعة بالفساد ، وهذه الطائفة المنتفعة بالفساد وبالباطل تدافع عنه وبعد ذلك يأتى موكب السماء ليصادم هذا الباطل والفئة المنتصرة للباطل ، فتنشأ معركة ، فقال الحق حينئذ : « قد خلت من قبلكم سنن » . قالها الحق لنعرف أن الباطل زهوق ، وأن كل معارك أهل الأرض مع منهج السماء قد انتصر فيها الحق . ولذلك تأتى سورة العنكبوت لتبين لنا ذلك ، بداية من قوله سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

هذه هى الصورة الأولى ، وتأتى الصورة الثانية :

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فانظروا إلى مساكنهم الباقية لتدلكم على ما حدث لهم . والصورة الثالثة :

﴿ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وساعة تسمع « وما كانوا سابقين » . أى كأن هناك حاجة تلاحقهم ، والذى يلاحقه شيء فإنه يحاول أن يسبقه ، لكنهم لا يستطيعون . وتأتى السنن واضحة بعد ذلك :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فصراع الحق والباطل قد تقدم ووقع فى أمم قد سبقتكم وبقيت لها مساكن ، فمن شاء أن يذهب إليها ليتأكد فليذهب ، ولا تزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك آثار عاد ، وكل مكان فيه أثر من الآثار . ولذلك يوضح الحق : فإن كنتم تريدون التأكد من ذلك فأنا قد أخبرت ، ومن آمن بى فليصدق خبرى ، ولغير المؤمن ولمن يريد اطمئنان قلبه يقول سبحانه :

﴿ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

(الآية ٣٦ سورة النحل)

إن الحق سبحانه وتعالى يمثل صراع الحق - وهو الشيء الثابت - مع الباطل ، وهذه القضية موجودة حتى فيما لا اختيار له . ويصنعها الحق فيهم ، صراعا بين حق وباطل فيما لا اختيار له لمصلحة الإنسان أيضاً . وقد جعل سبحانه الصراع بين الحق والباطل فى أشياء ليست من الإنسان ولكنها تخدم الإنسان ، وهذه نراها فى الأمور المادية . أما فى القيم فالحق يقول :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

إنه سبحانه أنزل من السماء ماء فسال فى الأودية ، والأودية كما نعرفها هى المكان المنحصر بين جبلين ، فإذا نزلت الأمطار على الأعالى فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل فى الأودية . والوديان هى محل الخصب ؛ لأن الغرين والطمى الذى ينزل من الجبال مع مياه المطر ويترسب ويصير تراباً خصباً يخرج منه الزرع . وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته ، وباقى المياه يبحث له عن مسلك آخر ، ولو إلى باطن الأرض ، وذلك كان مظهراً مألوفاً فى الجزيرة العربية ، فعندما يأتى السيل فإن الأودية تمتلىء ماءً ، كل وادٍ يأخذ على قدر سعته . « فاحتمل السيل زبداً رابياً » ونحن نراه فى الحقول ونسميه « الريم » الذى يطفو على سطح الماء ، ما الذى يحدث لهذا الريم ؟ إنه يتجمع ويطفو ثم يركن ويميل جانباً . ألم تر القدْر بها لحم تفور ؟. إننا نجد الريم قد طفا على السطح . وهذا الريم فيه أشياء خارجة عن عنصر الشيء الموجود فى القدر ، فإذا ما جاءت حرارة النار أخرجته على السطح ، فإما أن يخرجه الإنسان خارج القدر ، وإما أن يتركه فيتجمد على الجوانب وينتهى .

ومن أين جاء هذا الزبد ؟ إنه يأتى من الأرض ، والأرض فيها أشياء كثيرة ، كجذور النبات وبقايا ما حمله الهواء وتتخلل هذه الأشياء مسام الأرض ، هذه الأشياء عندما توجد فى المسام ، وتأتى الجذور الصغيرة لتنمو فتعوقها عن أخذ غذائها ؛ لذلك فعندما ينزل الحق الماء من السماء فإن الماء يجعل هذه الأشياء تطفو على السطح ؛ ليجعل هناك منفذاً للجذور الصغيرة .

وينزل الله المطر ليغسل التربة كلها ، ويجعل هذه الأشياء تطفو ؛ لأنها غثاء ، ويطفو الغثاء . وساعة أن يطفو الغثاء فإياك أن تفهم أن ذلك علو ، إنه علو إلى انتهاء ، كذلك فورة الباطل .

إياك أنن تظن أن الزَبَد له فائدة ، أو أن ارتفاع الريم كان علواً على ما فى القدر ، لا . إنه تطهيرٌ لما فى القدر أو الإناء ، ولهذا قال الحق : « فاحتمل السيل زبداً رابياً » .

وإن لم تذهب آثار الريم بحركة الماء التموجية فإنها ستذهب بطريقة أو بأخرى . ولننظر إلى الأشياء القذرة التى تلقى فى البحر نجد أنها بعد مدة قد خرجت إلى الشاطىء .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

إنها تخرج على الشاطىء ويجمعها المكلفون بتنظيف الشاطىء . وإلا كيف تتم صيانة الماء ؟ إنه سبحانه يجعل الماء ينظف نفسه بحركته الذاتية . إذن فالماء عندما ينزل سيلاً ، فإنه ينقى التربة من العوائق التى تعوق غذاء الجذيرات الصغيرة ، وقد لا يكتفى بعضنا بهذا المثل ، فيضرب لنا الله مثلاً آخر :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

ونحن نرى هذه الحكاية عندما يضعون أى معدن فى النار ، فإن المعدن ينصهر ويصير كالعجينة وتخرج منه فقاقيع ونحن نسميها خبث المعدن ، وعندما نخرج الخبث من المعدن فإنه يصير قوياً ، إذن فالنار قد صهرت المعدن ، وأخرجت منه الخبث الضار فيه،أو الذى يجعله لا يؤدى مهمته بكفاءة عالية ، فأنا قد أصنع من الحديد درعاً قوية أو أريد أن أستخرج منه الصلب ، وهذه العمليات معناها أننا نصْهر الحديد بالنار لنزيل خبثه ليزداد قوة . وكذلك الذهب والفضة ساعة نريد أن نخلصهما من هذه الآثار فإننا نصهرهما لنخرج منهما الأشياء الخارجة عنهما أى التى تختلط بهما وتشوبهما وهى ليست منهما .

لماذا إذن يا ربِّ هذا التمثيل الحسى فى المياه ؟ والحلية التى لا تؤدى ضرورة ، والمتاع وهو الذى يؤدى ضرورة ؟ إنه سبحانه يقول : « كذلك يضرب الله الحق والباطل » .

إن الحق كالماء ، والحق كالنار ، والماء يحمل الزبد الرابى بعيداً عن مسام الأرض ، والنار تخرج الزبد والخَبث من المعادن ، وتجعل المعادن خالصة للمنفعة المطلوبة لنا ، كذلك يضرب الله الحق والباطل : « فأما الزبد فيذهب جفاءً » .

وجفاءً أى مطروحاً مرمياً ، « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » . ذلك هو صراع الحق والباطل فى المبادىء والقيم ويصوره الله فى الأمور المادية . ومن العجيب أنه يصوره بمتناقضين ولكنهما متناقضان يؤديان مهمة واحدة ، ماء ونار ، فإياك حين ترى شيئاً يناقض شيئاً أن تقول : هذا يناقض ذاك ، لا.لأن هذا الشىء مطلوب لمهمة ، وذاك الشىء مطلوب لمهمة أخرى .

إذن فقول الحق سبحانه : « قد خلت من قبلكم سنن » هو لفت لنا إلى صراع الحق مع الباطل ، وأن الإنسان قد يرى الباطل مرة وله فورة وعلو ، ونقول : هذا إلى جُفاء . وهذه سنة من سنن الحياة . وإن أردتم أن تتأكدوا منها ، فالتفتوا إلى دقة قول الحق تعالى :

« فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » .

وهنا ملحظ عام ، وملحظ خاص ، الملحظ العام : أننا نفهم أن المقصود بذلك السير على الأرض ، وتلك هى حدود رؤيتنا ، لكن حين يتكلم الله فرؤية الله أشمل فهو الخالق لهذا الكون ، ونحن مازلنا نجهل جزئيات فى هذا الكون ، ولم نعرف بعضها إلا أخيراً ، وخالق الكون هو الذى يعلم كل الخبايا .

نحن نقول : إننا نسير على الأرض ؛ لأننا كنا نفهم أن هذه الأرض ليس عليها إلّا نحن فقط ، ثم تبين لنا ـ بعد أن أخذ العلم حظه ـ أنه لولا وجود الهواء فى الأرض لما صلحت للحياة . ولذلك فعندما تدور الأرض . فالهواء الذى حولها يدور معها ويسمونه الغلاف الجوى . إذن فالغلاف الجوى جزء من الأرض وله امتداد كبير ، فالإنسان عندما يسير فإنه يسير فى الأرض ، أما الذى يسير على الأرض فهو الذى يسير فوق الغلاف الجوى ، أما السائر على اليابسة ، والغلاف الجوى مازال فوقه فهو يسير فى الأرض لا على الأرض .

ومادامت المسألة هى سنن تقدمت ، ويريد الله منا أن نعتبر بالسنن المتقدمة ، لذلك يقول لنا : « فسيروا فى الأرض » نسير بماذا ؟ . إما أن نسير بالانتقال ، أو نسير بالأفكار ؛ لأن الإنسان قد لا يملك القدرة على السير ويترك هذه المهمة للرحالة ، والرحالة ـ مثلاً ـ هم الذين ذهبوا إلى جنوب الجزيرة ، ورأوا وادى الأحقاف ووجدوا أن عاصفة رمل واحدة تطمر قافلة بتمامها .

إذن ففيه عواصف وارت الكثير من الأشياء ، فعاصفة واحدة تطمر قافلة . فكم من العواصف قد هبت على مرّ هذه القرون ؟ والحق سبحانه يخبرنا بإرم ذات العماد فيقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إنه سبحانه يخبرنا أن إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد أى متفوقة على حضارة مصر القديمة . وهى عجيبة وفيها أكثر من عجيبة فأين هى الآن ؟ .

ومادامت الرمال بعاصفة واحدة ـ كما قلنا ـ تطمر قافلة ، فكم عاصفة مرت على هذه البلاد ؟ . ولذلك نجد أننا لا نزال جميعاً إلى الآن حين نريد أن ننقب عن الآثار فلا بد أن نحفر تحت الأرض . لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض ؟ لقد غطتها العواصف الرملية .

والمثال على ذلك : أنَّك تغيب عن بيتك شهراً واحداً وتعود لتجد من التراب الناعم ما يغطى أرض البيت على الرغم من إغلاق النوافذ . فماذا تجد من حجم التراب لو غبت عن بيتك عاماً ، أو عامين ، أو ثلاثة أعوام ، رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه ؟ ولكن التراب الناعم يتسرب ويغطى الأثاث والأرض . وإذا كانت هذه الأمور تحدث فى منازلنا فما بالك بالمنطقة التى فيها أعاصير وعواصف رملية ؟ هل تطمر المدن أو لا ؟

إن المدن والحضارات تطمر تحت الرمال ؛ لذلك فعندما ننقب عن الآثار فنحن نحفر فى الأرض ، وهذا لون من السير فى الأرض للرؤية والعظة . وحين يقول الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » فماذا يعنى بعاقبة المكذبين ؟ حين تكون أمة قد تحضرت حضارة كبيرة يقول عنها الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إن الذى أقام هذه الحضارات ألا يستطيع أن يجعل لهذه الحضارة ما يصونها ؟ كيف يتم القضاء على هذه الحضارات الواسعة واندثارها وذهابها ؟ .

لابد أن ذلك يتم بقوة أعلى منها ، فهذه الحضارات رغم تقدمها الرهيب لم تستطع أن تحفظ نفسها من الفناء . إنها القوة الأعلى منها ، وهكذا نصدق قوله الحق : « فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين » . إنه القيّوم الذى يرى كل الخلق ، فمن يطغى ويفسد فليلق النهاية نفسها . إذن فقوله سبحانه يحمل كل الصدق :

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

انظر إلى الكلمة « هذا بيان للناس » إن البيانات عندما تتأتى تأخذ قوتها وسطوتها وعظمتها من قوة من أصدر البيان ؛ أنت ساعة تجد ثورة فى مجتمع ما فإننا نسمع كلمة « بيان رقم واحد » تهتز له الدنيا وهو بيان قادم من بشر فما بالنا بالبيان القادم من الله ؟

إنه إيضاح من الله : أنا لن آخذكم على غرة « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » و« الهدى » : كما نعرف هو الطريق الموصل للغاية المرجوة . و« الموعظة » معناها : حمل النفس ترغيباً وترهيباً ، لعمل الخير بالترغيب ، والبعد عن الشر بالترهيب ، تلك هى الموعظة .

وكل هذه الأشياء عندما جاءت فى ثنايا آيات أُحُد بعد أن أخذنا منها العبرة والحدث مازال ساخناً . ولذلك فقبل أن يكمل لنا قصة أُحُد استثار النفوس بهذه المسألة ، ووضع لنا الأشياء المادية والقيمية ؛ لنأخذ بها فى حياتنا ، وحتى لا تنتهى قصة أُحُد وينصرف الناس عن العظات التى كانت فيها .

ومادامت المسألة هكذا ، وكان المقاتلون فى سبيل الله هم جنود الحق ، وعرفوا ذلك بتأييد الله لهم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بينهم . وهو حامل المعجزة الدالة على صدقه ؛ لذلك فالذى حدث فى معركة أُحُد لا يصح أن يضعفكم ؛ لأنكم تعرفون كيف يسند الله الحق ويقويه . وتعرفون حملة الله على الباطل . وقد أوضحنا لكم السنن والبيان ، ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾

والمقصود بقوله : « ولا تهنوا » أى لا تضعفوا ، وهى أمر خاص بالمسألة البدنية ؛ لأن الجراحات أنهكت الكثيرين فى موقعة أُحُد لدرجة أن بعضهم أقعد ، ولدرجة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يقدر أن يصعد الجبل ، وحمله طلحة بن عبيد الله على ظهره ليقوم ، لذلك قال الحق : « ولا تهنوا » ، لأنك عندما تستحضر أنك مؤمن وأن الله لن يخلى بينك وبين جنود الباطل لأنك نصير للحق ، والحق من الله وهو الحق لا يسلم نبيه وقومه لأعدائهم ،فيوم تأتى لك هذه المعانى إياك أن تضعف . والضعف هو نقصان قوة البدن .

« ولا تحزنوا » والحزن مواجيد قلبية ، وهم قد حزنوا فقد مات منهم كثير . مات منهم خمسة وسبعون شهيداً ، خمسة من المهاجرين ، وسبعون من الأنصار ، وهذه عملية صعبة وشاقة ، وقد حزن رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء ، وغضب لمقتل حمزة - رضى الله عنه - وقال : « لن أُصاب بمثلك أبداً ! وما وقفت موقفا قط أغيظ إلىّ من هذا » ثم قال : « لئن أظهرنى الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم مكانك » .

فقال الحق : « ولا تحزنوا » ؛ لماذا ؟ لأنك يجب أن تقارن الحدث بالغاية من الحدث .

« صحيح أن القتل صعب وإزهاق للنفس ، ولكن انظر إلى أين ذهب . وانظر ماذا خلف من بعده . أما هو فقد ذهب إلى حياة عند ربه وهى ليست كالحياة عندكم . إن الحياة عندنا لها مقاييس ، والحياة عند ربنا لها مقاييس ، فهل مقاييسنا أعلى من مقاييسه ؟لا ، حاشا لله .

إذن فإذا نظرت إليه هو فاعلم أنه ذهب لخير مما ترك ، فلا تحزن عليه بل تفرح له ؛ لأنه مادامت الغاية ستصل إلى هذه المسألة . إذن فقد قصر له مسافة الحياة ، ومادامت الغاية أن يصل إلى رحمة الله وإلى حياة عند الله بكافة معانيها ، فهو سعيد بجوار ربه ، ونحن فى الغايات الدنيوية عندما نريد أن نذهب إلى مكان نُسرّ ممن يعجل لنا الزمن لنصل إلى هذا المكان .

فبدلاً من أن أذهب إلى الإسكندرية ماشياً أذهب راكباً حصاناً أو أذهب راكباً سيارة ، والمترفه يذهب راكباً طائرة ، فإذا كانت الغاية مرجوّة ومحببّة إلى النفس ، وبعد ذلك يجىء لك حدث يقرب لك المسافة من الغاية ، فلماذا تحزن إذن ؟ لقد استشهد . إياك أن تقول : إنّ الله حرمنى قوته فى نصرة الحق ، لا . هو أعطى قوة أخرى لكثير من خلقه نصر بهم الحق ، إنك عندما تعرف أن إنساناً باع نفسه لله ، لابد أن تعرف أن الغاية عظيمة ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم فى معركة بدر ، يقدم أهله ؛ لأنه يعرف أنه إن قُتل واحد منهم إلى أين سيذهب ، إذن فهو يحب أهله ، لكنه يحبهم الحب الكبير ، والناس تحب أهلها هنا أيضاً لكن الحب الدنيوى .

« ولا تحزنوا » على ما فاتكم من الغنائم أو لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر لماذا ؟ وتأتى الإجابة ، « وأنتم الأعلون » . . ولذلك جاء مصداق ذلك حينما نادى أبو سفيان فقال : « اعل هبل » أى أن إلههم صار عالياً ، فقال الرسول لأصحابه : ألا تردون عليهم ؟، قالوا : بماذا نرد قال : قولوا لهم : الله أعلى وأجلّ فقال أبو سفيان : « لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أجيبوه » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم « بدر » العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

لرجل من أصحابه : « قل نعم هو بيننا وبينك موعد »[١]

فـ « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فما دمتم على الإيمان فأنتم الأعلون ، وإذا أردتم أن تعرفوا معنى « الأعلون » حقاً ، فقارنوا معركة « أُحُد » بمعركة « بدر » ، هم قتلوا منكم فى أُحُد ، وأنتم قتلتم منهم فى بدر . ولكنكم أسرتم منهم فى بدر ، ولم يأسروا منكم أحداً فى « أُحُد » . وأنتم غنمتم فى بدر ، ولم يغنموا شيئاً فى أُحُد .

وأنتم الأعلون لأن الله حمى مدينتكم مع أنه لا حامية فيها ممن يكون فيه معنى الجندية . كل ذلك وأنتم الأعلون ، هذا إذا نظرنا إلى معركة بمعركة . وإن نظرنا إلى المعركة نفسها « أُحُد » وندع بدراً وحدها ، فى ظل قوله تعالى : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » لقد ثبتت تلك القضية لأنكم حينما كنتم مؤمنين ـ ومن شرط الإيمان اتباع أمر الذى لا ينطق عن الهوى ـ انتصرتم . وانتصرتم انتصاراً رائعا ؛ لأنكم قتلتم فى أول جولة للحرب بضعاً وعشرين من صناديدهم وفيهم صاحب الراية . ولكنكم حينما خالفتم أمر النبى صلى الله عليه وسلم ، تلخلخ الإيمان فى قلوبكم .

إذن فالعملية التى حدثت تؤكد صدق « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » . فأنتم علوتم فى أول الأمر ، وعندما خالفتم الأمر صار لكم ما صار ؛ فقد صدقت القضية فى قول الله : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

وأيضا فإنكم لو نظرتم إلى المعركة نفسها لوجدتم أن عدوّكم لم يبق فى أرض المعركة ، بل أنتم الذين بقيتم فى موضع المعركة . وأين ذهب هو ؟ أذهب إلى موقع آخر ينال فيه غلبة ونصرا ؟ لم يكن هناك إلا المدينة ، والمدينة ليس فيها أحد ، ولم يذهب عدوكم إلى هناك ، وإنما ذهب ناحية مكة ، إذن فهو الذى هرب .

وبعد ذلك ماذا حدث ؟ ألم يؤذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الناس ويطلب العدوّ مرهباً له ليظنوا به القوة ، وإن الذى أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم ؟

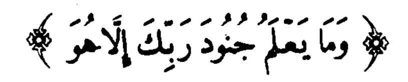
---

(١) رواه ابن إسحاق وأحمد والبخارى ومسلم .

ولقد خرج رسول الله ، مع من ؟ أجاء بحامية لم تشهد المعركة ؟ لا . بل قال عليه الصلاة والسلام مناديا المسلمين : « إلىّ عباد الله » ، فالذين شهدوا المعركة سبعمائة ، جرح منهم الكثير وقتل منهم خمسة وسبعون ، فيهم حمزة ، ومصعب بن عمير ، وعبدالله بن جحش ، وشماس بن عثمان ، وسعد مولى عتبة ، هؤلاء خمسة من المهاجرين ، والباقى من الأنصار ، هؤلاء مطروحون من العدد الذى شاهد أول الموقعة ، حتى أن رسول الله لم يأخذ بدلاً منهم من المدينة من القوم الذين عرضوا أنفسهم ليكونوا مع الجيش الذى يطارد قريشاً ، بل آثر الرسول أن يذهب بمن ذهب معه إلى المعركة أنفسهم ، ولم يكن منهم بطبيعة الحال الشهداء أو الجرحى .

لم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ممن لم يشهد المعركة إلا واحداً . وهوسيدنا جابر بن عبدالله . الذى لم يخرج فى معركة أُحُد واعتذر إلى رسول الله بأن أباه عبدالله بن عمرو بن حرام قد خلّفه على بنات له سبع وقال له :

يا بنىّ إنه لا ينبغى لى ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رَجُل فيهن ولست بالذى أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نَفْسى فتخلّفْ على أخواتك فتخلف عليهن فقبل رسول الله عذره،وأذن له فخرج معه وطاردهم رسول الله ومن معه إلى حمراء الأسد ، أما والده عبدالله بن عمرو فقد استشهد فى أُحُد ومع ذلك فقد طلب من رسول الله على الرغم من استشهاد أبيه أن يخرج إلى حمراء الأسد . وذلك لنعلم أن الله يقول :



﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

هذا وإن واحداً من المشركين الذين كانوا موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حلفائه وهو معبد الخزاعى ، مَرَّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أُحُد وقال له : يا محمد : أما والله لقد عز علينا ما أصابك ، ثم لقى أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء[1] وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه

(١) الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين أو أربعين ميلا من المدينة ـ القاموس المحيط .

وسلم وأصحابه فقال له أبو سفيان: ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمع لم أر مثله ، ولم يزل بهم حتى ثنى أبا سفيان ومن معه فولوا وجوههم إلى مكة خائفين مسرعين ، وقد ذهب رسول الله إلى حمراء الأسد فلم يجد أحداً فعسكر رسول الله ثلاثة أيام هناك ، ومعنى ذلك أنهم هم الذين فروا من المعركة . إذن فأنتم الأعلون ، ولكن لاحظوا الشرط « إن كنتم مؤمنين » . ثم بعد ذلك يُسَلِّى الله المؤمنين فيقول :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

وقد تكلمنا ـ من قبل ـ عن « المس » وهو : إصابة بدون حس . . أى لمس لكنك لا تحس بحرارة أو نعومة مثلا ، إنما « اللمس » هو أن تحس فى الشيء حرارة أو نعومة ويحتاج إلى الالتصاق المؤقت ، إنما « المس » هو ما لا تكاد تدرك به شيئاً ، و« القَرْح » هو : الجراح ، وفى لغة أخرى تقول « القُرح » ـ بضم القاف ـ وأقول: القُرح وهو الألم الناشىء من الجراح ، كى يكون لكل لفظ معنى .

وأنت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أن معناها واحد فى الجملة ، إلا أن لكل معنى منها ملحظاً ، أنت تسمع مثلاً : رأى ، ونظر ، ولمح ، ورمق ، ورنا . كل هذه تدل على البصر . لكن كل لفظ له معنى :

رمق: رأى بمؤخر عينيه ، ولمح: أى شاهد من بعد ، ورنا: نظر بإطالة ، وهكذا .

ويقال أيضاً : جلس ، وقعد ، فالمعنى العام يكاد يكون واحداً ، لكن المعنى الدقيق يوضح أن الجلوس يكون عن اضطجاع . والقعود عن قيام ، كان قائماً فقعد ، والاثنان ينتهيان إلى وضع واحد ، فكذلك « قَرح » و« قُرح » كل لفظ له معنى دقيق .

ويقولون ـ مثلاً ـ إن للأسد أسماء كثيرة ، فيقال : « الأسد » و« الغضنفر » و« الرئبال » و« الوَرْد » و« القسْورة » . صحيح هذه أسماء للأسد ، ولكن لكل اسم معنى محدد ، فـ « الأسد » هو اللفظ العام والعَلَم على هذاالحيوان ، و« الغضنفر » هو الأسد عندما ينفش لبدته ، و« الوَرْد » هو حالة للأسد عندما يكون قد مط صلبه ، فكل موقف للأسد له معنى خاص به .

وقوله الحق : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » لاحظ أن المتكلم هو الله فافطن جيداً إلى مرادات كلامه . ونعرف أنه فى الشرط والجواب ، أن الشرط يأتى أولاً ثم يأتى الجواب من بعد ذلك مترتبا عليه ونتيجة له ، كقولنا « إن تذاكر تنجح » إن النجاح هو جواب لشرط وهو الاستذكار .

وقوله الحق : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » فهل المعنى المراد من هذه الجملة الشرطية أن مس القرح للكافرين الذى حدث فى بدر كان كجزاء لمس القرح للمؤمنين فى أحد ؟ لا ، إنه لا يكون أبداً جواباً لشرط ؛ لأنه لو كان جواب شرط لقال الحق : إن يمسسكم قرح فسيمس القوم قرح مثله . ولكنه لم يقل ذلك لأن القرح الذى أصاب المشركين فى بدر كان أسبق من القرح الذى أصاب المؤمنين فى أحد .

وكأن الحق يقول : إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا ؛ فقد مس القوم قرح مثله ، وليس ذلك جواب الشرط ، ولكنه جاء ليُستدل به على جواب الشرط ، أى أنه تعليل لجواب الشرط ، أقول ذلك حتى لا يتدخل دعىّ من الأدعياء ويتهم القرآن ـ والعياذ بالله ـ بما ليس فيه . إنه ـ سبحانه ـ يثبت المؤمنين و يسلّيهم . ومثال ذلك ما نقوله نحن لواحد إذا أصابته كارثة :

إن كان قد حدث لك كذا ، فقد حدث لخصمك مثله . إذن فنحن نسليه . والمقصود هنا أن الحق يسلّي المؤمنين : إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا ، فليكن عندكم سُلُوّ ولْتجتازوا هذا الأمر ولترض به نفوسكم ؛ لأن القوم قد مسهم قرح مثله .

والأسوة والتسلية ، هل تأتى بما وقع بالفعل أم بما سيقع ؟ . إنها تأتى بما وقع بالفعل ، إذن فهى تعلل تعليلاً صحيحاً : « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله » .

وأطلق الحق سبحانه من بعد ذلك قضية عامة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » . ما معنى المداولة ؟ . داول أى نقل الشىء من واحد لآخر . ونحن هنا أمام موقعتين ؛ غزوة بدر وغزوة أُحُد . وكان النصر للمسلمين فى غزوة بدر بالإجماع ، أما غزوة أُحُد فلم يكن فيها هزيمة بالإجماع ولم يكن فيها نصر .

إذن فقوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أى مع التسليم جدلاً بأن الكفار قد انتصروا ـ رغم أن هذا لم يحدث ـ فإننا نقلنا النصر منكم أيها المؤمنون إليهم .

وإياك أن تفوتك هذه الملاحظة ، بأن النصر لم ينتقل إليهم إلا بمخالفة منكم أيها المؤمنون . ومعنى مخالفة منكم ، أى أنكم طرحتم المنهج . ومعنى أنكم طرحتم المنهج ، أى أنكم أصبحتم مجرد « ناس » مثلهم .

ومادمتم قد صرتم مجرد ناس بدون منهج مثلهم ومتساوين معهم ، فإن النصر لكم يوم ، ولهم يوم . ولنلحظ أن الحق لم يقل : إن المداولة بين الناس هى مداولة بين مؤمنين وكافرين .

فإن ظللتم مؤمنين فلا يمكن أن ينتقل النصر إلى الكفار ، إنما النصر يكون لكم . انظر ماذا قال : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ولم يقل بين المؤمنين والكافرين ، أى بينكم وبين قريش .

وليس المقصود بالأيام ما هو معروف لدى الناس من أوقات تضم الليل والنهار ، ولكن المقصود بـ« الأيام » هنا هو أوقات النصر أو أوقات الغلبة . ويقال أيضاً : « يوم فلان على فلان » إذن «وتلك الأيام نداولها بين الناس » لم تتضمن المداولة بين المؤمنين والكافرين ، ولكنها مداولة بين الذين مالت أبصارهم إلى الغنائم فتخلخل إيمانهم ، ففازت قريش ظاهرياً . فلو ظللتم على إيمانكم لما حدث ذلك أبداً . لكنكم تخليتم عن منهج ربكم ، وبذلك استويتم وتساويتم مع غير المؤمنين ، وبذلك تكون الأيام لذلك مرة ولهذا مرة أخرى ، إنها مطلق عدالة .

علينا أن نتذكر الشرط السابق ، لا لعدم الهزيمة . بل للعلو والنصر :

« وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

إن الحق سبحانه فى مسألة مداولة الأيام ينبه المؤمنين الذين تخلخل إيمانهم : مادمتم اشتركتم معهم فى كونكم مجرد « أناس » فيصبح النصر يوماً لهم ويوماً لكم ، والذكى العبقرىّ الفطن الذى يحسن التصرف هو من يغلب ؛ لأن المعركة هنا تدور بين قوة بشر مقابل قوة بشر . ومادام المسلمون قد تخلوا عن منهج الله فقد صاروا مجرد بشر فى مواجهة بشر . ولذلك قلنا :إنه عندما تخلى الرماة عن إنفاذ أمر القائد الأعلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهرت عبقرية خالد بن الوليد على عبقرية المقاتلين المسلمين .

ويجب أن نلحظ فى قوله الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أننا لا يمكن أن نقول : إن مداولة الأيام تكون بين المؤمنين والكافرين ، إنما هى بين الناس ؛ لأن الناس هم مجموعة الإنسان ، فإن تجردوا عن منهج السماء فهم سواسية ، وصاحب الحيلة يغلب ، أو صاحب القوة يغلب ، أو صاحب العدد أو العُدّة يغلب .

ولكن ما الذى يعوض كل تلك الإمكانات ويحقق النصر ؟ إنك إن تأخذ الله فى جانبك فلن يجرؤ مخلوق أن يكون فى مواجهة الحق فى معركة . لقد قلنا قديماً وعلينا أن نعيها جيداً : إن الولد الصغير حينما يضطهده زملاؤه فيلجأ إلى حِضن أبيه ، عندئذ ينصرف كل منهم إلى حاله ، لكن أقرانه يستطيعون أن يهزموه عندما يبتعد

عن أبيه . فما بالنا ونحن عيال الله ؟ وكذلك شأن الكفار مع المؤمنين .

إن الكفار قادرون على الانفراد بالمؤمنين حينما يتخلى المؤمنون عن منهج الله ؛ لأن الله لن ينصر أناساً ليسوا على منهجه ، فلو نصر الله أناساً على غير منهجه فإن ذلك يبطل قضية الإيمان . وعندما نستقرىء القرآن الكريم ؛ نجد أن كل خبر عن الإنسان وهو معزول عن المنهج الإلهى هو خبر كله شر .

فسبحانه يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ ﴾

(سورة العصر)

إن الإنسان على اطلاقه لفى خسر ، ولكن من الذى ينجو من الخسران ؟ وتأتى الإجابة من الحق فيقول :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

وتتأكد القضية فى موضع آخر من القرآن الكريم فيقول ـ سبحانه ـ

﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ﴾

(سورة المعارج)

إذن كل كلام ـ فى القرآن ـ عن الإنسان على إطلاقه يأتى من ناحية الشر . وما الذى ينجيه من ذلك ؟ إنه المنهج الإلهى .

إذن فقول الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » تحمل تأنيبا ولذعة خفيفة لمن أعلنوا الإيمان ولكنهم تخلفوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أُحد .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

ففى وقت النصر نجد حتى الذى لم يشترك فى المعركة يريد أن يُدخل نفسه ضِمن المنتصرين . لكن وقت الهزيمة فالحق يَظْهر ، والذى يظل فى جانب الهزيمة معترفا بأنه شارك فى نزولها بالمسلمين وان لم يكن شارك فقد عذر أو لام من كان سببا فيها ، وهو مع ذلك يسهم فى حمل أوزارها وآثارها الضارة ، ويتحمل ويشارك فى المسئولية ، إنه بذلك يكون صادقا .

وقد يقول قائل : هل الله لا يعلم الذين آمنوا ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى يعلم الذين آمنوا سواء حدثت معركة أو لم تحدث . لكن علم الله الأزلى الغيبىّ لا نرى نحن به الحُجَّة ، ولذلك لا تكون الحجَّة ظاهرة بيننا ، ولكن حين يبرزُ علم الله إلى الوجود أمامنا فإنه علم تقوم به الحُجة واضحة على من آمن ، وعلى من لم يحسن الإيمان ، وذلك حتى لا يدَّعى أحد لنفسه أنه كان سيفعل ، لكن الفرصة لم تواته .

وهكذا تأتى المواقف الاختبارية والابتلاءات ليعلم كل منا نفسه وتبرز الحُجة علينا جميعا . إذن : فهناك فرق بين علم الله الأزلىّ للأشياء كما سوف تحدث ، ولكن لا تقوم به الحُجة علينا . فقد يدعى البعض أنه لو قامت معركة شديدة فإنهم سوف يصمدون ، ولكن عندما تقوم المعركة بالفعل فنحن نرى مَنْ الصّامد ومَنْ هو غير ذلك من المتخاذلين الفارين ؟ ولنضرب لذلك مثلا ولله المثل الأعلى : نحن فى حياتنا العادية نجد أن عميد إحدى الكليات يأتى إلى المدرس ويقول له : نحن نريد أن نعقد امتحانا لنتعرف على المتفوقين من الطلاب ، ونمنح كُلا منهم جائزة .

فيرد المدرس : ولماذا الامتحان ؟ إننى أستطيع أن أقول لك : من هم المتفوقون ، وأن أرتبهم لك من الأول ومن الثانى وهكذا .

لكن عميد الكلية يصر على أن يعقد امتحانا حتى لا يكون لأحد حجة ، ويختَار العميد مدرسا آخر ليضع هذا الامتحان . وتظهر النتيجة ويكون توقع المدرس الأول

هو الصائب ، وهكذا يكون تفوُق هؤلاء الطلاب تفوقا بحُجة . وإذا كان ذلك يحدث فى المستوى البشرى فما بالنا بعلم الله الأزلى المطلق ؟

إن الحق بعلمه الأزلى يعلم كل شىء ومُحيط بكل شىء ، وهو سبحانه لا يقول لنا : أنا كنت أعلم أنكم لو دخلتم معركة ستفعلون كذا وكذا . .

وكان يمكن أن يجادلوا ويدعوا لأنفسهم أشياء ليست فيهم ، لكن الحق يضع المعركة وتكون النتيجة مطابقة لما يعلمه الله أزلا . إذن فالتغيير هنا لا يكون فى علم الله ، لكن التغيير يكون فى المعلوم لله ، ليس فى العالِم بل فى المعلوم بحيث نراه حُجة علينا .

ويقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » وساعة تسمع كلمة « يتخذ » هذه ؛ اعرف أنها اصطفاء واختيار . وسبحانه يقول :

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة النساء)

أى أنه جل وعلا قد آثر إبراهيم واصطفاه ، إذن فالاتخاذ دائما هو أن يأخذه إلى جانبه لمزية له ورفعة لمكانته .

وحين يقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » فنحن نعرف أن « شهداء » هى جمع شهيد ، وكلمة شهيد لها معانٍ متعددة ، فالشهيد فى القتال هو الذى يُقتل فى المعركة ، وهذا سيكون حيا ويرزق عند ربه . وإياك أن تقول : إننا عندما نفتح قبر الشهيد سنجده عظاما وترابا . وهذا يعنى أنه سلب الحياة . . لا ، إن الله وضح أن الشهيد حىّ عِنده ، وليس حيا عند البشر . وإذا فتح أحد من الناس القبر على الشهيد فسيراه عظاما وترابا ؛ فقد جعل الله سبحانه للشهيد حياة عنده لا عندنا .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فللشهداء عند ربهم حياة لا نعرف كنهها ، ويوم نفتح عليهم قبورهم تصير أمرا مُحسا ، ولكن الله نبهنا أن الشهداء أحياء عند ربهم . وعندما نتأمل كلمة « شهداء » نجد أنها تعنى أيضا الشهادة على الحق الذى قامت من أجله المعركة ، وكل إنسان يُحب الخير لنفسه ، فلو لم يعلم هؤلاء أن إقدامهم على ما يؤدى إلى قتلهم خير لهم من بقائهم على حياتهم لما فعلوا .

وبذلك يكون الواحد منهم شاهدا للدعوة وشهيدا عليها . وقد ينصرف المعنى فى « شهداء » إلى أنهم بَلَّغوا الدعوة حتى انتهت دماؤهم . ويذيل الحق الآية بقوله : « والله لا يحب الظالمين » .

ومعنى هذا التذييل أن المعركة يجب أن تدور فى إطار الحق ، ومثلما قلنا : مادام الناس متخلفين عن المنهج فإن الله لا يظلمهم بل ستدور المعركة صراع بشر لبشر ، والقادر من الطرفين هو الذى يغلب . فالحق سبحانه بالرغم من كراهيته للكفر إلا أنه لا يُحابى المسلم الذى لا يتمسك بمطلوب الإيمان ؛ لذلك قد يغلب الكافرُ المسلمَ الذى لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، ولكن إن تمسك المؤمنون بمطلوب الإيمان فالنصر مضمون لهم بأمر الله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

والتمحيص يختلف عن المحْق ، لأن التمحيص هو تطهير الأشياء وتخليصها من العناصر الضارة ، أما المحق فهو الذهاب بها كلها . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال هكذا ، بل لابد من تجربة تثبت أنكم فُتِنتُم ونجحتم فى الفتنة ، والفتنة هى الامتحان . إذن فلا تحسبوا أن المسألة سوف تمر بسهولة ويكتفى منكم أن تقولوا نحن نحمل دعوة الحق ، لا . إذا كنتم صادقين فى قولكم يلزمكم أن تكونوا أسوة حين يكون الحق ضعيفا ؛ فالحق حين يكون قويا فهو لا يحتاج إلى أسوة . بل قضية الإيمان الحق تحتاج إلى الأسوة وقت الضعف . ودخول الجنة له اختبار يجب أن يجتازه المؤمن .

والحق يقول : « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » وعندما نسمع ذلك فعلينا أن نعرف أن الله يعلم علما أزليا مَن المجاهد ومن الصابر ، ولكنه علم لا تقوم به الحُجة على الغير ، فإذا حدث له واقع صار حُجة على الغير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

وكان القوم الذين فاتهم شرف الاشتراك فى بدر قد أرادوا أن يذهبوا مع الرسول للمشاركة فى غزوة أُحد ، ويوضح لهم الحق : أكنتم تظنون أن تمنى المعارك وحده يحقق النصر ، وهل كنتم تظنون أن كل معركة يدخلها المؤمنون لابد أن تكون منتصرة ؟ وإن كنتم تظنون أن المسألة هى نصر لمجرد التمنى ، فمعنى ذلك أنكم دخلتم إلى معسكر الإيمان من أجل الفأل واليُمن والنصر ، ونحن نريد أن نعرف من الذى يدخل معسكر الإيمان وهو بائع روحه وهو مُحتسب حياته فى سبيل الله .

فلو أن الأمر يمر رخاء ، لدخل كل واحد إلى معسكر الإيمان ، لذلك يقول الحق : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » . فهل ظننتم أنكم تدخلون الجنة بدون أن يُخرج الحق على الملأ ما علمه

غيبا ، وتترجمه الأحداث التى يُجريها سبحانه فيصير واقعا وحُجة عليكم ، ويبرز الله سبحانه من الذين جاهدوا ؛ أى دخلوا فى زُمرة الحق ، والذين صبروا على الأذى فى الحق .

ويقول سبحانه : « ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » أى إن ما كنتم تتمنونه قديما صار أمامكم ، فلو أن التمنى كان صحيحا لأقبلتم على الموت كما تقبلون على الحياة . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه الأول هو « محمد » ، وله اسم ثانٍ عرفناه من القرآن وجاء فى الإنجيل هو « أحمد » :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الصف)

وقد ورد اسمه صلى الله عليه وسلم « مُحمد » فى القرآن أربع مرات ، و «أحمد» وردت مرة واحدة .

والآية التى نحن بصددها ، وهى آية ذكر فيها اسم محمد : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » . ولنقرأ قول الحق :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وقوله تعالى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة محمد)

وها هو ذا القول الكريم :

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والاسم هو ماوُضع عَلَماً على المسَمَّى ؛ بحيث إذا ذُكر الاسم جاء إلى الذهن المسمى ، فإذا اشترك اثنان فى بيئة واحدة فى اسم ؛ فلا بد من التمييز بينهما بوصف . فإذا كان فى أسرة واحدة ولدان اسم كل واحد منهما مُحمد ، فلا بد أن نميز بين الاثنين بصفة ، وفى الريف نجد من يسمى « مُحمدًا الكبير » و« مُحمدًا الصغير » .

وكلمة « مُحمد » وكلمة « أحمد » مشتركتان فى أصل المادة ؛ لأنهما من « الحاء والميم والدال » فالمادة هى الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقى فى محمد غير التوجيه الاشتقاقى فى أحمد ، لأن الاسم قبل أن يكون علماً إذا خرجت به عن معناه الأصلى ، انحل عن معناه الأصلى ، وصار علما على الشخص .

ولذلك قد نجد رجلا له جارية سوداء فيسميها « قمرا » وقد يكون للرجل عبد شقى فيسميه : « سعيدا » . فإذا صار الاسم علما على شيء فإنه ينتقل من معناه الأصلى ويصير عَلَماً على المسمَّى ، لكن الناس حين تُسمى أبناءها تلمح التفاؤل فى أن يصير المعنى الأصلى واقعا .

والدميمة التى يسميها صاحبها « قمرا » افتقدت جمال المسمى ، ولذلك فهو يريد لها أن تأخذ جمال الاسم . .وكلمة « مُحمد » حين ننظر إليها فى الاشتقاق نجد أنها ذاتٌ يقع عليها الحَمْد من غيرها ، مثلما تقول : فلان مكرَّم أى وقع التكريم من الغير عليه .

وكلمة « أحمد » نجدها ذاتا وقع عليها الحمد لغيرها . وعندما نقول : مُكرِّم ـ بضم الميم وفتح الكاف مع تشديد الراء مكسورة ـ أى وقع التكريم منه لغيره . ونحن عندنا اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى القرآن وكلاهما من مادة « الحمد » فـ « محمد » ملحوظ فيه أن الحمد وقع عليه كثيرا من غيره . لكن لو كان المراد أن الحمد وقع عليه دون الكثرة فيه لكان اسم « محمود » هو الذى يطلق عليه فقط .

أما « أحمد » فقد قلنا إنه ملحوظ فيها أن الحَمْد وقع منه لغيره . و « أحمد » تتطابق مع أفعل التفضيل فنحن نقول : « فلان كريم وفلان أكرم من فلان » . إذن فـ « أحمد » أى وقع منه الحمد لغيره كثيرا ، فلو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا « حامد » . إذن فـ « أحمد » مبالغة فى « حامد » وقع منه الحمد لغيره كثيراً فصار أحمد . و « محمد » مبالغة فى « محمود » ، وقع عليه الحمد من غيره كثيرا فصار محمدا .

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له الله بين الأمرين ؛ فهو محمد من الله وحامد لله ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله له بين مقامين : مقام الاصطفاء ومقام المجاهدة ، فبالاصطفاء كان « محمدا » و« محمودا » ، وبالمجاهدة كان « حامدا » و« أحمد » . إذن نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله صلى الله عليه

وسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا محمد وأحمد والمقفى والحاشر ونبى التوبة ونبى المرحمة »[1] .

وسيكون لذلك كلام ونحن نتناول هنا بالخواطر معركة أُحُد ، فبعد أن انحل القوم من الرماة عن أمره ، وحدثت الكرَّة عليهم من المشركين القرشيين ، بعد ذلك يتجه الصحابة هنا وهناك ليفروا ، ويتكتل المشركون على رسول الله لدرجة أن ابن قمئة يمسك حجرا ويضرب به حضرة النبى عليه الصلاة والسلام فيكسر رَبَاعِيَّتَه . وتنغرز فى وجنتى الرسول حلقتا المغفر ، ويسيل منه الدم ، ويحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يصعد على صخرة من الجبل ليعلوها فلم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وكلها مجاهدات بشرية .

أما كان الله بقادر أن يُجنِّب رسوله كل ذلك ؟ إنه سبحانه قادر . ولكن كل ذلك كان تكريما من الله ، ولم يرد سبحانه أن يحرم رسوله من لذة المجاهدة ، وحتى يعرِّف الله المؤمنين بمحمد نقول : إن الله لم يأت بمحمد ليدلله على خلقه ، ولكن ليدُلَّ كُلَّ مؤمن على أن رسول الله حينما حدث له ما حدث قد ذاق المجاهدة ؛ فقد فر بعض المقاتلين من المعركة فى أُحُد ، وكادت ريح الهزيمة تهب على معسكر الإيمان ، هاهو ذا سيدنا أبو عبيدة رضى الله عنه يذهب إلى رسول الله فيجد حلقتى المغفر فى وجنتيه صلى الله عليه وسلم ، فيحاول سيدنا أبو بكر أن يخلع حلقتى المغفر ، فيتألم الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقول سيدنا أبو عبيدة :

- إليك يا أبا بكر . بالله دعنى .

ويمسك أبو عبيدة بإحدى الحلقتين وينزعها من وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقطت ثنيته ، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت ثنيته الأخرى فكان أبو عبيدة - رضى الله عنه - ساقط الثنيتين ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . وينزف دمه صلى الله عليه وسلم ، وسيدتنا فاطمة يلهمها الله أن تأتى بقطعة من حصير وتحرقها ، وتأخذ

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى موسى الأشعرى .

التراب الباقى من الحريق وتضمد به الجرح . إن الله لم يشأ أن يحرم رسوله لذة المجاهدة .

ويأتى أنس بن النضر ويجد الصحابة وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيدالله وقد ألقوا ما بأيديهم ، فيسألهم أنس : ما يجلسكم ؟ فيقولون : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقول : فماذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم استقبل القوم من المشركين فقاتل حتى قتِل .

هذه كلها مواقف لم تكن تأتى وتظهر إلا بهذه المعركة . « وما محمد إلا رسول » أى اسمعوا . هذا محمد وهذه منزلته ، هو رسول من الله جاء بعد عيسى بن مريم ، وكان من الواجب أن نعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم مؤكد على بشريته . « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » .

وهل انقلب أتباع الرسل السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسلهم ؟ فكيف تكونون أقل شأنا من هذه الأمم ؟ هبوا أن ذلك قد حدث ، فلماذا لا يبقى الخير الذى بلغه فيكم رسول الله إلى يوم القيامة ؟ الرجل الذى يكون قد صنع خيرا يموت بموته ، أيكون قد صنع شيئا ؟ لا ؛ فالذى يريد أن يصنع خيرا فعليه أن يصنع خيرا يخلفه .

لذلك فالزعامات الفاشلة هى التى يكون الفرد فيها زعيما ، ثم يموت ونبحث عن زعيم بعده فلا نجد ونتساءل : لماذا خنق الزعيم أصحابه وزملاءه ؟ أكان خائفا منهم ؟ ونظل نتمنى أن يكون قد ربَّى الزعيم أناسا ، فإذا ما ذهب نجد من يخلفه ، فلا يوجد إنسان يضمن حياته ؟ لذلك يقول الحق : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » .

وساعة تسمع القول الكريم : « وما محمد إلا رسول » فهذا أسلوب اسمه أسلوب

القصر . إنه سبحانه وتعالى يقصر محمدا على الرسالة . فإذا قصر محمد صلى الله عليه وسلم على الرسالة فهذا يعنى أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمدا أكبر من رسول ولا يموت . فأوضح الله سبحانه أن محمدا رسول ، وقد خلت من قبله الرسل ، ولن يخلد الله أحدا .

وهل غاب ذلك عن الذهن ؟ نعم كان ذلك يغيب عن الذهن بدليل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآنا يُتلى ، نجد أن سيدنا عمر رضى الله عنه وكانت له فطرة صافية توافق وحى الله ، إنه محدَّث مُلْهَم .

ها هو ذا عمر بن الخطاب حينما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى رحاب الله يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يموت حتى يقطع أيدى أناس من المنافقين كثير وأرجلهم . قال عمر بن الخطاب ذلك من هول الفاجعة ونسى الآية فيأتى سيدنا أبو بكر فيقول : من كان يعبد الله فإن الله حىٌّ لم يمت ، ومن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، وتلا قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » . فقال عمر بن الخطاب : « فلكأنى لم أقرأها إلا يومئذ » .

ثم إن عمر بعد أن بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة قال : أما بعد فإنى قلت لكم أمس مقالة ، وإنها لم تكن كما قلت ، وإنى والله ما وجدت المقالة التى قلت لكم فى كتاب أنزله الله ، ولا فى عهد عهده إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنى كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يَدْبُرنا[1] فاختار الله عز وجل لرسوله الذى عنده على الذى عندكم ، وهذا الكتاب الذى هدى الله به رسوله فخذوا به تهتدوا كما هُدِىَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه تعطينا أمرين اثنين :

الأمر الأول : هو عِشق الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) يدبرنا : يكون آخرنا موتًا .

والأمر الثانى : هو حاجة إيمان ؛ فالعشق لا يستقيم ولا يصح أن يخرجنا عن طور التصور الإيمانى ؛ فعمر بن الخطاب قال : عندما سمعت أبا بكر يتلو هذه الآية عرفت حتى ما تقلنى رجلاى ، وحتى هويت على الأرض .

إذن فقوله سبحانه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » يعنى لا ترتفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسالته فوق ما رفعته أنا .

ومعنى « ينقلب على عقبيه » أى يرَجع . فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة ؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التى جاء بها محمد ؟ إن هذا يصح ، وذلك يصح . وقوله الحق : « أفإن مات أو قتل » قول واضح ، وسبق أن تعرضنا إلى الموت وإلى القتل ، وقلنا : إن الموت والقتل مؤداهما واحد ، وهو الذهاب بالحياة ، إلا أن الذهاب بالحياة مرة يكون بنقض البنية التى لا تسكن الروح فيها إلاّ بمواصفاتها ، فإن نقضت البنية ولم تجد الروح المسكنَ الملائم لها تتركه ، لكن الموت على إطلاقه : هو أن تذهب الحياة بدون نقض البنية ، فالإنسان يذهب حتف أنفه ، أى نجده قد مات وحده .

إذن فنقض البنية يؤدى إلى ذهاب الحياة بالقتل ؛ لأن الروح لا تسكن فى مادة إلا بمواصفات خاصة ، فإذا انتهت هذه المواصفات ذهبت الروح . لكن عندما تذهب الروح بمفردها بدون نقض للبنية فهذا هو الموت لا القتل .

والله سبحانه يقول : « أفإن مات أو قتل » ذلك أنهم أشاعوا أن النبى قد قتل . وكيف يجوز ذلك على الصحابة والله قد قال :

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة المائدة)

وهنا نقول : هل أنت علمت أن هذه الآية قد نزلت قبل أُحُد أو بعدها ؟ وهل أنت حسن الظن بأن كل صحابى يكون مستحضرا لكل آيات القرآن فى بؤرة

شعوره ؟ ألا ترى أنهم عندما سمعوا خبر قتله هربوا ، وإذا كان سيدنا عمر قد نسى هذه الآية : « أفإن مات أو قتل » كما أنه يحتمل أن يكون المراد من عصمة الله رسوله من الناس أنه ـ سبحانه ـ يحفظه من فتنة الناس وإذلالهم .

وهكذا أراد الله أن تمثل لنا معركة أُحُد كل الطوائف والأصناف التى تُنسب إلى الإيمان تمثيلا يتضح فى موقف ابن أُبَىّ حيث انخذل وانقطع عن رسول الله بثلث القوم ، ومرحلة أقل منها ، تتمثل فى طائفتين هَمَّتا ، ثم شاء الله أن يربط على قلوبهما فيظلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما نشبت المعركة كان للرماة موقف فى المعركة الأحدية .

فحين رأوا النصر أولا ورأوا الغنائم سال لعاب بعضهم على الغنائم ، فحصل انشقاق فيهم ، فعبدالله بن جبير وهو رئيس الرماة ومعه من معه من القلة يُصر على تنفيذ أمر رسول الله فيقاتل حتى استشهد ، واستشهدوا وهؤلاء هم الذين أرادوا الآخرة . بينما كان هناك قوم آخرون أرادوا الغنائم ، وحينما أشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل فرت البقية الباقية من الرماة وغيرهم من المعركة ، ورسول الله ينادى القوم : « إلىَّ عباد الله إلىّ عبادالله »[1] .

كل هذه مصاف إيمانية تمثل لنا كيف يُصفى الله مواقف المنسوبين إليه . وتظهر وتوضح موقف كل واحد ، وأنه مفضوح إيمانيا إن وقف موقفا يخالف منهج الله . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فى هذا الوقت ـ فى موقف الإنهاك لقوته البشرية لدرجة أننا قلنا : إنه أراد أن يصعد فلم تَقو مادته البشرية ، فطأطأ طلحة ظهره ليصعد النبى عليه ، وهو فى هذه المرحلة من الإنهاك المادى البشرى يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيه من القوة فى هذا الضعف وفى هذا الإنهاك ما يقف به أمام جبار من جبابرة قريش . كان هذا الجبار يتهدده .

ولو أن الموقف كان موقف قوة لرسول الله أكان من المعقول أن ينتصر رسول الله على جبار قريش ؟

---

(١) رواه الحافظ ابن كثير فى التفسير .

ولكن الله يريد أن يُرينا تأييد الله لرسوله ، فى موقف إنهاكه وكيف يقف من جبار قريش هذا الموقف ، هذا الجبار هو « أبى بن خلف الجمحى » وكانت عنده رَمَكة[١] فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه الرمكة أنا أعلفها كل يوم فَرَقاً[٢] مِن ذُرة لأقتلك عليها . فيقول له رسول الله قولة الواثق من أن ربه لن يخذله : « بل أنا أقتلك إن شاء الله » .

لم يلتق هذا الرجل مع رسول الله وهو فى قوته ، ولكنه جاء لرسول الله وهو فى هذا الموقف الذى أثخنته فيه الجراح وكسرت رَبَاعيته ودخلت حلقتا المغفر فى وجنتيه وسال دمه . وبعد ذلك يأتى إليه هذا الرجل ـ أبى بن خلف الجمحى ـ وهو يقول : أين محمد ؟ لانجوت إن نجا ، فقال القوم : يا رسول الله أيعطف عليه رجل منا ؟

فيشير إليهم رسول الله أن اسكتوا . إنه ـ رسول الله ـ لا يريد قوة لقوة ، ولكنه علم أن أُبَيّاً قد عرف أن رسول الله منهك فجاء فى هذا الوقت ، فأخذ رسول الله الحربة ، وضرب أبى بن خلف بها فنالت منه ، فسقط من على فرسه يخور كما يخور الثور ، فقال له أصحابه : « لا بأس عليك يا أُبىُّ ، ما أجزعك : إنما هو خدش »[٣].

وهذا الذى قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى اشتد عليه غضب الله تعالى لما رواه ابن عباس رضى الله عنهما قال : « اشتد غضب الله على مَنْ قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فى سبيل الله واشتد غضب الله على قوم دَمَوْا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٤] .

ولننظر كيف أن الذين عادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استكبارا وعنادا ، ولم

(١) الرمكة : أنثى البرذون ويطلق على غير العربى من الخيل ، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوى الأرجل عظيم الحوافر .

(٢) الفَرَقْ : مكيال يسع ستة عشر رطلاً = ٧ ك ج تقريبا .

(٣) ابن كثير فى التفسير .

(٤) رواه البخارى .

يعادوه عقيدة قلبية ، إنهم يعتقدون صدقه ، ويعتقدون حُسن بلاغه عن الله ، ويتحقق ذلك من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

فما هو الاستيقان هنا ؟ لقد قال أصحاب أبيّ له : ما أجزعك إنما هو خدش فقال أبيّ : والذى نفسى بيده لو كان الذى بى بأهل الحجاز لماتوا جميعا . لكن أصحاب أبى قالوا له مرة أخرى : لا بأس عليك يا أبى إنه خدش بسيط . لكنْ أبى يقول :

ـ لا والله لقد علمت أنه يقتلنى ؛ لأنه قال لى بمكة : « أنا قاتلك إن شاء الله » فوالله لو بصق على لقتلنى . فمات وهم قافلون به إلى مكة .

هذا يحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى موقف الضعف والإنهاك ، ويشاء له الله أن يقتل جبارا من جبابرة قريش وهو فى هذه الحالة . إن كل ذلك لأدلة تثبت لهم أن البشرية المادية لا علاقة لها مطلقا بمدد النصر من الله ؛ فالله يُمد رسوله حتى فى وقت الضعف . ومدده سبحانه لرسوله وقت ضعف الرسول هو إعلام بقيوميته سبحانه على جنوده ؛ لأنهم لو ظلوا أقوياء لقيل فى عرف البشر : أقوياء وغلبوا .

لكن هاهو ذا الرسول يصيب الجبار من قريش فى مقتل والرسول ضعيف ، وبعد ذلك يعطى الحق سبحانه لرسول الله أشياء إيمانية تزيده ثقة بأنه هو رسول الله ، وتزيد المؤمنين ثقة بأنه رسول الله . لقد خرج إلى المعركة وهو يعلم بما سيكون فيها ؛ لأنه قال : (إنى قد رأيت والله خيرا رأيت بقرا تُذبح ورأيت فى ذباب سيفى ثَلْمًا ، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة فأولتها المدينة)[1] .

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٣ ص ٦٢ .

وقال صلى الله عليه وسلم : (لقد رأيتني يوم أحد وما فى الأرض قربى مخلوق غير جبريل عن يمينى وطلحة عن يسارى)[1] .

إذن فالمعركة بكل أحوالها عُرضت عليه ، ومع ذلك أقبل رسول الله على المعركة ليستدل من ذلك على أن الله أعطاه المناعة قبل أن يخوض المعركة . هذا ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم ، لقد رأى فأول ، وأما الذى يتعلق بالناس ، فيأتى إلى واحد من قتلى المعركة ـ وقتلى المعركة ، لا يُغسَّلون ؛ لأن الذى يغسل هو من يموت فى غير معركة ـ يأتى الرسول إلى واحد من هؤلاء الشهداء فيقول :

« إن صاحبكم لتغسله الملائكة » ـ يعنى حنظلة ـ المؤمنون يرون أنه صلى الله عليه وسلم قد خرج عن القاعدة فى الشهداء . كيف ؟ . لقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر بعد ذلك . . ولا يُخرج حنظلة عن قانون الشهداء أنه يُغسَّل . . ولكن الذى يغسله هم الملائكة . . إن الملائكة تغسل حنظلة .

وبعد أن رجع رسول الله إلى المدينة يسأل أهله ما شأنه . . فيعلم أن حنظلة قد دخل بعروسه . . ثم نودى للمعركة . . فأعجله نداء المعركة . . فذهب إلى المعركة جُنبا . . فذلك غُسْل الملائكة له ، لقد تأكد الخبر من زوجة حنظلة . . إذن فهذه شهادة أخرى أن الله سُبحانه وتعالى لم يتخل عنهم فى أوقات الضعف ، وأن تلك العملية كانت عملية مقصودة .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى الرسول صلى الله عليه وسلم أشياء لتؤكد لنفسه أنه رسول الله . ألم نقل سابقا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء له صحابته فقالوا : يا رسول الله : إن جابر بن عبدالله عليه دين ليهودى وأجل الدين إلى جَزّ التمر وتمرُه خَاسَ هذا العام أى فسد من آفةٍ مثلا فنحب يا رسول الله أن تطلب من اليهودى أن يُنظر جابرا ـ أى ينتظر عليه ويؤخره إلى وقت آخر ـ فذهب رسول الله إلى اليهودى وطلب منه أن يُنْظِر جابرا ، فلم يرض اليهودى وقال : لا يا أبا القاسم . .

(١) رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة .



فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اليهودى : لا يا أبا القاسم . فأعاد عليه الرسول مرة ثالثة فقال اليهودى : لا يا أبا القاسم . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بثقة الإيمان بالله ما معناه : يا جابر اذهب بى إلى بستانك .

وذهب رسول الله فجاس خلال النخل ، ثم ذهب إلى عريش جابر الذى يجلس فيه ، واضطجع وقال : يا جابر جز واقض . قال جابر : فذهبت فجززت ، فإذا ما جززته يؤدى ما علىّ لليهودى ويبقى لى ما لم يبق لى وأنا غير مدين . فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« **أشهد أنى رسول الله** » . إن الحق سبحانه يعطى رسوله بينات توضح أنه رسول الله ؛ فاليهودى لم يرض بشفاعة النبى ، فيعطى الله رسوله ما يؤكد أنه رسول الله . وهكذا نرى أن الله يعطى رسوله فى وقت الضعف الأدلة التى تؤكد له أنه رسول الله . والذى يدل على ذلك هؤلاء الذين أحبوا أن يؤذوه فى اسمه . إنّ اسمه مُحمد كما نعرف ، و« محمد » أى الممدوح من الكل ، وبكثرة ، فيأتى خصومه ويريدون أن يهجوه وأن يلعنوه ، فيصرفهم الله سبحانه وتعالى حتى عن شتم الاسم لا المسمى فقط .

إن الله أراد أن يصعد العصمة ، وأراد ـ سبحانه ـ ألا ينالوا بالسباب من اسم رسول الله ، فألهم الله خصوم رسول الله أن يسموا المشتوم عندهم « مذمما » بدلا من « محمد » . وعندما يريدون اللعن ، فهم لا يلعنون الاسم محمدًا ولكنهم يسبون الاسم الذى اختاروه وهو « مذمَم » ، فيضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ عندما سمع ما قالته أم جميل امرأة أبى لهب :

« مذمما عصينا . . وأمره أبينا . . ودينه قلينا »[1] . **وهى تقصد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حدث أن حمالة الحطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس فى المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفى يدها حجر فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر فقالت :**

---

(١) قلينا : أبغضنا .

يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه أما والله إنى لشاعرة وقالت ما قالت .

ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ألا تعجبون لِمَا يصرف الله عنى من أذى قريش يشتمون مُذَمَّماً ويلعنون مذمما وأنا محمد »[1] .

هكذا نرى من أفواه الحاقدين على رسول الله أنه معصوم بإرادة الله ، حتى الاسم أبعده الله عن اللعن ، أما المسمى فلن يلعن ولن يشتم .

إن ما حدث فى غزوة أحد كان هو التربية الأولى لصحابة رسول الله ، والتأكيد على صدق بلاغه عن الله . إن هذه المعركة قد صورت ذلك وجسدته ، ولذلك حين نلحظ المعارك التى جاءت بعد هذه المعركة فإننا لا نجد للمؤمنين هزيمة أبدا ، لأنهم صُفوا التصفية وربُوا التربية التى جعلت كل واحد منهم عارفا أن الله يعلم ما يخفيه وإن لم يحسن البلاء والجهاد فسيفضح الله ما فى نفسه ، وسيعلن الله عنه ؛ لذلك دخل كل مؤمن منهم المعارك وهو مقبل على الجهاد ، وكل المعارك بعد أُحد جاءت نصرا وجاءت سلاما .

وهنا يعلمنا الحق أن البقاء على منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النجاة وهو النصر ، ويحذرنا سبحانه ألا ينقلب المؤمن على عقبيه ، قال لنا : (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين) .

« ومن ينقلب على عقبيه » هى صورة حركية مادية مرئية . وقد حدث ذلك من بعض الصحابة فى معركة أُحد ، لقد فر البعض وانقلب بعضهم إلى المدينة ، ومعنى « انقلب » أى أعطى ظهره للمعركة بعد أن كان مواجها لعدوه ، وهى مثل قوله : « وَلَّوُا الأدبار » .

---

(١) رواه البخارى فى المناقب ، والنسائى فى الطلاق ورواه أحمد فى المسند .

ولكن فى قوله : « انقلبتم على أعقابكم » فيه انقلاب حسى أيضا ، وفيها كذلك انقلاب نفسى ، وهو الانصراف عن أصل الدين ، ولذلك سيعرفنا الحق أن المنافقين بعد حدوث تلك الواقعة وبعد ما فشا وذاع فى الناس قتل الرسول كان لهم كلام ، وضعاف الإيمان كان لهم كلام آخر ؛ فالمنافقون الذين هم أكثر شرا من الكفار قالوا : لو كان نبيًّا لما قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

أما الذين آمنوا إيمانا ضعيفا فقالوا : سنذهب إلى ابن أُبَىّ ليأخذ لنا أمانا من أبى سفيان . فيقف أنس بن النضر قائلا : اللهم إنى أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ـ أى المنافقون ـ وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء ـ أى ضعاف الإيمان ـ .

لقد وزعها بالحق ؛ فهو يبرأ إلى الله من قول المنافقين الذين قالوا : إنهم سيعودون إلى دينهم القديم ، ويعتذر ويستغفر عن ضِعاف الإيمان . ويقول سبحانه : « ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » . لماذا؟ لأن الله أزلاً وقبل أن يخلق شيئا من خلقه له كل صفات الكمال ، إذن فأى صفة من صفات الكمال لم تطرأ عليه ـ سبحانه ـ من خلقه ، إنه ـ سبحانه ـ أوجد الكون بما فيه الخلق لأنه قادر ، وأوجده لأنه حكيم ، وأوجده لأنه عالم ، إذن فخلق الخلق لم يزد الله صفة من صفاته ، فحين خلقكم وصنعكم أعطى لكم المنهج لتكونوا خلقا سويا . إذن فالمصلحة تعود علينا نحن الخلق ، فكان يجب أن تنظروا إلى المناهج التى تأتى من الله على أنه لا نفع فيها لله ، ولكن النفع فيها عائد عليكم . ولذلك فمن يلحظ هذه ، فهو يعرف أن ربنا يستحق الشكر على أنه كلفنا بالمنهج . ولذلك جاءت الآية من بعد ذلك لتقول : « وسيجزى الله الشاكرين » لأن الشكر إنما يؤديه العبد على نعمة ، نعمة تمحيص وتعليم وبيان مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه . لقد تعلم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على هذه النعم .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى قضية عامة ، القضية العامة للناس جميعا هى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ

كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلۡأٓخِرَةِ نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَاۚ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

وساعة تسمع « ما كان » أى « ما ينبغى » . فنحن فى حياتنا نقول : ما كان لك أن تضرب زيدا ، ونقصد أنه ما ينبغى أن تضرب زيدا . فقوله:« وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله » هذا القول قد يدفع إلى التساؤل : وهل الموت أمر اختيارى ؟ لا ، ولكن تعبير الحق سبحانه له إيحاء ؛ لأنك عندما تقول : ما كان لفلان أن يفعل كذا ، فهذا معناه أن لفلان أن يختار أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفى قدرة فلان أن يفعل أو لا يفعل . أما عن قدرة الله فلا يمكن أن يقول أحد ذلك .

إننا نفهمه على فرض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، فما لها أن تموت إلا أن يأذن الله . فإذا كانت النفس هى التى تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، ومع ذلك لا تملك أن تموت ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلكة . إذن فالموت إن أرادته النفس فلن يأتى إلا أن يكون الله قد أذن بذلك . وإننا نجد فى واقع الحياة صورا شتى من هذه الصور .

نجد من يضيق ذرعا بهذه الحياة ؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسع للبلاء والكد فى الدنيا فينتحر ، إنه يريد أن يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه . أما الذى يملك الطاقة الإيمانية الرحبة فأى شقاء أو بلاء يقابله يقول : إن لى ربا ، وما أجراه علىّ ربى فهو المربى الحكيم الذى يعرف مصلحتى أكثر مما أعلم ، ولعل هذا البلاء كفارة لى عن ذنب .

وهذا عكس من يفر مما لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتل نفسه ، وكل منا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك لكن يتم إنقاذهم ويدركهم من ينفذ

مشيئة الله فى إنقاذهم ، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصا سامة ، أو إطفاء حريق من أشعل فى نفسه النار . فالمنتحر يريد لنفسه الموت ولكن الله إذا لم يأذن ، فلا يبلغه الله هذا ، فقد تجد مُنتحرا يريد أن يطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو تجد منتحرا آخر يريد أن يشنق نفسه بحبل معلق فى السقف فينقطع الحبل ، لماذا ؟ لأنه لا يقبض الحياة إلا من وَهَبَ الحياة .

قد يقول قائل : ولكن هناك المقتول الذى يقتله إنسان آخر . وهنا يرِد المثل الشعبى : لو صبر القاتل على المقتول لمات بمفرده . إن اللحظة التى تفارق الروح مادة الجسد موقوتة بأجل محدود ، فمرة تأتى اللحظة بدون سبب ، فيموت الإنسان حتف أنفه ، ويقول أصدقاؤه : لقد كان معنا منذ قليل . إنهم ينسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل .

ولذلك نجد إنسانا يسعى إلى عافية الحياة ، فيذهب إلى إجراء جراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت . ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقى حين يقول فى ذلك :

فى الموت ما أعيا وفى أسبابه
كل امرىء رهن بطىِّ كتابه
أسد لعمرك من يموت بظفره
عند اللقاء كمن يموت بنابه
إن نام عنك فكل طب نافع
أو لم ينم فالطب من أذنابه

إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقى الإنسان بأسد ، فيستوى الموت بالناب ، كالموت بظفر الأسد . فإن نام الموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قرص دواء أو جرعة ماء . أما إن استيقظ الموت فالطب والعلاج قد يكون ذَنَباً أو أداة للموت ، والقاتل كل ما فعله أنه نقض بنْية المقتول ، وهذا هو ما يعاقب عليه .

إذن فقول الحق : « وماكان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » يطلق قضية

عامة . والكتاب المؤجل يطلق مرة على زمن العمر كله ، ومرة يطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هى الموت الحقيقى . فالقاتل حين ينقض بِنية القتيل إنما يوافق الأجل المكتوب الذى أراده الله . لكن لماذا نعاقب القاتل إذن ؟ نحن نعاقبه لأنه نقض بنية إنسان آخر .

والحق يقول : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . ولنلحظ قوله : « بإذن الله » فهى تدلنا على أن الله هو الذى يطلق الإذن . والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة . ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسند مرة هذه العملية لله فيقول سبحانه :

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

ومرة أخرى يسند القرآن هذه العملية لِمَلَكٍ واحد :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة السجدة)

ومرة يسندها الحق سبحانه إلى رسل من المعاونين لملك الموت :

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى صادق فى كل بلاغ عنه ؛ لأن كل أمر يحدد الأجل ليس بمراد الموكل بإنهاء الأجل ، إنما هو بإذن من الله تعالى الذى يحدد ذلك . ومادام كل أمر قد صدر منه فهو سبحانه الذى يتوفى الأنفس ، وبعد ذلك فالملك الذى يتوفى

الأنفس ـ عزرائيل ـ له أعوان ؛ فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشر كل واحد مهمته . إذن فصيرورة الأمر بالموت نهائيا إلى الله .

وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضى مأذونا ، والمأذون هم ملائكة الموت الذين أذن لهم ملك الموت بذلك ، وملك الموت تلقى الإذن من الله سبحانه وتعالى .

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » فالذى يريد جزاء الدنيا وهو الذى يطلب جزاء حركته فيها ، يأخذها ، ولو كان كافرا :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ويقول سبحانه وتعالى فى موضع آخر من القرآن الكريم :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الشورى)

وهذا ينهى عملية أن تقول : إن الكفار حالتهم أفضل من حالتنا ، الكفار متقدمون ؛ ونحن متخلفون . وهل لم تأت فترة كان فيها المؤمنون متقدمين جدا ؟ لقد جاءت فترة تقدم فيها المؤمنون ، وكانوا متقدمين لألف سنة ، وهم الدولة الأولى فى العالم . وكان الكفار يسمون زمانهم ودولهم بأنها تحيا فى عصور الظلمات . لماذا أنكرتم هذه !؟ لأن التاريخ جاء لنا من ناحية هؤلاء وقد شوهوه ، ولذلك نقول لهم : نحن كنا متقدمين وأنتم والتاريخ يشهد بذلك .

ولذلك قلنا : يجب على المؤمن بالله أن يكون غيورا على أسباب الله ، فلا يدع

أسباب الله للكافر بالله ، أيأخذ الكافر بأسباب الله وأنت يا مؤمن بالله تترك الأسباب ليأخذها هو !؟ لا ؛ لأن من يعبد الله أولى بسرِّه فى الوجود ، فكوننا نتركهم يأخذون الأسرار العلمية ولا ننافسهم فى هذا المجال هذا تقصير منا .

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين » ونلحظ أن الحق قد جاء بلفظ « الشاكرين » مرتين ، والقرآن يؤكد هذا المعنى . إنه سبحانه أعطاكم أسبابا فإن كانت الأسباب قد جاءت لكم بمسائل الدنيا فهى تستحق الشكر ، وإن كانت ستعطيكم تكليفا مع الأسباب فهذا التكليف سيعطيكم خير الآخرة ، وهو أمر يستحق الشكر أيضا .

وبعد هذا الكلام النظرى « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . . يقول ما يؤكد وجوده فى موكب الإيمان الذى سبقكم ؛ لأن فيه فرقا بين الكلام وبين أن يقع مدلول الكلام ، فواقع الكلام سبقكم فيقول :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

« وكأين » هذه يقولون : إنها للتكثير ، مثل « كم » ؛ فعندما يقول لك إنسان مثلا : لماذا تجافينى ؟ فتقول له : كم زرتك ؟ إن قولك : « كم زُرتك ! » فى ظاهرها أنها استفهام ، وأنت لا تريد أن تقول له مستفهما كم مرة زُرته فيها ، بل تقول له : أنت الذى عليك أن تقول ـ لأنك بقولك ستعترف أنى زُرتك كثيرا ، فيكون الجواب موافقا لما فعلت . وأنت لا تقول « كم زرتك » إلا وأنت واثق أنه إذا أراد أن يجيب فسيقول : « زرتنى كثيرا » ولو كنت لا تثق أنه سيقول : زرتنى كثيرا ، لَمَا قلتها ،

فعندما تقول له : كم زرتك ، كم تفضلت عليك ، كم واسيتك ، كم أكرمتك ؟ فإن « كم » تأتى للتكثير ، وتأتى مثلها « كأين » إنها للتكثير أيضا ، عندما تقول مثلا : « ياما حصل كذا » و« ياما » هذه معناها « كأيِّن » .

وقد يسألك صديق : كيف حدثت هذه الحكاية ؟ فتقول له : كأى رجل يفعل كذا ويحصل له كذا ، أى أن المسألة ليست غريبة ، إن قولك : كأى رجل معناها أنها شاعت كثيرا ، وعندما تقول : كم مرة زرتك ، وكم من مرة زرتك فهذان الاستعمالان صحيحان والمعنى : كثير من نبى قاتل معه مؤمنون برسالته كما حدث وحصل مع رسول الله . وقوله الحق « رِبّيون » أى ناس فقهاء فاهمون سبل الحرب ، و« ربيون » أيضا تعنى : أتباعا يقاتلون ، و« ربيون » يمكن أن ينصرف معناها إلى أن منهجهم إلهى مثل « الربانيين » .

وقول الحق:« فما وهنوا » أى ما ضعفوا ، إذن فهو يريد أن يأتى بالأسوة ، وكأنه سبحانه يقول : أنتم لماذا ضعفتم فى موقفكم فى غزوة أُحُد وأنتم تقاتلون مع رسول الله . لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم فى القتال معه أشد من حماس أى أتباع نبى مع نبيهم ؛ لأنه النبى الخاتم الذى سيضع المبدأ الذى ستقوم عليه الساعة ، ولن يأتى أحد بعده ، فكان يجب أن تتحمسوا ؛ فأنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنا ادخرتكم لذلك .

إن الحق يعطيهم المثل وفيه تعريض بهم وعتاب لهم ، وفى هذا القول تعليم أيضا ، فيقول : « وكأين من نبى » أى وكثير من الأنبياء « قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم » ونستوحى من كلمة « وهنوا » أى ما ضعفوا . فكأنه قد حدث فى القتال ما يضعف ، « فما وهنوا لما أصابهم » أى ما حدثت لهم نكسة مثلما حدثت لكم .

« وما ضعفوا وما استكانوا » . وكل من « وهنوا » و« ضعفوا » و« استكانوا » هذه جاءت فى موقعها الصحيح ؛ لأن « الوهن » بداية الضعف ، و« الوهن » محله القلب وهو ينضح على الجوارح ضعفا . و« استكانوا » ماذا تعنى ؟ إنها من « سكن » . والسكون تقابله الحركة .

والحرب تحتاج إلى حركة ، والذى يأتى للحرب فهو يحتاج إلى كَرّ وفر . أما الذى لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك ، وساعة تسمع ـ الألف والسين والتاء ـ وتأتى بعدها كلمة ، نعلم أن (الألف والسين والتاء) للطلب ، « فاسْتَفْهَم » أى طلب أن يفهم ، وهى تأتى لطلب المادة التى بعدها . كأن نقول : « استعلم » أى طلب أن يعلم ، أو نقول : « استخبر » أى طلب الخبر ، و« استكان » يعنى طلب له كوْنًا أى وجودًا ، فكأنهم بلغوا من الوهن ومن الضعف مبلغاً يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود ؛ لأن الوجود مظهره الحركة ، والحركة انتهت ، هذا هو معنى « استكانوا » .

ومادامت مِن الكون يكون وزنها ـ مثلما يقول الصرفيون ـ « استفعل » يعنى طلب الكون ، وطلب الوجود ، وقد يكون وزنها ليس كذلك ؛ إذا كانت من سكن ، وهى بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب ؛ لأن السين ستكون أصلية ، فوزنها ليس « استفعل » بل هو « افتعل » فـ« استكانوا » هل تعنى أنهم طلبوا السكون ؟ لا ؛ لأنهم كانوا ساكنين ، إذن فالأولى أن يكون معناها أنهم طلبوا مجرد الوجود ، هذا ما أميل إليه وأرجحه ، وقيل فى معناها : فما خضعوا وما ذَلوا من الاستكانة : وهى الذلة والخضوع .

« فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » فما يصيب العبد ابتلاء من الله ، وفى الحديث : « إذا أحب الله قوما ابتلاهم »[1] . وكل ذلك الوهن والضعف ، لا يشغلهم عن المعركة ، لأنهم لو صبروا على التحمل لأمدهم الله بمدد من عنده ؛ لأنه حين تفرغ أسباب الخلق وتنتهى يأتى إمداد الخالق .

ويلفتنا الحق سبحانه وتعالى بتذييل الآية : « والله يحب الصابرين » أى وكفى جزاء عن الصبر أن تكون محبوبا لله ؛ لأننا قلنا سابقا : قد نحب الله لنعمه التى أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست فى أن تحب الله أنت ، وإنما فى أن تصير بتطبيق

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، والضياء المقدسى عن أنس ، وصححه السيوطى .

منهجه فيك محبوبا لله . وقد أثر عن بعضهم قوله :

وإلا ألم تر كثيراً أحبَّ ولم يُحبْ ؟!!

أنت أحببت للنعم ، ولكنك تريد أن تكون محبوبا من الله ؛ لأن حبك للنعم لا يكفى ، فمثل هذه النعم أخذها الكافر أيضاً ، إذن فهناك حاجة أخرى . هناك مقدم وهناك مؤخر ، فالمقدم هو نعم الحياة وكل البشر شركاء فيها مؤمنهم وكافرهم ، ولكن المؤخر هو جزاء الله فى الآخرة وهو الأصل .

إذن ، فلو أن الناس فطنوا إلى قول الله : « والله يحب الصابرين » لقالوا : كفى بالجزاء عن الصبر أن نكون محبوبين لله ، حين أصابهم ما أصابهم . صحيح أن الإصابة لم تصنع فيهم وهناً أو ضعفا أو استكانة ، وهذا معناه أن فيهم مُسكة اليقين بالله . ومُسكة اليقين بالله تجعلهم أهلا لإمداد الله . فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد الله لك . ومدد الله لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف ؛ لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل فيهم :

﴿ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لكن المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم « فما وهنوا » ؛ لِأَنَّهم كانوا متيقظين إلى قضية إيمانية : إن الله لا يسلمك لنفسك إلا حين تغيب عنه ، فقالوا : ولماذا حدث لنا هذا ؟ لم يقولوا : ربنا انصرنا كى نخرج من الضعف ، لا . بل فكروا فى **الأسباب التى أدت بهم إلى هذا :**

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا

عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾

فكأن ما حدث نتيجة لذنب تقدم ففطنوا إلى السبب ، كان المفروض أنهم فى معركة ، وهذه المعركة أجهدتهم وأنهكتهم ، صحيح أنهم لم يضعفوا ، وكان المفروض أن يقولوا:« يارب انصرنا أولا » لا . بل قالوا : لابد أن نعرف السبب فى النكسة الأولى ، **السبب فى هذه النكسة أن الله لم يسلمنى إلى نفس إلا لأنى نسيته .**

«وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا » ، « ربنا » ، وانظر لكلمة النداء فى « ربنا » ، **كان يمكن أن يقولوا : يا الله إنما جاءوا بكلمة « ربنا » لماذا ؟ لأن علاقة العبد** بالربوبية هى قبل علاقته بالألوهية ، فالألوهية مكلفة ، فمعنى « إله » أى : معبود ، ومادام معبودا فله تكليف يطاع فيه ، وهذا التكليف يأتى بعد ذلك ، هو سبحانه له ربوبيتهُ فى الخلق . قبل أن يكلفهم ، ومادام الرب هو الذى يتولى التربية ، فالأولى أن يقولوا : يارب ، إذن قولهم : « ربنا » يعنى أنت متولى أمورنا ، أنت الذى تربينا .

« ربنا اغفر لنا ذنوبنا » فكأنه لا شىء يصيبنا إلا بذنب من الغفلة ارتكبناه . ونعرف من كلمة « ذنب » أن الذى يفطن إلى معناها لا يفعلها أبدا ، **لأن كلمة** « ذنب » مأخوذة من مادة « الذَنَب » . والذَّنْبُ سيأتى بعده عقوبة . فاللفظ نفسه يوحى بأن شيئا سيأتى ، وعندما تتذكر عقاب الذنب فأنت لا تفعله .

« اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا » لأن كل معصية تكون تجاوزا عما أحلَّه الله لك ، وزيادة غير مشروعة وإن كانت من نوع ما أحله الله ، ولكنها زيادة عن مقومات حياتك ؛ فالله شرع لنا الزواج لنأتى بالأولاد ، وعندما نأخذ أكثر من هذا من غير زواج نكون قد أسرفنا ، والله أعطانا مالا بقدر حركتنا ، فإن طمعنا فى مال غيرنا فقد أسرفنا . « وأسرفت » يعنى أن تأخذ حاجة ليست ضرورية لقوام حياتك . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إنه سبحانه يوضح : أنا حللت لك كذا من النساء فما الذى جعل عينيك تزوغ وتميل إلى غير ما أحله الله لك ؟ أنا أحللت لك كسب يدك وإن كنت فقيراً فستأخذ صدقة ، لماذا أسرفت ؟ إذن فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه « إسراف » « وإسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا » . لقد بدأوا يدخلون فى الحق ، لكنهم فى البداية رَأَوْا الباطل ، والباطل هو من أسباب تخلى الحق عن نصرتنا أولا ، لكن عندما يغفر سبحانه الذنب ويغفر الإسراف فى الأمر نكون أهلاً للمدد وأهلاً لتثبيت الله .

« وثبت أقدامنا » كيف يقول الحق ذلك والمفهوم فى المعركة أن الأقدام لا تثبت ؟ المعركة تطلب من المقاتل أن يكون صوالاً جوالاً متحركا ، إذن فما معنى « وثبت أقدامنا » ؟ إن قول الحق : «وثبت أقدامنا » يعنى لا تجعلنا نفر من أرض المعركة ، ولا نترك أرض المعركة أبدا . ولذلك قلنا : إن الكفار عندما حدث منهم ما حدث لم يظلوا فى أرض المعركة ، بل تركوا أرض المعركة وانصرفوا ، وهؤلاء المؤمنون ولو أنهم انهزموا إلا أنهم مكثوا فى أرض المعركة مدة ، وكروا وراء أعدائهم وطاردوهم . وقد اهتدى البشر أخيراً إلى هذا المعنى ، ففى فرنسا نيشان يسمونه « نيشان الذبابة » لماذا الذبابة ؟ لأن الذبابة إن طردتها عن مكان لابد أن تعود إليه ، فكذلك المفروض على القائد ـ مادام انسحب من منطقة ـ أن يوطن نفسه على العودة إليها ، فيعطوه نيشان الذبابة .

فقوله : « وثبت أقدامنا » فى أى منطقة ؟ وفى أى معركة ؟ علينا ألا نبرح أماكننا ؛ لأننا ساعة أن نبرحها فهذه أول الهزيمة ، وهذا أمر يُجَرِّىء العدو علينا .

« وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . كلمة « وانصرنا على القوم الكافرين » هى حيثية ، فمادامو قد قالوا : «وانصرنا على القوم الكافرين » فهم إذن

مؤمنون ، ومؤمنون بحق ؛ ولذلك فإن سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول قولته المشهورة : إنكم تنتصرون على عدوكم بطاعة الله ، فإن استويتم أنتم وهم فى المعصية غلبوكم بعُدتهم وعَددهم .

ولذلك فالإيمان يتطلب أن تنتبهوا إلى موطن الضعف فيكم أولا ، والذى استوجب أن يصيبكم ما أصابكم ، حقًّا إنكم لم تضعفوا ، ولم تستكينوا وأصابكم من المعركة شىء من التعب والألم . وكأن الحق يوضح لنا أنهم قد تنبهوا فأحسنوا البحث فى نفوسهم أولا ، لقد تكلموا عن الذنوب وطلبوا المغفرة وتكلموا عن الإسراف على النفس ، وبعد ذلك تكلموا عن المعركة . فماذا كان العطاء من الله ؟

ويأتينا الجواب فى قوله الحق :

﴿ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

أى أن الذى يريد الدنيا فالله يعطيه من الدنيا غنائم وأشياء ، ولنا أن نلحظ أن الحق عندما يتكلم هنا عن الدنيا فهو لم يصفها بحُسن أو بشىء ، فقط قال : « ثواب الدنيا » ، لكن عندما تكلم عن الآخرة فهو يقول : « وحُسن ثواب الآخرة » وهذا هو الجمال الذى يجب أن يُعشق ؛ لأن الدنيا مهما طالت فهى متاع وغرور وزخرف زائل ، ومهما كنت منعما فيها فأنت تنتظر حاجة من اثنتين : إما أن تزول عنك النعمة ، وإما أن تزول أنت عن النعمة .

ويختم الحق الآية بقوله : « والله يحب المحسنين » وقد أحسنوا حين ناجوا ربهم بعدما أصابهم . إنهم سألوا المغفرة ، وسألوا أن يغفر لهم إسرافهم فى أمرهم ، وأن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على القوم الكافرين ؛ لأنهم رأوا أن قوتهم البشرية حين

يتخلى عنهم مدد الله تصبح هباءً لا وزن لها .

« فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » ومثلما قلنا فى الصبر : « والله يحب الصابرين » كفى بالجزاء على الصبر أن تكون محبوباً لله ، كذلك كفى بالجزاء على الإحسان أن تكون محبوبا لله . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

ومادمتم مؤمنين وهم كفار فكيف يتأتى منكم أن تطيعوا الكافرين ؟ إنكم وهم من أول مرحلة مختلفون ؛ أنتم مؤمنون وهم كفار ، والكافر والمنافق سيستغل فرصة الضعف فى النفس الإيمانية المسلمة ، ويحاول أن يتسلل إليها ، مثلما قلنا : إن جماعة من المنافقين قالوا : قتل محمد ، ولم يعد فينا رسول فلنلجأ إلى دين آبائنا . والمؤمنون الذين أصابتهم لحظة ضعف قالوا : نذهب إلى ابن أُبى ـ المنافق الأول فى المدينة ـ ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبى سفيان ليأخذ لنا الأمان .

ولذلك يقول الحق : « ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين » ، فإن كان الموقف يحتاج إلى ناصر فلا تطلبوا النصير من الكافرين ، ولكن اطلبوه ممن آمنتم به . وينزل القول الحق :

﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

ألم يقل أبو سفيان : « لنا العُزَّى ، ولا عُزَّى لكم » ، فقال لهم النبى قولوا لهم : الله مولانا ولا مولى لكم ، وعندما قال : يوم بيوم ، أى يوم أُحُد بيوم بدر ، الحرب سجال . فرد عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه وقال : لا سواء ، أى نحن لسنا مثلكم ؛ قتلانا فى الجنة ، وقتلاكم فى النار ، فكيف تكون سواء وكيف تكون سجالاً !؟

« بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » ونفهم قول الحق:« خير الناصرين » أى يجوز أن يوجد الله بشرا كافرين أو غير كافرين وينصروكم نصرا سطحيا ، لا نقول إن هذا نصر إنما النصر الحقيقى هو النصر الذى يأتى من الله ، لماذا ؟ لأن النصر أول ما يأتى من ناحية الله فاطمئن على أنك خالص ومخلص لله وإلا ما جاءك نصره ، فساعة يأتيك نصر الله فاطمئن على نفسك الإيمانية ، وأنك مع الله .

وقول الحق:« خير الناصرين » دليل على أنه من الممكن أن يكون هناك ناصر فى عرف البشر . وقد قال المؤمنون : يارب نحن ضعاف الآن وإن لم نذهب لأحد ليحمينا ماذا نصنع ؟ فيوضح لهم الحق : كونوا معسكرا إيمانيا أمام معسكر الكفر ، وإياكم أن تلجأوا إلى الكافرين بربكم ؛ لأنهم غير مأمونين عليكم . وإن كنتم تريدون أن تعرفوا ماذا سأفعل : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » . فإذا ألقى الرعب فى قلوب الكافرين فماذا يفيدهم من عَدَدِهم وعُدَدِهم ؟! عددهم وأموالهم تصير ملكا لكم وتكون فى السَلَب والغنيمة .

﴿ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴾ (١٥١)

وألقى الحق فى قلوبهم الرعب بالفعل . فساعة قالوا لأبى سفيان : إن محمداً قادم إليك بجيش كثيف من المدينة ، وانضم له مقاتلون لم يحاربوا من قبل ، وقادم إليكم فى حمراء الأسد . ماذا صنع أبو سفيان وقومه ؟ ألقى الله الرعب فى قلوبهم وفروا .

وكلمة « سنلقى » مأخوذة من « الإلقاء » وهو لا يكون إلا لمادة وعين . ويبين لنا القرآن هذا الأمر حين يقول : « فألقى الألواح » ، هذه حاجة مادية . قال تعالى :

﴿ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

إنه أمر مادى . . ونحن نقول : ألقى الحجر . والحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إنها حبال ، أى أمر مادى . وسبحانه وتعالى يقول عن الوحى لأم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

فالإلقاء أمر مادى ، كأن الله يريد أن يجعل المعنى وهو الرعب شائعا ، فقال : أنا سأجمع الرعب وأضعه فى القلب ، ويكون عمله ماديًّا . فإذا ما استقر الرعب فى القلب جاء الخَور ، وإذا سكن الخور القلب نضح على جميع الجوارح تخاذلا ، فيقول : « سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » فكأنه مثل لنا الرعب ، والرعب أمر معنوى وهو التخوف من كل شىء ، فأوضح : بأنه سيأتيهم بالرعب ويلقيه فى القلب ، فيبقى به ليصنع الخور والخذلان .

« سنلقى فى قلوب الذين كفروا الرعب » انظروا إلى التعابير الصادرة عن الله . إنه هنا يأتى بـ « نون العظمة » ، « سنلقى » ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى ساعة

يتكلم عن أمر يحتاج إلى فعل فهو سبحانه يأتى بـ « نون العظمة » كقوله :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝ ﴾

(سورة الحجر)

ولأن إنزال الذكر عملية عظيمة ، فنأتى بـ « نون العظمة » . لأننا سننزله بقدرة وسننزله بحكمة ، وننزله بعلم وننزله بسمع ، وننزله ببصر ، وننزله بقيومية ، وننزله بقبض ، وننزله ببسط ، فقوله : « إنا نحن » فكأن نون العظمة تأتى هنا ، لكن ساعة يتكلم سبحانه عن الذات العلية فهو يقول : « إننى أنا الله » . لم يقل إننا ، ولكن فى الإنزال يقول :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝ ﴾

(سورة القدر)

لأن هذه عملية عظيمة جليلة ؛ فـ « نون العظمة » تأتى فيها يكون من شأنه حدث يُفعل ؛ وهذا الحدث الذى يُفعل يحتاج لصفات كثيرة ، ولذلك قلنا ساعة تبتدىء أىَّ عمل تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » لماذا ؟ لأن العمل الذى ستعمله يحتاج إلى قدرة عليه ، ويحتاج إلى علم قبل أن تعمله ، ويحتاج إلى حكمة ، أى أنه يحتاج إلى صفات كثيرة ، فأنت تدخل على العمل باسم القادر الذى يُقْدِرُك ؛ وباسم العليم الذى يعلمك ، وباسم الحكيم الذى يحكمك . وكل هذه الصفات ستتكاتف فى إبراز العمل كى يرحمك حتى فى الاستعانة ، فلا يقول لك : هات الصفات كلها التى يحتاج إليها فعلك ؛ لأن هناك صفات أنت لا تعرفها ، فيقول لك : هات الاسم الجامع لكل صفات الكمال . قل : « باسم الله » ، وهى تضم كل صفات الكمال .

إذن فأنت تلاحظ أنك إذا رأيت « نون العظمة » التى نسميها « نون الجمع » نجد أننا نقول : « نحن » للجماعة . أو للمتكلم الواحد حين يعظم نفسه ، ولذلك نلاحظها حتى فى قانون البشر ، ألم يقولوا فى الملكية : « نحن الملك » ، وهذه النون بالنسبة لله ليست نون الجماعة . إنما هى « نون العظمة » ، العظمة الجامعة لكل صفات الكمال التى يتطلبها أى فعل من الأفعال ، لذلك قال سبحانه : « سنلقى فى

قلوب الذين كفروا الرعب » فكل قلب به كفر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه . إذن فتأتى نون العظمة لتستوعب كل هذه القلوب الكافرة .

وهو سبحانه لا يتجنى عليهم بالقاء الرعب ، ولكن هم الذين استحقوا أن يلقى فى قلوبهم الرعب ، لماذا ؟ « بما أشركوا » . إن الإشراك بالله هو الذى جاء لهم بالرعب ؛ لأن الله يفعل ، والشركاء لا يفعلون . ولو أن شركاءهم حق لما تخلوا عنهم . فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم ؟ لقد جاءهم الرعب لأنهم ليس لهم مولى ، ولو كان لهم آلهة قادرة ـ كما يدعون ـ لقالوا لتلك الآلهة : رب محمد يعمل معنا هكذا فلماذا لا تقفون له يا أربابنا ؟ لكنهم أشركوا بالله ما لا يضر ولا ينفع ، بل ضره أقرب من نفعه .

« بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » والسلطان هو القوة والحجة والبرهان مأخوذة من مادة « السين واللام والطاء » ونقول : فلان تسلط على فلان ، أى أرغمه بقدرته عليه . ويقولون : فلان سليط اللسان ، أى قادر أن يسب ، إذن فالسلطة هى : القهر ، والقوة التى ترغم على الفعل ، وفى المعنويات هى الحجة والبرهان . والمؤمنون دائما ذوو سلطان من الله ؛ لأنهم إن انتصروا ماديا فذلك سلطان القهر ، وإن انهزموا ماديا فعندهم سلطان الحق والدليل ؛ ولذلك قلنا سابقا : إن إبليس يأتى يوم القيامة ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

وقلنا إن السلطان نوعان : إما قوة تقهرنا على أن نفعل المعصية ، وإما برهان ودليل يجعلنا نفعل المعصية .

والفرق بين القوة القاهرة وبين سلطان الدليل هو أن القوة القاهرة تجعلك تفعل وأنت مرغم غير راض عن الفعل . أما سلطان الدليل فيقنعك بأن تفعل ؛ فتكون قد فعلت برضاك ، فمرة يأتى السلطان بمعنى : قوة تقهرك على أن تفعل الفعل وأنت

مرغم . إنما قوة الدليل تقنعك أن تفعل ، فيأتى الشيطان ليقر على نفسه فى الآخرة ويقول : « وما كان لى عليكم من سلطان » أى ليس معى قوة تقهركم على المعصية ، وليس معى دليل يقنعكم حتى تفعلوا المعصية ، لا هذا ولا ذاك ، فما الحكاية إذن ؟ قال : « وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى » . أى إنكم أطعتمونى واستجبتم لدعوتى بلا سلطان قوة أقهركم به على شىء ، ولا سلطان دليل أقنعكم به .

ويذيل الحق الآية بقوله : « ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين » أى أن المرجع الذى يأوون إليه هو النار ، والمأوى ؛ هو الموضع الذى ترجع أنت إليه . وكأن فى هذا المرجع ذاتية من الكافر تلقيه على النار فهو ـ أى الكافر ـ مأواه ومثواه الذى يرجع إليه . ولذلك يجب أن نفطن إلى قوله الحق فى بعض الأساليب : « وإليه تَرجَعون » وقوله : « وإليه تُرجِعون » . « وبئس مثوى الظالمين » . . أى مثوى لا مفر بعده أبدا ، فكل مثوى من الجائز أننا نرحل عنه ، لكن المثوى الذى سيبقى خلودا للظالمين هو النار وهو بئس المثوى . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا

عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

ونعرف أن فى « صدقكم الله وعده » مفعولين : الأول هو ضمير المخاطبين فى قوله : « صدقكم » ، والثانى هو قوله « وَعْد » المضاف إلى الضمير العائد على لفظ الجلالة « الله » فهو - سبحانه - قد أحدث وعداً ، والواقع جاء على وفق ما وعد . لقد قال الحق :

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾

(سورة محمد)

وقال سبحانه :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

(سورة الصافات)

والآيتان تؤكدان قضية وعدية ، بعد ذلك جاء التطبيق العملى . . فهل وقع الوعد أو لم يقع ؟ لقد وقع ، ومتى ؟ فهل يشير الحق فى هذه الآية إلى موقعة بدر ؟

« إذ تحسونهم بإذنه » . و« تحسونهم » أى تُذهبون الحس منهم ، والحس : هو الحواس الخمس ، ومعنى أذهبت حسه يعنى أفقدته تلك الحواس . « إذ تحسونهم » وقد حدث ، وتمكنتم منهم ؛ تقتلونهم وتأسرونهم ، أو الحس : هو الصوت الذى يخرج من الإنسان ، ومادام فقد الحس يعنى انتهى ، « إذ تحسونهم بإذنه » فحينما صدقتم لقاءكم لعدوكم على منهج الله صدق الله وعده ؛ هذا فى بدر .

أما هنا فى أُحد فقد جاء فيكم قوله : « حتى إذا فشلتم » أى جبنتم . « وتنازعتم فى الأمر وعصيتم » أمر الرسول « من بعدما أراكم ما تحبون » وهى الغنائم ، « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . كأنه سبحانه يعطينا العبرة من معركتين : معركة فيها صدق وعد الله ، وفعلا انتصرتم ، وأيضا صدق وعد الله حينما تخليتم

عن أمر الرسول فحدث لكم ما حدث . إذن فالمسألة مبسوطة أمامكم بالتجربة الواقعية ، ليس بالكلام النظرى وليس بالآيات فقط ، بل بالواقع .

أو أن الأمر كله دائر فى أُحُد ، نقول فرضا : هو يدور فى أُحُد ودع بدرا هذه ، حينما دخلتم أيها المسلمون أول الأمر انتصرتم أم لم تنتصروا ؟ لقد انتصرتم ، وطلحة بن أبى طلحة الذى كان يحمل الراية للكفر قتل هو وبضعة وعشرون ، الراية الكافرة قد سقطت فى أول المعركة ، وحامل الراية يقتل وهذا ما وضحه قوله تعالى : « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر » فجماعة تقول : لنبق فى أرض المعركة ، وجماعة تقول : ننسحب . ورأيتم الغنائم فحدث منكم كذا وكذا . فتأتى النكسة ، ولو لم يحدث ما حدث لكان من حقكم أن تتشككوا فى هذا الدين ، إذن فما حدث دليل على صدق هذا الدين ، وأنكم إن تخليتم عن منهج من مناهج الله فلا بد أن يكون مآلكم الفشل والخيبة والهزيمة .

« حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر » ، فجماعة قالوا : نظل كما أمرنا الرسول ، وجماعة قالوا : نذهب إلى الغنائم « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . . ومادمتم قد تنازعتم وقالت جماعة : لنتمسك بمواقعنا ، وقالت جماعة أخرى : لنذهب إلى الغنائم ، إذن فالذى أراد مواصلة القتال إنما يريد الآخرة ولم تلهه الغنائم ، والقسم الذى أراد الدنيا قال : لنذهب إلى الغنائم . وفى هذه المسألة قال ابن مسعود رضى الله عنه : والله ما كنت أعلم أن أحدًا من صحابة رسول الله يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أُحُد .

أى أنه لم يكن يتصور أن من بين الصحابة من يريد الدنيا ، بل كان يظن أنهم جميعا يريدون الآخرة ، فلما نزل قول الله : « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » عرف ابن مسعود أن من الصحابة من تتقلب به الأغيار . وذلك لا يقدح فيهم ؛ لأنهم رأوا النصر ، فظنوا أن المسألة انتهت ؛ لقد سقطت راية الكفر ، وقتل المؤمنون عددا من صناديد قريش . ولقد عفا الله عن المؤمنين وغفر لهم ما بدر منهم من مخالفة لأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » نعم لأنكم كنتم مشغولين بقتالهم قبل أن تنظروا إلى الغنائم ، فلما نظرتم إلى الغنائم اتجه نظركم إلى مطلوب دنياكم ، فانصرفتم عنهم ، ولم تجهزوا عليهم ولم تتم لكم هزيمتهم وقهرهم ،« ثم صرفكم عنهم ليبتليكم » وابتلاؤكم فى هذه الغزوة إنما هو رياضة وتدريب على المنهج ، كأنها غزوة مقصودة للابتلاء ، فترون منها كل ما حدث . وبعد ذلك نجحت التجربة ، فبعد هذه المعركة لم ينهزم المسلمون فى معركة قط .

ولذلك يقولون : الدرس الذى يعلم النصر فى الكثير لا يعتبر هزيمة فى القليل . والمثال على ذلك : لنفرض أن ولداً من الأولاد رسب سنة ، ثم حمل ذلة الرسوب ، نجده ينال بسبب ذلك مرتبة متميزة بعد ذلك بين العشرة الأوائل ، إذن فالرسوب الأول له كان خيرا .

« ولقد عفا عنكم » لأنه كان لكم وجهة نظر أيضا عندما تصورتم أن المعركة انتهت بسقوط راية الكفر ومقتل طلحة بن أبى طلحة ومقتل بعض من الصناديد فى معسكر الكفر ، فظننتم أن المسألة انتهت ، لكن كان يجب أن تذكروا أن الرسول قال لكم : اثبتوا فى مراكزكم وأماكنكم حتى لو رأيتمونا نتبع القوم إلى مكة ، ولو رأيتموهم يدخلون المدينة .

أيوجد تحذير أكثر من ذلك !؟ « والله ذو فضل على المؤمنين » وسبحانه جل وعلا لم يخرجهم من الحظيرة الإيمانية بهذا القول الحكيم . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ

خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٥٣﴾

« إذ تصعدون ولا تلوون على أحد » هنا جاء لهم بلقطة من المعركة ، حتى إذا سمع كل واحد منهم هذا الكلام يستحضر الصورة المخزية التى ما كان يصح أن تحدث ، « إذ تصعدون » ، فيه « تَصْعَد » ، وفيه « تُصعِد » وهنا « تُصعِدون » من « أَصْعَد » ، و« أَصْعَد » أى ذهب فى الصعيد ، والصعيد الأرض المستوية حتى تعينه على سرعة الفِرار . إنما « صَعِدَ » تحتاج إلى أن يكون هناك مكان عالٍ يصعدون إليه . وهم ساعة أرادوا أن يفروا جَرْوًا إلى الأرضِ السهلة ومَشْوًا ، فكل منهم لا يريد أن يتعثر هنا أو هناك ، إذن فالمناسب لها « إذ تُصعِدون ولا تلوون على أحد » والفَار لا ينظر هنا أو هناك ؛ ليس أمامه إلا الأرض السهلة .

« ولا تلوون على أحد » أى لا تعرجون على شىء ، والأهم من ذلك أن هناك تنبيها من القائد الأعظم وهو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يدعوكم « والرسول يدعوكم فى أخراكم » أى يناديكم من مؤخرتكم طالبا منكم العودة إلى ميدان القتال « فأثابكم غما بغم » . أنتم غَمَمْتُم الرسول صلى الله عليه وسلم بأنكم خالفتم أوامره ، فوقفكم الله هذا الموقف .

كلمة « فأثابكم غما بغم » كأنه يقول : عاقبكم . ولكنه سبحانه يأتى بها مغلفة بحنان الألوهية « فأثابكم ». إذن فهى ثواب . . أى أن الحق سبحانه وتعالى بربوبيته وبألوهيته ؛ يعلم أن هؤلاء مؤمنون فلم يَقْسُ عليهم ، قال : « فأثابكم غما بغم » فكأن ما حدث لكم تخليص حق .

« لكيلا تحزنوا على ما فاتكم » ولو لم تحدث مسألة الحزن والخزى والذلة لشغلتكم مسألة أنكم فاتتكم الغنائم والنصر ، ولظل بالكم فى الغنائم ؛ لأنها هى السبب فى هذا . كأن الغم الذى حدث إنما جاء ليخرج من قلبكم لقطة سيل اللعاب على الغنيمة . وما أصابكم من القتل والهزيمة ، « فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » أى أنه سبحانه يقدر ما الذى استولى

عليكم ، لأن من الجائز « والرسول يدعوكم فى أخراكم » أنهم لم يسمعوا النداء من هول المعركة ، « والله خبير بما تعملون » وهو سبحانه خبير بكل فعل وإحساس .
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وكلمة « أنزل » تدل على أن هذا عطاء عُلوى ليس له شأن بالأسباب المادية ولا بالقوانين البشرية ؛ لأن النوم عرض من الأعراض التى تطرأ على الأحياء ، هذا العرض تستوجبه عمليات كيماوية فى نفسك ، وهذه العمليات الكيماوية حتى الآن لا يعرفون ما هى ، وأقصى ما فُهم منه أنه ردع ذاتى لجسم الإنسان . فكأن الجهاز المتحرك المكون من مخ يعمل، وعين ترى، وأذن تسمع، وحواس وحركة هذا الجهاز له طاقة ، ساعة تنتهى منه الطاقة ، لا يقول لك : أنت الذى تترك العمل.لا ، بل

يقول لك : أنا لم أعد صالحا للعمل . إنه ردع ذاتى ، مثلما يريدون أن يصلوا إليه الآن فى مجال الآلات بمجرد فصل تيار الكهرباء آليا عن تلك الآلات فهى تتوقف .

فالردع الذاتى هو فى النوم ويأتيك النعاس . وتبين بالبحث العلمى أن هناك أشياء فى الجسم لا تخرج كفضلات . بل تحتاج إلى التعادل والتوازن الكيميائى . ونحن نعلم أن هناك بقايا كنتيجة للحركة ، وهناك احتراق للطاقة ، وكلٍ حركة فيها احتراق ، وبقايا هذا الاحتراق تخرج مرة على هيئة بول ، ومرة يخرج غائطًا ومرة يخرج مخاطًا ، وهكذا ، إذن كثير من هذه الفضلات هى نتيجة عمليات الاحتراق ، لكن هناك أشياء لا نريد لها أن تخرج ولكن نريدها أن تتعادل ، فعندما تنام لا يوجد لك حركة وتبتدىء الكيماويات داخل الجسم فى التعادل ، وهذا هو ما يفعله لك النوم الذى تستوجبه أسبابك المادية .

وصاحب الهم والغم لا ينام أبدا ؛ فهو يسهو عن نفسه ويرهق جسمه أكثر وتكون المصيبة كبيرة عليه ، وهنا ينزل الحق فضله عليكم بالنوم لأن أسبابكم لا تساعد أيا منكم على أن ينام .

وأنتم تذكرون قديما أننا قلنا : إن الإمام عليًّا كرم الله وجهه لما اشْتُهِرَ بالفتيا ، وكلما سألوه عن أمر أفتى فيه ، فقالوا : نأتى له بمسألة معقدة ونرى كيف يأتى بالفتيا ، وكأنهم نسوا أنه يُفتى لأنه تربى فى حضن النبوة ، فقد جاءت النبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا على مازال صغيرا ، أما الصحابة الآخرون فقد جاءت النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كبار فى السن ، فهناك معلومات دخلت عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن سيدنا عليًّا كرم الله وجهه لم تدخل عليه معلومة من معلومات الجاهلية . كل المعلومات التى عنده نبوية ، فكل هذا التفاعل ينشأ عنه فُتيا ، لذلك كان سريعا فى الإفتاء .

على سبيل المثال ، تأتى له امرأة فتقول : يا ابن أبى طالب كيف يعطوننى دينارا من ستمائة ؟ مورثى خَلَّفَ ستمائة دينار فأعطونى دينارا واحدا . فقال لها : لعله مات عن زوجة ، وعن بنتين ، وعن أم ، الزوجة تأخذ الثُمن (خمسة وسبعين دينارا)

والبنتان تأخذان الثلثين (أربعمائة دينار) وللأم السدس وهو مائة دينار ، ولعل له اثنى عشر أخا وأختا واحدة،أشقاء أو لأب،وأنت هذه الأخت وقد بقى من التركة خمسة وعشرون دينارا توزع على الاثنى عشر أخا والأخت ؛ فيكون نصيبك دينارا . كيف عرف ذلك ؟ إنها دقة الحساب عند من تعلم فى بيت النبوة .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد أن الحق قد أنزل عليهم نعاسا ليؤمنهم فلم ينشأ النوم هنا من حركة الاختيار ، ولكن الله أنزله ، ومعنى « أنزله » ؛ أنه بعث رحمة جديدة من السماء ليُخرج القوم الذين أصابهم الغم على ما فعلوا مما هم فيه . ولذلك قال أبو طلحة : غشينا النعاس ونحن فى مصافنا يوم أحد فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه .

إذن فهى عملية قسرية . والنعاس حينما ينزل من الحق سبحانه وتعالى يكون عملية إنقاذ من حركة فاتت فرصتها على النفس البشرية فعوضها الله ، ولكن القوم الذين نافقوا ماذا كان حالهم ؟ لاشك أن الذين جاءوا نفاقا لم يصبهم غم على ما حدث . بل بالعكس ، لابد أن يكون قد أصابهم فرح أو اطمئنان على ما حدث ، وهؤلاء لا يكونون أهلا لأن ينزل الله عليهم أمنة النعاس . بل يتركهم الله لذواتهم ؛ لأنهم لم يكونوا فى حصن الله باتباع منهج الإسلام أو بالاخلاص - على الأقل - لفكرة الإسلام ، هؤلاء يسلمهم الله لذواتهم .

إذن فلن يُنزل عليهم أمنة النعاس . ومادام لن ينزل عليهم أمنة النعاس ، فقد أصبحوا فى قلق ، لماذا ؟ لأن نفوسهم قد أهمتهم . والإنسان حين يؤمن ويتقبل الإسلام من ربه يكون قد باع نفسه لربه ، ومادام قد باع نفسه لربه فالصفقة الإيمانية لابد أن تستمر . وإذا استيقظ المسلم مرة لنفسه نقول له : لقد رجعت فى عقد الصفقة. ومادمت قد رجعت فى عقد الصفقة فالله الذى كان قد اشتراك يتركك لنفسك ، فقوله : « **أهمتهم أنفسهم** » أى خرجوا عن صفقة الإيمان ؛ لأن الذى يعقد صفقة بالإيمان مع ربه ، هو من قال الله فيه :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

(سورة التوبة)

ومادام الله قد اشترى من المؤمن نفسه فيجب على المؤمن ألا تهمه نفسه ، فيدخل المعركة بالصفقة الإيمانية ، فإذا أهمته نفسه يبدأ القلق ، والبلبلة ، والاضطراب ، وتوهم الأشياء ، والشيء الواحد يتوهمه على ألف لون . إذن فنفسه تكون غير مطمئنة ، ومادام الإنسان قد شغله هم نفسه حتى لو كان النعاس استجابة لأمر طبيعى من ذات النفس فلا يأتى النعاس أبدا .

ولذلك نجد أن الإمام عليًّا ـ رضوان الله عنه وكرم الله وجهه ـ حينما سُئل عن أشد جنود الله؟بسط يديه وقال : أشد جنود الله عشرة : الجبال الرواسى ، والحديد يقطع الجبال ، إذن فالحديد أشد من الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفىء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشيء ويمضى لحاجته ، والسُكر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السُكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله « الهم » .

فساعة يدخل الهم على النفس البشرية ، هذا أشد جنود الله ؛ لأن الهم يدخل على النفس البشرية بألوان متعددة للخطب الواحد ، فيتصور أموراً معقدة فى أمر واحد ، وواقعة على لون واحد ، ولكن الهم يجول به فى كل لون ؛ فهؤلاء قد أهمتهم أنفسهم ومادامو قد أهمتهم أنفسهم فقد خرجوا عن صفقة الإيمان . ومادامو قد خرجوا عن صفقة الإيمان الذى بوساطته اشترى الله من المؤمنين أنفسهم ، فالله يتخلى عنهم . ومادام الله قد تخلى عنهم فعليهم مواجهة المصير .

إن القلق والاضطراب يستبدان بهم ويصابون بالفزع من كل شيء . لكن حال الصنف الأول والطائفة الأولى يختلف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعاملهم معاملة من بقى

فى الصفقة الإيمانية وإن كانت نفوسهم البشرية قد فسرت الأحداث تفسيرا خاطئا ، فظنوا أن المسألة فى المعركة انتهت ، فذهبوا لأخذ الغنيمة ، إن هؤلاء قد احترم الله بقاءهم على الإخلاص للإسلام ، وأدبهم على تفسيرهم للأحداث تفسيرا غير حق ، فأثابهم غما لما خالفوا فيه ، وأنزل عليهم أمنه لإخلاصهم فى قضية الإسلام .

« وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » وإذا سمعت كلمة « طائفة » فاعلم أنها جماعة ، لكن هذه الجماعة لها مواصفات خاصة هى التى تجمعها على فكرة واحدة كأنهم يطوفون حولها ، إنها ليست مطلق جماعة لكنها جماعة تدور حول فكرة واحدة ، ويأتى القول الحكيم هنا ليبين لك ما قالوه فى نفوسهم ، وماداموا قد قالوا فى نفوسهم ، أسمعهم أحد ؟ لا ، ولكن الله أخبر به ، وأخبر بما فى نفوسهم جميعا بقول واحد ، مما يدل على أنهم يطوفون حول فكرة واحدة ، فالنضح الوجدانى يجعلهم يقولون جملة واحدة هى : « هل لنا من الأمر من شىء » وماداموا سيقولون فى نفوسهم فمن الذى سمعهم وهم جماعة ؟ إنه الله - سبحانه - « والله عليم بذات الصدور » .

وأنت إذا قلت « طائفة » تجد أنها فى عرف اللفظ « مفرد » ، وعندما تجمعها تقول : « طوائف » ، لكن هى لفظ مفرد يدل على جمع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة يلحظ ما يؤديه المفرد من الجمع . وهذه لا يتنبه إليها إلا البليغ ، فيفرق بينها كلفظ مفرد وبين ما تدل عليه كجمع ، ولذلك تجد هذا فى إعجاز القرآن ، فالحق يقول :

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجرات)

وحينما يقول : « وإن طائفتان من المؤمنين » فهو هنا يأتى بالخبر ، اقتتلتا أو اقتتلوا ؟ إنه سبحانه يقول : « اقتتلوا » ، اللفظة طائفتان لكن الدقة البلاغية لاحظت أن كل طائفة مكونة من جماعة . « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » فماذا

نفعل ؟ « فأصلحوا بينهما » . فمرة رجع للجماعة ومرة رجع للاثنتين ، ففى ساعة الاقتتال لا تقف الطائفة بسيف واحد وتضرب ضربة واحدة ، لا ، ففى ساعة القتال كل فرد من الطائفة له عمل ، إذن فالفردية المكونة للطائفة متعددة .

لكن عندما نُصلح هل نأتى بكل فرد من هذه الطائفة وبكل فرد من الطائفة الأخرى أو نأخذ هذه الطائفة ممثلة فى رؤوسها والطائفة الأخرى ممثلة فى رؤوسها ونعقد الصلح بين الطائفتين ؟ فدقة القرآن تقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » وبعد ذلك يعود الحق للتثنية فيقول : « فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما » والصُّلح يكون بين جماعة ممثلة فى قيادة وجماعة أخرى ممثلة فى قيادة .

وقوله الحق : « وطائفة قد أهمَّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ماقتلنا هاهنا » هذا القول يدل على أنها طائفة تدور حول حركة واحدة ، ويدل على أن النفاق نفاق متفق عليه ، وليس كل واحد منهم ينافق فى نفسه ، لا . إنها طائفة المنافقين ، وقد كوَّنوا جماعة ، ولهم سياسة مخصوصة ، ولهم كلام مخصوص ولهم وحدة فكر ، ولهم وحدة قول ، تعرفهم من قول الحق : « وطائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » .

ونعرف أن الحق هو الشىء الثابت ، ومادام ثابتا فهو لا يتغير ، وقضية الحق فيه تكون مطردة ، فالله حق ، خلق السماوات والأرض ، وكل الكون بالحق ، أنزل كتابه بالحق ، كله حق ، فهم يظنون بالله غير الحق مع أنه حق ، ونشأ الكون منه بقانون حق ، واستمرت سنن الله فى الكون بالحق ، وهو دائما ينصر الحق ، وهم يظنون بالله غير الحق ، يقولون : ربنا لم ينصرنا على الرغم من أنه وعدنا بالنصر ، وتناسوا العناصر التى جعلها الله أسبابًا للنصر ، إنها سُنّة الله وسُنّة الله تتحقق ولو على أحبابه ، لقد خالفوا أمر الرسول ، فلابد أن ينهزموا ، فلا مجاملة لأحد ، فالذى يخالف لابد أن يأخذ جزاءه ؛ لأن هذا هو الحق .

كان يجب أن يقولوا إن الحق واضح لدرجة أن أحبابه ومعهم رسوله حينما خالفوا

عن أمر الله الذى قاله الرسول صلى الله عليه وسلم طبق الله عليهم سُنته ، إذن فهى سنة بالحق ، لكنهم ظنوا بالله ظن الجاهلية ، والمقصود به إما ظن أهل الجاهلية ؛ وإمَّا أن تكون الجاهلية عَلَمًا على السَّفه كله ، وهذا الظن له نضح سلوكى .

« يقولون هل لنا من الأمر من شىء » أى هل انتصرنا أو ظفرنا أو غلبنا أو أخذنا غنائم ؟ أو يكون قولهم : « هل لنا من الأمر من شىء » مقصودا به : أننا خرجنا إلى المعركة بدون رأينا ؛ فقد كان من رأينا ألا نخرج وأن نظل فى المدينة وعندما يدخلونها علينا نحاربهم . « يقولون هل لنا من الأمر من شىء قل إن الأمر كله لله » هم لم يمتلكوا البصيرة الإيمانية ولم يعرفوا لماذا لم ينصرهم الله ، هم فهموا أنهم لم ينتصروا ؛ لكن فى عرف الحق أنه انتصار ؛ لماذا ؟ لأنَّ المعركة أثبتت أن المبدأ إن خولف فلا نصر ، إذن فالإسلام قد انتصر ، ولكن الذى انهزم هم المتخاذلون عن منهج الإسلام ، وهذا نصر للإسلام فى ذاته . ولذلك يجب أن نفرق دائما بين المبدأ الإسلامى و المنسوبين للمبدأ .

إياك أن تأخذ الحكم على المبدأ من المنسوبين للمبدأ ، فلا يكون المنسوبون للمبدأ حُجّة على الحكم فى ذاته إلا إذا كانوا ملتزمين به ؛ لأن الله حينما شرع ديناً سمّاه الإسلام ليحكم حركة الحياة فى الناس فهو قد قنّن وحرّم فيه أفعالاً ، ومادام قد قنن وحرم فيه أفعالاً فمعناه أن المؤمنين المسلمين الذين انتسبوا له من الممكن أن يخالفوا بأفعالهم تلك الأحكام ، فعندما يقرر الإسلام جلد أو رجم الزانى والزانية ، وحينما يشرع الإسلام قطع يد السارق أو السارقة ، وحين يشرع الإسلام تلك العقوبات للجرائم ، فمعنى ذلك أنه من الجائز أن تحدث تلك الجرائم ، فإذا ما حدثت فأنت لا تأخذها من واقع مُجْرِم لتحكم به على الإسلام ، لا تقل إن الإسلام أباح السرقة بل قل : سرق مسلم ووضع الإسلام عقوبة صارمة عليه وهى قطع يده .

« يُخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا » وهذه هى الفضيحة لهم ، فماذا كانوا يريدون أن يكون لهم ؟ كانوا يريدون ألا يخرجوا للمعركة فقالوا : لو كان لنا من الأمر شىء واتبعنا منطقنا ، لما جئنا الموقعة هنا وحصل لنا ما حصل ، هذه واحدة ، أو لو كان لنا شىء من الظفر الذى وعد الله به محمداً وأصحابه ما قتلنا ها هنا ، فعلى الرأيين يصح المعنى ، فكأنهم أرادوا أن

يعللوا القتل أو الموت بأسباب ، ومن الذى قال:إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب ؟ إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة ، وهى مجهولة السبب ومجهولة الزمان ومجهولة المكان ومجهولة العمر .

إذن فمادامت المسألة مجهولة فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً مات وليس فى موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتل وليس فى موقعة ؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا فى مواقع قتال وحرب لكان لكم أن تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة لها واقع فى حياتكم . هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط بسن ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتى لأنك تموت ، انتهت المسألة .

إذن فهم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة فهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية . ولذلك يأتى الرد من الحق بأمر واضح للرسول صلى الله عليه وسلم : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . فكأنك أيها الميت قد تكون أَحْرَص على لقاء الموت من حِرْص الموت عليك . بدليل أننا قلنا : إن الإنسان يكون مريضاً ، ويلح على أن تُجرى له عملية جراحية فيعتذر الطبيب قائلا : عندى عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فيأتى له المريض بوساطة لكى يقبل الطبيب إجراء العملية الجراحية ويلح عليه . ويعلى أجر الطبيب وقد يموت المريض . إذن فهو يلح على الموت أو لا ؟ إنه يلح على الموت .

يقول الحق : « قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » وكلمة « بَرَزَ » تدل على اندفاع حركى ، فمعنى : بَرزَ من الصّف؛ يعنى أن الصّف له التئام واقعى ، والذى يبرُز إنما يقوم بحركة مخالفة للصف ، هذه حركة .

« قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلى الله ما فى صدوركم وليُمحّص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » والذى يبرز إلى المضجع هو من يخرج من مكان الاستقرار ، وإلاّ فكيف يكون الابتلاء لمن يقدر الله سبحانه أن يحملوا معركة الإسلام إلى أن تقوم الساعة إذا لم تكن هذه المسائل ؟ لابد أن يكونوا قوماً قد عركتهم التجربة ، مُمحصين بالأحداث حتى لا يكون مأموناً على

حمل السلاح فى الإسلام إلا هؤلاء الصفوة المختارة .

فساعة يقول الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج ، وينتهى إلى أن يخرج إلى أُحُد ، نجد جماعة يتخاذلون بوساطة ابن أبى ، هذه أول تصفية ، وبعد ذلك ينقسم الرُّماة ، وهذه تصفية أخرى ، فريق يظل وفريق ينزل للغنائم ، وبعد ذلك يُشَاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قُتل ، هذه تصفية ثالثة .

« وليبتلى الله ما فى صدوركم وليمحص ما فى قلوبكم والله عليم بذات الصدور » وكلمة « ذات الصُدور » معناها صاحبة الصدور . وفى الصدر يحرص الإنسان على إخفاء الأمر الذى يجب أن يحتفظ به لنفسه بِحرْص كحرص الصاحب على صاحبه ، كأن الصدر حريص على ألا يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى يفضحهم أمام الناس ، ويفضحهم أمام نفوسهم ؛ فقد يجوز أن يكونوا مغشوشين فى نفوسهم .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ ﴾

وعندما نقرأ كلمة « اسْتَزَلَّهم » نعرف أن (الهمزة والسين والتاء) للطلب ، تطلب ما بعدها ، مثل : استفهم أى طلب الفهم ، استعلم يعنى طلب العلم ، استقوى يعنى طلب القوة ، و« اسْتَزَلّ » يعنى طلب الزّلل ، ومعنى « الزَّلَل » هو العثرة والهفوة ، أى أن الإنسان يقع فى الغلط ، إذن فالشيطان طلب أن يزلوا ، « ببعض ما كسبوا » ، كأن الشيطان لا يجترىء على أن يستزل أحداً ممن آمن إلا إذا صادف فيه

تحللاً فى ناحية ، لكن الذى ليس عنده تحلل لا يقوى عليه الشيطان ، ساعة يأتى الإنسان ويعطى لنفسه شهوة من الشهوات فالشيطان يرقمه ويضع عليه علامة ويقول : هذا ضعيف ، هذا نقدر أن نستزِلّه . لكن الذى يراه لا يطاوع نفسه فى شيء من التحلل لا يقترب ناحيته أبداً .

ولذلك فالنفس هى مطية الشيطان إلى الذنوب ، وفى الحديث الشريف : « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم »[1] وعندما يرى الشيطان واحدًا تغلبّه نفسه فى حاجة فالشيطان يقول : هذا فيه أمل ! وهو الذى يجرى منه مجرى الدم كما سبق فى الحديث ، أما الملتزم الذى ساعة تُحدثه نفسه بشيء ويأبى فالشيطان يخاف منه ، إذن فالشيطان لا يستزل إلا الضعيف ، ولذلك فالذى يكون ربه على ذِكْر منه دائماً لا يجترىء عَليه الشيطان أبداً .

إن الله ـ سبحانه ـ قد سمي الشيطان « الوسواسَ الخناس » ، إنه يوسوس للناس ، لكنه خنّاس فإذا ذُكِر اللَّهُ يخنِس ، أى يتأخر ويختفى ولكنّه ينفرد بك حين يراك مُنعزلاً عن ربك ، لكن حين تكون مع ربك فهو لا يقدر عليك بل يتوارى ويمتنع عن الوسوسة إذا استعذت عليه بالله .

إذن فقوله : « إنما استزلهم الشيطان » يعنى طلب منهم أن يزلوا نتيجة لأنه عرف أنهم فعلوا أشياء أَبْدَوْا وأظهروا فيها ضعفهم ، « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » . وكلمة « ببعض ما كسبوا » . . كأن قول الله « ولقد عفا الله عنهم » **أنّه لم يأخذهم بكل ما كسبوا ؛ لأن ربنا يعفو عن كثير . « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حليم »** .

« عفا الله عنهم » لماذا ؟ عفا عنهم تكريما لمبدأ الإسلام الذى دخلوا فيه بإخلاص ، ولكن نفوسهم ضعُفت فى شيء ، فيُعطيهم عقوبة فى هذه ولكنه يعفو عنهم فهذا هو حق الإسلام ، « إن الله غفور حليم » .

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود عن أنس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ ﴾

والضرب فى الأرض هو السعى واستنباط فضل الله فى الأرض وفى سبيله لإعلاء كلمته ، فالذين كفروا يرتبون الموت والقتل والعمليات التى يفارق الإنسان فيها الحياة على ماذا ؟ على أنه ضرب فى الأرض أو خرج ليقاتل فى سبيل الله ، وقالوا : لو لم يخرجوا ما حصل لهم هذا ! سنرد عليهم ، ونقول لهم : كأنكم لم تروا أبداً ميتاً فى فراشه . كأنكم لم تروا مقتولا يسقط عليه جدار ، أو يصول عليه جمل ، أو تصيبه طلقة طائشة ، هل كل من يموت أو يقتل يكون ضارباً فى الأرض لشىء أو خارجا للجهاد فى سبيل الله ؟!

إذن فهذا حُمق فى استقراء الواقع ، وجاء الحق بذلك ليعطينا صورة من حكمهم على الأشياء ، إنه حكم غير مبنى على قواعد استقرائية حقيقية . فإذا عرفنا أنهم كفروا نقول : هذه طبيعتهم ، لأننا نجد أن حكمهم ليس صحيحا فى الأشياء الواضحة ، ومادام حكمهم ليس صحيحاً أو حقيقياً فى الجزئيات التى تحدث ـ فإذا عرفتم أنهم كفروا فهذا كلام منطقى بالنسبة لهم ـ فشأنهم أنهم لا يتثبتون فى أحكامهم فلا عجب ـ إذن ـ أن كانوا كافرين .

« أو كانوا غُزًّى » ، وغُزى : جمع غازٍ ، مثل : صُوَّم وقُوَّم ؛ يعنى جمع : صائم

وقائم . « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » .
إذن فالله سبحانه وتعالى يصور لهم ما يقولونه ليعذبهم به ، كيف ؟ لأنهم عندما يقولون : لو كانوا عندنا لكنا منعناهم أن يخرجوا أو يُقتلوا ، إذن فنحن السبب .

وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلاهم أو موتاهم يعرفون أنهم أخطأوا ، وهذه حسرة فى قلوبهم ، ولو أنهم ردوها إلى الحق الأعلى لكان فى ذلك راحة لهم ولَما كانوا قد أدخلوا أنفسهم فى متاهة ، ويحدُث منهم هذا حتى نعرف غباءهم أيضاً ؛ فهم أغبياء فى كل حركاتهم وفى استقراء الأحداث الجزئية ، وأغبياء فى استخراج القضية الإيمانية الكلية ، أغبياء فى أنهم حشروا أنفسهم وأدخلوها فى مسألة ليست من شأنهم ، فأراد ربنا سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك حسرة عليهم .

« لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم » إن القضية الإيمانية هى « والله يُحيى ويُميت » أى هو الذى يَهَب الحياة وهو الذى يَهب الموت ، فلا الضرب فى الأرض ولا الخروج فى سبيل الله هو السبب فى الموت ، ولذلك يقول خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ : لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى موضع شبر إلا وفيه ضربةُ سيف أو طعنة رمح ، وهأنذا أموت على فراشى كما يموت العَيْر ـ أى حتف أنفه ـ فلا نامت أعين الجُبناء .

والشاعر يقول :

ألا أيهذا الزاجرى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مُخْلِدِى ؟

أى يا من تمنعنى أن أحضر الحرب هل تضمن لى الخلود ودوام البقاء إذا أحجمت عن القتال . ويكمل الشاعر قوله :

فإن كنت لا تستطيع دفع منيتى
فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

ويختم الحق الآية بقوله: « والله بما تعملون بصير » فكأنهم قد بلغوا من الغباء أنهم

لم يستتروا حتى فى المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من « عليم » ؛ لأن « عليم » تؤدى إلى أن نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياء ويسترون الأشياء ، ولكن علم الله هو الذى يفضحهم.لا ، هى صارت حركة واضحة بحيث تُبْصَر . فجاء قوله : « والله بما تعملون بصير » . ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

والذى يحرص على ألا يخوض المعركة مخافة أن يُقتل ، فما الذى يرجح عنده هذا العمل ؟ إنه يبتغى الخير بالحياة . ومادام يبتغى الخير بالحياة ، إذن فحركته فى الحياة فى وهمه ستأتيه بخير ، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلك الخير ، إنه لم يمتلك بصيرة إيمانية ، ونقول له : الخير فى حياتك على قدر حركتك : قوة وعلما وحكمة ، أما تمتعك حين تلتقى بالله شهيداً فعلى قدر ما عند الله من فضل ورحمة وهى عطاءات بلا حدود ، إذن فأنت ضيعت على نفسك الفرق بين قُدرتك وحِكمتك وعِلمك وحَركتك فى الكسب وبين ما يُنسب إلى الله فى كل ذلك ، ولذلك يقول الحق :

« وَلَئِن قُتِلتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّم لَمَغفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَحمَةٌ خَيرٌ مِّمَّا يَجمَعُونَ »

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

ولنا أن نلحظ أن قول الحق فى الآية الأولى جاء بتقديم القتل على الموت قال تعالى : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم » وجاء فى هذه الآية بتقديم الموت على القتل قال ـ جل شأنه ـ : « ولئن متم أو قتلتم » فقدم القتل على الموت فى الآية الأولى لأنها جاءت فى المقاتلين ، والغالب فى شأنهم أن من يلقى الله منهم ويفضى إلى ربه يكون بسبب القتل أكثر مما يكون بسبب الموت حتف أنفه ، أما هذه الآية فقد جاءت لبيان أن مصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله ـ تعالى ـ وأن أكثرهم تزهق نفسه وتخرج روحه من بدنه بسبب الموت ، فلذا قدم الموت هنا على القتل . إذن فكل كلمة وجملة جاءت مناسبة لموقعها . إنه قول الحكيم الخبير .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

إن الآية كما نرى تبدأ بكلام إخبارى هو « فبما رحمة من الله لنت لهم » . فكأنه ـ سبحانه ـ يريد أن يقول : إن طبيعتك يا محمد طبيعة تتناسب لما يطلب منك فى هذه المسألة ، هم خالفوك وهم لم يستجيبوا لك حينما قلت : إلىَّ عباد الله ، إلىَّ عباد الله إنى رسول الله ، وهذا شيء يُحفِظ ويُغضِب . ولكنه لا يُحفِظ طبيعتك ولا يُغضب سجيتك لأنك مفطور مع أمّتك على الرحمة . فكأنه يريد أن يُحنن رسول الله على أمته التى أصابته بالغم ؛ فقال له : إياك أن تجازيها على هذا ؛ لأن طبيعتك أنك رحيم ، وطبيعتك أنك لست فظاً ، طبيعتك أنك لست غليظ القلب ، فلا تخرج عن طبيعتك فى هذه المسألة ، مثلما تأتى لواحد مثلا وتقول له : أنت طبيعة أخلاقك حسنة ، يعنى اجعلها حسنة فى هذه .

« فبما رحمة من الله لنت لهم » أى بأى رحمة أودعت فيك . ساعة تقول : بأى رحمة فأنت تبهم الأمر ، وعندما تُبهم الشيء فكأنه شيء عظيم ؛ لأن الشيء يُبهم إما لأنه صغير جدا ، وإما لأنه كبير جدا ، فالشيء إذا كان كبيرا يكون فوق المستوى الإدراكى ، وإذا كان صغيرا جدا يكون دون مستوى الإدراك . ولذلك فالأشياء الضخمة جدا نرى منها جانبا ولا نرى الجانب الآخر ، والشيء الدقيق جدا لا نراه ، ولذلك يقولون : هذا الشيء نكرة ، وذلك يدل مرة على التعظيم ويدل مرة على التحقير ، ومرة يدل على التكثير ، ومرة يدل على التقليل . فإن نظرت إلى أن الإدراك لا يستوعبه لضخامته إذن فهو كثير ، وإن رأيت أن الإدراك لا يستوعبه لِلُطفِه ودِقَّته ، وأنه ليس فى متناول البصر يكون قليلا أو دقيقا .

إذن فقول الحق : « فبما رحمة » أصلها هو : برحمة من الله طُبعت عليها لِنْتَ لهم ، و« ما » لماذا جاءت هنا ؟ إنك إما أن تأخذها إبهامية . . يعنى بأى رحمة فوق مستوى الإدراك ، رحمة عظيمة . أو تقول : « فبما رحمة » أى أن « ما » تكون اسماً موصولا . وكأن الحق يقول له : فبالرحمة المُودعة من خالقك فيك والتى تُناسب مُهمتك فى الأمة لِنْتَ لهم ، ومادامت تلك طبيعتك فَلِنْ لهم فى هذا الأمر واعفُ عنهم واستغفر لهم .

وهذه الآية جاءت عقب أحداث حدثت فى أُحُد : الحدث الأول : أنه صلى الله عليه وسلم رأى ألا يخرج إلى قتال قريش خارج المدينة بل يظل فى المدينة ، فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتعويض عما فاتهم من شرف القتال فى « بدر » أن يخرج إليهم ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رأيهم ، ولبس لأمته ، فلما أحسوا أنهم أشاروا على رسول الله بما يخالف ما كان قد بدر منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول الله إن رأيت ألا نخرج ، فقال : « ما ينبغى لِنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » فمادام قد استعد للحرب انتهى الأمر ، هذه أول مسألة وهى مسألة المشورة .

وبعد ذلك تخلف ابن أُبَىّ بثُلثُ الجيش وهذه مسألة ثانية ، أما المسألة الثالثة فهى مُخالفة الرُّماة أمرَه صلى الله عليه وسلم وتَرْكهم مواقعهم على الرغم من أنه صلى الله

عليه وسلم قد حذرهم من ذلك وقال لعبدالله بن جبير الذى أمَّره على الرماة : « أنضح عنا الخيل بالنَّبل ، لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا فأثبت مكانك لا نؤتَيَن من قِبَلك »[1] ، ولكنهم خالفوا عن أمر رسول الله . والمسألة الرابعة هى : فِرارهم حينما قيل : قُتِل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسألة الخامسة : أنه حين كان يدعوهم ؛ فروا لا يلوون على شىء .

كل تلك أحداث كادت تترك فى نفسه صلى الله عليه وسلم آثاراً ، فكأن الله سبحانه وتعالى يقول : أنا طبعتك على رحمة تتسع لكل هذه الهفوات ، والرحمة منى ، ومادامت الرحمة موهوبة منى فلابد أنى جعلت فيك طاقة تتحمل كل مخالفة من أمتك ومن أتباعك . ولا تظن أنك قد أُرسلت إلى ملائكة ، إنما أُرسلت إلى بشر ، والبشر خطاءون ، البشر من الأغيار ، فلهذا اجعل المسألة درساً ، وأنا فطرتك على الرحمة ، وأنت بذاتك طلبت منى كثيراً من الخير لأمتك ، ومن رحمته أن جبريل نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فنادانى ملك الجبال فسلم على ثم قال : يا محمد إن الله قد بعثنى إليك وأنا ملك الجبال لتأمرنى بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا »[3] .

فأنا أطلب منك الرحمة التى أودعتُها فى قلبك فاستعملتها فى كل مجال ، وبهذه الرحمة لنت لهم ، وبهذه الرحمة التفُّوا حولك ، التفوا حولك لأدبك الجم ، ولتواضعك الوافر ، لجمال خلقك ، لبسمتك الحانية ، لنظرتك المواسية ، لتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أى واحد منهم يده فى يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو ، خُلُق عالٍ ، كل ذلك أنا أجعله حيثية لتتنازل عن كل تلك الهفوات ولْيَسَعها خُلقك وليسعها حلمك ، لأنك فى دور التربية والتأديب . والتربية والتأديب لا تقتضى أن تغضب لأى بادرة تبدر منهم ، وإلا ما كنت مُربيا ولا مُؤدبا .

---

(١) الدر المنثور للسيوطى حـ ٢ صـ ٦٨ . (٢) عند عودته من الطائف وقد آذاه أهلها .

(٣) رواه البخارى فى بدء الخلق ، ورواه مسلم فى الجهاد ، و[الأخشبان] جبلان فى مكة ، أبو قبيس والذى يقابله ويسمى قعيقعان أو هو الجبل الأحمر الذى يشرف عليه وسمى الجبلان بالأخشبين لصلابتهما وغلظ حجارتهما .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » لماذا ؟ لأنك تُخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية . والذى يخرج واحدا عما أَلِف لا يصح أن يَجْمَعَ عليه إخراجه عما اعتاد بالأُسلوب الخشن الفظ ؛ لأنه فى حاجة إلى التودد وإلى الرحمة ، لا تجمع عليه بين أمرين تقبيح فعله ، وإخراجه عما ألف واعتاد ، ولذلك يقولون للذى ينصح إنسانا ، النصح ثقيل ؛ لأن النصح معناه تجريم الفعل فى المنصوح ؛ فعندما تقول لواحد : لا تفعل هذا ، ما معناها ؟ معناها أن هذا الفعل سيىء ، فمادمت تُجرِّم فعله فلا تجمع عليه أمرين : إنك قبحت فِعْله وأخرجته مما أَلِف ، وبعد ذلك تنصحه بما يكره.لا ، إنه فى حاجة إلى ملاطفة وملاينة لتستل منه الخصال القبيحة ، نحن نستعمل ذلك فى ذوات أنفسنا حين نجد مرضا يحتاج إلى علاج مر ، فنغلف العلاج المر فى غلاف من السكر بحيث يمر من منطقة الذوق بلا ألم أو نغص ، حتى ينزل فى المنطقة التى لا تحس بهذه المرارة ؛ لأن الإحساس كله فى الفم .

فإذا كنتم تفعلون ذلك فى الأمور المادية ، فلابد إذن أن نطبق ذلك أيضا فى الأمور المعنوية ، ولأن النُصح ثقيل فلا تجعله جدلا ولا ترسله جبلا ، وخِفة البيان تؤدى عنك بدون إثارة أو استثارة ، وبلطف يحمل على التقبل . .

بهذا تصل إلى ما تريد ، ومثال ذلك حكاية الملك الذى رأى فى منامه أن أسنانه كلها وقعت ، فجاء للمعبر ليعبر ، فقال له : أهلك جميعا يموتون ، التعبير لم يُسر منه الملك ، فذهب لواحد آخر فقال له : ستكون أطول أهل بيتك عمرا ، إنه التعبير نفسه ، فمادام أطول أهل بيته عمرا ، إذن فسيموتون قبله ، هى هى ، ولذلك قالوا : الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » إذن فبالرحمة لِنت لهم وبلين القول تبعوك وألفوك وأحبوك . و« الفظُّ » هو : ماء الكرش ، والإبل عندما تجد ماءً فهى تشرب ما يكفيها مدة طويلة ، ثم بعد ذلك عندما لا تجد ماء فهى تجتر من الماء المخزون فى كرشها وتشرب منه ، فى موقعة من المواقع لم يجدوا ماء فذبحوا الإبل وأخذوا الماء من كرشها ، الماء من كرش الإبل يكون غير مستساغ الطعم ، هذا معنى « الفَظّ » ، ونظرا لأن هذا يورث غضاضة فسموا : « خشونة القول » فظاظة ، والغلظ فى القلب هو ما ينشأ عنه الخشونة فى الألفاظ .

« ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك » . إنها رحمة طُبِعت عليها يا رسول الله من الحق الذى أرسلك . وبالرحمة لِنت لهم وظهر أثر ذلك فى إقبالهم عليك وحُبهم لك ؛ لأنك لو كنت على نقيض ذلك لما وجدت أحداً حولك . إذن فالسوابق تثبت أن هذه هى طباعك ، وخلقك ، هو الرحمة واللين .

وبعد ذلك اعفُ عنهم ، وقلنا : إن « العفو » هو : مَحْو الذنب محوا تامًا وهو يختلف عن كظم الغيظ ؛ لأن كظم الغيظ يعنى أن تكون المسألة موجودة فى نفسك أيضا إلا أنك لا تُعاقب عليها ؛ لأنك كففت جوارحك وصنت لسانك ، أما المسألة فمازالت فى نفسك ، لكن العفو هو أن تمحو المسألة كلها نهائيا ، وتأكيدا لذلك العفو فأنت قد تقول : أنا من ناحيتى عفوت . لا . المسألة لا تتعلق بك وحدك ، لأنك رسول من الله ، أنت وراءك إله يغار عليك ، فلا يكفى أن تعفو عنهم . بل لابد أن تستغفر الله لهم أيضا ، فمن الممكن أن يعفو صاحب الذنب ، ولكن ربى ورب صاحب الذنب لا يعفو ، فيوضح الحق : أنت عفوت فهذا من عندك ؛ لكنه يطلب منك ان تستغفر لأجلهم . كى لا يعذبهم الله عما بدر منهم نحوك .

« فاعفُ عنهم » هذه خاصة بالرسول صلى الله عليه وسلم . . « واستغفر لهم » بسبب ما فعلوه ، وترتب عليه ما ترتب من هزيمتكم فى « أُحُد » ، وشجك وجرحك ، ولا تقل : استشرتهم وطاوعتهم فى المشورة ، وبعد ذلك حدث ما حدث ، فتكره أن تشاورهم ، لا تقفل هذا الباب برغم ما حدث نتيجة تلك المشورة وأنها لم تكن فى صالح المعركة ، فالعبرة فى هذه المشقة هى أن تكون « أُحُد » معركة التأديب ، ومعركة التهذيب ، ومعركة التمحيص ، إذن فلا تُرتِّب عليها أن تكره المشورة ، بل عليك أن تشاورهم دائما ، فمادام العفو قد رضيت به نفسك ، ومادمت تستغفر لهم ربك ، واستغفارك ربك قد تستغفره بعيدا عنهم ، وعندما تشاورهم فى أى أمر من بعد ذلك فكأن المسألة الأولى انتهت ، ومادامت المسألة الأولى قد انتهت ، فقد استأنفنا صفحة جديدة ، وأخذنا الدرس والعظة التى ستنفعنا فى أشياء كثيرة بعد ذلك .

ولذلك تجد بعد هذه المعركة أن الأمور سارت سيرها المنتصر دائما ؛ لأن التجربة

والتعليم والتدريب قد أثر وأثمر ، لدرجة أن سيدنا أبا بكر ـ رضى الله عنه ـ عندما جاءت حروب الردة ، ماذا صنع ؟ شاور أصحابه ، فقال له بعضهم : لا تفعل . فهل سمع مشورتهم ؟ لا.لم يسمع مشورتهم ، إنما شاورهم . فلإنفاد المشورة حُكم ، ولرد المشورة حكْم ، المهم أن تحدث المشورة ؛ ونعمل بأفضل الآراء فالمشورة : تلقيح الرأى بآراء متعددة ، ولذلك يقول الشاعر :

شاور سواك إذا نابتك نائبة
يوما وإن كنت من أهل المشورات

لقد اهتدى الشاعر إلى كيفية تقريب المعنى لنا ، فعلى الرغم من أن الإنسان قد يكون من أهل المشورة والناس تأخذ برأيه ، فعليه أن يسأل الناس الرأى والمشورة ، لماذا ؟ هاهوذا الشاعر يكمل النصيحة :

فالعين تنظر منها مادنا ونأى
ولا ترى نفسها إلا بمرآة

إن العين ترى الشىء القريب والشىء البعيد ، لكن هذه العين نفسها تعجز عن رؤية نفسها إلا بمرآة ، وكذلك شأن المسألة الخاصة بغيرك والتى تعرض عليك ، إن عقلك ينظر فيها باستواء ودون انفعال ؛ لأنه لاهوى لك ، والحق هو الذى يجذبك . لكن مسائلك الخاصة قد يدخل فيها هواك ويُحليها لك ويُحسنها .

إذن فالمشورة فى أُحد كانت نتيجتها كما علمتم ، وكأن الله يقول لرسوله : إياك أن تأخذ من سابقة المشورة أن المشورة لا تنفع ، فتقاطعهم ولا تشاورهم ؛ لأنك لن تظل حيا فيهم ، وسيأتى وقت يحكمهم بشر مثلهم ، ومادام يحكمهم بشر مثلهم فلا تحرمه أن يأخذ آراء غيره ، وعندما يأخذ الآراء وتكون أمامه آراء متعددة فهو يستطيع أن يتوصل إلى الحكم الصحيح بحكم الولاية وبحكم أنه الإمام ، ويستطيع أن يفاضل ويقول : هذه كذا وهذه كذا ، إلا أن يُفوض غيره .

« وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » وقد عزم رسول الله أيضا على

الحرب ولبس لأمته ، أكان يلبس اللأمة - وهى عُدة الحرب - وبعد ذلك يقولون له : لا تخرج فيدعها ؟ لا ؛ فالمسألة لا تحتمل التردد . « فإذا عزمت فتوكل على الله » وهذه فائدة الإيمان ، وفائدة الإيمان : أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، معادلة جميلة ! الجوارح تقول : نزرع ، نحرث ، نأتى بالبذر الجيد ، نروى ، نضع سمادًا ونفترض أن الصقيع قد يأتى ونخشى على النبات منه فنأتى بقش ونحوه ونُغطيه ، كل هذه عمل الجوارح . وبعد ذلك القلوب تتوكل .

فإياك أن تقول : المحصول آتٍ آتٍ لأننى أحسنت أسبابى ، لا . لأن فوق الأسباب مُسَبِّبها . فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، هذه فائدة الإيمان لأننى مؤمن بإله له طلاقة القدرة ، يخلق بأسباب ويخلق بغير أسباب . الأسباب لك يا بشر ، أما الذى فوق الأسباب فهو لله ، فأنت حين تعمل أخذت بالأسباب ، وحين تتوكل ضمنت المسبب وهو الله - سبحانه - .

إذن فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل . إياك أن تظن أن التوكل يعنى أن تترك الجوارح بلا عمل ، لا ، فهذا هو التواكل أو الكسل ، إنه التوكل الكاذب ، والدليل على كذب من يقول ذلك أنه يجب أن يتوكل فيما فيه مشقة ، والسهل لا يتوكل فيه ، ونقول للرجل الذى يدعى أنه يتوكل ولا يعمل : أنت لست متوكلا ، ولو كنت صادقا فى التوكل إياك أن تمد يدك إلى لقمة وتضعها فى فمك . كن متوكلا كما تدعى ، ودع التوكل يضع لك اللقمة فى فمك واترك التوكل ليمضغها لك !

وطبعا لن يفعل ذلك ، ولهذا نقول له أيضا : إن ادعاءك التوكل هو بلادة حس إيمانى وليس توكلا .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » و« عزمت » تقتضى عزيمة ، والتوكل يقتضى إظهار عجز ، فمعنى أنى أتوكل على الله أنى استنفدت أسبابى ، ولذلك أرجع إلى من عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التوكل المطلق .

وفى حياتنا اليومية نسمع من يقول : أنا وكلت فلانا ، أى أننى لا أقدر على هذا الأمر فوكلت فلانا . ومعنى توكيله لفلان أنه قد أظهر عجزه عن هذا الأمر . ولهذا ذهب إلى غير عاجز . كذلك التوكل الإيمانى ، فالتوكل معناه : تسليمك زمام أمورك إلى الحق ثقة بحسن تدبيره ، ومن تدبيره أن أعطاك الأسباب فلا ترد يد الله الممدودة بالأسباب ثم تقول له اعمل لى يارب ؛ لأننا قلنا فى سورة الفاتحة:إن الإنسان يدعو قائلا :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

(سورة الفاتحة)

ومعنى « نستعين » أى نطلب منك المعونة التى نتقن بها العمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١٦٠ ﴾

الحق يقول هنا : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، المؤمنون بمن ؟ بالله . وماداموا مؤمنين به فمن إيمانهم به أنه إله قادر حكيم عالم بالمصلحة ، ولا يوجد أحسن من أنك توكله .

وعندما نقرأ « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فقد نسأل : وما هو المقابل ؟ المقابل هو « وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » . إذن فأنت دخلت بالأسباب التى قالها الحق سبحانه وتعالى مُؤتمرا بأمر القيادة السماوية التى مُثلت فى الرسول المبلغ عن الله ، وقد أخذت عُدتك على قدر استطاعتك ، إياك أن تقارن

عَدَدَك بعدد خصمك أو تقارن عُدتك بعُدة خصمك ؛ فالله لا يكلفك أن تقابل العدد بالعدد ولا العُدة بالعُدة ، وإنما قال : أنت تُعد ما استطعته ، لماذا ؟ لأن الله يريد أن يصحب ركب الإيمان معونة المؤمن به ؛ لأنه لو كانت المسائل قدر بعضها ، لكانت قوة لقوة . لكن الله يريد أن يكون العدد قليلاً وتكون العُدة أقل وأن نعترف ونقول : هذا ما قدرنا عليه يارب . ومادام هو الذى قدرنا عليه ، فتكون هذه هى الأسباب التى مكنتَنا منها ، ونثق بأنك يارب ستضع مع العدد القليل مدداً من عندك ، فأنت المعين الأعلى ، فسبحانك القائل :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة محمد)

والحق هنا يقول : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فأنت تضمن نصر الله لك إن كنت قد دخلت على أن تنصره .

كيف نعرف أننا ننصر الله ؟ نعرف ذلك عندما تأتى النتيجة بنصرنا ، لأنه سبحانه لا يعطى قضية فى الكون وبعد ذلك يأتى بالواقع ليكذبها ، وإلا فالمسلمون يكونون قد انخدعوا ـ معاذ الله ـ لأنه لو جاء الدين بقضية ثم يأتى الواقع ليكذبها ، فلابد أن يقولوا : إن الواقع كذب تلك القضية . لكن الحق قال : « إن تنصروا الله ينصركم » ويجىء الواقع مؤكدا لهذه القضية ، عندئذ نحن لا نصدق فى هذه القضية فقط ، بل نصدق كل ما غاب عنا ، فعندما تظهر جزئية ماديَّة واقعة محسوسة لتثبت لى صدق القرآن فى قضية ؛ فأنا لا أكتفى بهذه القضية ، بل أقول : وكل ما لا أعلمه داخل فى إطار هذه القضية .

ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى ترك بعض أسراره فى كونه ، وهذه الأسرار التى تركها فى كونه هى أسرار لا تؤدى ضرورات ؛ إن عرفناها فنحن ننتفع بها قليلا فى الكماليات ، ويترك الحق بعض الأسرار فى الكون إلى العقول لتستنبطها ، فالشىء الذى كان العقل يقف فيه قديما يصبح باكتشاف أسرار الله مقبولا ومعقولا ، كأن الشىء الذى وقف فيه العقل سابقا أثبتت الأيام أنه حق ، إذن فما لا يُعرف من الأشياء يُؤخذ بهذه القضية أو بما أُخِذَ من الغير .

يقولون - مثلا - اكتشف الميكروب على يد « باستير » ، لكن ألم يكن الميكروب موجودا قبل « باستير » ؟ كان الميكروب موجودا ، ولم يكن أحد يراه ؛ لأن الشيء إذا دق ولطف لا نقدر أن ندركه ؛ فليس عندنا الآلة التى تدركه ، ولم نكن قد اخترعنا المجهر الذى يكبِّر الأشياء الدقيقة آلاف المرات . وكذلك اخترع الناس التلسكوب ، فبعد أن كان الشيء لا يرى لبعده ، أصبح يرى بوساطة التلسكوب ، وإن كان الشيء ضئيلا جدا ولا نراه . فقد استطعنا أن نراه بوساطة المجهر المسمى « الميكروسكوب » .

و« التلسكوب » يقرب البعيد و« الميكروسكوب » يكبر الصغير فنرى له حركة وحياة ، ونجد له مجالا يسبح فيه ، وهذا جعلني إذا حدثنى القرآن أن لله خلقا غاب عن الحس لا يدرك من جن وملائكة ، فلا أكذب ذلك ، لأن هناك أشياء كانت موجودة ولم تدخل تحت حسى ولا إدراكى مع أنها من مادتى ، فإذا كانت الأشياء الأخرى من مادة أخرى مثل الملائكة من نور ، أو الجن من النار ، ويقول لى سبحانه إنهم مخلوقون وموجودون فأنا لا أكذب ما جاء عن الحق ؛ لأن هناك أشياء من جنسى كانت موجودة ولم أستطع أن أراها .

إذن فهذه قربت لى المسألة ، فعندما يقول الحق : « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فنحن نعرف أن نصر الله مترتب على أن تدخل المعركة وأنت تريد أن تنصر الله ، وتنصره بماذا ؟ بأنك تحقق كلمته وتجعلها هى العليا ، وليس هذا فقط هو المطلوب ، بل لتجعل - أيضا - كلمة الذين كفروا السفلى .

« وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » إنه فى ظاهر الأمر يكون معنا ، لكننا نشعر أنه تخلى عنا ، لماذا ؟ لأننا نترك بعضا من تعاليم الله ، إذن فهو فى المظهر العام معكم كمسلمين ، ومن معيته لكم أن يؤدبكم على المخالفة فيخذلكم عندما تخالفون عن أمره .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وفى الآية السابقة قال سبحانه : « إن الله يحب المتوكلين » ، والذى لا يتوكل على الله عليه أن يراجع إيمانه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾

ما معنى « يغُل » ؟ أولا : « الغلول » هو الأخذ فى الخفاء . وهو مأخوذ من « أغل الجازر » ـ أى الجزار ـ أى عندما يسلخ الجلد يأخذ بعض اللحم مع الجلد ، ثم يطوى الجلد مخفيا ما أخذه من اللحم ، هذا هو الأصل ، وأطلق شرعا على الخيانة فى الغنائم ، ففى هول المعارك قد يجد المقاتل شيئا ثمينا فيأخذ هذا الشىء خفية ، وهذا اسمه « الغلول » ، وأيضا كلمة « الغِل فى الصدور » أى إخفاء الكراهية ، وكل المادة إخفاء .

والحق يقول : « وما كان لنبى أن يَغُل » لماذا ؟ لأن من الجائز أن الرماة ـ فى غزوة أحد ـ ساعة رأوا الغنائم أقبلوا عليها ؛ لأن غنائم بدر لم تكن قد قسمت بين كل من اشتركوا فى القتال ، فالذى كان يعثر على غنيمة كان يأخذها ، وكانت بدر أول معركة ، وكان الهدف من ذلك تشجيع المقاتلين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : قد قال : « من قتل قتيلا فله سلبه » .

وظن المقاتلون فى أُحد أن المسألة ستكون مثل بدر ، وظن البعض أن الرسول لن يعطيهم غنائم ، فيوضح الحق سبحانه وتعالى : بأن هذه مسألة وتلك مسألة أخرى ، فمن يفعل مثل هذا يكون قد غَل . وساعة تسمع : « وما كان لنبى أن يَغُل » أى أن من طبعه صلى الله عليه وسلم ومن فطرته وسجيته ألّا يتأتى ذلك منه أبدا ، لكن من الجائز أن يحدث مثل ذلك من واحد من أمته ، إذن فهناك فرق بين امتناع

المؤمن أن يكون غالاً ، أى يأخذ لنفسه شيئا من الغنيمة ، وامتناع الرسول أن يكون غالاً ، لأن طبعه وسجيّته لا تستقيم مع هذه ، لكن الأمر يختلف مع المقاتلين ؛ فمن الممكن أن يكون أحدهم كذلك ، فسيدنا عمر فى معركة الفرس ، حينما جاء جماعة بتاج كسرى ، والتاج فيه كل النفائس وتلك سمة عظمة الملوك ، فقال الفاروق عمر : إن قوما أدوا إلى أميرهم هذا لأمناء . فقد كان من الممكن أنهم يخفونه .

« وما كان لنبى أن يغُل » وساعة تسمع « وما كان » أى : وما ينبغى ولا يصح أن يكون ذلك الأمر ، وبعد ذلك يأتى بالحكم العام فيمكن أن يحدث غلول من أحَدٍ فيقول : « ومن يغلل يأت بما غَل يوم القيامة » فالذى غل فى حاجة وخان فيها يأتى بها يوم القيامة كما صورها الرسول صلى الله عليه وسلم :

« والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حلّه إلا لقى الله يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحدًا منكم لقى الله يحمل بعيرا له رُغاء أو بقرة لها خُوار ، أو شاة تَيعَر ، ثم رفع يديه حتى رُئِىَ بياض إبطيه يقول :اللهم قد بلغت »[1] .

إن من يأخذ حراما فى خفية يأتى يوم القيامة وهو يحمل البعير أو البقرة أو الشاة مثلا . وآه لو كان ما أخذه حمارا فله نهيق !!

فإذا كان سيأتى بما غَل يوم القيامة ـ فالذى أخذه سيفضحه ـ ولذلك تسمى « الفاضحة » ، و« الطامة » . إذن فمن الممكن فى الدنيا أن يأخذها خفية ويغُل . لكنه سيأتى فى يوم القيامة وهو يحمل ما أخذه على ظهره ، ثم يقول مناديا رسول الله : يا محمد . . يا محمد ، لأن كل مسلم قد علم واطمأن إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رءوف ورحيم وأنه لن يرضى بهذه الحكاية ، لكن رسول الله أبلغ عن عقاب من يفعل ذلك فى حياته ، وعلى كل المؤمنين به ألا يفكروا فى الغلول وأخذ الغنيمة خفية .

ولماذا تكون الغنيمة فى الحرب شرا ؟ لأن المقاتل يعيش أثناء القتال فى مهمة أن

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، و(رُغاء) بضم الراء صوت البعير ، و(خُوار) بضم الخاء صوت البقرة ، و(تَيْعَر) : تصيح واليُعار : صوت الغنم .

تكون كلمة الله هى العليا فكيف يرضى لنفسه بهذه المهانة وهى إخفاء الغنيمة ؟ إنه يحارب من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا ، ويجب أن يكون فى مستوى ذلك .

وبعد ذلك يأتى الحق بالقضية العامة : « ثم توفى كل نفس ما كسبت » ، وهى تشمل الغلول فى الغنيمة والغلول فى غير الغنيمة ، ولنتصور هذه بالنسبة لكل من يخون أمانة أؤتمن عليها ، وأنه سيأتى يوم القيامة يحمل عمارة ـ مثلا ـ لأنه بناها بغير أمانة أو يحمل أطنانا من سمك لأنه سرقها ، أو يحمل أطنانا من الجبن الفاسد التى استوردها . فكل من سرق شيئا سيأتى يوم القيامة وهو يحمله ، وإذا كنا نشهد أن الناس لا تطيق أن تفضح بين الخلق ، والخلق محدودون لأنهم المعاصرون ، فما بالك بالفضيحة التى ستكون لعموم الخلق من أول آدم إلى أن تقوم الساعة . إذن فعلى كل إنسان أن يحرس نفسه لأن المسألة ستنفضح .

« ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » ومادام سبحانه سيوفى كل نفس ما كسبت فكل سيأخذ قدر ما فعل ، فلا ظلم ، فلو ترك الأمر بلا حساب لكان هذا هو الظلم وحاشا لله أن يظلم أحدا . وبعد تلك التهيئة والإيضاح يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح بعض القضايا طرح الاستفهام ، فهو يطرحها لا ليعلم هو فهو عالم ، ولكن ليستنطق السامع ، ونطق السامع حجة فوق خبر المخبر ، فلو قال : إن الذى يتبع رضوان الله لا يساوى من ذهب إلى سخط الله لكان ذلك إخبارا منه وهو صادق فيما يقول ، لكنه سبحانه يريد أن يستنطق عباده بالقضية ، « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء » ، « باء » أى : رجع « بسخط من الله » .

لاشك أن كل من يسمع عن الفارق بين اتباع الرضوان ، أو الرجوع بالسخط يقول : إن اتباع الرضوان يرفع درجة الإنسان ، والذى يبوء بالسخط يهبط إلى درك الخسران ، فالقضية قالها السامع .. فكأن الحق يستنطقنا بالقضية لتكون حجة علينا ، والذى يتبع رضوان الله بالطاعة ، أيساويه من يرجع إلى سخط الله بالمعصية ؟!

أفمن يتبع رضوان الله فلا يغُل فى الغنيمة ولا يختان فى الأمانة كمن غل فى الغنيمة وخان فى الأمانة ؟

أفمن اتبع رضوان الله بأن استمع لأوامر الله حين استنفره لجهاد العدو ، كمن لم يذهب لنداء الله ليكون فى جند الله مقاتلا لعدو الله ، لا ؛ فالذى لا يستجيب لنداء الله هو من يبوء بسخط الله .

و« السخط » هو : إظهار التقبيح ، لكن إظهار التقبيح قد لا يؤثر فى أناس غليظى الإحساس ، لا تنفع فيهم اللعنة أو الشتائم ؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم : « ومأواه جهنم وبئس المصير » و« مأواه » أى المكان الذى يأوى ويرجع إليه هو جهنم وبئس المصير . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾

« هم درجات » أى ينزلون فى الآخرة منازل على قدر أعمالهم ، فكما ترى الدرجات موصلة إلى المراقى العالية كذلك فى الآخرة كل إنسان محاسب بعمله ، ويأخذ عليه درجة ، ولنا أن نلحظ أن الحق يستخدم كلمة « درجات » بالنسبة للجنة ؛ لأن فيها منازل ورتبا ، أما فيما يتعلق بالنار ، فيأتى لفظ « دركات » ،

فالدركة تنزل ، والدرجة ترفع .

« هم درجات عند الله » فالله هو العادل الذى ينظر لخلقه جميعا على أنهم خلقه ، فلا يعادى أحدا ، إنه يحكم القضية فى هذه المسألة سواء أكانت لهم أم كانت عليهم ، وبعد ذلك يردفها ـ سبحانه بقوله : « والله بصير بما يعملون » ليطمئن هؤلاء على أن الله بصير بما يعملون فلن يضيع عنده عمل حسن ، ولن تهدر عنده سيئة بدرت منهم . « والله بصير بما يعملون » . ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يفعل » وكلمة « يقول » ، والعمل أهم الأحداث ، لأن العمل هو تعلق الجارحة بما نيطت به ، فالقلب جارحة عملها النية ، واللسان جارحة عملها القول ، والأذن جارحة وعملها الاستماع ، والعين جارحة وعملها أن تنظر . إذن فكل جارحة من الجوارح لها حدث تُنشِئه لتؤدى مهمتها فى الكائن الإنسانى ، إذن فكل أداءِ مُهِمّة من جارحة يقال له : « عمل » .

لكن « الفعل » هو تعلق كل جارحة غير اللسان بالحدث ، أما تعلق اللسان فيكون قولا ومقابله فعل ، إذن ففيه قول وفيه فعل وكلاهما « عمل » إذن فالعمل يشمل ويضم القول والفعل معا ؛ لأن العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها ، لكن الفعل هو : شغل جارحة غير اللسان بالعمل المطلوب منها ، وشغل اللسان بمهمته يسمى : قولا ولا يسمى فعلًا ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيرا ، لكن أن يحمل نفسه على أن يعمل ما يتكلمه فهذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله الفعل ، والكل عمل « والله بصير بما يعملون » قولا أو فعلًا وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾

والذى يمن على الآخر هو الذى يعطيه عطية يحتاج إليها هذا الآخذ ، فكأن الحق يقول : وهل أنا فى حاجة إلى إيمانكم ؟ فى حاجة إلى إسلامكم ؟ أصفة من صفاتى معطلة حتى تأتوا أنتم لتكملوها لى ؟ لا ، إذن فحين أبعث لكم رسولا رحيما بكم ، فالمنة تكون لى وحدى .

« لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » .

أكان يبعثه مَلَكا ؟ لا . بل بعثه من البشرية ؛ كى تكون الأسوة فيه معقولة . فعندما يقول لكل مسلم افعل مثلى ، فالمسلم عليه أن يطبق ما يأمره به الرسول ، لكن لو كان مَلَكا أكانت تنفع فيه الأسوة ؟ لا ، فقد يقول لك : افعل مثلى ، فتقول له : لا أقدر لأنك مَلَك ، ومن يدعى الألوهية لرسول ، فهو ينفى عنه الأسوة ؛ لأنه عندما يقول : كن مثلى ، يمكنك أن تقول : وهل نقدر ؟ أنت طبيعتك مختلفة ، فهل نصل لذلك ؟! لا نقدر ، ولذلك فالذين يقولون بألوهية رسول ، إنما يفقدون الأسوة فيه ، والمفهوم فى الرسول أن يكون أسوة سلوكية ، وأن يكون مبلغا عن الله منهجه ، وأن يعلن بشريته ويقول : أنا بشر وأستطيع أن أمثل وأطبق المنهج . إذن فهو أسوة سلوكية تطبيقية .

والرسول مبعوث للكل ، فلماذا كانت المنة على من آمن فقط !؟ لأنه هو الذى انتفع بهذه الحكاية ، لكنَّ الباقين أهدروا حقهم فى الأسوة ولذلك تكون المنة على من آمن .

« لقد من الله على المؤمنين » وما هى المنة ؟ المن : الأصل فيه أنه القطع ، لكن حين نسمعها نجدها تستعمل فى أشياء متقابلة ، فمثلا : المن هو العطاء بلا مقابل ، والمن هو : تكدير النعمة بالتحدث بها ، مثل قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إذن فالمن الذى نحن بصدده هو العطاء بلا مقابل ، ولكن المن قد استعمل فى تكدير النعمة بكثرة الكلام فيها ، فقد يقول الإنسان لمن يمن عليه : لا أريد النعمة التى تتكلم عنها دائما ، إذن فالمن استعمل فى النعمة وفى تكدير النعمة ، **تقول:** مَنَّ على فلان إذ أنقذنى من ضيق كنت فيه ، ويقال : فلان ليس فيه مُنة ، أى ليس فيه قوة ، وكلها تدور فى معنى القطع ، فإذا استعمل فى النعمة والعطاء نقول : نعم فيها قطع ؛ لأن النعمة جاءت لتقطع الحاجة ، ففيه حاجة ثم جاء عطاء ، والعطاء قطع الحاجة . فاستعملت فى معناها .

فإذا جاءت نعمة بعد حاجة والحاجة انقطعت بالنعمة فلا بد أن تأتى بفعل بعدها وهو أن تشكر من أنعم عليك ، وخصوصا أنه الله ، فالمن يقطع الشكر لأنك إن مننت بالنعمة وأظهرت تفضلك بها على من أسديتها إليه فقد تسببت فى أن الآخذ لا يشكرك بل إنه يتضايق من نعمتك وقد يردّها عليك . فإذن : هنا قطع للشكر ، فإن قطعت حاجة محتاج فهذا يسمى « نعمة » وإن فخرت بنعمتك عليه حتى كدرتها فقد قطعت ومنعت شكره لك،وهذا يسمى « مَنًّا » أى أذى لأنه يؤذى مشاعر وإحساس الآخذ . وإن قطعت مطلقا اختصت باسم « المُنّة » ، يقولون : فلان لا مُنة فيه أى لا قوة عنده تقطع فى الأمور ، وهنا يقول : « لقد من الله على المؤمنين » و« مَنَّ » هنا بمعنى أعطى نعمة ، والنعمة فى الدنيا تعطيك على قدر دنياك ، و« منة » الله برسوله صلى الله عليه وسلم تعطينى عطاء على قدر الدنيا وعلى امتداد الآخرة ، فتكون هذه منة كبيرة .

« لقد من الله على المؤمنين إذ » ، و« إذ » يعنى ساعة أى حين بعث فيهم رسولا

منهم فقد عمل فيهم منة وقدم لهم ومنحهم جميلا كبيرا وأنعم عليهم نعمة ، « إذ بعث فيهم رسولا » . فإذا كان مطلق بعث رسول كى يهدى الناس إلى منهج الله يكون نعمة فماذا إذا كان الرسول من أنفسهم ؟ إن هذه تكون نعمة أخرى لأنه مادام من أنفسهم ومن رهطهم ومن جماعتهم ، هو معروف نسبًا وحسبًا ومعروف أمانة ، فلا يخون ، ومعروف صِدْقًا فلا يكذب ، كل هذه « مِنة » ولم يتعب أحدًا فى أن يبحث وراءه : أكذب قبل ذلك حتى نعتبر ذلك كذبا ؟ أخان قبل ذلك حتى نعتبر ذلك خيانة ؟ لا ، هل هو من الناس المدَّعين الذين يريدون أن يقيموا ضوضاء من حولهم ؟ لا . بل هو فى الحسب والنسب معروف ، جده عبدالمطلب سيد البطحاء ولا يوجد واحد من أهله تافها .

وعرف الجميع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانة منذ صغره ، إذن فالمقدمات تجعل الناس لا تجهد نفسها فى أن تتحرى عنه أصادق هو أم غير صادق ؟ إذن فهو مِنّة ، ولذلك حينما بعث الله سيد الخلق إلى الخلق ؛ كان هناك أناس بمجرد أن قال لهم : إنى رسول الله ، آمنوا به ، لم يقدم معجزة ولم يقولوا له : ماذا ستقول أو ماذا تعمل ؟ بل بمجرد أن قال : إنه رسول الله صدقوه ، فعلى أى حيثية استندوا فى التصديق ؟ لقد استندوا على الماضى .

لقبتمـوه أمـين القـوم فى صغـر
وما الأمـين عـلى قـول بمُـتـهـم

ها هو ذا سيدنا أبو بكر رضى الله عنه يقول : إن كان قد قال فقد صدق - إذن فالمقدمات التى يعرفونها عنه كانت هى الحجة فى تصديق الرسول ، وخديجة - رضى الله عنها - عندما آمنت به ، أقال لها المعجزات والقرآن ؟ لا . بل بمجرد أن قال لها : أنا رسول الله . قالت له : صدقت فلابد أن تكون رسولا ، هو نفسه كان يتشكك وهى مؤمنة به ، هو نفسه يتساءل : لعل ذلك يكون كذا ، وذهبت به خديجة - رضى الله عنها - إلى ورقة بن نوفل لتطمئنه على الرغم من أنها كانت قد توصلت إلى الحكم فى القضية التى سألت عنها ورقة بن نوفل وأوضحت لرسول الله أنّ ما تقوله لا يمكن أن يوقعك فى بلية أو خزى أو ذِلّة ؛ لأن صفاتك جاءت كمقدمات لهذه النتيجة ، وهى أنك رسول كريم « إنك لتحمل الكلّ وتكسب المعدوم وتعين على نوائب

الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً »[1] ، إنسان بهذه الصفات لا يمكن أن يأتيه شيطان ، وتعال نذهب معا لأهل الكتاب الذين لهم علم بهذه المسألة . كأنها آمنت برسالة رسول الله قبل أن يقول لها ورقة بن نوفل شيئاً .

إذن فقوله : « من أنفسهم » أى معروف لهم ، فلم يأت لهم بواحد سقط عليهم من السماء ، وقال : هذا رسول ، لا . إنه رسول « من أنفسهم » ، وهذه أول مِنّة ، « لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ، هذا إذا أخذت المحيط القريب أنه من الرهط ومن القبيلة ومعروف لهم ، « من أنفسهم » أو من جنس ونوع العرب ، وهذه أيضاً مِنّة ، فساعة أن يتكلم سيفهمونه ولا يحتاجون إلى وساطة أو ترجمة ، والرسول عندما يأتى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يريد أناساً تفهم عنه ، فأوضح لهم : لم أكلفكم لتقولوا ماذا يريد ، لا ، هو من أنفسكم ، وهو إنسان له مواصفاتكم ، ولكنهم لفرط عنادهم لم يؤمنوا مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنهم يستكثرون كيف يبعث الله بشراً ويجعله رسولاً ، وهذا غباء فى الاعتراض ، ويأتى الرد الجميل من الله :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

أنتم من البشر ، فلا بد أن نأتيكم برسول من جنسكم ، حتى إذا قال لكم : افعلوا كذا تقولون : نعم ؟ لأنه بشر ويعمل ونحن بشر نستطيع أن نعمل مثله .. لكنه لو كان مَلَكاً لقال الواحد منكم : وهل أنا أقدر أن أكون كالمَلَك ؟ إذن فلا تنفع

---

(١) رواه البخارى .

هذه الحكاية ، وهكذا منّ الله على المؤمنين.إذ بعث فيهم رسولا . « من أنفسهم » ، إن أخذتها على أساس أنها قبيلة محدودة وَمعروفة فهى منّة ، وإن أخذتها على أنه من جنس عربى فيكون اللسان واحداً فهى مِنّة ، وإن أخذتها من الجنس العام وهو الإنسان فهى مِنّة أيضاً .

وهل اعتبار معنى واحد من المعانى ينقض المعانى الأخرى أو تأتى كلها فى سلك واحد ؟ إنها معانٍ تأتى كلها فى سلك واحد ؛ لأن المتكلم هو الله ، ومادام المتكلم هو الله فيكون عطاء اللفظ أكثر من عطاء ألفاظ الخلق ، « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفُسِهم » ، وهناك قراءة ـ وإن كانت قراءة شاذة ـ تقول : « من أنفَسِهم » (بفتح الفاء) أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم وهم أفضل قريش ، وقريش أفضل العرب .

وماذا يعمل الرسول ؟ يُفهم من قوله : « رسولا » أنه لا يأتى بشىء من عنده ، بل هو ـ مع هذه المنزلة الحسنة بخُلُقه الجميل وماضيه الناصع ـ هو مع هذا رسول وليس له فى الأمر شىء ، إذن فمرسله خير منه ، فلا تتنبه إلى هذا الرجل العظيم فحسب بل يجب عليك أن تسأل : من أين جاء ؟ لابد أن تلتفت إلى أن الذى بعثه أعظم منه .

« رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته » ، وكلمة « يتلو » يعنى يقرأ لأن الكلمة تتلو الكلمة ، فالذى يقرأ أى ينطق كلمة بعد كلمة ، كلمة تالية بعد أخرى « يتلو عليهم آياته » وكلمة « الآيات » ـ كما نعرف ـ تستعمل للأمور العجيبة ؛ اللافتة للنظر ، تقول مثلا : فلان آية فى الحسن . أى حُسْنُه لافت للنظر ، وتقول : فلان آية فى الذكاء ، صحيح أن هناك أذكياء كثيرين ، لكنه آية فى الذكاء . . أى أن هذا الإنسان أمره عجيب فى الذكاء ، إذن فكلمة « آية » معناها : الأمر العجيب ، وهو الذى يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمل فى عجائبه .

والآيات نوعان : ايات منظورة فى الكون مثل قول الحق :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْـلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

﴿ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة فصلت)

وكل ظواهر الكون تعتبر أشياء عجيبة . والنوع الثانى : هو آيات القرآن مثل قوله الحق :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فالآيات هى الأمور العجيبة وهى قسمان : منظور ومقروء ، المنظور : كل الكون ، والمقروء : هو القرآن ، فالقرآن يفسر آيات الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التى فى الكون يشاهدونها ويرونها ، لقد جاء الرسول بآيات مقروءة ليلفت الناس إلى الآيات المنظورة ، وبتلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ؛ فينتهى الإنسان إلى الإيمان بمن خلق هذا الكون .

إن الحق يقول عن الرسول : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم » والمسألة ليست أنه يتلو الآيات ليعجبوا منها فحسب ، لا . فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كل سامع للقرآن إلى من خلق ذلك الكون الجميل البديع الذى فيه الآيات العجيبة . ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذى يناسب جمال الكون ، إذن فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذى يُزكى الإنسان ، وأنت إذا سمعت كلمة « يُزكيهم » فأنت تعرف أنها من الزكاة . والزكاة أول معانيها : التطهير ؛ والتنقية ؛ والنماء . والآيات التى جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاءت لتزكيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المُطَهِّر أو المُطَهَّر ، إنه لمصلحة المُطَهَّر . التنقية والنماء لمصلحتكم أنتم وهذا لا يشكك فى التكليف ؛ لأن التكليف لم يأت للمُكَلِّف ، إنما جاء للمُكَلَّف ، وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فالرجل يكون ميسور الحال وعنده مال وعنده عقارات وأطيان ، وبعد ذلك يحب لأولاده أن ينجحوا فى المدارس

فيشجعهم قائلا لكل منهم : إن نجحت فسأفعل لك كذا . هو لا يريد منهم شيئا لنفسه ، فعنده النعمة الكافية ، هو يريد ـ فقط ـ مصلحتهم هم .

إذن فالمكلف لن ينتفع بتكليفنا أبدا ، فالتنقية لصالحنا والتطهير لصالحنا والنَّماء لصالحنا ـ والتزكية هى : تطهير وتنقية ونماء ـ ولننظر إلى الحالة التى كانت الجاهلية عليها ، هل كانت طاهرة ؟ هل كانت نقية ؟ هل كانت نامية ؟ لم يكن بها وصف من تلك الأوصاف ، لأنها جاهلية ، فكلهم محكومون بالهوى والجبروت والسلطان والقهر ، ونعرف أن أول ما يهتم به الإنسان هو أن يستبقى حياته وبعد ذلك يستبقى نوعه ، وبعد ذلك يستديم ما حوله ، والتزكية شملت كل أمر من هذه الأمور ، تزكية فى الإنسان نفسه ، فى ذاته ، بدلا من أن يكذب لسانه طهره عن الكذب ، بدل أن تمتد عينه إلى محارم غيره طهر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلا من أن تمتد يده خفية وتسرق فهو لا يفعل ذلك .

والسرقة ـ كما نعلم حتى عند من يسرق ـ نقيصة ، بدليل أن اللص يتوارى ويحاول أن يسترها وألا يراه أحد ، لأنها رذيلة ونقيصة . ويأتى المنهج فيقول له : لا تسرق ، ويطهر المنهج حركة جوارح الإنسان فى الأرض ، ويطهر قلبه من الحقد كى يعيش مرتاحا ، وتبقى قوته مصونة للعمل الجاد المثمر ، فلِمَ يبدد قوته ، ولِمَ يبدد نظراته ، ولِمَ يبدد علاقاته بالناس ؟

إذن فالمنهج ينمى الإنسان ، إنه تطهير وتنقية ونماء له ، وبعد ذلك عندما يصاب الإنسان بالعجز وعدم القدرة ، فلن يستذله الغير لكى يعطيه لقمة . لقد زكاه المنهج من هذه ونقاه من الذلة وجعل له فى مال القادر حقا ، والقادر هو الذى يبحث عن الضعيف ليعطيه حقه ؛ لأن العاجز عندما يرى كل المؤمنين حوله قادرين يبحثون عنه ليعطوه حقه وليس مجرد صدقة يتصدقون بها عليه حينئذ يقول : أنا لست وحدى فى الكون . أنا فى الكون بفلان وبفلان ، فتكون تنمية له ، مادام الكل يعطيه .

أما عن بقاء النوع فماذا يعنى ؟ إن الحق يريد طهارة الإنسان والذرّية التى تأتى وأن يجعل لها وعاءً شريفا عفيفا ، وإطارا لا تشوبه شائبة فجاء المنهج ليزكيكم فى كل

شيء ، يزكى حركات جوارحكم فلا تتجه الحركة إلا لتحقق المطلوب منها عند من خلقها ، فالخالق قد أوضح : ياعين حدودك كذا ، يا لسان حدودك كذا ، يا يد حدودك كذا ، يا رِجْلُ حدودك كذا ، يا قلب حدودك كذا ، فالذى خلق كل جارحة هو الذى أعطى لكل منها حدودها فلا تجاوز ولا تهاون ولا إفراط ولا تفريط ، فإن خرجت عن غير ما وضع لها فى منهج الله فقد خالفت . وهكذا نرى أن المنهج قد جاء يزكيكم أى يطهركم وينقيكم وينميكم فى كل مجال من مجالات الحياة .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » وساعة يقول الحق : « الكتاب » فهو يقصد الكتاب المنزل إنه القرآن ، والحكمة هى السنة . والحق يقول :

﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾

(سورة الأحزاب)

وآيات الله معروفة وهى آيات القرآن ، والحكمة هى سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهنا يقول الحق : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب » ، إذن فالكتاب هو القرآن ، سيتلو عليهم آيات القرآن وبعد ذلك يعلمهم ما جاء فى هذا الكتاب . بعض المفسرين قال : لابد أن نحمل « الكتاب » هنا على معنى آخر غير القرآن ، فقالوا : الكتاب يعنى الكتابة ، وأول عمل زاولوه فى الكتابة كتابة المصحف . إذن فالتقى المعنيان ، ولذلك فى غزوة « بدر » كان يتم فداء الأسرى إما بالمال وإما أن كل أسير يجيد القراءة والكتابة إذا أراد أن يفدى نفسه فعليه أن يقوم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فقد كانت الأمة أمية . يقول سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الجمعة)

لذلك نجد أن تفسير الكتاب بالكتابة هو المناسب للأمية ، أو خذ هذه اللقطة على أساس أن هناك فرقا بين التلاوة والتعليم ، التلاوة : يتلو عليهم ، أى أن الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأن يتلوا هم القرآن . « ويعلمهم الكتاب والحكمة » و« علَّمَ » أى نقل العلم من مُعَلمٍ إلى مُعلَّم .

ويختتم الحق هذه الآية بالقول الكريم : « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وهناك أساليب تأتى فى القرآن فيها « إن » وتجد كل « إن » فى موضع لها معنى يختلف عن الآخر ، فمثلا تأتى « إن » شرطية ، يعنى يأتى بعدها فعل شرط وجواب شرط مثل قوله الحق :

﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾

(من الآية ١٤٠ سورة آل عمران)

أى إن يمسسكم قرح فلا تيأسوا ولا تبتئسوا . فقد مس القوم قرح مثله ، وقوله الحق :

﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾

(من الآية ٢٧١ سورة البقرة)

إننا هنا نجد أنَّ « إن » شرطية ، ففيه شرط وجواب شرط . ومرة تأتى « إن » وبعدها « إلا » :

﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢ سورة المجادلة)

وهو سبحانه يتكلم هنا عن الذين يظاهرون من نسائهم ، أى يقول الرجل لامرأته : أنت علىّ كظهر أمى ، إن أمك هى التى ولدتك وامرأتك لم تلدك ، فلو كانت أمك لكانت محرمة عليك ، « إن أمهاتهم إلا اللائى » ، فعندى هنا « إن » وبعدها « إلا » ومادام جاءت « إلا » فالذى بعدها يكون مثبتا ، والذى قبلها يكون منفيا ، مثل قولنا : « ما قام القوم إلا زيدًا » إن زيدا مختلف عنهم . « إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم » أى : ما أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، إذن فـ « إن » هنا ليست

شرطية لكنها هنا « إن » النافية وتعرفها بوجود « إلاّ » .

ومرة ثالثة تأتى « إن » لا هى شرطية ، ولا هى نافية مثل آيتنا هنا « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » . ونقول : هذه « إنْ » التى هى تخفيف « إنَّ » أى « إنْ » هنا مخففة من الثقيلة ويكون المعنى وإنّ الحال والشأن والقصة والواقع أنهم كانوا فى ضلال مبين . ويقول النحاة : اسمها ضمير الشأن - أى الحال والقصة - وهو محذوف .

وما هو الضلال ؟ يقولون : ضل فلان الطريق أى مشى فى مكان لا يوصله للغاية ، أو يوصل إلى ضد الغاية ؛ لأن الضلال فى الدنيا والأمور المادية قد لا يوصلنى لغايتى المرجوة ، وقد لا يوصلنى لشر منها أو لمقابلها ، لكن فى الأمر القيمى ماذا يفعل ؟ إنه لا يوصلك إلى الغاية المرجوة وهى الجنة فحسب ولكنه يوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين ، إنه ضلال واضح ؛ بدليل أن النقائص التى جاء الإسلام ليطهر الإنسان منها ، يحبّ مرتكبها ألا تُعلم عنه وسط الناس ، فالسارق يسرق لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه لص ، والكاذب يكذب لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه كذاب ، بدليل أنك عندما تقول له : يا كذاب تكون له صاعقة . إذن فالنقيصة تُفعل وصاحبها لا يريد أن يراها أحد أو يُعرف بها .

« وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » أى ضلال ظاهر وهو ضلال يعرفه صاحبه بدليل أننا قلنا فى قصة سيدنا يوسف ؛ حيث نجد فى القصة اثنين من الفتيان قد دخلا السجن ، وماذا حدث لهما :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة يوسف)

لقد رأوا فى يوسف عليه السلام كأن عنده ميزان الإحسان فهو يعرف الحسن والقبيح ، ولأنهما يعرفان ميزان الإحسان فلا بد أن تكون المسائل بالنسبة لهما واضحة . ولماذا لم يقلها واحد منهما من قبل ؟

لقد شهدا هذه الشهادة لسيدنا يوسف لأنهما يطلبان الآن مشورته فى تأويل الرؤى . كان يوسف عليه السلام مسجونا ، ولم ينظر إليه أحد إلا كمسجون . ومن سلوكه معهما فى السجن عرفا أنه طيب ومحسن . ولذلك التفتا إليه ورأيا فيه أنه قادر على تأويل رؤيا كل منهما . مثلما قلنا : إن المنحرف نفسه يعرف قيمة الفضيلة ، وهكذا نجد أن الفضيلة مسألة ذاتية وليست نسبية ، أى أنه حتى المنحرف عن الفضيلة يرى الفضيلة فضيلة .

وبعد ذلك يعود الحق إلى قضية عجيبة ، فإذا كان الله سبحانه قد من على المؤمنين بالرسول ، ومن أنفسهم ، وجاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يزكيهم طهارة ونقاء ونماء ، وجاء ليعلمهم الكتاب والحكمة وهى وضع الشىء فى مرضعه ، أو البحث عن أسرار الأشياء كان يجب عليكم ـ إذن ـ أنه إذا قال قولة لا تخالفوا عنها أبدا ، وعندما يجرى على يديه أمر فهو لا يحتاج إلى مناقشة ، إذن فما حكايتكم ؟

يقول الحق :

﴿ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾

لماذا تقولون : كيف يهزمنا الكفار ؟ لقد حدث لكم ذلك لأنكم خالفتم الرسول **الذى مَنّ** ربكم به عليكم ، وآتاكم ، وزكاكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، كان

مقتضى ذلك أن كل ما يقوله الرسول الذى هو بهذه المواصفات أن تطيعوه ، ولا يقولن أحدكم : لماذا تحدث هذه الهزيمة ؟ ولا يقولن أحد لماذا حكاية أُحُد وكيف يهزمنا الكفار ؟ إنّ هذا لا ينسجم مع ما قيل من أن الله مَن عليكم وبعث فيكم رسولا ، ثم إن أحُدًا ليست مصيبة بادئة ، بل مصيبة جاءت بعدما أصبتم من أعدائكم مصيبة ،ونلتم منهم ضعف ما نالوا منكم .

فأنتم بدأتم ببدر وأعطاكم الله الخير . أنتم قتلتم سبعين وأسرتم سبعين ، وهم قتلوا سبعين ولم يأسروا أحدًا فى « أحُد » ، أنتم أخذتم غنائم فى بدر ، وهم لم يأخذوا أى غنيمة فى أحُد ، ما العجيبة فى هذه !! كان يجب أن تبحثوا فى ذواتكم وفى نفوسكم ، هل كنتم منطقيين مع إيمانكم ومع قيادة الرسول لكم !؟ أيكون منكم ذلك السؤال وهو « أنى هذا » ، لأن « أنى » معناها استنكار أنّ هَذَا يحدث أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل فى سبيل الله وفينا النبى والوحى وهم مشركون ونقول لكم : وهل كنتم على مستوى الإيمان المطلوب ؟ إن مستوى الإيمان المطلوب يقتضى منكم أن تنفذوا ما قاله الرسول ، وأنتم لم تكونوا على هذا المستوى ، الذى كنتم عليه فى بدر .

وساعة تسمع « أو لما » فهناك همزة الاستفهام ثم « واو عطف » ، « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا » ، و« لما » هنا هى الحينية ، فماذا يكون المعنى ، لقد آمنتم بالله إلها وآمنتم بالرسول مبلغا ، أحين تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها تقولون أنى هذا ؟

كان المنطق ألا تسألوا هذا السؤال أبدا لأنكم آمنتم بإله عادل له سنن لا تتبدل ولا تتحول . أكان يترك السنن من أجلكم !؟

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢ ﴾

(سورة الأحزاب)

وفى موقع آخر من القرآن يقول سبحانه :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

فلو أنكم استحضرتم الإيمان بالإله الذى أطلق السنن فى الكون ليسوس به أمر ملكه بما يحقق أمر المصلحة لما قلتم هذا ومادمتم قد آمنتم بأن الإله هو الذى صنع تلك السنن فكان الواجب عليكم أن تعلموا أن الإله لن يجاملكم بإبطال سننه من أجل أنكم نُسبتم إليه أولا بأنكم مسلمون ، فإنكم إن خالفتم فسنن الله واقعة ، وكان يجب أن تفهموا هذا الأمر ، وكان يجب ألا تسألوا هذا السؤال ، وقد آمنتم بالله إلها له سنن ، وآمنتم بالرسول المبلغ عن الله . أحين تصيبكم مصيبة مع هذا الإيمان قد أصبتم مثليها ، تقولون : أنى هذا ؟ أنتم حدث منكم أنكم أصبتم خصومكم ، وياليتكم أصبتموهم بمثل ما أصابوكم به بل أنتم أصبتم مثليها ، كان يجب أن تقارنوا : لماذا أَصَبْتُم مثليها من قبل ، ولماذا أُصِبْتُم الآن ؟ كان يجب أن تعرضوا عملكم على الموازين الإيمانية ؛ فإن عرضتموه على الموازين الإيمانية لما سألتم هذا السؤال : « أنى هذا » . .

وساعة تسمع « أنى هذا » فلها معنيان : إما أنها تأتى بمعنى (كيف يحدث هذا) ؟ وإما بمعنى (من أين يحدث هذا) ؟ فإن كانت لأعيان وتحب أن تعرف ، مثلما أحب سيدنا زكريا أن يعرف : من أين يأتى الرزق لسيدتنا مريم وهى فى المحراب :

﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة آل عمران)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

أى من أين ؟ وتأتى مرة أخرى بمعنى « كيف » :

﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أى كيف يحيى ؟ إذن فمرة تكون بمعنى « من أين » ، ومرة تكون بمعنى « كيف » ، والذين دخلوا معركة أُحُد كانوا ينكرون ويستعجبون لعدم انتصارهم . . فأوضح لهم الحق : لو كنتم مستحضرين قضية الإيمان بإله عادل وضع فى كونه سننا وهو لن يغير سننه ولن يحولها من أجلكم أنتم ، إن عليكم أن تعرفوا أن الله لا يتغير من أجل أحد ، ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله .

« أَوَلما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها » : و« لما » يعنى : حين ، واسمها : « لما الحينية » و« لما » تكون أيضا من أدوات وعوامل الجزم مثل : لَمْ و« لم » تنفى ، و« لمَّا » أيضا تنفى مثل قوله الحق :

﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الحجرات)

أى أن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد . إنما من الجائز أنه قد يدخل بعد ذلك ، هذه اسمها « لَمّا » الجازمة . وهناك « لما » الشرطية مثل قولنا : لما يقوم زيد يحدث كذا ، وهذه فيها شرط ، وفيها الزمن. أى حين يقوم يحدث كذا ، مثل قوله الحق :

﴿ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴾

(سورة الصافات).

أى حين أسلم وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أى ناديناه ، والواو هنا مقحمة مثلها فى قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » أى قال لهم. ومعنى مقحمة.. جيء بها للتوكيد والتقوية. أو جاءت الواو هنا لتفيد أن نداء الله لسيدنا إبراهيم جاء مصاحبا لإلقاء ابنه إسماعيل على وجهه ليذبحه .

فـ « لـمّا » هذه وفى الآية التى نحن بصددها هى « لما الحينية » ، أحين تصيبكم أى : أوقت تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها « قلتم أنى هذا » كان يجب أن تقارنوا لماذا أَصَبْتُم فى بدر مِنْ عدوكم ضعف ما أصاب منكم ، ولماذا أصاب عدوكم منكم يوم أُحُدٍ هذا ؟ كان يجب أن تسألوا أنفسكم هذا السؤال ؛ لأن الميزان منصوب وموضوع ، ومادمتم تغافلتم عن هذا فسيأتى لكم الرد . . قل يا محمد لهم رداً على هذا : « هو من عند أنفسكم » . لقد خالفتم عن أمر الرسول ، ومادمتم خالفتم عن أمر الرسول فلا بد أن يحدث هذا بمقتضى إيمانكم بإله له سنن لا تتحول ولا تتبدل . « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » .

وبعد ذلك تذيل الآية بقوله سبحانه : « إن الله على كل شىء قدير » . فما موضعها هنا ؟ موضعها أنه مادامت لله سنن ، وسنن الله لا تتبدل ، والله موصوف بالقدرة الفريدة له فلن يأتى إله آخر ويقول : نبطل هذه السنن . ومادام لا يوجد إله آخر يقول ذلك فهو سبحانه قدير على كل شىء ، وهو قدير على أن تظل سننه دائمة ، ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية ؛ لأن السنن وضعها الله . فمن الذى يغيرها ؟ إنها لن تتغير إلا بقوة أعلى ومعاذ الله أن تكون هناك قوة أعلى من قوة الله ؛ لذلك يوضح سبحانه : أنا قدير على كل شىء وقدير على أن أصون سننى فى الكون ، فلا تتخلف ولا توجد قوة أخرى تُحوِّل هذه السنن أو تبدلها .

ولا تظنوا أن ما أصابكم جاء فقط لأن السنن لا تتغير ، لا ، فهذا قد حدث بإذن من الله ، فالله أوضح للكون : من يخالف أمرى أفعل فيه كذا . إذن فالكون لم يحدث فيه شىء دون علم الله وإذنه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

أى أنه سبحانه قد جمع المؤمنين وجمع الكافرين فى أُحُد بإذن منه وبعلمه والنتيجة معروفة عنده ، وأنه سيحدث منكم كذا وكذا ، إذن فهذا أمرٌ معلوم ، أو « بإذن الله » أى فى السنن التى لا تتخلف ، فالمسألة لم تأت بغير علم الله ، لا . لقد جاءت بإذن الله ولا تتخلف ـ تطبيقا ـ عن أَحَدٍ من خلقه أبداً مهما كانت منزلته .

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين » ساعة ترى أمراً أجراه الله ليعلم الذين نافقوا ، وليعلم المؤمنين،نعرف أن الله عالم بهم قبل أن تقع الأحداث ، ولكن علمه لا يكون حجة على الغير إلا إن حدث منه بالفعل ؛ لجواز أن يقول : يارب أنت حاسبتنى بعلمك أن هذه سيحدث ، لكن ما كنت لأفعله . فيوضح الحق : لا . أنت قد علمته لأنك فعلته وصار واقعاً منك وتقوم به الحجة عليك .

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ أنت كمعلم تقول لواحد من الطلبة : أنت راسب، فيقول لك : لا ، لابد أن تمتحننى . تقول له : أنا أعرف أنك راسب . فيقول لك : أنا لا آخذ بعلمك بل لابد أن تمتحننى . تقول له : تعال أمتحنك . وتعطيه بعض الأسئلة فيرسب . وهنا يصير علمه برسوبه أمراً واقعاً ، وهو كان يعلمه بسبق علم ، لكنه الآن لا يقدر أن يجادل لأنه صار واقعا محسوساً .

ويقول الحق : « وليعلم المؤمنين » ومنهم الثابت الإيمان الذى لا يتزعزع ويعلم أنه إذا أصابته مصيبة بما قدم لنفسه ، هذه المصيبة تزيده إيماناً بإلهه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ

بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾

وقوله: « وليعلم الذين نافقوا » أى يجعلهم يظهرون وينكشفون أمام الناس، وإلا لو لم تحدث هذه الأحداث فكيف كنت تعرف المنافق ؟ سيستر نفسه . لابد إذن أن تأتى أحداث لتظهره وتفضحه ، فالمنافق يراوغ ؛ لذلك يأتيه الحق بأحداث ليظهر على حقيقته ، وقد كان .

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » . . وكانت المدينة مهاجمة ، وإذا انتصر الكفار فسيدخلون ويسْبون ويأخذون المسلمين أسرى ويفعلون كل منكر !! فقال عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصارى للمنافقين : اخرجوا وقاتلوا معنا ، وإن لم تخرجوا لتقاتلوا معنا . . اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكم وعن نسائكم ؛ لأنهم إذا انتصروا على المسلمين فسيدخلون ويفعلون كذا وكذا ، إنه دعاهم إلى القتال على طريق إثارة الحمية والأنفة فيهم وذلك بعد أن يئس من أنهم لم يقاتلوا فى سبيل الله ، ولما رأى اصرارهم على عدم الخروج قال لهم عبدالله : اذهبوا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم .

إذن ففيه فرق بين القتال فى سبيل الله وبين الدفاع عن النفس فقال : « قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا » . . أو ادفعوا عنا ولو بتكثير سوادنا وإظهار كثرتنا حتى يظن المشركون أن معنا أناسا كثيرين . « قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » . . وعندما نتابع هذا المنطق فى القصة فى ذاتها نجد أن « ابن أُبَىٍّ » كان من رأيه أن يظل رسول الله فى المدينة لماذا ؟ لأنه قد ثبت بالتجربة أنه إذا جاء قوم ليغيروا على المدينة ودخلوها فأهل المدينة ينتصرون عليهم ، وإذا خرج لهم أهل المدينة فهم ينهزمون .

إذن فالقضية واضحة فى ذهن ابن أُبَىٍّ ، فهو لم يرض أن يخرج لأن التجارب أثبتت له أنهم إذا خرجوا عن المدينة ليحاربوا العدو فعدوهم ينتصر عليهم ، وإذا ظلوا انتصروا ، إذن فهو واثق من نتيجة الخروج ، ولكن مادامت المسألة قد صدرت من رأس النفاق عبدالله بن أبىّ فأنت لا تستطيع أن تحكم أين الحق ، فمن الجائز أن آثار

يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة هذه الآثار كانت باقية فى نفس « ابن أبىّ » ففى ذلك اليوم الذى جاء فيه الرسول إلى المدينة كان هو اليوم الذى كان سيتوج فيه المنافق « ابن أبىّ » ليكون ملكاً على المدينة ، فلما جاء الرسول بهذا الحدث الكبير تغير الوضع وصار التاج من غير رأس تلبسه ، فهذه قد حملها فى نفسه .

« قالوا لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » لقد ادّعى ابن أبىّ أن الخروج من المدينة هو كإلقائه إلى التهلكة وليس قتالاً ؛ لأن القتال تدخله وعندك مظنة أن تنتصر ، إنما هذا إلقاء إلى تهلكة وليس قتالاً ، لكن أقال : « لو نعلم قتالاً لاتبعناكم » وهو صادق ؟

إن الحق يفضحهم : « هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان » ، فقبل ذلك كانوا فى نفاق مستور ، ومادام النفاق مستوراً فاللسان يقول والقلب ينكر ويجحد ، فهم مذبذبون بين ذلك ؛ لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، هذه المسألة جعلته قريبا من الكفر الظاهر .

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » . . إذن فالقلب عمله النية الإيمانية ، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول ، ولذلك قلنا : إن المنافق موزع النفس ، موزع الملكات ، يقول بلسانه كلاما وقلبه فيه إنكار ، ولذلك سيكونون فى الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم غشاشون ، ونفوسهم موزعة .

« يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » والقول ضرورى بالفم ؛ لأن القول يُطلق ويراد به البيان عما فى النفس ، فتوضيح الإنسان لما فى نفسه كتابة ، يعتبر قولاً ـ لغة ـ ولذلك فالذى يستحى من واحد أن يقول له كلاما فهو يكتبه له فى ورقة ، فساعة يكتب يكون قد قال ، وهؤلاء المنافقون يقولون كلماتهم لا بوساطة كتاب بل بوساطة أفواههم، وهذا تبجح فى النفاق ، فلو كانوا يستحون لهمسوا به : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » إذن فاللسان لم يتفق مع القلب . فالقلب منعقد ومصر على الكفر ـ والعياذ بالله ـ واللسان يتبجح ويعلن الإيمان .

ونعرف أن « الصدق » هو أن يوافق القول الواقع ، والواقع فى القضية الإيمانية نية فى القلب وحركة تُثبت الإيمان ، أما المنافقون فلسانهم لا يوافق قلبهم ، فلما كان ما فى القلب مستورا ثم ظهر إلى الجوارح انكشفوا . وهذا هو السبب فى أنهم كانوا أقرب إلى الكفر ، « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » وهذا لون من نقص التصور الإيمانى فى القلب ، كأنهم يعاملون الله كما يعاملون البشر مثلهم .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨ ﴾

فعندما أراد ابن أُبَىّ أن يخذِّل الجيش ، وافقه بعض المنافقين ولم يوافقه البعض . هؤلاء الذين خرجوا للقتال والجهاد ولم يوافقوهم ثم قتلوا فرحوا فيهم ، وقالوا : لو كانوا أطاعونا ومكثوا فى المدينة ولم يخرجوا لما انهزموا ولما قتلوا ، وكأن الحق يوضح لنا أسلوبهم ؛ لذلك سنأخذهم من منطقهم . . هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قُتلوا فى المعركة والذين هم من جماعتهم : « لو أطاعونا » كأن قولا صدر منهم:« أن اقعدوا » ولكن القوم الآخرين الذين هم أقل نفاقا . لم يطاوعوهم وخرجوا ، فحدث لهم ما حدث .

فكيف يرد الله على هذه ؟ انظروا إلى الرد الجميل : أنتم تقولون : « لو أطاعونا » ، فكأن طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل . إذن فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل . والذى يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت ؟ ولذلك يقول الحق سخرية بهم : « فادرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » وفى ذلك رد عليهم من كلامهم « لو أطاعونا ما قتلوا » .

ومادمتم تعرفون وسيلة للسلامة من القتل فاستعملوا هذه الوسيلة فى أن تدفعوا عن أنفسكم الموت . وأنتم مع المتقدمين منكم والحاضرين تموتون ولا تستطيعون رد الموت عنكم ، إذن فأنتم لا تعرفون طريق السلامة من الموت ؛ فكم من مُحارب عاد من الحرب سليما ، وكم من هَارِب من القتال قد مات وانتهى ، وَهَبْ أن بعضا من المؤمنين المقاتلين قد قُتل، إن الذى قُتل فى المعركة ليس أهون على الله ممن سلم من المعركة، هؤلاء أحب إلى الله وقد عجل الله لقاءهم وأنزلهم المنزل المقرب عنده .

ونعرف أن الحدث إنما يُحمد ويُذم بالنسبة للغاية منه ، فكل حدث يُقربك من الغاية يكون محموداً ، وكل حدث يُبعِدك عن الغاية يكون غير محمود ، فإذا كانت الغاية أن تذهب إلى الاسكندرية مثلا ؛ فقد تذهب إليها ماشيا فتحتاج إلى عدة أيام ، وقد تذهب إليها راكبا دابة فتحتاج إلى زمن أقل ، أو تذهب إليها راكبا عربة فيقل الزمن لساعات ، أو تذهب إليها راكبا طائرة فتصلها فى نصف الساعة ، فكلما كانت الوسيلة قوية كان الزمن قليلا ؛ لأننا نعلم أن القوة الفاعلة فى النقلة تتناسب مع الزمن تناسبا عكسيا . وكلما زادت القوة قل الزمن ، ومادامت غايتى أن أذهب إلى الاسكندرية . فالذى يُعجل لى الزمن ويقلله لأذهب إليها أفضل أم لا ؟ إنها الوسيلة الأفضل .

فمادامت الغاية أن تذهب إلى لقاء الله وأن تعيش فى جواره ومعيته ، فحين يُعجل الله ببعضنا فيأخذهم من أقصر طريق فهذا أفضل بالنسبة لهم أم لا ؟ هذا أفضل ، وهكذا نرى أن الناس تنظر للموت نظرة حمقاء ، إن موت المؤمن الحق الصادق الإيمان إنما يقربه إلى الغاية ، فما الذى يُحزننى !

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

أنتم تخافون الموت ، ولكن هؤلاء الذين قتلوا فى سبيل الله ليسوا بميتين ، لأن حياتهم حياة موصولة ؛

إن هناك فارقا كبيرا بين الموت والشهادة ، فالذى يقتل شهيدا تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم ، أى بقانونه سبحانه ، فلا تُحَكِّم قانونك أنت ، فأنت ـ كما قلت ـ لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القتلى مجرد أشلاء . هم عندك أشلاء وأموات فى قانونك أنت . لكنهم أحياء عند ربهم يُرزقون .

فالحياة تختلف عن الموت فى ماذا ؟ إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته ، فى ظاهر الأمر انتهى ولم يعد ينتفع برزق ولا بأكل ؛ لأن الرزق جُعِلَ لاستبقاء الحياة ، ومادام الرزق قد صُنِعَ لاستبقاء الحياة وليس فيه حياة إذن فلا رزق ، لكن الله سبحانه يريد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حي . ومن ضروريات الحياة أنه يُرزَق أى ينتفع باستبقاء الحياة ، وعلينا أن نفهم أن العِنْدية عندك غير العندية عند الله . فالشهيد حى عند ربه ويُرزق عند ربه رزقا يناسب الحياة التى أرادها له ربه . ونعلم أن الرزق هو الخاصية التى توجد للأحياء . وعندما نقرأ قول الله : « أحياء عند ربهم يرزقون » قد يقول قائل : من الجائز أنك تأخذ إنسانا وتُبقيه حيا وتعطيه طعاما وشرابا لكن أهو فرح بموقعه ؟ لا . لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست فى قبره ولكنها عند ربه وهو فَرِح بموقعه لذلك يقول الحق :

﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

والعدل يتحقق بين البشر بأن كلا منهم يموت . ولكن الفضل أن يعجل الله انقضاء الحياة فى الدنيا لمن يحبهم بالاستشهاد وينقلهم إلى رضوانه ونعيمه « فرحين بما آتاهم الله من

فضله » وليس هذا فقط ، بل إننا نجد الأخوة الإيمانية قد بقيت فيهم وليست كخاصية الأحياء بل أنقى وأبقى من خاصية الأحياء ، فالخاصية الإيمانية تقتضى أن يُحب المؤمن لأخيه ما يُحب لنفسه ، والشهداء فى حياتهم عند ربهم كذلك ، مما يدل على أن الحياة التى يحياها الشهداء هى حياة نامية فيها رزق ومواجيد وفرح ، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضل من الله قد فضله به . ولذلك فالشهيد يستبشر بالذى لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ويقول : يا ليتهم يأتون ليروا ما نراه .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » : « ويستبشرون » من البُشرى ، والبُشرى هى الخبر السَّار « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم » ويلحقوا أى يأتوا بعدهم ، فالشهداء يقولون:إنهم سيأتون لنا وماداموا سيأتون لنا فنحن نُحب أن يكونوا معنا فى النعيم والخير الذى نحيا فيه . وكل منهم يشعر بالمحبة لأخيه ، لأنه يعلم قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحبه لنفسه » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لما أصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن فضلهم قالوا : ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لئلا يزهدوا فى الجهاد ولا ينكلوا من الحرب. فقال الله ـ عز وجل ـ:أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هذه الآيات : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » وما بعدها[1] .

ونعرف أن « البِشْرَ » عادة هو الفرحة ، وهى تبدو عَلَى بشَرة الإنسان ، فساعة يكون الإنسان فرحا ، فالفرحة تظهر وتُشرق فى وجهه ولذلك نُسميها « البشارة » ، لأنها تصنع فى وجه المُبشَّر شيئا من الفرح مما يعطيه بريقا ولمعانا وجاذبية .

« ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أى أن الذين خلفوا عن الشهادة لا خوف عليهم ، فهؤلاء الذين لم يستشهدوا بعد قد يخوضون معركة ما ، فيقول الحق على لسان الشهداء لكل منهم : لا تخف لأنك ستذهب لخير فى الحياة « ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

(١) رواه الإمام أحمد .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

إن الحق سبحانه لا يضيع أجر هؤلاء الذين قاتلوا فى سبيل الله ، وها هو ذا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾

انظر إلى المنزلة العالية كى تعلم أن الهزة التى حدثت فى أُحُد أعادت ترتيب الذرات الإيمانية فى نفوس المؤمنين . ولذلك أراد الله ألا يطول أمد الغم على مَن ندموا بسبب ما وقع منهم ، وألا يطول أمد الكفار الذين فرحوا بما أُلحق بالمؤمنين من الضرر فى المعركة الأخيرة ، هؤلاء المشركون فرحون ، وهؤلاء المسلمون فى حزن ؛ لأننا قلنا : ماداموا مسلمين ومؤمنين فلهم حق ، وإن قَصَّروا فعليهم عقوبة ، وسبحانه قد أنزل بهم العقوبة لكن بقى لإسلامهم حق على الله ؛ لأنه أجرى تلك الأقدار ليُهذب ويمحص ويُربى ، فلا يطيل أمد الغم على المؤمنين ولا يمد الفرحة للكافرين ، فيأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم والحالة كما تعلمون هكذا، ويؤذن مؤذنه صلى الله عليه وسلم فى الناس بطلب قريش قائلا : « لا يخرجن معنا إلا من حضر معنا القتال » .

ويخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم بعدد لا يزيد على عدد المقاتلين الذين كانوا يواجهونهم حتى لا يقال إنهم جاءوا بمددٍ إضافى ، بل بالعكس ، فالذين خرجوا لمطاردة الكفار هم الذين بقوا مع الرسول فى أُحد ، ونقص منهم من قُتل ونقص منهم أيضا كل من أثقلته جراحه . لقد كانوا أقل ممن كانوا فى المعركة ، وكأن الله يريد أن يبين لنا أن التمحيص قد أدى مطلوبه .

هم فى هذه الحالة استجابوا للرسول ، كأن المسألة جاءت رد اعتبار لمن شهدوا المعركة ؛ حتى لا يضعفوا أمام نفوسهم ؛ وحتى لا يجعلوها زلة تطاردهم وتلاحقهم فى تاريخهم الطويل ، بل يعلمون أن معركة أُحد قد انتهت وعرفوا آثارها .

وبمجرد أن أذن مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بالنداء السابق استجابوا جميعا ، ولم يُسمح إلا لجابر بن عبدالله أن يكون إضافة لهم ؛ لأنه أبدى العذر فى أنه لم يكن مع القوم ؛ لأن له أخوات سبعًا من البنات وأمره أبوه أن يمكث مع أخواته لرعايتهن ، فسمح له رسول الله .

ـ وكما قلنا ـ فإن الله أراد بكل أحداث أُحُدٍ أن يُعيد ترتيب الذرات الإيمانية ، ومادامت الذرات الإيمانية قد انتظمت فقد تم إصلاح جهاز الاستقبال عن الله ، وفى لحظة واحدة يستجيبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنهم يلاحقون الكفار ، وذهبوا إلى حمراء الأسد وكان ما كان . وبعد ذلك أرسل الله لهم من جنوده من يُخَذِّلُ هؤلاء القوم الكافرين ، ويقول لهم : إن محمدا قد خرج إليكم بجيش كبير .

ونلحظ أن الحق سبحانه يجىء هنا بقوله : « الذين استجابوا » وهى تقابل « من خالفوا » أمر رسول الله وهم الرماة ، « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح » .

لقد استجابوا وهم مُرهقون ومُتألمون ومثخنون بالجراح ؛ فكل واحد منهم قد ناله

نصيب من إرهاق القتال ، ومع ذلك استجابوا لله وللرسول ، وكل منهم أصابه القَرح أو القُرح . . يعنى الألم أو الجرح ، « من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم » وهم قد أحسنوا فى الاستجابة ؛ لذلك فلهم الأجر العظيم ، « أجر عظيم » لأن ما حدث منهم من أمر المخالفة قد أخذوا عليه العُقوبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾

المسألة ليست ذلك فقط ، المسألة أن المنافقين راحوا يُروجون إشاعات كاذبة بأن المشركين قد اسْتَدْعوا عددا جديدا من كفار مكة وذلك ليخيفوا المؤمنين ، فلم يخف مؤمن واحد « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » وساعة ترى كلمة « الناس » فاعرف أن الإيمان بعيد عنها ، ومادامو « أناسا » فهم يقابلون أناسا آخرين ، ومن يغلب فهو يغلب بجهده وشطارته وحسن تصرفه ، لكن المؤمن يقابل الكافر ، والمؤمن يتلقى المدد من ربه .

قيل : إن الشيطان قد يتمثل على هيئة حشد من الناس لِيُرهب المؤمنين ، والشيطان من عالم الجن ، وعالم الجن يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ، وقد أعطاه الله القدرة على أن يتشكل بما يُحب . فله أن يتشكل فى إنسان ، فى حيوان ، أو كما يريد ، ولكن إذا تشكل فالصورة تحكمه لأنه ارتضى أن يخرج عن واقعه ليتشكل بهيئة أخرى ، فإذا ما تشكل على هيئة إنسان ، فقانون الإنسان يسرى عليه ، بحيث

إن كان معك مسدس أو سيف أو خنجر وتمكنت منه وطعنته يموت . وهذا هو ما رحمنا من تخويفهم لنا .

ولذلك تجد أن الشيطان يظهر لمحة خاطفة ثم يختفى ، لأنه يخاف أن يكون الإنسان الذى أمامه واعيا بأن الصورة تحكمه ، فعندما يتمثل لك بأى شكل تخنقه فيُخنق ؛ لذلك يخاف من الإنسان ، فلا يظهر إلا فى لمحات خاطفة .

ويمكن أن نفهم أيضا قول الحق : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » أن هناك بعضا من الكفار أشاعوا أن أبا سفيان وصحبه قد حشدوا حشودهم ، فكلمة « جمعوا » تعطى إيحاء بأنهم جاءوا بمقاتلين آخرين ، أو أن فلولهم قد تجمعت ، وسواء هذا أو ذاك فهم عندما فروا فروا فلولا ، لأن القوم المنهزمين لا يسيرون سيرا منتظما يجمعهم ، بل يسير كل واحد منهم حسب سرعته ، ويصح أن يتجمعوا ثانية ، أو جاءوا بناس آخرين ، ولنا أن نلحظ أن الأسلوب يحتمل كل ذلك .

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم » ومثل هذا القول قد يفت فى عضد المؤمنين ، لكن التمحيص الإيمانى قد صقل معسكر الإيمان فلم يهتموا بهذا الكلام ، وهكذا أثمر الدرس الأول ، لقد تعلموا أن المخالفة عن أمر الله الممثل فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد المخالفة تجعل الضعف يسرى فى النفس ، لكن التثبت والتمسك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعزز الإحساس بالقوة ؛ لذلك لم يأبهوا لهذا التهديد بل قالوا : إن العدد هذا ليس فى بالنا ؛ لأننا نعتمد على الله وحُسن الإيمان ، إنهم قالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » فلم يهتموا بالعدد وفهموا أن الإيمان يقتضى أن يقاتلوا الكافرين حتى يُعذبهم الله بأيديهم ، وفى هذا درس لكل مُحارب ، فعندما تحاربُ ، فأنت إما أن تكون منصورا بإيمانك بالله وإما أن تكون على عكس ذلك :

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الأنفال)

لقد فطنوا إلى أنفسهم ، وتغير الترتيب الإيمانى فى أعماقهم ، ونلمس ذلك فى أن بعضا من الناس جاءوا يصدونهم ويخذلونهم ، فلم يستطيعوا بل زادهم هذا القول إيمانا « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » ، لقد فطنوا إلى أن قوة الله هى التى تنصرهم والله حسبهم وكافيهم عن أيِ عدد من الأعداد وهو نعم الوكيل ، ومعنى « الوكيل » أننى عندما أعجز عن أمر أُوَكِّلُ أحدا فهو وكيل عنى ، وعندما نوكل الله فيما عجزنا عنه فهو نعم الوكيل ، لماذا ؟ وتأتينا الإجابة : « فانقلبوا بنعمة من الله » ، ولقد نصروا بالرعب الذى أنزله الله فى قلوب أعدائهم ولم يشتبكوا مع الكفار ، فصدق قول الله :

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأنفال)

ويأتى الحق من بعد ذلك بما يصدق القضية :

﴿ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

وهذه القضية يجب أن يستشعرها كل مؤمن يتعرض لتمحيص الحق له ، وعلى كل مسلم أن يتذكر تلك تجربة ، تجربة أُحُد ، فليلة واحدة كانت هى الفارق بين يوم معركة أُحُد ويوم الخروج لملاحقة الكفار فى حمراء الأسد ، ليلة واحدة كانت فى حضانة الله وفى ذكر لتجربة التمحيص التى مر بها المؤمنون إنها قد فعلت العجب ؛ لأنهم حينما طاردوا الكفار ، لم يأبهوا لمحاولات الحرب النفسية التى شنها عليهم الأعداء ، بل زادهم ذلك إيمانا وقالوا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » .

إذن فقد تجردوا من نفوسهم ومن حولهم ومن قوتهم ومن عددهم ومن أى شيء إلا أن يقولوا : الله كافينا وهو نعم الوكيل لمن عجز عن إدراك بغيته . لقد عرفوا الأمر المهم ، وهو أن يكون كل منهم دائما فى حضانة ربه ، وقد أخذ صحابة رسول الله وآل بيت رسول الله هذه الجرعة الإيمانية واستنبطوا منها الكثير فى حل قضاياهم .

وقول الله سبحانه : « حسبنا الله ونعم الوكيل » يُذكرنا بالإمام جعفر الصادق ابن سيدى محمد الباقر بن سيدى على زين العابدين وكان من أفقه الناس بالقرآن ، وكان من أعلمهم فى استنباط أسرار الله فى القرآن ، إنّه كان يجد فى قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » استنباطا رائعا ، فهو يتعجب لأى إنسان أدركه الخوف من أى شيء يخيف ، والإنسان لا يخاف إلا أمرا يَنْقُضُ عليه رَتَابَة راحته ، ويقلقه ويهدده فى سلامه وأمنه واطمئنانه ، ويكون لهذا الخوف مصدر معلوم ، فإذا ما تعرض المؤمن لمثل هذا الخوف فعليه أن يتذكر قول الحق : « حسبنا الله ونعم الوكيل » لأنها قضية نفعت الجيش كله فى معركته مع الكفار ، فحين يأخذ الفرد هذه الجرعة فهو يستعيد رباطة الجأش . واشتداد القلب فلا يفر عند الفزع .

وينبهنا سيدنا جعفر الصادق إلى هذه القضية لنفزع إليها عند كل ما يُخيفنا فيقول : عجبت لمن خاف ولم يفزع إلى قول الله : « حسبنا الله ونعم الوكيل » إنه بِفِطرته الإيمانية يتعجب لإنسان أدركه الخوف ثم لا يفزع إلى هذا القول الكريم « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ثم يستنبط بإشراقاته سر هذا فيقول : لأنى سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » وانظروا إلى قول سيدنا جعفر الصادق: « فإنى سمعت الله بعقبها » هو قرأ بنفسية المؤمن الصادق ، فالمؤمن حين يقرأ كلام الله إنما يستحضر أنه يسمع الله يتكلم إنه يقول : فإنى سمعت الله بعقبها يقول : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فأنت حين تستمع إلى القرآن فالله هو الذى يتكلم ، ومن العيب أن يتكلم ربك

فى أذنك ثم تشغل عنه وهو ربك ، إذن فعلاج الخوف هو أن تقول من قلبك:« حسبنا الله ونعم الوكيل » وأن تقولها بحقّها ، فإن قلتها بحقها كفاك الله شرّ ذلك الخوف ، لأن الله يقول بعد « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » : « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » انظر إلى النعمة والفضل ، إنهما من الله،وقد تصيبك النعمة والفضل ولكن تقدر ذلك فى أخريات الأمور ، فأوضح الله أن النعمة زادت فى أنها غنيمة باردة ، ولم يحدث فيها أن مسّنا سوء ، إن ذلك هو قمة العطاء ورأسه وسنامه ، فإذا قدرته فى أخريات الأمور فقدْ أخطأت التقدير « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » ونتيجة لتلك التجربة النافعة هى أن « اتبعوا رضوان الله » ، وقد نجحت التجربة مع المؤمنين .

ويقول الإمام جعفر الصادق ليكمل العلاج لجوانب النفس البشرية، ويصف الدواء. فالنفس البشرية يفزعها ويقلقها ويجعلها مضطربة أن تخاف شرّاً يقع عليها ، وعلاج هذا : « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ويضيف : وعجبت لمن اغتمّ ولم يفزع إلى قول الحق سبحانه :

﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٧ سورة الأنبياء)

و« الغمّ » قلق فى النفس ، ولكنك لا تدرك أسبابه ، فأسبابه مُعقّدة ، صدر يضيق ، ولذلك تقول : أنا صدرى ضيق ، أنا متعب ولا أدرى لماذا ؟ أى لم يمرّ بك الآن أشياء تستوجب هذا ، إنما قد تكون حصيلة تفاعلات لأحداث وأمور أنت لا تتذكرها الآن ، هذا اسمه « غمّ » ، فإذا ما فزع العبد إلى قول الحق سبحانه : « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » فالعبد يقرّ بذنبه ويقول : هذا الغمّ لم يأتنى إلا لأننى خرجت عن المنهج ، ويذكرنا سيدنا جعفر الصادق بأنه سمع بعدها قول الله :

﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

والذى قال ذلك هو سيدنا يونس « فاستجبنا له ونجيناه من الغمّ » .

وهذه الاستجابة من الله ليست خاصّية كانت ليونس عليه السلام ، لأنه سبحانه قال : « وكذلك ننجى المؤمنين » أى أنه باب واسع أدخل الله فيه كل المؤمنين ، ويضيف سيدنا جعفر الصادق : وعجبت لمن مُكر به ولم يفزع إلى قول الله :

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة غافر)

فإنى سمعت الله بعقبها يقول : « فوقاه الله سيئات ما مكروا » .

ومُكر به معناها بيّت له الشر بحيث يخفى ، لأن المكر هو : تبييت من خصمك لشرّ يُصيبك ، بينما أنت تقف بجانب الحق ، فيكون هذا المكر شراً يُبَيَّتُ لخير وحق ، وهذا هو المكر السّيىء ، ويُقابله مكر حَسن ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن فهناك مكرٌ ليس بسيّىء ، كأن يُبيّت صاحب الحق لصاحب الشرّ تبييتا يخفى عليه ، هذا اسمه مكر خير ؛ لأنه محاربة لشرٍّ ؛ ولذلك يوضح لنا الله هذا الأمر : افطنوا إلى هذه ، فإن كانوا يمكرون ويُبيّتون ، فهم إن بيّتوا على الخلق جميعاً لا يُبيّتون على الله لأنه سبحانه العليم ، الخالق ، المُربّى ، وإن يُبيّت الله لهم فلن يستطيعوا كشف هذا التبييت ، إذن فالله خير الماكرين ؛ لأن تبييتهم مكشوف أمام الخالق ؛ لذلك فهو مكر ضعيف ، أما المكر الحقيقى فهو الذى لا توجد وسيلة تعرفه بها .

ونواصل مع سيدنا جعفر الصادق قوله فى علاج النفس البشرية فيقول : وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفزع إلى قول الله :

﴿ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة الكهف)

فإنى سمعت الله يعقبها بقوله :

﴿ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

واستنبط سيدنا جعفر الصادق ذلك من حكاية صاحب الجنة :

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ ﴾

(سورة الكهف)

إنك حين تقول:« ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فإن الدنيا تأتيك مهرولة ، لأنك جرّدت نفسك من حولك ، ومن قوة حيلتك وأسبابك ، وتركت الأمر لله سبحانه وتعالى القادر على كل عطاء .

إذن فالجوانب البشرية فى النفس : هى خوف له علاج وَوَصْفَة ، وهمٌّ له علاج ووصفة ، ومكر بك له علاج ووصفة ، وطلب دنيا وسعادة لها علاج وَوَصْفَة ، والوصْفَة التى نحن بصددها هنا : « وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء » .

والنعمة أن يعطيك الله على قدر عملك ، والفضل من الله هو أن يزيدك عطاء ، ولم يمسس السوء أحداً من المؤمنين الذين طاردوا المقاتلين من قريش ، وكان من نتيجة ذلك أنهم جمعوا بين كل ما وهبه الله لهم ؛ من نعمة وفضل مع اتباعهم رضوان الله ؛ فقد صارت المسألة بالنسبة لهم تجربة مُحسّة ومُجرّبة « واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

لقد حاول المنافقون أن يثبطوا المؤمنين عن لقاء كفّار قريش ، فيريد الحق أن يكشفهم ، ويظهر الدافع إلى مثل ذلك الموقف من المنافقين ، لذلك قالوا للمؤمنين : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »

ويظهر الله للمؤمنين حقيقة موقف المنافقين :

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

إنها صرخة الشيطان الذى يخوِّف أولياءه ، ويَصحُّ أن يصرخ الشيطان صرخته وهو يتمثل فى صورة بشر ، ويصح أن ينزغ الشيطان بصرخته لواحد من البشر فيصرخ هذا الإنسان بنزغ الشيطان له « إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه » .

وعندما نقرأ القرآن بدقة صفائية إيمانية فلابد أن نفهم عن القرآن بعمق ، فمن هم أولياء الشيطان ؟ أولياء الشيطان فى هذا الموقف ، إما كفّار قريش ، وإما المنافقون أو هما معا . و« أولياؤه » هم أحبابه الذين ينصرون فكرته .

كأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يُبلّغنا : إنما ذلكم الشيطان الذى قال:إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، هذا الشيطان إنما يخوف أولياءه .

وللوهلة الأولى نجد أن الشيطان مُفترض فيه أن يخوّف أعداءه . ونحن هنا أمام شيطان ينزغ بعبارة التخويف ، فمن الذى يخاف وممن يخاف ؟

المفروض أن يُخيف الشيطانُ أعداءه ، هذا هو المنطق .

فنحن فى حياتنا العادية نقول : خوّفت فلاناً من فلان ، أو خوفت فلاناً فلاناً . إذن فالشيطان يحاول هنا أن يتسلط على المؤمنين ويخوفهم من أوليائه الكفار والمنافقين ، ونعرف فى اللغة أن هناك فى بعض المواقف يمكننا أن نحذف حرف الجر ونصل الجملة ، ونُسمّيه « مفعولاً مِنه » . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

فموسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً .

وعلى ذلك نقرأ قول الحق : « إنما ذلكم الشيطان يخوّف أولياءه » ونفهم منها : أن ذلكم الشيطان يخوِّفكم أنتم من أوليائه ، لأن حرف الجر فى الآية الكريمة محذوف ، ويعاضد هذا ويقويه قراءة ابن عباس وابن مسعود : يخوفكم أولياءه ، وينبه الحق المؤمنين ألاّ يخافوا من أولياء الشيطان فيقول : « فلا تخافوهم » .

وهذا يوضح لنا أن الشيطان إنما أراد أن يُخوّف المؤمنين من أوليائه وهم المنافقون والكافرون . وبعض المفَسرين قال : « يخوّف أولياءه » المقصود بهم أن الشيطان يخوّف أولياءه حتى يَجبنوا من القتال ، فنزغ فيهم أنهم إن خرجوا للقتال فقد يموتون . ولكن إن جاز ذلك القول على المنافقين الذين لم يخرجوا مع الرسول لملاقاة المشركين فكيف يجوز ذلك على الصنف الثانى من أوليائه وهم الكفار ؟ إن الكفار قد خرجوا فعلا لقتال المؤمنين . ونفهم من قول الحق : « فلا تخافوهم وخافون » أن أولياء الشيطان ليسوا هم الخائفين ولكنهم هم المخوِّفون : « إنما ذلكم الشيطان يخوِّف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

فالحق سبحانه يطلب من المؤمنين أن يصنعوا معادلة ومقارنة ، أيخافون أولياء الشيطان ، أم يخافون الله ؟ ولابد أن يصلوا إلى الخوف من الله القادر على دحر أولياء الشيطان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

لقد كان المنافقون فى أول المعركة مُختفين ومستورين ، ثم ظهرت منهم بادرة الانخذال فى أُحُد فكانوا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، ولكنهم من بعد ذلك سارعوا إلى الكفر ، كأن هناك من يلاحقهم بسوط ليتسابقوا إلى الكفر .

وها هو ذا الحق سبحانه قد حدّد عناصر المعركة ، أو قوى المعركة ، أو ميدان المعركة أو جنود المعركة ، فينبه رسوله : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » ولم يقل : لن يضروكم شيئا ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته المؤمنين ليسوا طرفاً فى المسألة ، فعداء الذين يسارعون فى الكفر هو عداء لله ؛ لذلك يقول الحق : « إنهم لن يضروا الله شيئا » . كأن المعركة ليست مع المؤمنين . ولكنها معركة الكافرين مع الله ، ومادامت المعركة مع الله فالمؤمنون جند الله ؛ وهم الصورة التى أرادها الله لهزيمة الكافرين :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلو كانت معركة الكفر مع المؤمنين بالله فقط لقال الله : ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروكم شيئا ، لكن المسألة ليست هكذا ، لقد أراد معسكر الكفر والنفاق أن يدخل معركة مع الله ، ولا توجد قوة قادرة على ذلك ، ولهذا يطمئن الله المؤمنين أكثر ، ليزدادوا ثباتاً على الإيمان ؛ لأن الكل من البشر مؤمنين وكفارًا أغيار ، وقد يتحول بعض من البشر المؤمنين الأغيار عن المنهج قليلاً ، فعندما تكون المعركة بين بشر وبشر فقد يغلب أحد الطرفين بقوته .

ومن أجل المزيد من الاطمئنان الكامل نقل الله المعركة مع الكفر إلى مسألة أخرى ، إنه بجلاله وكماله وجبروته هو الذى يقف ضد معسكر الكفار . والمهم فقط أن يظل المؤمنون فى حضانة الله . والرسول كان يحزنه أن يُسارع البعض إلى الكفر . فهل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم أنه إنما جاء مُبلّغاً فقط ؟ . إنه يعلم ولكنه كان يحرص ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أن يؤمن الناس جميعاً ليذوقوا حلاوة ما جاء به ، هذا الحرص هو الذى يدفع الحُزن إلى قلب الرسول ، وعندما يرى

واحداً لا يتذوق حلاوة المنهج ، فالرسول يأمل أن يذوق الناس كلهم حلاوة الإيمان ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم رءوف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعا « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ودليل ذلك أن جاءه التخيير .

فقد نادى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال : يا محمد ، إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا »[1]

فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يبقى على هؤلاء فقط ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة . وقد كان . وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ كما أخبر الله في آيات القرآن ـ يحزن عندما لا يذوق أحد حلاوة الإيمان ، يقول الحق :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وفي موقع آخر يقول الحق :

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

والحق سبحانه وتعالى لا يريد أعناقاً ، لكنه يريد قلوباً تأتي له بعامل الاختيار والمحبة ، فباستطاعته وهو الخالق الأكرم أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمعصية ، كما خلق الملائكة ، إن كل الأجناس تُسبّح بحمده ، إذن فالقرآن يُبيّن حِرصَه صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن الناس جميعاً وأن يذوقوا حلاوة اللقاء بربهم ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

واتّباع منهج الله ، وحلاوة التشريع الذى يُسعدهم ويُسعد كل ملكاتهم . فإذا ما جاءت المسائل على غير ما يُحبُّ رسول الله . فها هو ذا قول الله سبحانه : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » .

وهذا دليل على أن الله يريد أن يُبلِّغ البشر : أيهاالناس إن من فَرْط حُبّ الرسول لكم أنه يَحزن من أجلِ عِصيانكم وأنا الذى أقول له:لا تحزن . والرسول صلى الله عليه وسلم رحيم بالأمَّة كلّها ، كما يقول القرآن :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

ويكفيه موقفه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، حين تذهب كل أمة إلى رسولها فيردّها ، فتأتى الأمم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فُيكرمه الله بقبول شفاعته حتى يُعجّل الله بالفصل والحساب ، وهذه رحمة للعالمين ؛ لأنهم من هول الموقف يتمنون الانصراف ولو إلى النار .

ونحن قلنا سابقا : إن الحق سبحانه وتعالى علم انشغال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمته وبرحمته بهم ، فقال له الله ـ ليريح عواطفه ومواجيده ـ ما ورد هنا فى الحديث الشريف :

فعن عبدالله ابن عمر بن العاص رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل فى إبراهيم : « ربى إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى » .

وقول عيسى ـ عليه السلام ـ « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » .

فرفع يديه وقال : اللهم أمتى أمتى وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يُبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله ، فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل ،

اذهب إلى محمد فقل : (إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك)[١]

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ له موقف آخر يدل على كمال رحمته بأمته ، فقد أنزل الله فيما أنزل من القرآن الكريم ـ بعد فترة الوحى ـ قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) .

انظروا إلى ما ورد عن سيدنا على فى هذه الآية،فقد روِىَ أنه ـ رضى الله عنه ـ قال لأهل العراق : إنكم تقولون : إن أرجى آية فى كتاب الله تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) . قالوا : إنا نقول ذلك.قال : ولكنّا ـ أهل البيت ـ نقول : إن أرجى آية فى كتاب الله قوله تعالى : (ولسوف يعطيك ربك فترضى) . وفى الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : (إذا لا أرضى وواحد من أمتى فى النار)[٢] .

كما روى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : (لكل نبىّ دعوة مستجابه فتعجل كل نبىّ دعوته وإنى اختبأت دعوتى شفاعتى لأمتى يوم القيامة)[٣] .

وهكذا نرى شغل رسول الله بأمته كأمر واضح موجود فى بؤرة شعوره .

إذن فقول الله : « ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر » هو توضيح من الله لرسوله بأنهم لم يسارعوا فى الكفر تقصيراً منك ، فأنت قد أديت واجبك ، ويضيف سبحانه : « إنهم لن يضرّوا الله شيئا » ولم يقل سبحانه: إنهم لن يضروك،أولن يضروا المؤمنين ، لا بل لقد جعل سبحانه وتعالى المعركة معه وهو القوى ذو الجبروت إنّه هنا يطمئن المؤمنين .

ويريد الله ألا يجعل للذين يسارعون إلى الكفر حظاً فى الآخرة فيقول : « يريد الله

(١) رواه الأمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الايمان .

(٢) من تفسير الإمام القرطبى .

(٣) أخرجه البخارى .

ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ولهم عذاب عظيم » ومادامت هذه إرادات الله فى ألا يجعل لهم حظاً فى الآخرة ، أيكون لهم عمل يصادم مرادات ربهم ؟ لا .

إنه سبحانه يريد بما شرّع من منهج أن تأتيهم سُنّته ، والله يعذّب من يخالف سُنّته التى شرعها . لأنه جلت قدرته يطلب من المكلفين أن يطبقوا سننه التى شرعها لهم .

وفرق بين وجود « لام العاقبة » التى تأتى حين يكون فى مُراد العبد شىء ، ولكن القُدرة الأعلى تريد شيئاً آخر ، وهى تختلف عن « لام الإرادة » والتعليل فـ « لام الإرادة والتعليل » تتضح فى قولنا : ذاكر التلميذ لينجح ، لأن علّة المذاكرة هى الرغبة فى النجاح ، أما « لام العاقبة » ، فتتضح عندما يقول الأب لابنه : أنا دللتك لترسب آخر العام .

أدللّ الأب ابنه حتى يرسب ؟ لا ، ولكن الأب يأتى هنا بـ « لام العاقبة » أى كان للأب مراد ، ولكن قدرة أعلى جاءت على خلاف المراد .

ونوضح المسألة أكثر ، فالحق يقول فى قصة سيدنا موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة القصص)

ونحن لابد أن نتنبه إلى قول الحق : « فألقيه فى اليم » والإنسان العادى لو قال لامرأة تحمل رضيعها : إن خفت على ابنك فألقيه فى البحر . هذه المرأة لن تُصدّق هذا القائل ، لكن أم موسى تلقت هذا الوحى من الله ، والتّلقّى من الله لا يُصادمه فكر شيطان ولا فكر بشر ، فالإلهام من الله يتجلّ فى قوله : « وأوحينا إلى أم موسى » .

ومادام الله هو الذى ألهمها ، فإن خاطر الشيطان لا يجىء . ولذلك قامت أم موسى بتنفيذ أمر الله . ويطمئنها الله فقال لها : « ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادوه إليك

وجاعلوه من المرسلين » .

ويُنبّه سُبحانه أم موسى أنه لن يردّه إليها لمجرد أنه قُرة عين ، ولكن لأن لموسى أيضاً مُهمّة مع الله . وفى لقطة أخرى يقول الحق عن مسألة الوحى لأم موسى :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ (سورة طه)

والحق هنا فى هذه اللقطة يصف وقت تنفيذ العملية التى أوحى بها ، ففيه فرق بين التمهيد للعملية قبل أن تقع كما حدث فى اللقطة السابقة حيث قال لها الحق : « فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم » . كانَ ذلك هو الإعداد ، ثم جاء وقت التنفيذ ، فقال الحق لموسى : « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى » . إنها سلسلة من الأوامر المتلاحقة التى تدل على أن هذه العملية كانت فى وقت أخذ جنود فرعون لأطفال بنى إسرائيل ليقتلوهم ، إنه سبحانه يبين لنا أن جنود الله من الجمادات التى لا تعى تلقت الأمر الإلهى بأن تصون موسى ، فكلمة « اقذفيه » تدل على السرعة ، وتلقّى « اليم » الأمر من الله بأن موسى عندما يُلقى فى البحر ، فلابد أنَ يلقيه إلى الساحل . « إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل » إنها أوامر للمُسخّر من المخلوقات التى لا تعصى .

لكن كيف تكون أوامر الحق لعدو لله ؟ إن الله يدخلها كخاطر مُلحّ فى رأس فرعون ليُنفّذ مُراد الله . إن امرأة فرعون تقول له ما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة القصص)

لقد دخل أمر الله كخاطر ، والتقطه آل فرعون لا ليكون قرة عين لامرأة فرعون ، ولكن لأمر مختلف أراده الله . فهل ساعة الالتقاط كان فى بالهم أن يكون موسى عدوّاً

أو قرة عين ؟ إنها « لام العاقبة » التى تتضح فى قوله : « ليكون لهم عدوّا وَحَزَنا » . فالإنسان يكون فى مُراده شيء ، ولكن القدرة الأعلى من الإنسان ـ وهو الله ـ تريد شيئاً آخر .

الإنسان فى تخطيطه أن يقوم بالعملية لكذا ، ولكن القوة الأعلى من الإنسان تريد العملية لهدفٍ آخر ، وهى التى أوحت للإنسان أن يقوم بهذه العملية . ويتجلّى ذلك بوضوح فى العلة لالتقاط آل فرعون لموسى . كان فرعون يريده قُرّة عين له ، ولكن الله أراده أن يكون عدوّاً لفرعون . وفى هذا المثال توضيح شامل للفرق بين « لام العاقبة » و« لام الإرادة والتعليل » وعندما نرى أحداثاً مثل هذه الأحداث فلا نقول : « هذا مراد الله » ولكن فلنقل : (العاقبة فيها فعلوا وأحدثوا خلاف ما خططوا) .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ ﴾

إنهم لن يضروا الرسول وصحابته لأنهم فى معيّة الله ، وهم لن يضرّوا الله ، وفى ذلك طمأنة للمُؤمنين ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أيها المؤمنون بى المصدّقون بمحمدٍ إن المعركة مع الكفر ليست معركة المؤمنين مع الكافرين ، ولكنها معركة ربكم مع هؤلاء الكافرين . وفى هذا اطمئنان كبير .

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان » ، و« الاشتراء » صفقة ، والصفقة تقتضى « ثمناً » و« مُثمناً » . و« الثمن » هنا هو الإيمان ، لأن الباء تدخل على المتروك ، و« المثْمَن » هو الكفر لأنه هو المأخوذ . فهل أخذوا الكفر ودفعوا الإيمان ثمناً له ؟

وهل معنى ذلك أن الإيمان كان موجوداً لديهم ؟

نعم كان عندهم الإيمان ؛ لأن الإيمان القديم هو إيمان الفطرة وإيمان العهد القديم الذى أخذه الله على الذّر قبل أن توجد فى الذّر الأغيار والأهواء :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أو على الأقل كان الإيمان والكفر فى متناولهم ؛ بانضباط قانون الاختيار فى النفس البشرية ، لكنهم أخذوا الكفر بدل الإيمان . والبدلية واضحة ، فقد استبدلوا الكفر بالإيمان ، فالباء ـ كما قلت ـ دخلت على المتروك . لقد تركوا الإيمان القديم وهو إيمان الذّر ، أو تركوا إيمان الفطرة فالحديث الشريف يقول :

« كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوِّدانه أو ينصرانه أو يُمجِّسانه »[1] .

لقد انسلوا من الإيمان ، ودفعوه ثمناً للكفر ، فعندما يأخذ واحد الكفر ، فهو قد أخذ الكفر بدلاً من الإيمان وهم « لن يضرّوا الله شيئا ولهم عذاب أليم » لماذا ؟ لأننا إن افترضنا أن الدنيا كلّها قد آمنت فهذا لن يُفيد الله فى شىء . والحديث القدسى يقول :

قال الله تعالى : (يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا ، يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسُكم ، يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضُرِّى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى لو أن أولَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على

---

(١): رواه البخارى .

أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخْيَطُ إذا أُدْخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه)[1] .

إذن ، فلا الإيمان من البشر يزيد الله شيئاً ، ولا الكفر ينقص من الله شيئاً ؛ لأن الإنسان قد طرأ على ملك الله . ولم يأت الإنسان فى ملك الله بشىء زائد ، فالإنسان صنعه الله وخلقه من عناصر ملكه ـ جلت قدرته ـ ويستمر الحديث فى توضيح أنّ الحق سبحانه لا يعالج شيئاً بيديه فيأخذ منه زمناً . لا ، إنه سبحانه جلّت مشيئته يقول للشىء : كُن ، فيكون .

وكلمة « كُن » نفسها هى أقصر أمر . إنّ أمره ألطف وأدق من أن يدركه على حقيقته مخلوق . لكن الحق يأتى لنا بالصورة الخفيفة التى تجعل بشريتنا تفهم الأمر . فالذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّو الله شيئاً ولهم عذاب أليم . فهم لن يعيشوا بِنَجْوَةٍ وبُعد عن العذاب ، بل سيكون لهم العذاب الأليم .

ونحن نجد أن الحق يقول مرة فى وصف مثوى الكافرين إنه عذاب اليم ، ومرة أخرى لهم عذاب عظيم ومرة عذاب مهين ، لماذا ؟

لأن العذاب له جهات متعددة ، فقد يُوجد عذابٌ مؤلم ، ولكن المُعَّذب يتجلد أمام من يُعذبّه ويُظهر أنه مازال يملك بقيّة من جَلَد ، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم ، ولَذلك قال الشاعر :

وَتجلّدى للشامتين أُريهمو
أنى لِرَيْب الدهر لا أتضعضعُ

---

(١) رواه مسلم بسنده عن أبى ذر .

فالتجلّد هو نوع من الكبرياء على الواقع . ولذلك يأتى من بعد ذلك قوله الحق إن لأمثال هؤلاء عذاباً مهيناً ، أى إنهم سيذوقون الذّل والألم ، ولا أحد فيهم يستطيع التجلّد . وهذا النوع من العذاب لا يقف فقط عند حدود الألم العادى ، ولكنه عذاب عظيم فى كمّيته وقدره ، وأليم فى وقعه . ومهين فى إذلال ودكّ النفس البشرية وغُرورها ؛ لذلك فعندما نجد أن العذاب الذى أعده الله للكافرين موصوف بأنه « عذاب أليم » ومرة « عذاب عظيم » ومرة « عذاب مهين » فلنعرف أن لكل واحدة معنى ، فليست المسألة عبارات تقال هكذا بدون معنى مقصود .

وأريد أن أقف هنا فى هذا الحديث عند « لام العاقبة » لأن البعض يحاول أن يخلق منها إشكالات إنّ هؤلاء المتربصين لكلام الله يحاولون النيل منه ، وهم لا يبحثون إلا فيما يتوهّمون ـ جهلاً ـ أنه نقاط ضعف ، وهو سبحانه وتعالى يقول عن الكفار والعياذ بالله وهم فى النار :

﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

لقد انشغل الكفار بالسّخرية من أهل الإيمان بإشاراتٍ أو لمزٍ وغمزٍ أو اتهام بالرجعية أو الدروشة أو مثل ذلك من ألوان السّخرية ، لدرجة أنهم نسوا مسألة الإيمان ، فما الذى أنساهم ذكر الله ؟ لقد أنساهم ذكر الله انشغالهم بالسّخرية من أهل الإيمان .

لقد قضى الكفار وقتهم كله للسّخرية من أهل الإيمان حتى نسوا ولم يتذكروا أن هناك خالقا للكون . وهذا ما يسمى « غاية العاقبة » وليست غاية وعلة للإرادة ، لأنهم لم يريدوا نسيان ذكر الله ولكن أمرهم انتهى إلى ذلك .

وسيُعذّب الله الكافرين عذاباً أليماً وعظيماً ومُهيناً . ولكل وصف مراده فى النص

حتى يستوعب كل حالات الإهانة من إيلام ، فالذى لا يألم بشيء صغير ولا يتحمل الألم القوى سيجد الألم الكبير ، وكذلك الذى يتجلد على الألم العظيم ، سيجد الألم المهين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وعندما نسمع قول الله : « ولايحسبن » فهو نهى ، وقد نهى الله الكافرين عن ماذا ؟ إن الكافر عندما يجد نفسه قد أفلت فى المعركة من سيف المؤمنين وأن عمره قد طال فى الكفر ، فهو يظن أن الحق سبحانه وتعالى تركه لخير له ؛ لأنه يفهم أن عمره هو أثمن شيء عنده ، فمادام قد حوفظ له على عمره فهو الخير . نقول لمثل هذا الكافر : إن العمر زمن ، والزمن وعاء الأحداث ، إذن فالزمن لذاته لا يُمجد إلا بالحدث الذى يقع فيه ، فإن كان الحدث الذى يقع فى الزمن خيراً ؛ فالزمن خير . وإن كان الحدث الذى يقع فى الزمن شراً ؛ فالزمن شر ، ومادام هؤلاء كافرين ، فلابد أن كل حركاتهم فى الوجود والأحداث التى يقومون بها هى من جنس الشر لا من جنس الخير ، لأنهم يسيرون على غير منهج الله . وربما كانوا على منهج المضادة والمضارة لمنهج الله .

وذلك هو الشر . إذن فالله لا يملى لهم بقصد الخير ، إنما يملى الله لهم لأنهم ماداموا على الكفر فهم يشغلون أوقات أعمارهم بأحداث شرّية تخالف منهج الله . وكل حدث شرّى له عذابه وجزاؤه . إذن ، فإطالة العمر لهم شر .

والحق سبحانه يقول : « ولا يحسَبنّ الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم » و« يحسَبنّ » هى فعل مضارع ، والماضى بالنسبة له هو « حسِب » - بكسر السين - ولذلك قال الحق سبحانه فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إن الماضى هو « حَسِبَ » - بكسر السين - والمضارع « يحسَب » - بفتح السين - . أما حَسَبَ « يحسِب » - بكسر السين - فى المضارع وفتحها فى الماضى فهى من الحساب والعدد ، وهو عدد رقمى مضبوط .

أمر « حَسِبَ » و« يحسَب » فتأتى بمعنى الظن ، والظن كما نعرف أمر وهمى ، والحق سبحانه يذكرهم أن ظنونهم بأن بقاء حياتهم هو خير لهم ليست حقاً . بل هى حدس وتخمين لا يرقى إلى اليقين .

صحيح أن العمر محسوب بالسنوات ؛ لأن العمر ظرف للأحداث ، والعمر بذاته - مجرداً عن الأحداث - لا يقال إن إطالته خير أو شر ، وإنما يقال : إن العمر خير أو شر بالأحداث التى وقعت فيه ، والأحداث التى تقع من الكافر تقع على غير منهج إيمانى فلا بد أن تكون شراً ، حتى ولوفعل ما ظاهره أنه خير فإنه يفعله مضارة لمنهج الله . فلو كانت المسألة بالعملية الرقمية ؛ لقلنا:« حسَب » و« يحسِب » - بفتح السين فى الماضى وكسر السين فى المضارع - لكن هى مسألة وهمية ظنية ؛ لذلك نقول: « يحسَب » - بفتح السين فى المضارع - أى يظن . وهو سبحانه يقول : « إنما نملى لهم » . ما الإملاء ؟ الإملاء هو تمديد الوقت وإطالته . ولذلك نجد فى القرآن :

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة مريم)

إنه يأمر سيدنا إبراهيم أن يهجره مدة طويلة . هذا هو معنى « واهجرنى مليا » .

والمقصود هنا أن إطالة أعمارهم بعد أن أفلتوا من سيوف المؤمنين . ليست خيراً لهم ولا يصح أن يظنوا أنها خير لهم ، لأن الله إنما يملى لهم ؛ « ليزدادو إثماً وهم

عذاب مهين » وهنا نجد « لام العاقبة » .

وإياك أن تقول أيها المؤمن : إن الله قد فعل ذلك ليعاقبهم . لا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع سننه فى الكون ويطبقها على من يخرج على منهجه،فمن يصنع إثماً يعاقبه الله عليه « إنما نملى لهم ليزدادوا إثماً » فكل ظرف من الزمن يمر عليهم يصنعون فيه أعمالاً آثمة على غير المنهج .

« ولهم عذاب مهين » وتأتى كلمة « مهين » وصفاً للعذاب مناسبة تماماً ؛ لأن الكافر قد يخرج من المعركة وقد تملكه الزهو والعجب بأن أحداً لم يستطع أن يقطع رقبته بالسيف ، ويتيه بالعزة الآثمة ، لذلك فالإيلام هنا لا يكفى ،لأنه قد يكتم الألم ويتجلد عليه ، ولكن العذاب عندما يكون مهيناً فهو العقاب المناسب لمثل هذا الموقف . والمتكلم هنا هو الله ، وسبحانه العليم بالمناسب لكل حال .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ مَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وساعة نسمع « ما كان » فلنعرف أن هنا « جحوداً » أى أن هناك من يجحد القضية . ويسمونها « لام الجحود » . فقبل حادثة أُحُد ، كان المنافقون متداخلين مع

المؤمنين . أكان الله يترك الأمر مختلطاً هكذا ، ولا يُظهر المنافقين بأحداث تبين مواقعهم الحقة من الإيمان ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى لا يقبل ذلك ؛ حتى لا يظل المنافقون دسيسة في صفوف المؤمنين . وكان لابد أن تأتي الأحداث لتكشفهم . وجاءت أحداث أُحُد لتهيج الصف المنسوب إلى الإيمان ، وتفرزه ليتميز الخبيث من الطيب ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ١٧ سورة الرعد)

إذن كانت أحداث أُحُد ضرورية .

وقوله الحق : « ما كان الله ليذر المؤمنين » مقصود بها أن الله لم يكن ليدع المؤمنين ويتركهم عرضة لاختلاط المنافقين بهم بدون أن يتميز المنافقون بشيء من الأشياء ، حتى لا تظل المسألة مقصورة على ما يُعلمه الله لرسوله من أمر المنافقين . فلو أعلم الله رسوله فقط بأمر المنافقين ، ولو أعلن الرسول ذلك للمؤمنين دون اختبار واقعي للمنافقين لكان ذلك مجرد تشخيص نظري للنفاق يأتي من جهة واحدة ، وأراد الله أن تأتي حادثة واضحة وتجربة معملية واقعية تبين وتظهر الواقع ، حتى ينكشف المنافقون ، وحتى لا يعترض أحد منهم عندما يوصف بأنه منافق ، وحتى لا يكون هذا الوصف مجرد كلام من الخصم ، بل بفعل ارتكبوه هم عملياً ، وبذلك تكون الحجة قوية للغاية .

لقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى في الصلاة ؛ لأن كل منافق منهم أراد أن يَحبك مسألة نفاقه ، ويُواريه ، فيحرص على ما يندفع المؤمنون إليه ، والمنافق كان يعرف أن المؤمنين يتسابقون إلى الصلاة ، فهو يسارع ليكون في الصف الأول من الصلاة . ويخبر الله سبحانه وتعالى رسوله :

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

أى لو لاحظت كلامهم لعرفتهم ، مثلهم مثل كل المنافقين فى الدنيا ، تلاحظ فى كلامهم لقطة من نفاق ؛ فالمؤمن حين يجلس مع جماعة من المنافقين ويأتى وقت صلاة الظهر ويدعو الأذان إلى الصلاة ، تجد المؤمن يقول : فلنقم إلى الصلاة ، وهنا يسخر المنافق ويقول للمؤمن : لتأخذنى على جناحك للجنة يوم القيامة . ومثل هذه الكلمة يكون « لحن القول » . أو عندما يدخل مؤمن على جماعة من الناس فيهم منافق ، فيستقبل المنافق المؤمن بلهجة من السخرية فى التحية ، « كيف حالك أيها الشيخ (فلان) » ؟ ومعنى ذلك أنه غير مستريح لوجود المؤمن فيسخر منه .

وذلك من « لحن القول » الذى يظهر به المنافق .

ومثل هذه العمليات عندما يواجهها المؤمن الواعى المستنير الذى يتجلّى الله عليه بالإشراقات النورانية ، مثل هذه العمليات تكون وقوداً للمؤمن وتزيد من إيمانه ؛ لأن المؤمن على منهج الحق ، وقادر على نفسه ، هذا ما يغيظ المنافق كثيراً ؛ فالمنافق يتساءل بينه وبين نفسه : لماذا يقدر المؤمن على نفسه ؟ والمنافق لا يقدر على نفسه ؛ لذلك يريد أن يسحب المؤمن من عقيدته ليكون معه على النفاق والعياذ بالله . وعلى المؤمن أن يوطن نفسه على أنه سيواجه منافقين يريدون أن يردوه عن الإيمان ، وسيجد أناساً يسخرون منه ويتغامزون عليه ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة المطففين)

والمنافق أو الكافر قد يقول لأهله : لقد رأيت اليوم شيخاً أو رجل دين أومتدينا فسخرت منه وأهنته ويتندر المنافق بمثل هذا القول فى بيئته الفاسدة ، ويكشفها الحق لنا بقوله الكريم . ليطمئن المؤمنين ، ويعوض كل مؤمن عما يصيبه من أهل النفاق والفساد :

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة المطففين)

فالحق سبحانه يسأل المؤمنين يوم القيامة : هل قدرنا أن نجازى الكفار والمنافقين الذين سخروا منكم ؟ فيقولون : نعم يارب العالمين قد جوزوا وأثيبوا على فعلهم أوفى الجزاء وأتمه وأكمله .

إن سخرية المنافقين والكافرين من المؤمنين لها أمد دنيوى ينقضى ، ولكن السخرية فى الآخرة لا تنقضى أبداً . وعندما نقيسها نحن المؤمنين ، نجد أننا الفائزون الرابحون إن شاء الله . فلو ترك أى منافق ليتداخل فى أحضان المؤمنين ، ولا يظهر ذلك للمؤمنين لكانت المسألة صعبة العلاج ، ولهذا يقول الحق للرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِى لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة محمد)

والحق لا يكتّفى بذلك ، لكنه يكشف لنا واقع المنافقين بتجارب معملية حتى لا يقول واحد منهم : لست منافقاً . وعندما يظهر الله المنافق ويكشفه بحادثة مدوية فعلية ، ومخجلة تبين أنه منافق ، فيكون قد وُصم بالنفاق ، لأن كثيراً من الناس الذين يظلون طوال عمرهم ينافقون اعتهاداً على أنهم مسلمون فى الظاهر لا يتركهم الله ، بل لابد أن يأتى الله لهم بخاطر من الخواطر ويقعوا فى فخ اكتشاف المؤمنين لهم حتى يعرفهم المؤمنون ويقيّموهم على حقيقتهم ، فسبحانه وتعالى القائل :

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب » .

وكلمة « يذر » تعنى « يترك » أو « يدع » . والدارسون للنحو يعرفون أن هناك فعلين هما « يذر » و« يدع » ، أهملت العرب الفعل الماضى لهما ، فهذان الفعلان

ليس لهما فعل ماضٍ . ونستخدمهما فى صيغة المضارع .

والحق سبحانه لم يكن ليدع المؤمنين على ما هم عليه من الاختلاط واندساس المنافقين بينهم وعدم معرفة المؤمنين للمنافقين ؛ لذلك يميز ويظهر الخبيث من الطيب . فلا يكتفى بإخبار النبى بأمر الخبثاء فقط ، ولكنه يكشف الخبثاء بفعل واقعى . فيقول : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » ؛ لأن الله لو أطلعكم على الغيب لتعرفوا المنافقين لأنكروا أنفسهم منكم وستروها عنكم ، ولذلك يجرى سبحانه الوقائع لتكشف الخبيث من الطيب ، وبعد ذلك يوصم المنافق بالنفاق بإقرار نفسه وإقرار فعله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » . إنه جلّ وعلا يختار من رسله من يشاء ليطلعهم على بعض الغيب حتى يزدادوا ثقة فى أن الله لا يتخلّى عنهم ، أى يعطى للرسول دلالات على المنافقين ، حتى يزداد الرسول ثقة فى أن الله لا يتخلّى عنه .

والله برحمته لا يكشف الغيب لكل المؤمنين ، فلو اطلع المؤمن على الغيب لفسدت أمور كثيرة فى الكون . وَهَبْ أن الله أطلع الإنسان على غيب حياته ، فعرف الإنسان ألف حادثة سارة ثم حادثة واحدة مكدرة ؛ فإن كدر الإنسان بالحادثة الواحدة المكدرة التى تقع بعد عشرين عاماً يفسد على الإنسان تنعمه بالأحداث السارة .

وإن كان الإنسان يريد أن يطلع على غيب الناس فهل يقبل أن يطلع على غيبه أحد ؟ فلماذا تريد أيها الإنسان أن تعرف غيب غيرك ؟ أيرضى أى واحد منا أن يعرف الناس غيبه ؟ لا . إذن فستر المعلومات عن الناس وجعلها غيباً هى نعمة كبرى .

ومع ذلك فالناس تُلح أن تعرف الغيب . ونرى من يجرى على الدجالين والعرافين ومن يدعون كذباً أنهم أولياء لله ، وكل ذلك من أجل أن يعرف الواحد بعضاً من الغيب . وهنا نقول : ليست مهارة العارف فى أن يقول لك ماذا سيحدث لك فى المستقبل ، لكنها فى أن يقول واحد من هؤلاء المدّعين لمعرفة الغيب : إن حادثاً مكروهاً سيقع لك ، وسأمنعه أو أدفعه بعيداً عنك . لا أحد يستطيع دفع قدر الله ،

ولذلك فلنترك المستقبل إلى أن يقع . لماذا ؟. حتى لا يحيا الواحد منا فى الهم والحزن قبل أن يقع . إذن فقول الحق : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب » هو سنة من الله لأن نظام الملك ينتظم بها ويحتاج إليها .

فكل إنسان له هزات مع نفسه ، وقد تأتى له فترة يضعف فيها فى شيء من الأشياء ، فإذا ما عرف الغير منطقة الضعف فى إنسان ما ، وعرف هذا الإنسان منطقة الضعف فى أخيه ، فلسوف يبدو كل الناس فى نظر بعضهم بعضا ضعافاً . ومن فضل الله أن أخفى غيب الناس عن الناس . وجعل الله إنساناً ما قوياً فيما لا نعلم ، وذلك قويًا فيما لا نعلم ، وبذلك تسير حركة الحياة بانتظامها الذى أراده الله .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » والحق يجتبى من الرسل ، أى بعضاً من الرسل - لا كل الرسل - ليطلعهم على الغيب حتى يعطى لهم الأمان بأنهم موصولون بمن أرسلهم ، فهو سبحانه لم يرسلهم ليتخلى عنهم ، لا ، إنهم موصولون به؛لذلك يطلعهم على الغيب ، وقلنا : إن الغيب أنواع : فمطلق الغيب : هو ما غاب عنك وعن غيرك . ولكنَّ هناك غيباً غائباً عنك وهو معلوم لغيرك ، وهذا ليس غيباً .

مثال ذلك إن ضاعت من أحدكم حافظة نقوده ، وسارقها غيب ، ومكانها غيب عن صاحبها ، لكن الذى سرقها عارف بمكانها ، إذن فهذا غيب على المسروق ، ولكنه ليس غيباً على السارق . إنه ليس غيباً مطلقاً ، وهذا ما يضحك به الدجالون على السذج من الناس ، فبعض من الدجالين والمشعوذين قد يتصلون بالشيطان أو الجن ؛ ويقول للمسروق حكاية ما عن الشيء الذى سُرق منه وهؤلاء المشعوذون لا يعرفون الغيب ؛ لأن الغيب المطلق هو الذى لا يعلمه أحد ، فقد استأثر به الله لنفسه .

ومثال آخر : الأشياء الابتكارية التى يكتشفها البشر فى الكون ، وكانت سراً ولكن الله كشف لهم تلك الأشياء ، وقد يتم اكتشافها على يد كفار أيضاً . فهل قال

أحدً: إنهم عرفوا غيباً ؟ لا ؛ لأن لمثل هذا الغيب مقدمات ، وهم بحثوا فى أسرار الله ، ووفقهم سبحانه أن يأخذوا بأسبابه ما داموا قد بذلوا جهداً ، والله يعطى الناس ـ مؤمنهم وكافرهم ـ أسبابه . وماداموا يأخذون بها فهو يعطيهم المكافأة على ذلك . ولله المثل الأعلى ، وسبحانه منزه عن كل تشبيه ، أقول لكم هذا المثل للتقريب :

المدرس الذى يعطى تمرين هندسة للتلميذ ليقوم بحله ، فهل مجىء الحل غيب ؟ لا ؛ لأن التلميذ يعرف كيف يحل التمرين الهندسى ؛ لأن فيه المعطيات التى يتدبر فيها بأسلوب معين فتعطى النتيجة . ومادام التلميذ يخرج بنتيجة لتمرين ما بعد معطيات أخذها ، فذلك ليس غيباً .

ولذلك فعلينا أن نفطن إلى أن الغيب هو ما غاب عن الكل ، وهذا ما استأثر الله بعلمه وهو الغيب المطلق ، وهو سبحانه وتعالى يطلع عليه بعضاً من خلقه من الرسل ، وهو سبحانه القائل :

﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾

(سورة الجن)

وأما الأمر المخفى فى الكون ، وكان غيباً على بعض من الخلق ثم يصبح مشهداً لخلق آخرين فلا يقال إنه غيب ، وعرفنا ذلك أثناء تناولنا بالخواطر لآية الكرسى :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه قد نسب هنا الإحاطة للبشر ، ولكن بإذن منه ، فهو يأذن للسر أن يولد ، تماماً كما يوجد للإنسان سلالات ولها أوقات معلومة لميلادها ، كذلك أسرار الكون لها ميلاد . وكل سر فى الكون له ميلاد ، هذا الميلاد ساعة يأتى ميعاده فإنه يظهر ، ويحيط به البشر . فإن كان العباد قد بحثوا عن السر وهم فى طريق المقدمات ليصلوا إليه ووافق وصولهم ميعاد ميلاده ؛ يكونوا هم المتكشفين له . وإن لم يحن ميعاد ميلاد هذا السر فلن يتم اكتشافه . وإذا حان ميلاد السر ولم يوجد عالم معملى يأخذ بالأسباب والمقدمات فالله يخرج هذا السر كمصادفة لواحد من البشر . وحينئذ يقال : إن هذا السر قد ولد مصادفة من غير موعد ولا توقع .

وأسرار الله التى جاءت على أساسها الاكتشافات المعاصرة ، كثير منها جاء مصادفة . فالعلماء يكونون بصدد شيء ، ويعطيهم الله ميلاد سر آخر . إذن فليس كل اكتشاف ابناً لبحث العلماء فى مقدمات ما ، ولكن العلماء يشتغلون من أجل هدف ما ، فيعطيهم الله اكتشاف أسرار أخرى ؛ لأن ميلاد تلك الأسرار قد جاء والناس لم يشتغلوا بها . ويتكرم الله على خلقه ويعطيهم هذه الأسرار من غير توقع ولا مقدمات .

ويستمر سياق الآية « فآمنوا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » وهو سبحانه يخاطب المؤمنين . والحق سبحانه وتعالى إذا خاطب قوماً بوصف ، ثم طلب منهم هذا الوصف فما معناه ؟ . ومثال ذلك قول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة النساء)

إنهم مؤمنون ، والحق قد ناداهم بهذا الوصف . معنى ذلك أنه يطلب منهم الالتزام بمواصفات الإيمان على مر الأزمان ، لأن الإيمان هو يقين بموضوعات الإيمان فى ظرف زمنى ، والأزمان متعاقبة لأن الزمن ظرف غير قارٍ . و« غير قارٍ » تعنى أن الحاضر يصير ماضياً ، والحاضر كان مستقبلاً من قبل . فالماضى كان فى البداية مستقبلاً ، ثم صار حاضراً ، ثم صار ماضياً . والزمن « ظرف » ، ولكنه ظرف غير قار . . أى غير ثابت . لكن المكان ظرف ثابت قار . فكأن الله يخاطبك : إن الزمن الذى مر قبل أن أخاطبك شُغِل بإيمانك ، والزمن الذى يجيء أيضاً اشغله بالإيمان .

إذن معنى ذلك : يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم . « وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » ولنا أن نتصور عظمة عطاء الحق ، فالمنهج الإيمانى يعود خيره على من يؤديه ، ومع ذلك فالله يعطى أجراً لمن اتبع المنهج . إذن فعندما يضع الحق سبحانه وتعالى منهجاً فإنه قد فعله لصالح البشر وأيضاً يثيبهم عليه ، وهو يقول :

﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة طه)

إن المتَّبع للمنهج يأخذ نفعه ساعة تأدية هذا المنهج . ويزيد الله فوق ذلك أنه سبحانه يعطى المتبع للمنهج أجراً ، وهذا محض الفضل ، وقلنا من قبل : إن العمر الذى يمده الله للكافرين والمنافقين ليس خيراً . إذن فعلى الناس أن يأخذوا المسائل والأزمنة بتبعات وآثار ونتائج ما يحدث فيها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ ﴾

لقد ظن بعض من المنافقين والكفار أن طول العمر ميزة لهم ، وها نحن أولاء بصدد قوم آخرين ظنوا أن المال الذى يجمعونه هو الخير فكلما زاد فرحوا . فيقول الحق : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » . فالمال قد جاءهم من

فضل الله ، ذلك بأنهم دخلوا الدنيا بغير جيوب . ولا أحد فينا قد رأى كفناً له جيوب . ولا أحد فينا قد رأى قماط طفل وليد له جيوب . فالإنسان يدخل الدنيا بلا جيب ، ويخرج بلا جيب . وكل ما يأتى للإنسان هو من فضل الله ، فلا أحد قد ابتكر الاشياء التى يأتى منها الرزق . ويمكن أن تبتكر من رزق موجود . فتطور فى الوسائل والأسباب وللإنسان جزء من الحركة التى وهبها الله له ليضرب فى الأرض ، ولكن لا أحد يأتى بأرض من عنده ليزرع فيها ، ولا أحد يأتى ببذور من عنده لم تكن موجودة من قبل ويزرعها ، ولا أحد يأتى بماء لم يوجد من قبل ليروى به ، فالأرض من الله ، والبذور عطاء من الله ، والماء من رزق الله ، وحتى الحركة التى يتحرك بها الإنسان هى من فضل الله .

فبالله لو أراد إنسان أن يحمل الفأس ليضرب فى الأرض ضربة ، فهل يعرف الإنسان كم عضلة من العضلات تتحرك ليرفع الفأس ؟ وكم عضلة تتحرك حين ينزل الفأس ؟!!

وعندما يضرب الإنسان الفأس . فهو يضربها فى أرض الله . والذى أراد لنفسه فأساً فإنه يذهب إلى الحداد ليصنعها له ، لكن هل سأل الإنسان نفسه من أين أتى الحديد ؟ وفى هذه قال الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

إذن فماذا تُوجد أنت أيها الإنسان ؟

أنت تأخذ المواد الخام الأولية من عند الله ، وتبذل فيها الحركة الممنوحة لك من الله ، وأنت لا توجد شيئاً من معدوم ؛ بل إنك توجد من موجود ، فكل شىء من فضل الله . وأنت أيها الإنسان مضارب فى كون الله . فعقلك الذى يفكر ، من الذى خلقه ؟ إنه الله . وجوارحك التى تنفعل للعقل من الذى خلقها ؟ إنه الله .

وجوارحك تنفعل فى منفعل هو الأرض ، بآلة هى الفأس ، ثم ترويها بماء هو

نازل من السماء . فما الذى هو لك أيها الإنسان ؟ إن عليك أن نعرف أنه ليس لك شيء فى كل ذلك ، إنما أنت مضارب لله . فلتعطه حق المضاربة .

والحق سبحانه لا يطلب إلا قدراً بسيطاً من نتاج وثمرة الأرض . . إن كانت تروى بماء السماء فعليك عشر نتاجها . وإن كانت الأرض تروى بآلة الطنبور أو الساقية فعليك نصف العشر .

والذى يزرع أرضا فإنه يحرثها فى يوم ، ويرويها كل أسبوعين .

أما الذى يتاجر فى صفقات تجارية فهى تحتاج إلى عمل فى كل لحظة ، ولذلك فإن الحق قدّر الزكاة عليه بمقدار اثنين ونصف بالمائة . إذن فكلما زادت حركة الإنسان قلل الله قدر الزكاة . وهذه العملية على عكس البشر . فكلما زادت حركته . فإنهم يأخذون منه أكثر ! !

والله سبحانه يريد أن توجد الحركة فى الكون ؛ لأنه إن وجدت الحركة فى الكون انتفع الناس وإن لم يقصد التحرك . وبعد ذلك فأين يذهب الذى يأخذه الله منك ؟ . إنه يعطيه لأخ لك ولغيره . فمادام سبحانه يعطى أخاً لك وزميلاً لك من ثمرة ونتيجة حركتك ، ففى هذا اطمئنان وأمان لك ، لأن الغير سيعطيك لو صرت عاجزاً غير قادر على الكسب . وفى هذا طمأنينة لأغيار الله فيك . فإن جاءت لك الأغيار فستجد أناساً يساعدونك ، وبذلك يتكاتف المجتمع ، وهذا هو التأمين الاجتماعى فى أرقى معانيه . أليس التأمين أن تعطى وأنت واجد وأن تأخذ وأنت فاقد ؟ . إذن فهذا كله من فضل الله .

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم » إن الذين يبخلون بفضل الله يظنون أن البخل خير لمجرد أنه يكدس عندهم الأموال ، وليس ذلك صحيحاً ؛ لأن الحق يقول : « سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة » أى أن ما بخلوا به يصنعه الله طوقاً فى رقبة البخيل ، وساعة يرى الناس الطوق فى رقبة البخيل يقولون : هذا منع حق الله فى ماله .

والرسول صلى الله عليه وسلم يصور هذه المسألة تصويراً دقيقاً حين يبين لنا أن من يُطلب منه حق الله ولم يؤده ، يأتى المال الذى منعه وضن وبخل به يتمثل لصاحبه يوم القيامة « شجاعاً أقرع » وهو ثعبان ضخم ، ويطوق رقبته . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مُثِّل له شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة يأخذ بلهزمتيه - يعنى شدقيه-يقول : « أنا مالُك أنا كنزك » ثم تلا قوله تعالى: « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » إلى آخر الآية[1] .

إذن فالذى يدخر بخلاً على الله فهو يزيد من الطوق الذى يلتف حول رقبته يوم القيامة .

« ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير » نعم فلله ميراث السماوات والأرض ، ثم يضعها فيمن يشاء ، فكل ما فى الكون نسبته إلى الله ، ويوزعه الله كيفما شاء . إن الإيمان يدعونا ألاّ ننتظر بالصدقة إلى حالة بلوغ الروح الحلقوم ، فقد روى عن أبى هريرة أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أى الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : « أن تصدّق وأنت صَحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت:لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان »[2] لأنه عند وصول الروح إلى الحلقوم لا يكون له مال .

قول الحق : « والله بما تعملون خبير » قضية تجعل القلب يرتجف خوفاً ورعباً ، فقد يدلس الإنسان على البشر ، فتجد من يتهرب من الضرائب ويصنع تزويراً دفترين للضرائب ، واحداً للكسب الصحيح وآخر للخسارة الخاطئة ويكون هذا المتهرب من الضرائب يملك المال ثم ينكر ذلك ، هذا الإنسان عليه أن يعرف أن الله خبير بكل ما يعمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ

(١) تفرد به البخارى دون مسلم من هذا الوجه ، وقد رواه ابن حبان فى صحيحه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة ـ باب أى الصدقة أفضل .

وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

روى - فى سبب نزول هذه الآية الكريمة : قال سعيد بن جُبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - لما نزل قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » قالت اليهود : يا محمد افتقر ربك ، فسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء »[1] .

والذين عايشوا الإسلام فى المدينة كانوا من اليهود . واليهود كما نعرف كانوا يَدِلون ويفخرون على العالم بأنهم أهل كتاب وعلم ومعرفة ، ويدلون على البيئة التي عاشوا فيها أنهم ملوك الاقتصاد كما يقولون الآن عن أنفسهم . كل من يريد شيئاً يأخذه من اليهود . وكانوا يبنون الحصون ويأتون بالأسلحة لتدل على القوة . وجاء الإسلام وأخذ منهم هذه السيادات كلها ، ثم تمتعوا بمزايا الإسلام من محافظة على أموالهم وأمنهم وحياتهم .

أكان الإسلام يتركهم هكذا يتمتعون بما يتمتع به المسلمون أمناً واطمئناناً ، وسلامة أبدان وسلامة أموال ثم لا يأخذ منهم شيئاً ؟ لقد أخذ منهم الإسلام الجزية . فلم يكن من المقبول أن يدفع المسلم الزكاة ويجلس اليهود فى المجتمع الإيمانى دون أن يدفعوا تكلفة حمايتهم . ولذلك أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر إلى اليهود فى المكان الذى يتدارسون فيه . فعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال : أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله من عند الله قد جاء بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، إنه

(١) رواه ابن مردويه وابن أبى حاتم .

إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنّا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الربا ويعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا . فغضب أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فضرب وجه فنحاص ضربا شديداً ، وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدوّ الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين[١] .

فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يا محمد أبصر ما صنع بى صاحبك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر » ؟ فقال يا رسول الله : إن عدوّ الله قال قولا عظيما ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجَهه ، فجحد فنحاص ذلك وقال : ما قلت ذلك . فأنزل الله فيما قال فنحاص « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء »[٢] .

هؤلاء لم يفطنوا إلى سر التعبير الجميل فى قوله سبحانه :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ١١ سورة الحديد)

فإن هذا القول هو احترام من الحق ـ سبحانه ـ لحركة الإنسان فى التملك . لماذا احترم الله حق الإنسان فى التملك ؟ هو سبحانه يريد أن يغرى المتحرك بزيادة الحركة ، ويحمل غير المتحرك على أن يتحرك . فإن طلب سبحانه شيئاً من هذا المال فهو لا يقول للإنسان : أعطنى ما أعطيت لك . بل كأنه سبحانه يقول : إننى سأحترم عرقك ، وسأحترم حركتك ، وسأحترم فكرك ، وسأحترم جوارحك وطاقاتك وكل ما فيك ، فإن أخذتُ منك شيئاً فلن أقول لك أعطنى ما أعطيت لك ، لكن أقول لك : أقرضها لى ؛ وإن أقرضتها فسوف تقرضها لا لأنتفع بها ، ولكنها لأخيك . وقد اقترض من القادر فيما بعد وذلك لك أنت إذا أصابتك الحاجة . لماذا ؟ لأننى أنا الله الذى استدعيت خلقى إلى الوجود . ومادمت أنا الله الذى استدعيت الخلق إلى

(١) أكذبونا : بيّنوا واظهروا كذبنا .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

الوجود فأرزاقهم مطلوبة منى .

إن الواحد من البشر عندما يدعو اثنين من أصدقائه فهو يصنع طعاماً يكفى خمسة أو عشرة أشخاص . ومادام الله هو الذى استدعى الخلق إلى الوجود فهو الذى يكفل لهم الرزق . وعندما يكفل لهم الرزق فلا بد أن يتحركوا . وعندما يتحركون فهو سبحانه يضمن آثار الحركة ، وذلك حتى ينال كلٌ ما يرضيه ، أو على الأقل ما يكفيه من الضروريات .

ولذلك عندما جاءت آثار الحركة من المال وتدخل البشر فيها تأميماً وغير ذلك من الإجراءات قلّت الحركة . لكن الله سبحانه وتعالى يعلم حرص الإنسان على منفعة نفسه فيغريه بذلك حتى يتحرك وسينتفع المجتمع بحركته ، سواء قصد الإنسان أو لم يقصد . إذن فحين يقترض الحق سبحانه وتعالى من بعض خلقه لبعض خلقه ، فهو سبحانه لا يتراجع فيما وهب . بل يقول جل وعلا :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

وأضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ نحن البشر قد نضطر إلى هذا الموقف ؛ فالواحد منا عندما يعطى أبناءه مصروف اليد ، فكل ابن يدخر ما يبقى منه ، وبعد ذلك يأتى ظرف لبعض الأبناء يتطلب مالاً ليس فى مُكْنة الوالد ساعة يأتى الحدث . فيقول الوالد لأبنائه : أقرضونى ما فى « حصّالاتكم » ، وسأردها لكم مضاعفة ، هو أخذها لأخيهم ، لكن لأنه الذى وهب أولاً فلم يرجع فى الهبة ، لكنه طلبها قرضاً . وعندما يأتى أول الشهر فهو يرد القرض مضاعفاً ، فإن كان ذلك ما يحدث فى مجال البشر فما بالنا بما يحدث من الخالق الوهاب لعباده ؟. هو سبحانه يقول : « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً » .

لكن اليهودى لم يأخذ المسألة بهذا الفهم ، لكنه أخذها بغباء المادة فقال : إن الله فقير ونحن أغنياء . لذلك قال الحق سبحانه : « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا » .

ولماذا يكتب الله ذلك وهو العالم بكل شيء ؟ . جاء هذا القول ليدل على التوثيق أيضاً ، فعندما يأتى هذا الرجل ليقرأ كتابه يوم القيامة يجدها مكتوبة ؛ فالكتابة لتوثيق ما يمكن أن يُنكر ـ بالبناء للمجهول ـ فإذا كان العلم من الله فقط فالعبد قد يقول :

ـ إنك يارب الذى تعاقب . فلك أن تقول ما تقول . فإذا ما كان مكتوباً عليهم ليقرأوه . فهذا توثيق لا يمكن إنكاره .

ولم يفهم ذلك اليهودى أن القرض لله هو تلطف من الحق سبحانه وتعالى واستدرار لحنان الإنسان على الإنسان . فقد شاء الحق أن يحترم أثر مجهودك وعرقك أيها الإنسان ، فإن وصلت إلى شيء من المال فهو مالك . ولم يقل الله لك : أعط أخاك ، فسبحانه وتعالى تلطفا مع خلقه يقول : أقرضنى ؛ ليضمن الإنسان أن ما أعطاه إنما هو عند ملىء . لكن أدب بنى إسرائيل مع الله مفقود ، فقد قالوا من قبل :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة المائدة)

وسبب ذلك أنه أصابتهم سنة وجدب . وذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال ابن عباس : « إن الله وسع على اليهود فى الدنيا حتى كانوا أكثر الناس مالا ، فلما عصوا الله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه ضيّق الله عليهم فى زمنه صلى الله عليه وسلم ، فقال فنحاص بن عازوراء ومن معه من يهود : يد الله مغلولة فأنزل الله هذه الآية . إنهم قالوا : السماء بخلت علينا ويد الله مغلولة ، فلم تعطنا رزقاً . هكذا كان اجتراؤهم فى الحديث عن الله « يد الله مغلولة » ونعرف أن « الغل » هو ربط اليدين بسلسلة .

وهاهم أولاء يجترئون مرة أخرى فيقولون : « إن الله فقير » . ويورد الحق سبحانه كل ذلك تسلية لسيدنا محمد حتى إذا ما اجترأوا عليه بكلمة أو على أصحابه باستهزاء ، فسبحانه يوضح لرسوله : أنهم لم يصنعوا ذلك معك ولا مع أتباعك ،

إن هذا هو موقفهم منى أنا . فإذا كان موقفهم وسوء أدبهم وصل بهم إلى أن يجترئوا على الذات المقدسة العليّة ، ويقولون : « إنّ الله فقير ونحن أغنياء » ويقولون : « يد الله مغلولة » . أفتحزن وتأسى على أن يقولوا لك أو لأتباعك أى شىء يسيئ إليكم ؟

إنها نعمت المواساة من الله لرسوله ونعمت التسلية . ويضيف الحق : « سنكتب ما قالوا » . لماذا يكتب الله ما قالوا مع أن علمه أزلى لا يُنسى ؟

﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾

(من الآية ٥٢ سورة طه)

لقد جاءت كلمة « سنكتب » حتى لا يؤاخذهم سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقول هو إنهم فعلوه ، ولكن بما كُتب عليهم وليقرأوه بأنفسهم ، وليكون حجة عليهم ، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط ، ولكنها تسجيل للصوت وللأنفاس ، ويأتى يوم القيامة ليجد كل إنسان ما فعله مسطوراً :

﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب فى الكتاب سيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصومنا أنفاسهم وكلماتهم أتستبعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها ؟ « سنكتب ما قالوا » وهم قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » وهذا معصية فى القمة ، وتبجح على الذات العلية ، ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا الأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتهم ؛ لذلك يقول الحق : « سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق » .

وعندما يأتى هذا النبأ لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو تسلية له من الحق سبحانه . لقد قالوا فى ربك يا محمد ما قالوا ، وقتلوا الأنبياء إخوانك ، فإذا صنعوا معك ما صنعوا فلا تحزن فسوف يُجَازَوْن على ما كتبناه عليهم بشهادة أنفسهم ، ونقول : ذوقوا عذاب الحريق . والحريق يصنع إيلاماً إحساسياً فى النفس .

والإحساس يختلف من حاسة إلى أخرى ، فمرة يكون الإحساس بالبصر ، ومرة بالأذن ، ومرة بالشم أو باللمس أو بالذوق .

والذوق هو سيد الأحاسيس ، فهو لا يضيع من أحد أبداً ، فقد نجد إنساناً أعمى ، وآخر أصم ، أو شخصاً ثالثاً أصيب بالشلل فلا تستطيع يده أن تلمس ، وقد يصاب واحد بزكام مستمر فلا يصبح قادراً على الشم ، أما الذوق فهو حاسة لا تختفى من أى إنسان ، ذلك أن الذوق أمر من داخل الذات ؛ لذلك فهو أبلغ فى الإيلام . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة النحل)

انظر إلى التعبير القرآنى « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . جاء التعبير بالإذاقة ، وجاء بشىء لا يذاق وهو اللباس . وهل اللباس يذاق ؟ لا ، لكنه سبحانه يريد أن ينبه الإنسان إلى أن كل الحواس التى فيه تحس ، حتى تلك الحاسة المختفية داخل النفس ، إنّ ذلك يَشمل كل جزء فى الإنسان .

فالإذاقة تحيط بالإنسان فى هذا التصوير البيانى القرآنى الكريم : « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . إذن فهى شدة وقع الإيلام ؛ واستيعاب العذاب المؤلم لكل أجزاء الجسم حتى صار الذوق فى كل مكان . « ذوقوا عذاب الحريق » ، والحريق هو النار القوية التى تحرق ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى عذاب الحريق . والحق سبحانه لم يظلمهم ، لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم . « بما قدمت أيديكم » . فهل معنى ذلك أن كل المعاصى من تقديم اليد ؟ إن هناك معصية للعين ، ومعصية للسان ، ومعصية للرِجل ، ومعصية للقلب ، ولا حصر للمعاصى . فلماذا إذن قال الحق : « بما قدمت أيديكم » ؟

قال الحق ذلك لأن الأعمال الظاهرة تُمارس عادة باليد ؛ فاليد هى الجارحة التى نفعل بها أكثر أمورنا ، وعلى ذلك يكون قول الحق : « بما قدمت أيديكم » مقصود به : بما قدمتم بأى جارحة من الجوارح .

وبعد ذلك يخبرنا سبحانه : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » لقد أذاقهم عذاب الحريق نتيجة ما كتبه عليهم ؛ من قول وفعل . والقول هو الافتراء باللسان حين قالوا : « إن الله فقير ونحن أغنياء » . والفعل هو قتلهم الأنبياء . فهم يستحقون ذلك العذاب .

والقضية العامة فى الإله وعدالة الإله أنه ليس بظلام للعبيد .

وهنا وقفة لخصوم الإسلام من المستشرقين ، هم يقولون : الله يقول فى قرآنهم « وأنَّ الله ليس بظلام للعبيد » ، وكلمة « ظلام » هى مبالغة فى كلمة « ظالم » ، ففيه « ظالم » وفيه « ظلّام » ، و« الظَّلّام » هو الذى يظلم ظلماً قوياً ومتكرراً ؛ فـ« ظلّام » هى صيغة مبالغة فى « ظالم » .

وحتى نرد عليهم لا بد لنا أن نعرف أن صيغ المبالغة كثيرة ، فاللغويون يعرفون أنها : فعّال ، فعيل ، مفعال ، فعول ، فَعِل ، فظلّام بمثلها مثل قولنا:« أكّال » ، ومثل قولنا:« قَتّال » بدلاً من أن نقول : « قاتل » فالقاتل يكون قد ارتكب جريمة القتل مرة واحدة ، لكن الـ« قتّال » هو من فعل الجريمة مرات كثيرة وصار القتل حرفته . ومثل ذلك « ناهب » ، ويقال لمن صار النهب حرفته:« نَهّاب » أى أنه إن نهب ينهب كثيراً ، ويعدد النهب فى الناس .

وهذه تسمى صيغة المبالغة . وصيغة المبالغة إن وردت فى الإثبات أى فى الأمر

الموجب فهى تثبت الأقل ، فعندما يقال : « فلان ظلّام » فالثابت أنه ظالم أيضاً ، لأننا ما دمنا قد أثبتنا المبالغة فإننا نثبت الأقل . ومثل ذلك نقول : « فلان علاّم » أو « فلان علاّمة » فمعنى ذلك أن فلاناً هذا عالم . ولكن إذا قلنا : « فلان عالم » فلا يثبت ذلك أنه « علاّمة » . فصيغة المبالغة ليس معناها « اسم فاعل » فحسب ، إنها أيضاً اسم فاعل مبالغ فيه ، لأن الحدث يأتى منه قوياً ، أو لأن الحدث متكرر منه ومتعدد . فإذا ما أثبتنا صفة المبالغة فمن باب أولى تثبت صفة غير المبالغة . فإذا ما قال واحد : « فلان أكّال » فإنه يثبت لنا أنه آكل ، هذا فى الإثبات .

والأمر يختلف فى النفى . إننا إذا نفينا صفة المبالغة ، فلا يستلزم نفى الصفة الأصلية ، فإن قلت : « فلان ليس علاّمة » فقد يكون عالماً . وهكذا نفهم لأن الإثبات يختلف عن النفى . فإذا أثْبَتَّ صفة المبالغة تثبت الصفة التى ليس فيها مبالغة من باب أولى . أما إذا نفيت صفة المبالغة فلا يستلزم ذلك نفى الصفة الأقل .

والتذييل للآية التى نحن بصددها الآن هو « وأنَّ الله ليس بظلّام للعبيد » .

يفهم المستشرقون من هذا القول أنه مجرد نفى للمبالغة فى الظلم ، لكنها لم تنف عنه أنه ظالم ولم يفهم المستشرقون لماذا تكون المبالغة هنا : إن الحق قد قال : إنه ليس بظلّام للعبيد ، ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد . ومعنى ذلك أنه ليس بظلام للعبيد من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، فلو ظلم كل هؤلاء ـ والعياذ بالله ـ لقال إنه ظلام ، حتى ولو ظلم كل واحد أيسر ظلم . لأن الظلم تكرر وذلك بتكرر من ظُلِم وهم العبيد،فإن أريد تكثير الحديث فليفطن الغبى منهم إلى أن الله قال : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ولم يقل إنه ليس بظلام للعبد .

وإذا كان الظالم لا بد أن يكون أقوى من المظلوم ، إذن فكل ظلم يتم تكييفه بقوة الظالم . فلو كان الله قد أباح لنفسه أن يظلم فلن يكون ظالماً ؛ لأن عظم قوته لن يجعله ظالماً بل ظَلاّما .

فإن أردنا الحدث فيكون ظلاماً ، وإن أردنا تكراراً للحدث فيكون ظلاماً . وحين

يحاول بعض المستشرقين أن يستدركوا على قول الحق : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » فهذا الاستدراك يدل على عجز فى فهم مرامى الألفاظ فى اللغة أو أنّ هؤلاء يعلمون مرامى الألفاظ ويحاولون غش الناس الذين لا يملكون رصيداً لغوياً يفهمون به مرامى الألفاظ . ولكن الله سبحانه وتعالى يُسخر لكتابه من ينبه إلى إظهار إعجازه فى آياته .

وبعد أن انتهى الحق من غزوة أُحُد ، فهو سبحانه يريد أن يقرر مبادىء يبين فيها معسكرات العداء للإسلام : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر مشركى قريش فى مكة ، ومعسكر المشركين الذين حول المدينة وكانوا يغيرون على المدينة .

فبعد غزوة أُحُد التى صفّت ، وربّت ، وامتحنت وابتلت ، وعرّفت الناس قضايا الدين ، أراد الحق بعدها أن يضع المبادىء .

فأوضح القرآن : أن هؤلاء أعداؤكم ؛ تذكروهم جيداً ، قالوا فى ربكم كذا ، ويقولون فى رسولكم كذا ، وقتلوا أنبياءكم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ ﴾

هم يدّعون ذلك ويقولون : ربنا قال لنا هذا فى التوراة ؛ إياكم أن تؤمنوا برسول

يأتيكم ، حتى يأتيكم بمعجزة مُحسة ، هذه المعجزة الـمُحسّة هى أن يقدم الرسول قرباناً فتنزل نار من السماء تأكله .

هذا كان صحيحاً ، وكلنا نسمع قصة قابيل وهابيل :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ونريد أن نقبل على القرآن ونتدبر : لماذا جاء هذا اللفظ : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » ؟ إن القبول من الله ، وهو مسألة سرية عنده ، فكيف نعرف نحن أن الله تقبل أو لم يتقبل ؟ لا بد أنه الله قد جعل للقبول علامة حسية . ونحن نعرف أن الإنسان قد يعمل عملاً فيقبله الله ، ونجد إنساناً آخر قد يعمل عملاً ولا يقبله الله والعياذ بالله ، فمن الذى أعلمنا أن الله قد قبل عمل إنسان وقربانه ، ولم يقبل عمل الآخر وقربانه ؟ .

وبما أن القبول سر من أسرار الله إذن فلن نعرف علامة القبول إلا إذا كانت شيئاً مُحساً ، بدليل قوله : « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقال الذى لم يتقبل الله قربانه : « لأقتلنك » كأن الذى قبل الله قربانه قد عرف ، والذى لم يتقبل الله قربانه قد عرف أيضاً ، إذن فلا بد أن هناك أمراً حسياً قد حدث .

وقلنا : إن الله كان يخاطب خلقه على قدر رشد عقولهم حساً ومعنى ؛ ولذلك كانت معجزاته سبحانه وتعالى للأنبياء السابقين لرسول الله هى من الأمور الـمُحسة . فالمعجزة التى آتاها الله لإبراهيم كانت نارا لا تحرق ، وعصا سيدنا موسى تنقلب حية ، وسيدنا عيسى عليه السلام يبرىء الأكمه والأبرص ويُحيى الموتى بإذن الله . والمعجزة الحسية لها ميزة أنها تقنع الحواس ، ولكنها تنتهى بعد أن تقع لمرة واحدة . لكن المعجزة العقلية التى تناسب رشد الإنسانية ، هى المعجزة الباقية ،

وحتى تظل معجزة باقية فلا يمكن أن تكون حسية .

إذن فعندما تأتى معجزة خالدة لرسول هو خاتم الرسل ، والذى سوف تقوم القيامة على المنهج الذى جاء به ، هذه المعجزة لا بد أن تكون ذات أمد ممتدّ ، والامتداد يناقض الحسّية ؛ لأن الحسّية تظل محصورة فيمن رآها ، والذى لم يرها لا يقولها ولا يؤمن بها إلا إذا كان على ثقة عظيمة بمن أخبره بها . وابنا آدم ، قابيل وهابيل قرّب كل منهما قربانا .

و« قُربان » مثلها فى اللغة مثل « غفران » و« عُدوان » والقُربان هو شىء أو عمل يتقرب به العبد من الله . وقبول هذا العمل من البر هو سرّ من أسرار الله . فما الذى أدرى هؤلاء أن قربان هابيل قد تقبّله الله ولم يتقبّل الله قربان قابيل ؟ لا بد أن تكون المسألة حسّية . ولا بد أن قابيل وهابيل قد اختلفا ، ولكن القرآن لم يقل لنا على ماذا اختلفا ، إنها دعوى أن واحداً منهما مُقرّب إلى الله أكثر ، ولكن بأى شكل ؟ لم يظهر القرآن لنا ذلك ، ولو كانت المسألة مهمة لأظهرها الله لنا فى القرآن الكريم ، فلا تقل كان الخلاف على زواج أو غير ذلك . فالذى ظهر لنا من القرآن أن خلافاً قد وقع بينهما أو أنهما قد حكّما السماء . ومبدأ تحكيم السماء لا يستطيع أحد أن ينقضه . وكان لكل واحد منهم شبهة . وعندما قامت الشبهة التى لقابيل ضد الشبهة التى لهابيل ، فلا إقناع من صاحب شبهة لصاحب شبهة ، ولذلك ذهبا إلى التحكيم .

ونحن فى عصرنا الحديث عندما نختلف على شىء فإننا نقول : نجرى قرعة . وذلك حتى لا يرضخ إنسان لهوى إنسان آخر ، بل يرضخ الاثنان للقدر ، فيكتب كل منهما ورقة ثم يتركان ثالثا يجذب إحدى الورقتين . أما هابيل وقابيل فيذكر القرآن الكريم : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذا قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » .

إذن فكل واحد منهما كانت له شبهة ، ولا أحد منهما بقادر على إقناع الثانى ؛ لذلك قال قابيل بعد أن قبل الله قربان هابيل : « لأقتلنك » فماذا قال هابيل ؟ . قال : « إنما يتقبل الله من المتقين » .

إذن فالذى يتقبل الله منه القربان هو الذى سيُقتل . والذى يملأه الغيظ هو من لم يتقبل الله قربانه ، وهو الذى سوف يَقْتُل . فماذا قال صاحب القربان المقبول :

﴿ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

إذن فهذا أهل لأن يتقبّل الله قربانه ، لأنه متيقظ الضمير بمنهج السماء ، وهذه حيثية لتقبل القربان .

وحتى لا نظن أن الآخر « قابيل » كله شر لمجرد أن الشهوة سيطرت عليه ، لكنْ الحق يظهر لنا أن فيه بعض الخير ، ودليل ذلك قول الحق :

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وهذا القول يدل على أنه تردد ، فلا يقال : « طوّعت الماء » ، ولكن يقال « طوّعت الحديد » ، فكأن الإيمان كان يعارض النفس ، إلا أن النفس قد غلبت وطوّعت له قتل أخيه . وعندما قتل قابيل أخاه وهدأت شرّة الغضب وسُعار الانتقام ، رأى أخاه مُلقى فى العراء :

﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة المائدة)

وعلى هذا النسق قال اليهود : إن الله أوصانا ألا نؤمن برسول إلا بعد أن يأتى بمعجزة من الـمُحسّات . لماذا قالوا ذلك ؟ . قالوا ذلك لأن معجزة رسول الله الكبرى وهى القرآن الكريم لم تكن من ناحية المحسّات وانتهى عهد الإعجاز بالمحسّات فقط،فرسولنا له معجزات حسية كثيرة ، ونظرا لأن هذه ينتهى إعجازها بانقضائها فكان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة وهو الذى يناسب الرسالة

الخاتمة ، فهم طلبوا أن تكون المعجزة بالمحسّات حتى يصنعوا لأنفسهم شبه عذر فى أنهم لم يؤمنوا ، فقالوا ما أورده القرآن :

« الذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا » .. إلخ.

وعلمنا الحق فى هذه الآية أن القربان تأكله النار ، ومن هذا نستنبط كيف تقبل الله قربان هابيل ولم يتقبل قربان قابيل ، لكى نفهم أن القرآن لا يوجد به أمر مكرر . والحق سبحانه يرينا ردوده الإلهية المقنعة الممتعة :

« قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم .. » إلخ الآية .

لقد جاءكم رسل قبل رسول الله بالقربان وأكلته النار ومع ذلك كفرتم . فلو كان كلامكم أيها اليهود صحيحاً ، لكنتم آمنتم بالرسل الذين جاءوكم بالقربان الذى أكلته النار . وهكذا يكشف لنا الحق أنهم يكذبون على أنفسهم ويكذبون على رسول الله ، وأنها مجرد « مماحكات » ولجاج وتمادٍ فى المنازعة والخصومة .

والحق سبحانه يأمر رسوله أن يسأل : « فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين » ؟

هو سبحانه يريد أن يضع لنا قضية توضح أن عهد المعجزات الحسّية وحدها قد انتهى ، ورُشد الإنسانية وبلوغ العقل مرتبة الكمال قد بدأ ؛ لذلك أتى سبحانه بآية عقلية لتظلّ مع المنهج إلى أن تقوم الساعة . ولو كانت الآية حسّية لاقتصرت على المعاصر الذى شهدها وتركت من يأتى بعده بغير معجزة ولا برهان . أما مجىء المعجزة عقلية فيستطيع أى واحد مؤمن فى عصرنا أن يقول : سيدنا محمد رسول الله وتلك معجزته . ولكن لو كانت المعجزة حسّية وكانت قرباناً تأكله النار ، فما الذى يصير إليه المؤمن ويستند إليه من بعد ذلك العصر ؟

إن الحق يريد أن يعلمنا أن الذى يأتى بالآيات هو سبحانه ، وسبحانه لا يأتى بالآيات على وفق أمزجة البشر ، ولكنه يأتى بالآيات التى تثبت الدليل ؛ لذلك فليس للبشر أن يقترحوا الآية . هو سبحانه الذى يأتى بالآية ، وفيها الدليل . لماذا ؟

لأن البعض قد قال للرسول :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد كانت كل هذه آيات حسّية طلبوها ، والله سبحانه وتعالى يرد على ذلك حين قال لرسوله : إن الذى منعه من إرسال مثل هذه الآيات هو تكذيب الأولين بها :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فحتى هؤلاء الذين قالوا : لن نؤمن حتى تأتى بقربان تأكله النار قد جاءهم من قبل من يحمل معجزة القربان الذى تأكله النار ، ومع ذلك كذبوا ، إذن فالمسألة مماحكة ولجاج فى الخصومة . ويُسلّى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وتسلية الله لرسوله هنا تسلية بالنظير والمثل فى الرسل . كأن الحق يوضح : إن كانوا قد كذبوك فلا تحزن ؛ فقد كذبوا من قبلك رسلاً كثيرين ، وأنت لست بِدَعاً من الرسل .

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُو بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

ويتسامى الحق سبحانه وتعالى بروح سيدنا رسول الله إلى مرتبة العلو الذى لا يرقى إليه بشر سواه ، فيقول :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنعام)

فالمسألة ليست مسألتك أنت إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » . أى هذا الأمر ليس خاصا بك بل هو راجع إلىّ فلا أحد يقول عنك إنك كذّاب هم يكذبوننى ، الظالمون يجحدون وينكرون آياتى فالحق سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم هنا للتسلية ويعطيه الأسوة التى تجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذبون به فيقول :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾

(سورة ال عمران)

ونعرف أن الشرط سبب فى وجود جوابه . فإذا كان الجواب لم يأت فالشرط هو الذى يجعله يأتى ، وإذا كان الجواب قد حصل قبل الشرط فما الحال ؟. الحق يوضح : إن كذبوك يا محمد فقد كذبوا رسلاً من قبلك . أى أن « جواب الشرط » قد حصل هنا قبل الشرط وهذه عندما يتلقفها واحد من السطحيين أدعياء الإسلام ، أو من المستشرقين الذين لا يفهمون مرامى اللغة فمن الممكن أن يقول :

إن الجواب فى هذه الآية قد حصل قبل الشرط . وهنا نرد عليه قائلين : أقوله تعالى : « فقد كذب رسل من قبلك . . » هو جواب الشرط .. أم هو دليل الجواب ؟ لقد جاء الحق بهذه الآية ليقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

فإن كذبوك فلا تحزن ، فقد سبقك أن كَذّب قوم رسلَهم . إنها علة لجواب الشرط ، كأنه يقول :

فإن كذبوك فلا تحزن . إذن فمعنى ذلك أن المذكور ليس هو الجواب ، إنما هو

الحيثية للجواب « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . . إلخ .

وعندما نقول : « جاءنى فلان بكذا » فقد يكون هو الذى أحضره ، وقد يكون هو مجرد مصاحب لمن جاء به .

ولنضرب هذا المثل للإيضاح ـ ولله المثل الأعلى ـ فلنفترض أن موظفاً أرسله رئيسه بمظروف إلى إنسان آخر ، فالموظف هو المصاحب للمظروف .

إذن فالبينات جاءت من الله ، لكن هؤلاء الرسل جاءوا مصاحبين ومؤيَّدين بالبينات كى تكون حُجة لهم على صدق بلاغهم عن الله ، « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات » . أى جاءوا بالآيات الواضحة الدلالة على المراد . والآيات قد تكون لفتاً للآيات الكونية ، وقد تكون المعجزات .

ونعلم أن كل رسول من الرسل الذين سبقوا سيدنا رسول الله كانت معجزتهم منفصلة عن منهجهم ، فالمعجزة شىء وكتاب المنهج شىء آخر . « صحف إبراهيم » فيها المنهج لكنها ليست هى المعجزة؛ فالمعجزة هى الإحراق بالنار والنجاة، وموسى عليه السلام معجزته العصا وتنقلب حية ، وانفلاق البحر ، لكن كتاب منهجه هو « التوراة » ، وعيسى عليه السلام كتاب منهجه « الإنجيل » ومعجزته العلاج وإحياء الموتى بإذن الله ، إذن فقد كانت المعجزة منفصلة عن المنهج ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن معجزته هى عين منهجه ، معجزته القرآن ، ومنهجه فى القرآن ، لماذا ؟

لأنه جاء رسولاً يحمل المنهج المكتمل وهو القرآن الكريم ، ومع ذلك فهو صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم ، فلا بد أن تظل المعجزة مع المنهج ؛ كى تكون حُجة ، إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « جاءوا بالبينات » : أى المعجزات الدالات على صدقهم . « والزبر والكتاب المنير » أى الكتب التى جاءت بالمنهج ، فهم يحتاجون إلى أمرين اثنين : منهج ومعجزة .

و« البينات » هى المعجزة أى الأمور البينة من عند الله وليست من عند أى واحد

منهم ، ثم جاء « المنهج » فى « الزُّبُر والكتاب المنير » . ومعنى « الزِبْر » : الكتاب ، ومادام الشيء قد كُتِب فقد « زبره » أى كَتَبَهُ ، وهذا دليل على التوثيق أى مكتوب فلا ينطمس ولا يمحى فالزَّبْر الكتابة ، و« الزَّبْرُ » تعنى أيضا الوعظ ؛ لأنه يمنع الموعوظ أن يصنع ما عظم أى يمتنع عن الخطأ وإتيان الانحراف ، و« الزَّبْرُ » أيضا تعنى العقل ؛ لأنه يمنع الإنسان من أنْ يرد موارد التهلكة .

والذين يريدون أن يأخذوا العقل فرصة للانطلاق والانفلات ، نقول لهم : افهموا معنى كلمة « العقل » ، معنى العقل هو التقييد ، فالعقل يقيدك أن تفعل أى أمر دون دراسة عواقبه . والعقل من « عَقَلَ » أى ربط ، كى يقال هذا ، ولا يقال هذا ، ويمنع الإنسان أن يفعل الأشياء التى تؤخذ عليه . و« الزبر » أيضاً : تحجير البئر ؛ فعندما نحفر البئر ليخرج الماء ، لا نتركه . بل نصنع له حافة من الحجر ونبنيه من الداخل بالحجارة . كى لا يُردم بالتراب وكل معانى الزبر ملتقية ، فهو يعنى : المكتوبات ، والمكتوبات لها وصف ، إنّها منيرة ، وهذه الإنارة معناها أنها تبين للسالك عقبات الطريق وعراقيله ، كى لا يتعثر .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يسلّى رسوله صلى الله عليه وسلم ويوضح له : لا تحزن إن كذبوك ؛ فقد كذب رسل من قبلك ،والرسل جاءوا بالمنهج وبالمعجزة ، وبعد أن يعطى الله للمؤمنين ولرسول الله مناعة ضد ما يذيعه المرجفون من اليهود وضد ما يقولون ، وتربية المناعة الإيمانية فى النفس تقتضى أن يخبرنا الله على لسان رسوله بما يمكن أن تواجهه الدعوة ؛ حتى لا تفجأنا المواجهات ويكشف لنا سبحانه بما سيقولون . وبما سيفعلونه .

ونحن نفعل ذلك فى العالم المادى : إذا خفنا من مرض ما كالكوليرا ـ مثلاً ـ ماذا نفعل ؟ نأخذ الميكروب نفسه ونُضْعِفُه بصورة معينة ثم نحقن به السليم ؛ كى نربّى فيه مناعة حتى يستطيع الجسم مقاومة المرض .

ثم بعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى بقضية إيمانية يجب أن تظل على بال المؤمن دائماً . هذه القضية : إن هم كذبوك فتكذيبهم لا إلى خلود ؛ لأنهم سينتهون

بالموت ، فالقضية معركتها موقوتة ، والحساب أخيراً عند الحق سبحانه ، ولذلك يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾

ونلاحظ أن كلمة « ذائقة » جاءت أيضاً هنا ، ونعرف أن هناك « قتلا » وهناك « موتا » ، فالموت معناه أعم وهو : انتهاء الحياة سواء أكان بنقض البنية مثل القتل ، أم بغير نقض البنية مثل خروج الروح وزهوقها حتف الأنف ، ولذلك فالعلماء الذين يدققون فى الألفاظ يقولون : هذا المقتول لو لم يُقتل ، أكان يموت ؟ نقول : نعم ؛ لأن المقتول ميت بأجله ، لكن الذى قتله هل كان يعرف ميعاد الأجل ؟ لا . إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاق الروح ، أمّا المقتول فقد كتب الله عليه أن يفارق الحياة بهذا العمل .

إذن فكل نفس ذائقة الموت إما حتف الأنف وإمّا بالقتل . ولأن الغالب فى المقتولين أنهم شهداء ، والشهداء أحياء ، لكن الكل سيموت . يقول تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

انظروا إلى دقة العبارة : « وإنما توفون أجوركم يوم القيامة » أى إياكم أن تنتظروا نتيجة إيمانكم فى هذه الدنيا ، لأنكم إن كنتم ستأخذون على إيمانكم ثوابا فى الدنيا

فهذا زمن زائل ينتهى ، فثوابكم على الإيمان لا بد أن يكون فى الآخرة لكى يكون ثوابا لا ينتهى .

ونعرف ما حدث فى بيعة العقبة الثانية ؛ حينما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار عهوداً ، قالوا : فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا ؟ لم يقل لهم صلى الله عليه وسلم ستنتصرون أو ستملكون الدنيا ، بل قال : « الجنة » قالوا : ابسط يدك ، فبسط يده فبايعوه ، فلو وعدهم بأى شىء فى الدنيا لقال له أى واحد فطن منهم : ما أهونها ، ولذلك عندما قال واحد لصاحبه : أنا أحبك قدر الدنيا ، فقال له : وهل أنا تافه عندك لهذه الدرجة ؟.

فكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إياكم أن تفهموا أن جزاء الإيمان يكون فى الدنيا ؛ لأنه لو كان فى الدنيا لكان زائلاً ولكان قليلا كجزاء على الإيمان ، لأن الإيمان وصل بغير منتهٍ وهو الله ، فلا بد أن يكون الجزاء غير منتهٍ وهو الجنة ، فقال : « وإنما توفون أجوركم » . . وأخذ أهل اللمح من كلمة « توفون » أن هناك مقدمات ؛ لأن معنى « وفيته أجره » أى أعطيته وبقى له حاجة وأكمل له ، نعم هو سبحانه يعطيهم حاجات إيمان ، ويكفى إشراقة الإيمان فى نفس المؤمن ، فالجواب لا بد أن يكون متمشياً مع منطق من يسمع هذه الآية ؛ فقد يموت من يسمعها بعد قليل فى معركة ، وما دام قد مات فى معركة فهو لم ير انتصاراً ، ولم ير غنائم ولا أى شىء ، فماذا يكون نصيبه ؟ إنه يأخذ نصيبه يوم القيامة « توفون » فمن نال منها شيئاً فى الدنيا بالنصر ، بالغنائم ، بالزهو الإيمانى على أنه انتصر على الكفر فهذا بعض الأجر ، إنما الوفاء بكامل الأجر سيكون فى الآخرة ، لأن كلمة التوفية تفيد أن توفية الأجور وتكميلها يكون فى يوم القيامة ، وأن ما يكون قبل ذلك فهو بعض الأجور التى يستحقها العاملون .

ويقول الحق : « فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرأوا إن شئتم : « فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز »[1]

(١) رواه ابن أبى حاتم ، ورواه البخارى ومسلم من غير هذا الوجه وبدون هذه الزيادة وأبو حاتم وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه

وعندما تقول : زحزحت فلاناً ، معناها أنه كان متوقفا برعب ، فكيف يحدث ذلك عند النار ؟. نعرف أن النار سببها المعصية ، والمعصية كانت لها جاذبية للعصاة ، ويأتى الإيمان ليشدهم فتأخذهم جاذبية المعصية ، فكذلك يكون الجزاء بالنار . إذن فالنار لها جاذبية لأنها ستكون فى حالة غيظ . . ولذلك يقول ربنا :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾

(من الآية ٨ سورة الملك)

النار تتميز من الغيظ على الكافرين . وما معنى تميز من الغيظ ؟ أما رأيت قِدْراً يفور ؟ ساعة يفور القدر فإن بعض الفقاقيع تخرج منه وتنفصل عما فى القدر ، وهذا « تميز » أى تفترق ، والإنسان منا عندما يكون فى حالة غيظ تخرج منه أشياء كفقاقيع غليان القدر إنه يرغى ويزبد أى اشتد غضبه ، هذه الفقاقيع تحرق من يقف أمامها أو يلمسها ، وهى من شدة الفوران تميز بعضها وانفصل عن القدر ، كذلك النار ، ولماذا تميز من الغيظ ؟ إنها تميز من الغيظ من الكافرين ؛ لأنها أصلها مُسبّحة حامدة شاكرة ، وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ ﴾ وتقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة ق)

وذلك مما يدل على أن كلمة : « تميز من الغيظ » حقيقة ؛ ولذلك يبين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النار لها جاذبية ، فالنار إنما كانت نتيجة المعصية فى الدنيا ، والمعصية فى الدنيا هى التى تجذب العصاة ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك : (مثلى ومثلكم كمثل رجل أوقد نارا فجعل الفراش والجنادب يَقعْن فيها وهو يذبّهنّ عنها ، وأنا آخذ بِحُجُزكم عن النار وأنتم تَفلّتون من يدى)[1] انظر إلى التشبيه الجميل ـ حين توقد ناراً فى خلاء فأول مظهر هو أن ترى الفراش والهوامّ والبعوض تأتى على النار ، ولذلك يقولون : رُبّ نفس عشقت مصرعها .

لقد جاءت تلك الحشرات على أساس أنها جاءت للنور ، إننا نرى ذلك عندما نُشعِل موقداً فى الخلاء فأنت تجد حوله الكثير من هذه الحشرات صرعى ، تلك

---

(١) رواه أحمد ومسلم عن جابر .

الحشرات عشقت مصرعها ، إنها قد جاءت إلى النور ولكن النار أحرقتها ، كذلك الإنسان العاصى يعشق مصرعه ؛ لأنه لا يعرف أن هذه الشهوة ستدخله النار .

« فمن زُحزح عن النار » أى أن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان ، ومجرد الزحزحة عن النار ، حتى وإن وقف بينهما لا فى النار ولا فى الجنة فهذا حسن ، فما بالك إنْ زُحزح عن النار وأُدخل الجنة ؟ لقد زال منه عطب وأعطى صالحاً . وهذه حاجة حسنة ، وهذا هو السبب فى أن النار مضروب على متنها الصراط الذى سنمر عليه ، لماذا ؟ حتى يرى المؤمن النار . . وهو ماشٍ على الصراط التى لو لم يكن مؤمناً لنزل فيها ، فيقول : الحمد لله الذى نجانى من تلك النار .

« فمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » والفوز هو النجاة مما تكره ، ولقاء ما تحب ، مجرد النجاة مما تكره نعمة ، وأن تذهب بعد النجاة مما تكره إلى نعمة ، فهذا فوز . ونلحظ فى « زُحزح » أن أحداً غيره قد زحزحه . نعم لأنّ الله تكرّم عليه أولاً فى حياته بفيض الإيمان وهو الذى زحزحه عن النار أيضا .

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

وعندما يصف الحق سبحانه الحياة التى نعرفها بأنها « دنيا » ففى ذلك ما يشير إلى أن هناك حياة توصف بأنها « غير دنيا » وغير الدنيا هى « العليا » ، ولذلك يقول الحق فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

أى هى الحياة التى تستحق أن تُسمّى حياة ؛ لأن الدنيا لا يقاس زمانها ببدايتها إلى قيام الساعة ، لأن تلك الحياة بالنسبة للكون كله ، ولكن لكل فرد فى الحياة دنيا ليس عمرها كذلك ، وإنما دنيا كل فرد هى مقدار حياته فيها . ومقدار حياته فيها لا يُعلم أهو لحظة أم يوم أم شهر أم قرن . وقصارى الأمر أنها محدودة حداً خاصا لكل عمر ، وحداً عاماً لكل الأعمار .

والمتعة فى الدنيا على قدر حظ الإنسان فى المتع ، فهى على قدر إمكاناته . فإذا نظرنا إلى الدنيا بهذا المعيار فإن متاعها يعتبر قليلاً ، ولهذا لا يصح ولا يستقيم أن يغتر الإنسان بهذه المتعة متذكراً قول الله :

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝ ﴾

(سورة العَلَق)

فالغرور إذن أن تلهيك متعة قصيرة الأجل عن متعة عالية لا أمد لانتهائها ، فحتى لا يغتر عائش فى الدنيا فيلهو بقليلها عن كثير عند الله فى الآخرة يجب أن يقارن متعة أجلها محدود وإن طال زمانها بمتعة لا أمد لانتهائها ، متعة على قدر إمكاناتك ومتعة على قدر سعة فضل الله ؛ لذلك كانت الحياة الدنيا متاع غرور ممن غُرّ بالتافه القليل عن العظيم الجليل .

والله لم يظلم الدنيا فوصفها أنها متاع ، ولكن نبهنا إلى أنها ليست المتاع الذى يُغتَرّ به فيلهى عن متاع أبقى ، إنه الخلود . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ولأتباع رسوله قضية تُنشىء فيهم وتؤكد لهم أن الإيمان وحده خير جزاء للمؤمن ، وإن لم يتأت له فى الدنيا شىء من النعيم ، ولذلك أراد أن يوطنهم على أن الذين يدخلون الإيمان ، لا يوطِّنون أنفسهم على أن الإيمان دائماً منتصر ، فلو كان دائماً منتصراً لوطّن كل واحد نفسه عليه ورضيه لأنه يضمن له حياة مطمئنة ؛ لذلك كان لا بد أن يوضح لهم : أن هناك ابتلاءات . فالقضية الإيمانية أن تبتلوا ، وموقع البلاء فى نفوسكم أو فى أموالكم ، فقال :

﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ

وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

والبلاء فى المال بماذا ؟ بأن تأتى آفة تأكله ، وإن وجد يكون فيه بلاء من لون آخر ، وهى اختبارك هل تنفق هذا المال فى مصارف الخير أو لا تعطيه لمحتاج ، فمرة يكون الابتلاء فى المال بالإفناء ، ومرة فى وجود المال ومراقبة كيفية تصرفك فيه ، والحق فى هذه الآية قدم المال على النفس ؛ لأن البلاء فى النفس يكون بالقتل ، أو بالجرح ، أو بالمرض . فإن كان القتل فليس كل واحد سيقتل ، إنما كل واحد سيأتيه بلاء فى ماله .

« ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » هما إذن معسكران للكفر : معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر المشركين . هذان المعسكران هما اللذان كانا يعاندان الإسلام ، والأذى الكثير تمثل فى محاولة إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأذى الاستهزاء بالمؤمنين ، وأهل الكفر والشرك يقولون للمؤمنين ما يكرهون ، فوطّنوا العزم أيها المسلمون أن تستقبلوا ذلك منهم ومن ابتلاءات السماء بالقبول والرضا .

ويخطىء الناس ويظنون أن الابتلاء فى ذاته شرّ ، لا . إن الابتلاء مجرد اختبار ، والاختبار عرضة أن تنجح فيه وأن ترسب ، فإذا قال الله : « لتبلون » ، أى سأختبركم ـ ولله المثل الأعلى ـ كما يقول المدرس للتلميذ : سأمتحنك « فنبتليك » يعنى نختبرك فى الامتحان ، فهل معنى ذلك أن الابتلاء شرّ أو خير ؟ . إنه شرّ على من لم يتقن التصرف . فالذى ينجح فى البلاء فى المال يقول : كله فائت ، وقلل الله مسئوليتى ، لأنه قد يكون عندى مال ولا أحسن أداءه فى مواقعه الشرعية ، فيكون المال علىّ فتنة . فالله قد أخذ منى المال كى لا يدخلنى النار ، ولذلك قال فى سورة « الفجر » :

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾

﴿ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

فهنا قضيتان اثنتان : الإنسان يأتيه المال فيقول : ربى أكرمنى ، وهذا أفضل ممن جاء فيه قول الحق :

﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

إذن فالذى نظر إلى المال وظن أنّ الغنى إكرام ، ونظر إلى الفقر والتضييق وظن أنه إهانه ، هذا الإنسان لا يفطن إلى الحقيقة ، والحقيقة يقولها الحق:« كلا » أى أن هذا الظن غير صادق ؛ فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة ، ولكن متى يكون المال دليل الكرامة ؟ يكون المال دليل كرامة إن جاءك وكنت موفقاً فى أن تؤدى مطلوب المال عندك للمحتاج إليه ، وإن لم تؤد حق الله فالمال مذلة لك وإهانة ، فقد أكون غنياً لا أعطى الحق ، فالفقر فى هذه الحالة أفضل ، ولذلك قال الله للاثنين : « كلا » ، وذلك يعنى : لا إعطاء المال دليل الكرامة ولا الفقر دليل الإهانة .

وأراد سبحانه أن يدلل على ذلك فقال :

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾

(سورة الفجر)

« كلا بل لا تكرمون اليتيم » ومادمتم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المال دليل الكرامة ؟ إن المال هنا وزر ، وكيف إن سلبه منك يا من لا تكرم اليتيم يكون إهانة ؟ . . إنه سبحانه قد نزهك أن تكون مهانا ، فلا تتحمل مسئولية المال . إذن فلا المال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة .

« كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين » وحتى إن كنت لا تمتلك ولا تعطى أفلا تحث من عنده أن يُعطى ؟ أنت ضنين حتى بالكلمة ، فمعنى تحض على طعام المسكين . أى تحث غيرك .. فإذا كنت تضن حتى بالنصح فكيف تقول إن المال كرامة والفقر إهانة ؟ . . « كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحاضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لـمّا » أى تأكلون الميرات وتجمعون فى أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم دون أن يتحرّى الواحد منكم هل هذا المال حلال أو حرام . . فإذا كانت المسألة هكذا فكيف يكون إيتاء المال تكريماً وكيف يكون الفقر إهانة ؟ . . لا هذا ولا ذاك .

« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » والذى يقول هذا الكلام : هو الله ، إذن لا بد أن يتحقق ـ فيارب أنت قلت لنا : إن هذا سيحصل وقولك سيتحقق ، فماذا أعطيتنا لنواجه ذلك ؟ـ اسمعوا العلاج : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » . . تصبر على الابتلاء فى المال ، تصبر على الابتلاء فى النفس ، تصبر على أذى المعسكر المخالف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا ، إن صبرت فإن ذلك من عزم الأمور ، والعزم هو : القوة المجتمعة على الفعل . فأنت تنوى أن تفعل ، وبعد ذلك تعزم يعنى تجمع القوة ، فقوله : « فإن ذلك من عزم الأمور » أى من معزوماتها التى تقتضى الثبات منك ، وقوة التجميع والحشد لكل مواهبك لتفعل .

إذن فالمسألة امتحان فيه ابتلاء فى المال ، وابتلاء فى النفس وأذى كثير من الذين أشركوا ومن الذين أوتوا الكتاب ، وذلك كله يحتاج إلى صبر ، و« الصبر » ـ كما قلنا ـ نوعان : « صبر على » و« صبر عن » ، ويختلف الصبر باختلاف حرف الجر ، صبر عن شهوات نفسه التى تزين للإنسان أن يفعل هذه وهذه ، فيصبر عنها ، والطاعة تكون شاقة على العبد فيصبر عليها ، إذن ففى الطاعة يصبر المؤمن على المتاعب ، وفى المعصية يصبر عن المغريات .

و« لتبلون فى أموالكم وأنفسكم » توضح أنه لا يوجد لك غريم واضح فى الأمر ، فالآفة تأتى للمال ، أو الآفة تأتى للجسد فيمرض ، فليس هنا غريم لك قد تحدد ،

ولكن قوله : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا » فهذا تحديد لغريم لك . فساعة ترى هذا الغريم فهو يهيج فيك كوامن الانتقام . فأوضح الحق : إياك أن تمكنهم من أن يجعلوك تنفعل ، وأجِّلْ عملية الغضب ، ولا تجعل كل أمر يَسْتَخِفّك . بل كن هادئا ، وإياك أن تُسْتَخَفّ إلا وقت أن تتيقن أنك ستنتصر ، ولذلك قال : « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » .

واتقوا مثل « اتقوا الله » أى اتقوا صفات الجلال وذلك بأن تضع بينك وبين ما يغضب الله وقاية . عن أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطيفة فدكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عبادة ببنى الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مرّ على مجلس فيه عبدالله بن أبى بن سلول وذلك قبل أن يسلم ابن أُبَىّ ، وإذا فى المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفى المجلس عبدالله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عجاجة الدابة خَمَّر عبدالله بن أبى أنفه بردائه وقال : لا تغبروا علينا ، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فنزل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن فقال عبدالله بن أبى : أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول إن كان حقا فلا تُؤذنا فى مجالسنا ، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه ، فقال عبدالله بن رواحة رضى الله عنه : بلىٰ يا رسول الله فاغشنا به فى مجالسنا فإنا نحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون ، فلم يزل النبى صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبى صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن عبادة فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « يا سعد » ألم تسمع إلى ما قاله أبو حباب » ؟ يريد عبدالله بن أبى ، قال : كذا وكذا فقال سعد : يا رسول الله اعفُ عنه واصفح فوالذى أنزل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة فلما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شَرِقَ بذلك ، فذلك الذى فعل به ما رأيت . فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم[1] .

---

(١) رواه البخارى فى صحيحة عند تفسير هذه الآية

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

ونعرف ـ من قبل ـ أن الله قد أخذ عهداً وميثاقاً على كل الأنبياء أن يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام فى قوله :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ونأتى هنا إلى عهد وميثاق أخذه الله على أهل الكتاب الذين آمنوا بأنبيائهم ، هذا العهد هو : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتواالكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه » .

فما الذى يبينونه ؟ وما الذى يكتمونه ؟

وهل هم يكتمون الكتاب ؟ نعم لأنهم ينسون بعضا من الكتاب ، وما داموا ينسون بعضاً من الكتاب فمعنى ذلك أنهم مشغولون عنه :

﴿ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المائدة)

والذى لم ينسوه من المنهج ، ماذا فعلوا به ؟ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

لقد كتموا البينات التى أنزلها الله فى الكتاب ، فالكتم عملية اختيارية ، أما النسيان فقد يكون لهم العذر أنهم نسوه ، لكنهم يتحملون ذنباً من جهة أخرى ، إذ لو كان المنهج على بالهم وكانوا يعيشون بالمنهج لما نسوه . والذى لم ينسوه كتموا بعضه ، والذى لم يكتموه لووا به ألسنتهم وحرّفوه .

وهل اقتصروا على ذلك ؟ لا . بل جاءوا بشىء من عندهم وقالوا : هو من عند الله :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

وقولهم : « هذا من عند الله » ما يصح أن يقال إلا لبلاغ صادق عن الله ، وكلمة « ليشتروا به ثمناً قليلا » لا بد أن توسع مدلولها قليلاً ، ولها معنى عام ، ونحن نعرف أن الثمن نشتري به ، فكيف تشترى أنت الثمن ؟ أنت إذن جعلت الثمن سلعة ، وما دام الثمن يُجعل سلعة فيكون ذلك أول مخالفة لمنطق المبادلة ؛ لأن الأصل فى الأثمان أن يُشترى بها ، أصل المسألة أنّ نَعْت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موجوداً عندهم فى الكتب ثم أنكروه .

﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فقوله : « لتبيننه » يعنى لتبينن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما هو موجود عندكم دون تغيير أو تحريف ، وعندما يبينون أمر الرسول بأوصافه ونعوته فهم يبينون ما جاء حقاً فى الكتاب الذى جاءهم من عند الله . وهكذا نجد أن المعانى تلتقى ، فإن بينوا الكتاب الذى جاء من عند الله ، فالكتاب الذى جاء من عند الله فيه نعت محمد ، وهكذا نجد أن معنى تبيين الكتاب ، وتبيين نعت رسول الله بالكتاب أمران ملتقيان .

« لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » يقال : نبذت الشىء أى طرحته بقوة ، وذلك دليل على الكراهية ؛ لأن الذى يكره شيئاً يحب أن يقصر أمد وجوده ، ومثال ذلك : لنفترض أن واحداً أعطى لآخر حاجة ثم وجدها جمرة تلسعه ، ماذا يفعل ؟ هو بلا شعور يلقيها بعيداً . والنبذ له جهات ، ينبذه يمينه ، ينبذه أمامه ، ينبذه شماله،أما إذا نبذه خلفه ، فهذا دليل على أنه ينبذه نبذة لا التفات إليها أبداً ، انظر التعبير القرآنى « فنبذوه وراء ظهورهم » .

إن النبذ وحده دليل الكراهية لوجود الشىء الذى يبغضه ، إمعان فى الكراهية والبغض ، فلو رمى إنسان شيئاً أمامه فقد يحن له عندما يراه أو يتذكره ، لكن إن رماه وراء ظهره فهذا دليل النبذ والكراهية تماما ، ولذلك يقولون : لا تجعلن حاجتى بظهر منك ، يعنى لا تجعل أمرا أريده منك وراء ظهرك ، والحق يقول : « فنبذوه وراء ظهورهم » أى أنهم جماعة و« ظهور » جمع « ظهر » ، كأن كل واحد منهم نبذه وراء ظهره . وكأن هناك إجماعاً على هذه الحكاية ، وكأنهم اتفقوا على الضلال ، واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون . والمشترى هنا هو الثمن ، والثمن يُشترى به ؛ ولندقق النظر فى التعبير القرآنى ، فهناك واحد يشترى هذا الأمر بأكلة ، وآخر يشترى هذه الحكاية بحُلَّة أو لباس ، وهناك من يشتريها بحاجة وينتهى ، إنما هم يقولون : نريد نقوداً ونشترى بها ما نحب ، هذا معنى « واشتروا به ثمناً » .

ويعلق الحق على ما يشترونه قائلاً : « فبئس ما يشترون » لماذا ؟ لأنك قد تظن أن بالمال ـ وهو الثمن ـ تستطيع أن تشترى به كل شىء ، ولكن النقود لا تنفع الإنسان كما تنفعه الحاجة المباشرة ؛ لأننا قلنا سابقاً : هب أن إنساناً فى مكان صحراوى ومعه

جبل من ذهب وليس معه كوب ماء ، صحيح أن المال يأتى بالأشياء ، إنما قد يوجد شيء تافه من الأشياء يغني ما لا يغنيه المال ولا الذهب ، فيكون كوب الماء مثلاً بالدنيا كلها ، ولا يساويه أى مال « فبئس ما يشترون » .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ ﴾

والحسبان للأمر أن يظنه السامع دون حقيقته ، والأمور التى يظنها السامع تسير أولاً على ضوء الشيء الواضح دون التدبر لما وراء واجهات الأشياء ، فالذين يفرحون بما أتوا نوعان : نوع يفرح بما أتاه مناهضاً لدعوة الحق كالمنافقين الذين فرحوا بأنهم غشوا المؤمنين ، وتظاهروا بالإيمان فعاملهم المؤمنون بحق الأخوة الإيمانية ، حدث هذا قبل أن يكشف الحق هؤلاء المنافقين للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من بعد ذلك .

ونوع آخر يفرح لما أتاه وجاء به مناصراً لدعوة الحق فالفرح الأول ـ وهو فرح المنافقين ـ ممنوع ، والفرح الثانى مشروع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة يونس)

إذن فلم ينه الله عن مطلق الفرح ولكن ليفرحوا بفضل الله . إنه سبحانه قد نهى عن نوع من الفرح فى مسألة قارون :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة القصص)

وهكذا نجد آيات تنهى عن الفرح وآيات تثبت للمؤمنين الفرح ، وتأمرهم به . إذن فالفرح فى ذاته ليس ممقوتاً ، ولكن الممقوت بعض دواعى ذلك الفرح ، فدواعيه عند المؤمن أن يفرح بنصر الله ، وأن يفرح بإعلاء كلمة الحق ، وهذه دواع مشروعة . ودواعيه الممنوعة أن يفرح بأن يقف أمام مبدأ من مبادىء الله ليدحض ذلك المبدأ ، وهذا ما يفرح به الكافر ، ولكن الفرح الحقيقى هو الفرح الذى لا يعقبه ندم ، ففرح المؤمن موصول إلى أن تقوم الساعة ، وموصول بعد أن تقوم الساعة . ولكن فرح الكافر والمنافق وأهل الكتاب الذين يصورون الله على غير حقيقته فرح موقوت وممقوت ، إذن فذلك لا يعتبر فرحاً ؛ لأن الندم بعد الفرح يعطى عاقبة شر ؛ لأن النادم يتحسر دائماً على فعله فهو فى غم وحزن .

فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعطى للمؤمن مناعة ، إنكم أيها المؤمنون تواجهون معسكرات تعاديكم . هذه المعسكرات ستفرح بما أتته ضدكم فيجب ألا يفتّ ذلك فى عضدكم ، ولا تحسبنهم إن فعلوا ذلك بمنجاة من العذاب ، ومادام فرحهم سيؤدى بهم إلى العذاب فهو فرح أحمق .

وماذا صنع الذين جاء فيهم القول : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » يحتمل أن يكون المراد هم أهل الكتاب الذين كتموا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الآية السابقة تقول : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم » ماذا فعل هؤلاء إذن ؟ لقد كتموا أوصاف رسول الله ونعته الموجود فى كتبهم وفرحوا بما كتموا ، وبعد ذلك أحبوا أن يحمدوا بما فعلوا من الذين على طريقتهم فى الكفر والضلال .

إن الإنسان قد يأتى الذنب ولكنّه يندم بعد أن يفعله ، ولكنه حين يسترسل فيفرح بما فعل فذلك ذنب آخر ، وهكذا صار إتيان العمل ذنباً ، والفرح به ذنباً آخر ؛ لأنه لو ندم على ما فعله لكان الندم دليلا على التوبة ، أما أن يأتى العمل وبعد ذلك يفرح

به ثم يأتى بعد ذلك الأشد ؛ فيحب أن يُحمد بما لم يفعل ، فذلك من تمام الحمق ، إنه جرم وذنب مركب من فعل آثم ، ففرح به ، فحب لحمد على شيء لم يفعله .

أكان يجب أن يُحمد بما فعل أو بما لم يفعل ؟ بما لم يفعل ، لأنه خلع على أمره غير الحق ، وإذا قال قائل : إنها نزلت فى المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله فالقول محتمل ؛ لأن هؤلاء تخلفوا عن الحرب مع رسول الله وفرحوا بأن متاعب السفر ومتاعب الجهاد لم تنلهم ، وبعد ذلك اعتذروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اعتذارات كاذبة ولو ندموا لكان خيراً لهم،ولم يتضح للمسلمين كذبهم فحمدوا لهم ذلك الاعتذار ، إنهم قد أتوا الذنب ، وفرحوا بأنهم أتوه ، ونجوا من مغارم الحرب ، وبعد ذلك فرحوا أيضاً بأنهم أحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، لأن اعتذارهم كان نفاقاً ، سواء كان هذا أو ذاك فالآية على إطلاقها : للذين يفرحون بما أتوا من مناهضة الحق وذلك فعل ، والفرح به ذنب آخر ، والرغبة فى الحمد عليه شيء ثالث ، إذن فالذنب مركب ، فهم يسترون الأمر ويبينون نقيضه كى نحمدهم ونشكرهم ، والحق سبحانه وتعالى يعطى لهذا دستوراً إيمانياً لمطلق الحياة .

« ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا » وهل المنعى عليهم أنهم يحبون أن يحمدوا ؟ أو المنعى عليهم والمأخوذون به أنهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؟ إن المنعى عليهم أنهم يحبون،أن يحمدوا بما لم يفعلوا ؛ لأن الإنسان إن أحب أن يُمدح بما فعل فلا مانع ، والقرآن حين يعالج نفساً بشرية خلقها الله بملكات ، فهو يعلم مطلوبات الملكات ، بعض الملكات قد تحتاج إلى شيء فلا يتجاوز الله هذا الشئ ، إنّ الإنسان مطبوع على حب الثناء من الغير ، لأن حب الثناء يثبت له وجوداً ثانيا ، ووجودك الثانى هو أن تعبر عن نفسك بعملك الذى يكون مبعث الثناء عليك ، والناس لا تثنى على وجودك ، لكنها تثنى على فعلك .

ومادام الإنسان يحب الثناء فسيغريه ذلك بأن يعمل ما يُثنى به عليه ، ومادام يُغرى بما يُثنى علية فسيعمل بإتقان أكثر ، وساعة يعمل فإن المحيط به ينتفع من عمله ، والله يريد إشاعة النفع فلا يمنع سبحانه حب الثناء كى يزيد فى الطاقة الفاعلة للأشياء ؛ لأنه لو حرّم ذلك الثناء فلن يعمل إلا من كانت ملكاته سوية ، وسيفقد

المجتمع طاقات من كانت ملكاته قليلة ، فصاحب الملكات القليلة يريد أن يُمدح ، فلا مانع من مدحه ليزيد من العمل ، ويُمدح مرة ثانية ، وتستفيد الناس ، والذى ينتظر الثناء من الناس تنزل منزلته ومرتبته عن مرتبة من انتظر التقدير من الله ، فهو الذى جنى على نفسه فى ذلك . لكن لابد أن نمدحه كى يعمل بما فيه من غريزة حب الثناء فنكون قد زدنا من عدد طاقات العاملين .

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما عرض لهذه القضية ، وهى قضية تزكية الصالح وتجريم الطالح الفاسد فى قصة « ذى القرنين » يقول تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

كى تعلم أن المَمَكَّن لا يُمَكَّنُ بذاته وإنما هو ممكن بمن مَكَّنَهُ ، فلو كان عنده تفكير إيمانى ، لما أغرته الأسباب أن يتمرد ؛ لأن الإيمان يعلمه أن الأسباب ليست ذاتية . ومن أجل أن يثبت الله أن الأسباب غير ذاتية فهو ينزع الملك ممن يشاء ، ويهب الملك من يشاء ، نقول له : لو كانت الأسباب ذاتية فتمسك بها ، لكن الأسباب هبة من الله « وآتيناه من كل شىء سببا » وحين يأتيه الله الأسباب فالأسباب أنواع : سبب مباشر للفعل ، وسبب متقدم على السبب المباشر ، فأنت إذا ارتديت ثوباً جميلاً ، فوراء ذلك أنك أتيت بالقماش الذى نسجه النساج ، والنساج استطاع إتقان عمله بعد أن قام الغزّال بغزل القطن ، والقطن نتج لأن فلاحاً بذر البذور ورعى الأرض بالحرث والرى . فأنت إن نظرت إلى الأسباب المباشرة المتلاحقة فانظر إلى نهاية الأسباب ، وستصل إلى شىء لا سبب له إلا المسبب الأعلى وهو الله ـ جلت قدرته ـ .

وسلسل أى شىء فى الوجود ستجد أنك أخيراً أمام سبب خلقه الله ، مثال ذلك النور الكهربىّ الذى تتمتع أنت به . ستجد أن المعمل قام بصنع الزجاج الخاص بالمصابيح الكهربية ، ونوع من المصانع يصنع الأسلاك الموجودة بالمصباح ، وستنتهى إلى شىء موجود لا يوجد فيه بشر ، فتصل إلى الحق سبحانه وتعالى .

أنت مثلاً جالس على الكرسى . وقد تقول : لقد صنعه النجار والنجار جاء بالخشب من البائع ، والبائع جاء بالخشب من الغابة ، فمن أين جاء الخشب إلى الغابة ؟ تقول : لا أعرف ، أما إذا كان عندك الحس الإيمانى فأنت تقول : أوجده الله . وحين تنتهى الأسباب وسلسلتها نجد الله الخالق « إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شيء سببا فأتبع سببا » فعندما أعطاه الله الأسباب جاء هو بالوسائط فقط ، إذن فالأصل كله من الله .

ويتابع الحق : « حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حمئة » هذا فى عين الناظر فقط ، فأنت حين تركب البحر ثم ترى الشمس عند الغروب تغطس فى البحر ، وعندما تذهب للمنطقة التى غطست الشمس فيها تجد الشمس موجودة ؛ لأنها لا تغيب أبدا، إنما «تغرب فى عين حمئة» أى فوجد الشمس فى نظره عند غروبها عنه كأنها تغرب فى مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود . ويتابع الحق : « ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » .

والناس تفهم أن هذا تخيير ، يعنى إما أن تعذبهم ، وإما تُحسن إلى من كنت تعذبهم ، لكن الدقة والتمعن يوضحان لنا أن الحق قد أعطى تفويضاً لذى القرنين ، بقوله : « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » فَفَهِمَ ذو القرنين عن الله التفويض ، ولم يأخذ التفويض وافترى ، بل قال : « أما من ظلم فسوف نعذبه » . وليس هذا هو العذاب الذى يستحقه ، لا ، نحن سنعذبه فى دنيانا كى لا يستشرى فيها الشرّ . وفوق ذلك سيعذبه الله عذاباً آخر .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نكرا » إنه أولاً لم يصف عذابه بنكر ، إنما وصف عذاب الله فقال : « فيعذبه عذاباً نكرا » ، لأن عذاب البشر للبشر على قدر البشر ، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله ، فهل لنا طاقة بهذا العذاب والعياذ بالله ؟ ليس لنا طاقة به ، وماذا عن موقف ذى القرنين من الذى آمن ؟ إنه موقف مختلف .

يقول الحق : « وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا

يسرا » هو يجازيه بالحسنى ويعطيه المكافآت ويكرمه ، وعندما يتساءل من يحب الثناء قائلاً : لماذا كرّم هذا ؟ ويرى أسباب التكريم فيقول لنفسه لأصنعنَّ مثله كى أكرّم . ولذلك تجد الشباب يتهافت حتى على اللعب بكرة القدم لماذا ؟ لأنهم يجدون من يضع هدفاً فى كرة القدم يكرّم ، فيقول : أنا أريد أن أضع هدفاً .

هذا وإن ديننا الحنيف يدعونا إلى أن نشكر من قدم خيرا أو أُسدى معروفا حَفزاً للهمم وتشجيعا لبذل الطاقات وفى الأثر : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » إذن فحب الثناء من طبيعة الإنسان ، ولكى تُغرى الناس بأن يعملوا لابد أن تأتى لهم بأعمال تستوعب طاقاتهم المتعددة ، أما إذا اقتصر إتقان العمل على من لا يحبون الثناء ، فستقلل الأيدى التى تفعل ، ولذلك تجد العمل حيث توجد المكافأة التشجيعية التى يأخذها من يستحقها ويقابلها من التجريم والعقوبة لمن يهمل فى عمله ، فلا يمنح رئيس عمل مكافأة لمن عملوا على هواهم ، بل عليه أن يمنحها لمن أدى عمله بإتقان . وحين يعلم الناس أنه لا يجازى بالخير ولا يكرّم بالقول إلا من فعل فعلاً حقيقياً فالكل يفعل فعلاً حقيقياً ، لكن عندما تجد الناس أن المكافآت لا يأخذها أحدَ إلا بالتزلف وبالنفاق وبالأشياء غير المشروعة فسيفعلون ذلك ، وهكذا تأتى الخيبة .

وهكذا تجد أن قوله الحق :« لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » .

إن هذا القول يضع أساساً ودستوراً إيمانياً لمطلق الحياة ، وعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وعلاقة الفرد بنفسه وبمن حوله . وعلاقة الإنسان بالعمل الصالح أو بالذنوب ؛ فالإنسان إذا ما أتى ذنباً ، فربما يكون قد نفَّس عن نفسه بارتكاب الذنب ، لكن بعد ما تهدأ شِرّة المعصية يجب عليه أن ينتبه فيندم ولا يفرح . هذه أول مرحلة . ولا يتمادى فى ارتكاب الذنب ، أما إذا تمادى وخلع على فعله النقيض وادّعى أنه قد أتى فعلاً حسناً حتى يناله مدح بدلاً من أن يناله ذم فذلك ذنب مركب ، ويحشره الله ضمن من قال فيهم : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

والمفازة هى المكان الذى يظن الإنسان أن فيه نجاته ، أى أن فى هذا المكان فوزاً

له ، ويطلقون كلمة « مفازة » على الصحراء إطلاقاً تفاؤلياً ، لا يسمونها « مهلكة » لأن الذى كان يجوبها يهلك فسموها « مفازة » تفاؤلاً بأن الذى يسلكها يفوز ، أو أن الصحراء أرض مكشوفة ، ومادام الإنسان قد وصل إلى أرض مكشوفة فلن يصادف ما يخافه من حيوانات شرسة أو من وافدات ضارة كالحيّات ، أو من عدو راصد ، وفى ذلك فوز له ، لأنه تجنب هذه المخاطر ، إنه إن سار فى الجبال والوديان فمن الممكن أن تستتر عنه الوحوش المفترسة أو الهوام أو تستتر عنه الذين يتتبعونه فلا يتوقاهم وقد يصيبونه بالأذى ، فإذا ما ذهب إلى الأرض المكشوفة نجا من كل هذا لأنه ينأى ويبتعد عنهم ، وتكون التسمية على حقيقتها ، ومن يرى أن الصحراء مهلكة فليعرف أنها سميت « مفازة » تفاؤلاً ، كما يسمون اللديغ الذى لدغه الثعبان بـ « السليم » .

ونحن فى أعرافنا العادية نتفاءل فنضع للشىء اسما ضد مسماه تفاؤلاً بالاسم ، مثال ذلك : إذا كنت فى ضيافة إنسان وقدم شراباً . قهوة مثلاً ، وبعد أن نشرب القهوة يأتى الخادم فيقول من قدم لك القهوة لخادمه : تعال « خذ المملوء » ولا يقول : « خذ الفارغ » وهذا لون من التفاؤل .

«فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » هم يظنون أنهم بمفازة من العذاب برغم أنهم لا يؤمنون بالحق ، ولا يؤمنون بسيطرة الحق على كل أحوالهم وكل أمورهم فهم يظنون أن انتصارهم فى معركة الدنيا لا هزيمة بعده ، ولكن الحق بعد هذه الآية قال :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

إنه سبحانه حكم فيما يملك ولا أحد يستطيع أن يخرج من ملكه ، ومادام لله ملك السماوات والأرض ، فحين يقول : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » فهذا الوعيد سيتحقق ؛ لأن أحداً لا يفلت منه ، ولذلك يقول أهل الكشف وأهل اللماحية وأهل الفيض : اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فـ « ولله ملك السماوات والأرض » تدل على أن الله حين يوعد فهو ـ سبحانه ـ قادر على إنفاذ ما أوعد به ، ولن يفلت أحد منه أبدا . وهذه تؤكد المعنى . فإذا ما سُرّ أعداء الدين فى فورة توهم الفوز ، فالمؤمن يفطن إلى النهاية وماذا ستكون ؟ ولذلك تجد أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾

(سورة المسد)

وهذه السورة قد نزلت فى عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكانت هذه السورة دليلاً من أدلة الإيمان بصدق الرسول فى البلاغ عن الله ، لأن أبا لهب كان كافراً ، وكان هناك كفرة كثيرون سواه ، ألم يكن عمر بن الخطاب منهم ؟ ألم يكن خالد بن الوليد منهم ؟ ألم يكن عكرمة بن أبي جهل منهم ؟ ألم يكن صفوان منهم ؟ كل هؤلاء كانوا كفاراً وآمنوا ، فمن الذى كان يدرى محمداً صلى الله عليه وسلم أنه بعد أن يقول : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد » من كان يدرى محمداً بعد أن يقول هذا ويكون قرآناً يُتلى ويحفظه الكثير من المؤمنين ، وبعد ذلك كله من كان يدريه أن أبا لهب لن يأتى ويقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقد يضيف : إن كان محمد يقول : إننى سأصلى ناراً ذات لهب فهأنذا قد آمنت ، مَن كان يدريه أنه لن يفعل ، مثلما فعل ابن الخطاب ، وكما فعل عمرو بن العاص . إن الذى أخبر محمداً يعلم أن أبا لهب لن يختار الإيمان أبداً ، فيسجلها القرآن على

نفسه ، وبعد ذلك يموت أبو لهب كافرا .

وكأن الله يريد أن يؤكد هذا فيوضح لك : إياك أن تظن أن ذلك الوعيد يتخلف ؛ لأنى أنا « أحد صمد » ، ولا أحدَ يعارضنى فى هذا الحكم ؛ لذلك يقول فى سورة الإخلاص : « قل هو الله أحد الله الصمد » .

فمادام « هو الله أحد » فيكون ما قاله أولاً لن ينقضه إله آخر ، وستظل قولته دائمة أبداً . إذن فقول الحق سبحانه وتعالى بعد قوله : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم » ، « ولله ملك السماوات والأرض » يوضح لنا أنه قد ضم هذا الوعيد إلى تلك الحقيقة الإيمانية الجديدة : « ولله ملك السماوات والأرض » وجاء بالقوسين ؛ لأن السماء تُظِل ، والأرض تُقِل ، فكل منا محصور بين مملوكين لله ، ومادام كل منا محصوراً بين مملوكين لله ، فأين تذهبون ؟ « ولله ملك السماوات والأرض » وقد يكون هناك المَلِك الذى لا قدرة له أن يحكم ، فيوضح سبحانه ؛ لا ، إن لله المُلْكَ وله القدرة .

« والله على كل شيء قدير » ثم يأتى بعد ذلك إلى تصور إيمانى آخر ليحققه فى النفوس بعد المقدمات التى أثبتت صدق الله فيما قال بواقع الحياة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

سبحانه يريد أن يبنى التصور الإيمانى على جذور ثابتة فى النفس البشرية ؛ لأن الإنسان الذى يفاجأ بهذا الكون ، وفيه سماء بهذا الشكل : بلا عمد ، وتحتها الكواكب ، وأرض مستقرة ، بالله ألا يفكر فيمن صنع هذا ؟ والله لو أن واحدا

استيقظ من نومه ووجد سرادقا قد نصب فى الميدان ليلا لوقف ليسأل : ما الحكاية ؟ فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذى يعطيه أسباب الحياة ؟

ولذلك يجىء فى سورة أخرى ليشرح هذه القضية شرحا يجلى لنا قضية الإيمان بالفكر الإنسانى ، فلا ننتظر الواعظ فقط الذى يأتينا بالرسالة والنبوة ليدل على المنهج المراد لمن خلق ، بل يحتم علينا أن نتنبه بالفطرة إلى من خلق ، لأننا قلنا من قبل :لو أن إنساناً وقعت به طائرة فى صحراء ، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناسا ولأنه مجهد غلبه النوم ، فاستيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام ، بالله قبل أن يمد يده لينتفع بها ، ألا يجول فكره فيمن صنع هذه ؟ إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن جاء بها قبلما يذوق الطعام ، رغم أنه جوعان ، فكذلك الناس الذين فتحوا عيونهم فوجدوا هذا الكون العجيب ، وبعد ذلك لم يدَّع أحد منهم أنه خلقه ، ولو كان أحد قد ادعى أنه خلقه . . لكانت المسألة تسهل ، لكن أحدا لم يدع صنعه . هذا الكون الذى نراه جميعا بانتظامه الرائع ، وقوانينه الثابتة . هل قال أحد : إننى صنعته ؟ لا ، إذن فالذى قال : إننى صنعته تسْلم له الدعوة ، حتى يأتى واحد آخر يقول : أنا الذى صنعته . لم يحدث هذا قط برغم وجود الملاحدة والمفترين على الله ، ولذلك جاء قوله تعالى :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة النمل)

كأن الحق يقول : إن لم أكن أنا الذى خلقت فمن الذى خلق إذن ؟ ولم يجرؤ أحد على أن ينسب الكون لنفسه ؛ لأن الكفار والملاحدة لا يستطيعون خلق شىء تافه من عدم . ومثال ذلك كوب الماء الذى تركه الله ولم يخلقه على الصورة التى هو عليها ، كى يصنعوه ليفهموا أن كل شىء تم بخلقه ـ سبحانه ـ كوب الماء هذا شىء تافه أترف الحياة ، وقبل أن تتم صناعة الكوب كنا نشرب ولم يكن هناك شجر يطرح ويثمر أكواباً بل صنعه إنسان أراد أن يترف الحياة ، فإذا كان هذا الشىء الصغير له صانع جال فى نواحى علوم شتى وفى المادة ، ثم نظر إلى الأرض حتى وجد المادة التى عندما تُصهر تعطى هذه الشفافية واللمعان ، فجرب فى عناصر الأرض فلم يجد إلا الرمل[1] .

(١) قيل إن رمل سيناء من أفضل المواد لهذه الصناعة .

واكتشف هذه المادة ومزجها بمواد أخرى لصهرها وإذابتها واحتاجت صناعة الكوب إلى معامل وعلماء ، كل هذا من أجل الكوب الصغير الذى قد تستغنى عنه ، انظر ما يحتاجه لصنعه ؟ احتاج طاقات جالت فى جميع مواد الأرض ، وإمكانات صناعية وأناساً يضعون معادلات كيماوية ، فما بالنا بالأشياء الأصلية وكم تحتاج ؟

إن كل صنعة تحتاج على قدرها ، ولم يقل أحد : إننى صنعتها ، فيقول الحق : من الذى صنع كل هذا ؟ وساعة يطرح سؤالاً فهو لا يريد أن يجعل القضية إخبارية منه ، وهو القادر أن يقول : أنا الذى خلق السماء والأرض ؟ فماذا يفعل المسئول ؟ إنه يتخبط فى إجابته ثم فى النهاية لا يجد إلا الله .

وكأن السائل لا يطرح هذا السؤل إلا إذا وثق أن الإجابة لا تكون إلا على وفق ما يريد « أمَّن خلق السماوات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به » وجاء هنا بالحاجة المباشرة . . « فأنبتنا به حدائق ذات بهجة » أى أنها تسرّ النظر بما فيها من خضرة ، ونضارة ، وطراوة ، وظل ، وأزهار ، وثمار ، ولم يختصر الأمر فيقول : « لتأكلوا منها » لأن الذى يأكل هو الذى يملك فقط ، لكن جمال المنظر لا يحجزه أحد عن كل من يرى ، ويستمتع بما يراه . وكل منا عندما يرى بستاناً جميلاً يسره منظره ، صحيح أنك لا تمد يدك لتأكل منه لأنه ليس ملكك ، لكن هل يمنعك أحد أن تمتع به نظرك . وأن تمتع أنفك برائحته الجميلة ؟ لا .

وهكذا جاء الحق بالنعمة الشائعة لمن يملك ولمن لا يملك فقال : « ذات بهجة » ونعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يمتن بالأشياء يوضح لك : إياك أن تفهم أن الغرض من هذه المسألة أن تأكلها لتملأ بها بطنك فقط ؛ لأن هناك أشياء جميلة لا ننتفع بها أكلاً ، فهناك ألوان من الشجر ليس له ثمرة لكن لابد أن له عملاً ؛ فورقه الجميل قد يفيد فى الظل وما يشيعه من رائحة تعطر الجو ، وبه خشب نحتاج إليه ، وبجانب هذا نجد أشجاراً لها ثمار جميلة ننتفع بها .

ولذلك يقول الحق :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا

نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)

(سورة الأنعام)

وسبحانه يستفهم من الإنسان « ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون » .

بسطحية راح أحد المستشرقين يردد : أَيَنْعَى الله على الخلق ويعيب عليهم أن يعدلوا ؟ ذلك أنه لم يفهم المعنى الصحيح ، فالعدل هنا بمعنى العدول عن الحق أو الميل عنه . ويقول :

﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾

(سورة النمل)

إنه سبحانه الذى خلق الأرض ومن خلالها الأنهار وجعل فيها الجبال الرواسى ، ويوضح الحق سبب وجود الجبال الرواسى فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ (١٠) ﴾

(سورة فصلت)

فلماذا باركت يا الله ؟ بارك الله فى الجبال وقدر فيها أقواتها ، فالقوت هو ما يُنتفع به فى استبقاء الحياة . ونعرف أن القوت يؤخذ من الزرع ، والزرع ينمو دائماً فى

الأرض الخصبة ، وخصوبة الأرض تكون فى الوديان ، والوادى هو المكان الذى يكون بين جبلين . ولماذا يكون الوادى خصباً بين جبلين ؟ لأن المطر حين ينزل من السماء ، إنما ينزل على الجبال ، والجبال كما نعرف معرضة لعوامل التعرية ، فالحرارة تأتى بعد البرودة ، والحرارة تجعل الأرض تمتد والبرودة تقبض المادة ، وما بين القبض والبسط يحدث للجبال التشقق السطحى . وعندما ينزل المطر فهو يجرف هذه التشققات ، فتنزل من قمة الجبل بقوة الدفع لتصير جسيمات ناعمة ، ونسميها نحن الغِرْين أو الطمى ، كالذى كان يأتى لنا من الحبشة ، والذى أحدث خصوبة وادى النيل .

إذن فالجبال هى مخازن الأقوات . ومن فضل الله أن جعلِ الجبال صلبة ، فلو أنها كانت هشة من أول الأمر ، لكان سيلٌ واحد من المطر كفيلاً بإزالتها كلها ، ولجعل الأرض سطحاً واحداً ، ولا أنتفع البشر بنصف متر من الخصوبة . وبعد ذلك يأتى الجدب . ونعلم أن الحق جعل مع التكاثر الإنسانى تكاثراً لأسباب القوت ، فكيف يكثر الحق سبحانه من القوت ؟

نحن نرى أن للجبال قمة ولها قاعدة ، وبين كل جبل وجبل يوجد الوادى ، ونعرف أن ضيق الوادى يكون فى أدناه ، واتساع الوادى فى أعلاه ، والجبل عكس الوادى . فضيق الجبل يكون فى القمة واتساعه فى القاعدة أى أن قمة الجبل أقل اتساعا من قاعدته . وعندما ينزل الغرين بوساطة المطر من الجبل فهو ينزل إلى الوادى ، فيرفع من مستوى سطح الوادى ، وتتسع مساحة الوادى . وكلما نزل المطر على الجبال اتسعت مساحة الوديان التى بين الجبال؛ لأن المطر يحمل معه أجزاء من الجبال وهو ما يسمى بالغرين . وعندما يشاء الحق سبحانه إيذان النهاية ، تتفتت كل الجبال ويقول للساعة : « قومى الآن » .

وهو يقول : « وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون » .

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

الماء له استطراق فسلكه الله ينابيع فى الأرض ، فالإنسان يحفر فى مكان من الأرض فيجد الماء عذباً ، وفى موقع آخر يدق الإنسان الأرض ويحفرها ليجد الماء ولكنه مالح . لماذا إذن لم يتسرب الماء المالح إلى الماء العذب وكلاهما تحت الأرض ؟ إذن لا بد أن للماء المالح مسارب تختلف عن مسارب الماء العذب ولا يطغى أحد على الآخر .

لماذا ؟ لأننا نجد أن الماء العذب يأتى من أعلى . ونجد دائماً منابع الأنهار عالية وتصب فى البحر . والحق لم يجعل منسوب الماء المالح أعلى من منسوب الماء العذب حتى لا يطغى الماء المالح على الماء العذب ، لأنه سبحانه يريد أن يرتوى الناس من الظمأ بالماء ، ويريد للزرع أن ينمو ، وأن يتجه الفائض من الماء العذب إلى مخزن الماء سواء فى بطن الأرض أو فى البحار ، وتأتى من بعد ذلك عملية التبخير فيتصاعد الماء بخاراً ليصير سحاباً ، ثم يمطر من بعد ذلك ماء عذبا . والقدر الذى خلقه الله من الماء أزلاً ، هو . هو ، لا يزيد ولا ينقص .

فالإنسان إذا كان قد شرب أطناناً من الماء طَوال حياته ، فهل ظلت تلك الأطنان فى جسد الإنسان أو أن تلك الأطنان قد خرجت فى فضلات الإنسان ؟ إن الإنسان لا يختزن إلا الموجود فيه الآن من الماء . والجسم الإنسانى به حوالى تسعين بالمائة من مكوناته من الماء ، وبعد ذلك يموت الإنسان فيتبخر منه الماء وتنزل بقية العناصر للأرض . إذن فكمية المياه واحدة ، ولكنها تخضع لدورة أرادها الله .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

(من سورة النمل)

ومعنى المضطر هو الإنسان الذى استنفد أسباب بشريته ولم يدرك ما يحفظ به حياته ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة يونس)

وكذلك يقول الحق فى موضع آخر بالقرآن الكريم :

﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ذلك أنه عندما يصاب الإنسان بحادث جسيم ، فهو لا يكذب على نفسه ، حتى الكافر بالله عندما يجد أن كل الأسباب المادية التى أمامه لا تنفعه فهو يلجأ ويعترف بأنّ هناك إلهاً واحداً خالقاً . فيقول : يارب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(سورة النمل)

كل هذه الآيات تؤكد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إنها ظواهر كونية . واختلاف الليل والنهار يعنى أن هناك شيئاً يناقض شيئاً آخر أو يأتى بعد شيء آخر . إذن فاختلاف الليل والنهار له معنيان : فمجيء الليل بعد النهار يعنى اختلافهما أى كل منهما خليفة للآخر . والزمن يمثل ذلك .

واختلاف آخر يتمثل فى أن النهار منير ، والليل مظلم ، والنهار محل حركة ، والليل محل سكون . فاختلاف الليل والنهار ليس آية فقط ولكنه آيات لكثيرين .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : أنَّ الفرد أعجز من أن يستنبط كل ما فى الآيات ، ولكن على كل واحد منكم أنتم البشر أن يستنبط آية ، وكل إنسان يستنبط آية ينتفع بها هو وغيره من الناس وهكذا .

إنها آيات يتوزع استنباطها على الخلق الذين يملكون البصيرة والأخذ بأسباب الله ليشيع الحق الاستنباط من أسرار الله لكل خلق الله المؤمنين إلى أن تقوم الساعة ، وليبين لنا أصحاب العقول الحقيقية التي لا تنشغل بالنعمة عن المنعم بالنعمة ؛ لأن لله إمداداً حين خلق من عَدَم ، وإمداداً حين أمدّ من عُدم ، وإمداداً آخر حينما يلقى على نعمته شيئاً من البركة ، فالذى أخذ نعمة الله التى سبقت وجوده ، وبعد ذلك غفل عن الحق سبحانه وتعالى فإن النعمة تعطيه ، لكنها لا تكون مصحوبة بالبركة .

ومعنى البركة أن يكون الشيء الحاصل والمستنبط من حركتك لا يأتى منه لك ولا للناس إلا الخير . فقد يعطيك الله بالأسباب والمسببات . لكن الله لا يعطيك البركة إذا أخذت النعمة وتركت المنعم . فلو أنك عند كل شيء ذكرت الله لأخذت النعمة والبركة . فحين ترى لك شيئاً تحبه عليك أن تقول : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

إنه ليس من شغلك ولا من عملك . ولكنها مشيئة الله وقوته سبحانه .

ولذلك يقولون : إنك إذا رأيت أى نعمة لك فى مال أو ولد أو خُلق أو هندام تقول حين تراها : « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فأنت لا ترى فيها سوءاً أبداً ؛ لأنك رددتها إلى مَن خلقها ، فضمنت صيانة الله لها بذلك الرد ، والذى يحرسها هو الكلمة الواضحة « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » .

ولذلك نرى فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾

سورة الكهف)

فماذا قال له صاحبه ؟

﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) ﴾

سورة الكهف)

فكان يجب ألا يغتر الإنسان بوجود النعمة وأن يعزوها وينسبها ويردها إلى المنعم وهذا يوضح لنا معنى قول الحق :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة إبراهيم)

فقد تعطيكم الأسباب مسبباتها ، ولكن لا زيادة عن المسببات بالتفضل منه سبحانه بالبركة ، بل ربما كانت فجيعة لصاحبها ، فتعطيه الأسباب ثم ينزع العطاء فتكون حسرة عليك .

إذن فمَنْ هم أولو الألباب ؟

تكون إجابة الحق :

﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾

إنهم يقولون :

« ربنا ما خلقت هذا باطلاً » لأنك حق ، وخلقت السموات والأرض بالحق ، ووضعت لها نواميسها وقوانينها بالحق ، فيجب أن نستقبل النعمة التى خلقتها لنا بالحق . فإن استقبلها بعض الناس بغير الحق ، فإنها تكون وبالاً عليهم . ويقال : إن المؤمن الصادق فى بنى إسرائيل قبل رسالة عيسى عليه السلام كان إذا عبد الله بإخلاص ثلاثين سنة فإن غمامة تظله حيث سار . فكانوا عندما يرون واحداً من هؤلاء يسير تظلله غمامة ، فهم يعرفون أنه عبد الله بإخلاص ثلاثين عاماً .

وعَبَدَ واحد منهم الله ثلاثين سنة ولم ير السحابة تظلله ، فشكا ذلك لأمه فقالت له : لعل شيئا فَرطَ منك . فقال لها : يا أماه لا أذكر . فقالت له : لعلك نظرت مرة إلى السماء ولم تفكر . فقال لها : لعل ذلك حدث . فقالت : الذى يأتيك من ذاك . وهذه القصة تذكرنا بضرورة التفكير فى الله دائماً .

ويروى عن سيدنا الإمام علىّ ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا استيقظ فى الليل ، استاك ، ثم نظر إلى السماء .

إذن فالنظر إلى السماء هو النظر إلى العلو . والنظر إلى الأرض أيضا هو تأمل فى حكمة الخالق . لكن النظرة إلى السماء تجعل الإنسان يفطن إلى علو الخالق . ولذلك فالعربى الذى استلقى على ظهره نائما ، واستيقظ ففطن إلى لون السماء الأزرق البديع ، والنجوم تتلألأ فيها فقال : أشهد أن لَكِ رباً وخالقاً ، اللهم اغفر لى . لقد عرف الرجل متى يدعو الله وكيف يدعو ، لذلك غفر الله له .

وفيما روت كتب السيرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جاء ليلة ونام ، وكانت ليلة عائشة رضوان الله عليها . قالت عائشة لعبدالله بن عمر رضوان الله عليه : فنام بجوارى حتى مس جلدى جلده ، ثم قال : « يا عائشة هل تأذنين لى الليلة فى عبادة ربى » ؟[1] .

لقد استأذن منها رسول الله فى حقها لأن الليلة ليلتها . وأضافت عائشة : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك ، وقد أذِنتُ لَكَ .

لقد احتاطت الاحتياط الجميل ، فهى تحب الرسول ، وتقول : «وأنا أحب قربك » وهذا القول له معنى جميل ، وحدث أن قال بعض المتنطعين على دين الله : إن رسول الله كان كبير السن بفارق كبير بينه وبين عائشة ، وقولها ذلك إنما عن زهد فيه .

---

(١) رواه الترمذى عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبرانى عن معاوية .

لكنها عائشة ـ رضى الله عنها ـ ردت على ذلك من قبل أن يقال . فقالت : يا رسول الله أنا أحب قربك وأحب هواك وقد أذنت لك . وهذا درس يعطيه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نتعلم كيف نعامل أهلنا ، حتى ولو كان الأمر الذى يشغلنا عنهم هو العبادة ، وهو لا يريد أن ينشغل المؤمن عن رعاية أهله بعد أداء ما عليه من فروض ، حتى ولو كان عبادة إلا بعد استئذان الأهل .

لماذا ؟ لأن الله طلب من الزوجة فى العبادة غير المفروضة ألا تتطوع حتى تستأذن زوجها . فالزوجة إن صلت تطوعا ، أو صامت تطوعا لابد أن تستأذن زوجها ، فإن أذن لها ، فبها ، وإن لم يأذن فليس لها أن تقوم بهذه العبادة غير المفروضة .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم .. خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »[1]

لأن الزوج حين يقرب زوجته فهو يريد أن يعفها عن التطلعات البشرية ؛ لذلك فعندما تريد الزوجة أن تأخذ وقتها وخصوصا إن كان لها ضرائر ، فهذا الوقت حق لها . فإن أراده الزوج للعبادة غير المفروضة فعليه أن يستأذنها . وقد تكون الحالة النفسية للمرأة فى عدم وجود ضرائر أكثر قدرة على قبول استئذان الزوج لها ليتفرغ للعبادة . ولذلك فأنت ترى من أهل الفتوى الإيضاح الناجح لمثل هذا الأمر .

لقد ذهبت امرأة تشكو زوجها لعمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ وكان مضمون الشكوى أن زوجها لا يقربها ، وكان مع عمر صحابى جليل . فقال له عمر ابن الخطاب : افتها . فقال الصحابى للزوج : يا هذا سنفرض أنك تزوجت أربعاً ، فلزوجتك إذن ليلة بعد كل ثلاث ليال . وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد استأذن عائشة فى عبادة ربه ، فهذا معناه درس للأزواج أن يحسنوا معاملة الأهل إحساناً لا يجعل للمرأة تطلعا .

لكننا نجد أناسا لا يستأذنون أهلهم لا فى العبادة ، ولا حتى فى سهرات المعصية . وهذا ما يفسد البيوت والأسر . إن ما يفسد البيوت أن يكون الزوج مشغولا عن الزوجة ، ويذهب إلى أصحابه فى المقهى أو فى مكان آخر . ولا يهتم بأفراد أسرته .

---

١ ـ رواه ابن ماجه والدرمى فى كتاب النكاح .

لماذا لا يذهب إلى منزله ليؤانس أهله ؟ وليشبع رغبتهم ويجلس مع زوجته وأهله وأولاده وبذلك تطمئن الزوجة أن رجلها معها وليس فى مكان آخر ، وذلك حتى تستقر الأمور . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يستأذن عائشة رضى الله عنها فتأذن له . قالت عائشة رضوان الله عليها :

« فقام إلى قربة فتوضأ ثم قام فبكى ثم قرأ فبكى ، ثم أثنى على الله وحمده فبكى ، حتى ابتلت الأرض ، ثم جاء بلال ، فقال : يا رسول الله صلاة الغداة . فرآه يبكى . فقال : يا رسول الله أتبكى وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال رسول الله : أفلا أكون عبدا شكورا . . يا بلال لقد نزل على الليلة :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ

مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

(سورة آل عمران)

وأضاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : (فويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ، وويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها)[١] .

هذا ما جاء عن سيدنا رسول الله فى أواخر سورة آل عمران ، تلك الأواخر التى تبدأ بقوله تعالى : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) .

إن فى تلك الآيات المنهج والاستدلال ، واصطحاب الحق سبحانه وتعالى وذكره على كل حال من القيام والقعود وعلى الجنب . إن الحق يقول : (الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) .

ها نحن أولاء نرى أن مطلوب أولى الألباب هو أن يذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم . وقال بعض العلماء فى تفسير قول الحق : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم » إن المقصود بذلك هو الصلاة ، فمن لا يستطيع الصلاة قائما يصلى قاعدا .. ومن لا يستطيع الصلاة قاعدا فليصل مضطجعا .

---

(١) رواه البخارى فى التهجد ورواه مسلم والترمذى فى الصلاة والنسائى فى قيام الليل وابن ماجه فى الاقامة والإمام أحمد فى مسنده .

ونقول لهؤلاء العلماء : لقد خصصتم هذا المعنى حيث المقام للتعميم ، لماذا ؟ لأن القرآن لا يتعارض مع بعضه ، بل يفسر بعضه بعضا ، والحق يقول عند صلاة الخوف :

﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

وحتى لا يظن المؤمن أن الفروض الخمسة هى التى يذكر فيها الله فقط قال سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُواْ اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

أى إنه حصلت الصلاة أولا ، وحصلت الصلاة ثانيا ، كأن ذكر الله أمر متصل واجب فى الصلاة ، وفى غيرها ، وبعدها يتفكر المؤمنون فى خلق السموات والأرض ويعترفون أنه سبحانه لم يخلق هذا باطلاً . ويكون المطلوب أن يقولوا :

﴿ سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾

(من الآية ١٩١ سورة آل عمران)

لماذا ؟ لأن كل هذا الذكر لا يوفى حق ربنا علينا .. لذلك قالوا :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

إنها العظمة ، فهم لا يذكرون عذاب من يدخل النار ، ولكنهم يذكرون خزى الله لمن دخل النار . وكأن الخزى مرتبة أشر من عذاب النار ، فمن الذى أعطانا كل هذا الفضل ، إنه ـ سبحانه ـ أعطانا توفيقا لذكره ، وتوفيقا لنتفكر فى خلق السموات والأرض ، فهل يصح أن نقابله بكفران النعمة ؟ وما الذى يحدث لهؤلاء الذين يدخلون النار ؟

إنه الخزى والعياذ بالله . « وما للظالمين من أنصار » أى وليس لهم أنصار يمنعون عنهم عذاب النار .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ ﴾

فكأن الإنسان بقلبه وفكره قبل أن يجىء له الرسول يجب أن يتنبه إلى ما فى الكون

من آيات ، وعليه أن يستشرف أن وراء الكون قوة ، ولكن هذه القوة مبهمة فى ذهنه . ما هى ؟ إنه يرى الكون العجيب فيقول لنفسه : من المستحيل أن يكون هذا الكون بلا خالق . إن وراءه قوة لها حكمة ولها قدرة . هذا قصارى ما يصل إليه العقل ولكن أيستطيع العقل أن يدرك أن القوة اسمها الله ؟ أيستطيع العقل أن يدرك ماذا تطلب القوة منه ؟

لا . إذن لابد من رسول يبلغ عن تلك القوة . ولذلك قلنا : إن تلك هى الزلة التى وقع فيها الفلاسفة ؛ لأن الفلاسفة هم الذين بحثوا وراء المادة . ونحن نعلم أن العلم ينقسم إلى قسمين ، قسم مادى قائم على التجربة ، وقسم ميتافيزيقى يبحث فيما وراء المادة . وهذا العلم متاهة الفلاسفة . وهو المضلة التى لم تلتق فيها مدرسة بمدرسة ، ولا تلميذ فى مدرسة مع تلميذ آخر فى مدرسة .

لماذا لم يلتقوا ؟ لأنهم يبحثون وراء المادة . وما وراء المادة غيب . والغيب لا يدخل المعمل . لكن المادة تدخل المعمل . والمعمل عندما يعطى نتائج تحليلات لا يجامل فى هذه النتائج . فالذى يدخل التجربة العلمية فى المعمل بنزاهة فالمعمل يعطيه . والذى يدخل بغير نزاهة لا تعطيه المعامل شيئا .

ولذلك نقول دائما : إننا لا نجد فى العلوم المادية فارقا بين علم شيوعى روسى ، وعلم أمريكى رأسمالى ، فلا توجد كيمياء رأسمالية أو كيمياء شيوعية ولا توجد كهرباء روسية وأخرى أمريكية . إنها كيمياء واحدة ، وكهرباء واحدة لأنها ابنة المعمل وبنت التجربة المادية .

ومن العجيب الذى لا يفطن له الخلق المغرورون من هؤلاء أننا نجد العلم المادى ابن التجربة والمعمل والمادة الصماء التى لا تجامل يحاول كل معسكر أن يسرقه من غيره ، ونجد الجواسيس يسافرون من معسكر إلى معسكر ليسرقوا تصميمات الطائرات والصواريخ . وأن بعضهم يتلصص على بعض حتى يعرفوا العلم المادى .

لكن ماذا عن علم الأهواء والنظريات ؟ إننا نجد أن كل طرف يقيم جدارا حتى لا يخترق علم الأهواء المجتمع .

هم يقيمون الحواجز فى الأهواء ولكن فى العلم المادى يتحولون إلى لصوص . فلماذا لا يأخذون الأهواء مع العلم المادى ؟ إن كل معسكر حريص على العداء مع مذاهب الغير فى الحكم والاجتماع والاقتصاد . لكنهم فى العلم المادى يسرق بعضهم بعضا ؛ لأن المذاهب النظرية تتبع الأهواء ، لكن العلم المادى - كما قلنا - يتبع الحقيقة المعملية التى لا تجامل .

إذن فساعة يفكر الإنسان بعقله لابد أن يقول : إن وراء خلق الكون قوة خارقة . وقد عرفها العربى بفطرته فقال : البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير ، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير ؟!!

إنه دليل فطرى ، يدلك على وجود القوة ، لكن ما اسم هذه القوة ؟ لا نعرف . إذن فالأذن تستشرف إلى من يدلها على اسم هذه القوة . فإذا جاء واحد وقال : أنا مُرْسَلٌ من ناحية هذه القوة ، وأنَّ اسمها الله ، كان من المفروض أن تتهافت الناس عليه ؛ لأنه سيحل لها اللغز الذى يشغلهم ، لذلك فالمؤمنون يقولون :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾

(سورة آل عمران)

كأن ذهن كل واحد فيهم كان مشغولا بضرورة التعرف على الخالق . وبعد ذلك يقولون :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾

(من سورة آل عمران)

فأول حاجة فكروا فيها هى درء المفسدة ؛ لأن أفاضل الناس يتهمون أنفسهم بالتقصير دائما ؛ لذلك قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفِّر عنا سيئاتنا » .

وعندما ننظر إلى معطيات القرآن نجد أن « الذنب » شيء ، و« السيئة » شيء آخر . فالذنب يحتاج إلى غفران ، والسيئة تحتاج إلى تكفير ، على سبيل المثال « كفارة اليمين » تكون واجبة إذا ما أقسم المؤمن يمينا وحنث فيه ، وهذا التكفير هو المقابل

للحنث فى اليمين ، أما الأشياء التى تتعلق بالمعصية بين العبد وربه فهى الذنب ، والسيئة هى الأمر الذى يخالف منهج الله مع عباد الله . فحين تفعل المعصية فى أمر بينك وبين الله-فأنت لم تسئ إلى الله ، فمن أنت أيها الإنسان من منزلة الله ؟ لكنك بالمعصية تذنب ، والذنب تأتى بعده العقوبة . أما مخالفة منهج الله مع عباد الله فهى سيئة ؛ لأنك بها تكون قد أسأت .

لذلك فالمؤمنون قالوا : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفِّرْ عنا سيئاتنا » .

ومن الذى هداهم إلى معرفة أن هناك فرقا بين الذنب والسيئة ؛ وأن الذنب يحتاج إلى غفران ، وأن السيئة تحتاج إلى تكفير؟ إنه الرسول صلى الله عليه وسلم حامل الرسالة من الله . وهو الذى علمنا الفرق بين الذنب والسيئة . فقد كان جالساً بين أصحابه فأخذته سِنَةٌ من النوم ، ثم استيقظ فضحك .

فعن أنسٍ رضى الله عنه قال : « بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأيناه ضحكَ حتى بدت ثناياه فقال عمر رضى الله عنه : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : رجلان جثيا من أمتى بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يارب خذ لى مظلمتى من أخى . قال الله : أعط أخاك مظلمته . قال يارب : لم يبق من حسناتى شيء ، قال : يارب يحمل عنى من أوزارى . وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال : إن ذلك ليوم عظيم ، يوم يحتاج الناس إلى أن يُتَحَمَّل عنهم من أوزارهم . فقال الله للطالب : ارفع بصرك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال : يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللةً باللؤلؤ لأى نبى هذا ؟ لأى صِدّيقٍ هذا ؟ لأى شهيدٍ هذا ؟ قال : هذا لمن أعطى الثمن . قال : يارب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت . قال : بماذا ؟ قال : بعفوك عن أخيك . قال : يارب قد عفوت عنه ، قال : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة . ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يُصلحُ بين المؤمنين يوم القيامة »[1] .

---

(١) رواه أبو يَعْلَىَ والحاكم وصححه ورواه السيوطى فى الدر المنثور وابن كثير فى التفسير.

هذا هو معنى التكفير أى أن نتحمل ؛ لذلك نقول فى الدعاء كما علمنا : « اللهم ما كان لك منها فاغفره لى ، وما كان لعبادك فتحمله عنى » . أى أن العبد يطلب أن يراضى الحق عباده من عنده ، وما عنده لا ينفد أبدا .

والعباد المؤمنون يقولون : « ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار » أى اختم لنا سبحانك هذا الختام مع الأبرار . ومن بعد ذلك يأتى قوله تعالى حكاية عنهم :

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

أى ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك ، ولتسمع قول الحق استجابة لهم :

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

ولْنر اللفتة الجميلة فى الاستجابة : « فاستجاب لهم ربهم أنّى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض » لقد كانوا يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض . ويخشون خزى الدخول إلى النار . ودعوا الله بغفران الذنوب وتكفير السيئات . ودعوا الله أن يأتيهم ويعطيهم ما وعدهم به على ألسنة الرسل .

لم يقل الحق سبحانه: استجبت لكم ، لكنه جعل الاستجابة هى قبول العمل فقال: « أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » فليست الحكاية كلاما يقال ، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل فى حيز التطبيق والنزوع العملى ؛ فالمسألة ليست بالتمنى فقط ، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل ، فمن يريد استجابة الحق فلابد له من العمل . إن التفكر فى بديع صنع الله لا يغنى عن العمل ؛ لأن الحق سبحانه يريد التفكر فيه وأنت تعمل فى أسبابه . فأسباب الحق لا تشغلك عنه .

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

فالذين هاجروا من بلادهم ومن أهلهم ومن أوطانهم ومن أحبابهم ، دون إكراه فهجرتهم هذه هى نزع وجودى ، وانتقال من مكان إلى مكان جديد وكان ذلك فى سبيل الله. أى ، فالذين هاجروا وخرجوا بجزء من إرادتهم ، وكذلك الذين أخرجوا من ديارهم ، وقاتلوا فى سبيل الله وتحملوا الايذاء وقُتلوا ـ هؤلاء ـ ينالون التكفير عن السيئات ويدخلون الجنة .

لقد جاء الحق هنا بالعملية التى تتضح فيها الأسوة الإيمانية ؛ لأن الإنسان ينشغل بماله وأهله ووطنه وباستبقاء الحياة ، فإذا ما ضحى الإنسان بهذا كله فى سبيل الثبات

على كلمة الله أولا ، وإعلاء كلمة الله ونشرها ثانيا . فالمؤمن من هؤلاء لم يكتف بنفسه بل جاهد فى سبيل الله لتنتقل الحياة بحلاوتها إلى غيره ، وبذلك يكون قد أحب لغيره ما أحبه لنفسه .

نخرج من كل هذا برؤية واضحة هى أن الفكر وحده لا يكفى وإذا قال واحد : إن إيمانى حسن فلا تأخذنى بالمسائل الشكلية ، نرد عليه قائلين : إن الله ليس فى حاجة إلى ذلك ، ولكنه يطلب منك أن تعمر الكون بحركتك ، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسخ منهج الله فى الأرض ؛ لأنك إن رسخت منهج الله فى الأرض ، أدمت للوجود جماله .

ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

وإذا ما سمعنا كلمة « تقلب الذين كفروا فى البلاد » فاعلم أن التقلب يحتاج إلى قدرة على الحركة . والقدرة على الحركة تكون فى مكان الإنسان وبلاده ، فإذا اتسعت قدرتك على الحركة وانتقلت إلى بلد آخر ، فعندئذ يقال عن هذا الإنسان : « فلان نشاطه واسع » أى أن البيئة التى يحيا فيها ليست على قدر قدرته ، بل إن قدرته أكبر من بيئته . لذلك فإنه يخرج من بلده . وكان ذلك يحدث ، فكفار قريش كانوا يرحلون من بلدهم فى رحلات خارجها . لذلك قال الحق :

﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

والتقلب كما عرفنا ينشأ عن : قدرة وحركة واتساع طموح . وسبحانه يريد أن يبين لنا أن زخارف الحياة قد تأتى لغير المؤمنين . إن كل زخرف هو متاع الحياة الدنيا وهو مرتبط بعمر الانسان فى الوجود . ومهما أخذوا فقد أخذوا زينة الحياة وغرورها ؛

فسبحانه هو القائل :

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

إنها حياة لها نهاية . أما الذى يريد أن يُصَعِّدَ النعمة ويصعد النفع فهو يفعل العمل من أجل حياة لا تنتهى . والكافرون قد يأخذون العاجلة المنتهية ، ولكن المؤمنين يأخذون الآجلة التى لا تنتهى .

وحين نقارن بين طالب الدنيا وطالب الآخرة ، نرى أن الصفقة تستحق أن نناقشها من نواحيها وهى كما يلى : لا تقس عمر الدنيا بالنسبة لذاتها ، ولكن قس عمرها بالنسبة لعمر الفرد فى الحياة ؛ لأن عمر الدنيا عند كل فرد هو مدة بقائه فيها ، فهب أن الدنيا دامت لغيرى ، فمالى ولها ، إن عمر الدنيا قصير بالنسبة لبقاء الإنسان فيها ، وإياك أن تقارنها بقولك : إن الدنيا سوف تبقى لملايين السنين ؛ لأنها ستظل ملايين السنين لملايين الخلق غيرك ، وعمر الدنيا بالنسبة لك هو عمرك فيها ، وعمرك فيها محدود ، وهذا على فرض أن الإنسان سيعيش متوسط الأعمار . فما بالك وعمرك فيها مظنون ؛ لأن الموت يأتى بلا سن ولا يرتبط بسبب أو بزمان . ولذلك فالإنسان لا يضمن متوسط الأعمار . وعمر الآخرة متيقن وهو إلى خلود .

إذن فعمر الإنسان فى الدنيا مظنون وعمره فى الآخرة متيقن ، والدنيا محدودة ، وفى الآخرة خلود ، ونعيمك فى الدنيا منوط بقدرتك على تصور النعمة وإمكاناتها . ولكن نعيمك فى الآخرة على قدر عظمة رَبّك وعطائه العميم ؛ لذلك قال الحق عنها : إنها متاع الغرور . ولم يأت الله لها باسم أقل من اسم الدنيا ، فهل هناك اسم أقل وأحقر من هذا ؟ إن الذين يغترون بما يناله الخارجون عن منهج الله من تقلبهم فى البلاد عليهم أن يتذكروا أن كل ذلك إلى زوال وضياع . وعلينا أن نقارن التقلب فى البلاد بما أعده الله لنا فى الآخرة . وساعة تقارن هذه المقارنة تكون المقارنة سليمة . .

ولذلك يتابع الحق قوله عن تقلب الذين كفروا فى البلاد :

﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾

والمهد هو المكان الذى ينام فيه الطفل . ومعنى ذلك أن الحق يقلب فيهم فى جهنم كما يريد ؛ لأنه لا قدرة لهم على أى شيء ، شأنهم فى ذلك شأن الطفل ، يزال ملازما لفراشه ومهده حتى يقلبه ويحركه غيره . ويأتى المقابل لهؤلاء وهم المؤمنون فيقول :

﴿ لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ ﴾

والنزل هو المكان الذى يعد لنزول الضيف ، والنزل حينما تقيمه قدرات بشرية تتراوح حسب إمكانات البشر وفى احدى السفريات نزلنا فى فندق فاخر فقال لى زملائى وإخوانى :

هذا لون من العظمة البشرية .
قلت لهم : هذا ما أعده البشر للبشر ، فكيف بما أعده الله للمؤمنين ؟

وعندما ترى تقلب الكفار فى البلاد فاعلم أنهم لن يأمنوا أن يأخذهم الله فى تقلبهم ، وفى ذلك يقول :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ويقول ـ سبحانه ـ :

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة النحل)

والكافر من هؤلاء يتملكه الغرور ، وهو يتقلب فيأتيه عذاب الله بغتة . والعذاب يأتى مرة بغتة ، ومرة أخرى جهرة . إنه يأتى بغتة حتى يكون الإنسان متوقعا له فى أى لحظة . ويأتى جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أن يقع . ولذلك يقول الحق :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٥٥ من سورة البقرة)

فالموت إن جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه ، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون ، فهم يرونه وهم فى فزع ورعب .

والحق يقول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى يؤرخ للإيمان تأريخا صادقا أمينا ، فالقرآن لم يتحامل على أهل الكتاب لأنهم عاندوا رسول الله وواجهوا دعوته وصنعوا معه كل ما يمكن أن يحبط الدعوة ويقضى عليها .

إن القرآن يقول : فى شأن بعض منهم منصفا لهم : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله » . وهذا اسمه - كما قلنا - صيانة الاحتمال . فساعة يقول الحق : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله » ، ساعة ينزل هذا الكلام ، فيسمعه بعض من أهل الكتاب الذين انشغلوا فى أعماقهم بتصديق الرسول ، ويعرضون قضية الإيمان على نفوسهم ، فإذا ما كانوا كذلك ماذا يكون موقفهم وهم الذين يفكرون فى أمر الإيمان بما جاء به محمد ؟ إنهم عندئذ يقولون لأنفسهم : هذه مسألة فى أعماقنا ، فمن الذى أطلع محمدًا عليها ؟ إن ذلك دليل على أن محمداً لا ينطق عن الهوى ، وأن الله يعلمه بما فى نفوسنا مما لم يبرز إلى حيز الوجود . ومادام الحق يخبره بما لم يخرج إلى حيز الوجود فلابد أنه صادق . فإن كانت الآية قد قيلت بعد أن آمنوا فلن يكون لها هذا الوقع .

إذن فلابد أن هذا القول تبشير بأن كثيرًا من أهل الكتاب يفكرون فى تصديق رسول الله فى البلاغ من الله ، وهم بصدد أن يؤمنوا . فقول الله ذلك يجعل العملية الإيمانية فى نفوسهم مصدقة ، لأنهم يقولون : إن الرسول الذى يقول ذلك هو مبلغ عن إله يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

هذه الآية هى ختام سورة آل عمران . وسورة آل عمران جاءت بعد سورة

البقرة . والسورتان تشتركان معاً فى قضية عقدية أولى ، وهى الإيمان بالله والتصديق بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من عند الله خاتما للرسالات ومهيمناً عليها . ولذلك تكلم الحق عن قضية الإيمان وقضية الهدى وقضية الكتاب ، ثم تعرض الحق لرواسب ديانات سابقة تحولت عن منهج الله إلى أهواء البشر ، فجادل فى سورة البقرة اليهود ، وجادل فى سورة آل عمران النصارى .

وبعد ذلك عرض قضية إيمانية تتعلق بموقف المسلمين المؤمنين بالله وبتصديق رسوله فى معترك الحياة ، وعرض معركة من المعارك ابتلى فيها المؤمنون ابتلاءً شديداً ، ثم عرض للقضية الإيمانية حين يثوب المؤمن المتخاذل إلى منهج ربه . وبعد أن ينتهى من هذه ، يقول الحق : « يا أيها الذين آمنوا » أى يا من آمنتم بما تقدم إيماناً بالله ، وتصديقاً بكتابه ، وتصديقاً برسالته صلى الله عليه وسلم ، وتمحيصاً للحق مع اليهود ، وتمحيصاً للحق مع أهل الكتاب جميعا ، تمحيصاً لا جدلياً نظرياً ، ولكن واقعيا فى معركة من أهم معارك الإسلام وهى معركة أحد ، فيا من آمنتم بالله إيمانا صادقا صافيا ، استمعوا إلىّ يا من آمنتم بى « اصبروا » وهذا أمر ، و« صابروا » أمر ثان ، و« رابطوا » أمر ثالث ، و« اتقوا الله » أمر رابع .

إنها أربعة أوامر ، والغاية من هذه الأوامر هى « لعلكم تفلحون » . إذن فمن عشق الفلاح فعليه أن ينفذ هذه الأربعة : اصبر ، صابر ، رابط ، اتق الله ، لعلك تفلح .

والحق سبحانه وتعالى حين يعبر عن الفلاح إنما يعبر بأمر مشهود مُحس للناس جميعا ، لم يقل لك : افعل ذلك لتنجح أو لتفوز . إنما جاء بكلمة « الفلاح » . و« الفلاح » كما قلنا: مأخوذ من فلح الأرض . وفلح الأرض هو شقها لتتعرض للهواء ، ولتكون سهلة هينة تحت الجذير البسيط الخارج من البذرة ، فإذا فلحت الأرض بهذه المشقة حرثاً وبذراً وتعهداً بالرى ماذا يحدث لك من الأرض ؟ إنها تؤتيك خيراً مادياً مشهودا ملحوظا .
إذن فقد ضرب الله المثل فى المعنويات بالأمر المـُحس الذى يباشره الناس جميعا ، وأى فَلَاح هذا الذى يقصده الحق سبحانه وتعالى ؟ إنّه فلاح الدنيا وفلاح الآخرة ؛

فلاح الدنيا بأن تنتصروا على خصومكم ، وأن تعيشوا معيشة آمنة مستقرة رغدة ، وفلاح الآخرة أن تأخذوا حظكم من الخلود فى النعيم المقيم ، ومادام سبحانه يقول : اصبروا فلابد أن يكون هذا إيذانا بأن فيه مشقة ، فالإيمان يؤدى إلى الجنة ، والجنة محفوفة بالمكاره ؛ لذلك لابد أن تكون فيه مشقات .

وإذا نظرت إلى تلك المشقات تجدها فى ذات النفس منفصلة عن المجتمع تارة ، وتجدها فى ذات النفس مع المجتمع تارة أخرى ، أما فى ذات النفس مفصولة عن المجتمع ، فإن الصبر يقتضى أن تصبر على تنفيذ أمر الله فى فعل الطاعات وعلى تحمل الألم منه فى ترك المعاصى وإن كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها فإنك تصبر عن تلك الشهوة التى تلح عليك ، فمجاهدة المؤمن أن يصبر عن الشهوات التى نهى الله عنها ، والأشياء التى تصيب الإنسان يصبر عليها ، فالمصيبة فى النفس يصبر عليها ، والأشياء التى يصبر عنها من النواهى هى الشهوات والمتع التى يحرمها الله .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول : إننى خلقتك وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة ، لأنك تحبها فاصبر عنها ، والأمور التى فى الطاعة إن فعلتها ستورثك مشقة فى ذاتك ، اصبر عليها ، إذن ففى الأوامر صبر على تنفيذها ، وفى المناهى صبر عن إيقاعها ، هذه كلها فى الذات ، وبعد ذلك إذا تعدت المسألة من الذاتية إلى المحيط الخارجى فالحق يقول :

﴿ وَالصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَـدَقُواۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُـمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة البقرة)

يقول : « صابرين فى » ، فعندنا : « صابر على » ، و« صابر عن » ، و« صابر فى » ، « والصابرين فى البأساء » التى تقع عليهم من المجتمع الخارج عنهم ، وكيف تصيبهم البأساء من المجتمع الخارج عنهم ؟ نعم ، لأن منهج الحق إنما يجىء ليصوب الخطأ فى حركة المجتمع . والخطأ فى حركة المجتمع إنما يستفيد منه أناس وهم يحرصون جاهدين أن يصدوا من يريدون تثبيت منهج الله ، إذن فهم لا يقصرون فى إيذائهم ، وفى السخرية منهم ، وفى إتعابهم وفى حربهم ، وهذا صبر فى البأساء

والضراء وحين البأس ، وإذا كان عدوك الذى جئت لتدحض منهجه الباطل بمنهجك الحق صابرك وصابر أيضا على إيذائك ، فعليك أن تصابره .

ماذا يعنى ذلك ؟ يعنى أن « اصبر » غير « صابر » ، فاصبر هو أمر فى نفسك ستصبر عليه ، ولكن هب أن خصمك صبر أيضا على إيذائك ، وصار عنده جلد ليقف أمامك هنا ،

الحق يأمرك هنا بأن تصابره ، أى إذا كان عدوك يصبر قليلا فعليك أنت أن تقوى على الصبر عليه ، أى أن تجىء بصبر فوق الصبر الذى يعارضك ، وكل مادة « فاعَل » هكذا .

مثال ذلك : عندما تقول : فلان نافس فلانا . والمنافسة تكون بين اثنين يحتاجان ويقصدان غاية ، وكل واحد يريد أن يصل إليها ، والذى يريد أن يصل إليها يريد أن يصل بحرص ، فإن كان معاندك يحرص عليها بخطوة فاحرص عليها أنت بخطوتين ، هذه هى المنافسة ؛ فالمنافسة مغالبة على الفوز ، والحق يقول :

﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة المطففين)

والأصل فيها هو : إطالة النفس حين يغطس الإنسان فى الماء ، وسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ قال للعباس ـ رضى الله عنه ـ : أتنافسنى ؟ أى عرض عليه أن ينزلا معا تحت الماء ، ويرى مَن منهما أطول نفسا . إذن فالفطن الكيّس هو من يتمرس على هذا العمل ولا ينزل إلى الماء فى نفس متردد ، بل يأخذ كمية من الهواء بشهيق يتسع له تجويف صدره كله ليكون عنده حصيلة يستطيع بها أن يمكث فى الماء أطول مدة من الثانى ، أما الذى يغطس وليس عنده هذه الحصيلة ، فسيأخذ مقدار شهيق وزفير فقط ، « فنافسنى » تعنى أن نغطس فى الماء معا لنرى من منا أطول نفسا . أى أنه قادر على أن يحتفظ بكمية من الهواء تستطيع أن تؤدى وظيفة حياته مدة طويلة ، ولا يمكن أن يتأتى هذا إلا إذا أخذت شهيقا يملأ الصدر حتى إنك لا تقدر أن تزيد ، ولذلك فالطبيب عندما يريد أن يفحص حالة الرئة يقول للمريض : خذ نفسا طويلا ، لأنه يريد أن يرى المريض وقدرته .

إذن فالمصابرة تعنى إن كان خصمك يصابرك فأنت تصبر وهو يصبر ، فتصبر أنت

أكثر ، ولهذا تحتاج المسألة إلى أن يتكاتف المجتمع كله على المصابرة ، ولذلك جاء قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

أى أنك إذا رأيت أخا من إخوانك المؤمنين يخور ويضعف فى مصابرته فتحثه على المصابرة وقل له : إياك أن تخور ، لماذا ؟ لأن النفس البشرية من الأغيار ، وقد يأتى لها حدث يقوى عليها ، فالمؤمن الذى ليس عنده هذه الأغيار ينفخ بالعزيمة فيمن يخور فقال الحق : « تواصوا » ، ولم يقل : جماعة يوصون جماعة ، لا . « فالتواصى » أن تكون أنت مرة موصِياً ، ومرة مُوصىً ، فساعة لا يكون عندك ضعف الأغيار فَوصِّ ، وساعة يكون عندك ضعف الأغيار تُوَصَّى ، فكل واحد موص فى وقت ، ومُوصىً فى وقت آخر ، ولا نتواصى هذه التوصية على الصبر إلا إذا كنا تواصينا أولا على الحَق الذى من أجله نشأت المعركة بين صابر وصابر .

« يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » وعرفنا الصبر ، وعرفنا المصابرة ، فما هو الرباط ؟ هو أن تشعر عدوك بأنك مستعد دائما للقائه ، هذا هو معنى الرباط . والحق يقول :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأنفال)

إنها خيل مربوطة للجهاد فى سبيل الله ومستعدة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خيركم ممسك بعنان فرسه كلما سمع هيعة طار إليها »[١] .

أى أن نكون مستعدين قبل وقوع الهجوم ، وساعة تأتى الأمور الداهمة ننطلق لمواجهتها . ولكن يكون استعدادنا من قبل الأمر الداهم ، ولذلك حين يكون عدوك

---

(١) رواه مسلم فى الإمارة وابن ماجه فى الفتن ورواه أحمد .

عالما بأنك مرابط له ومستعد للحركة فى أى وقت يرهبك ويخافك ، أما إذا كنت فى استرخاء وغفلة ؛ فإنه يدهمك ، فإلى أن تستعد يكون قد أخذ منك الجولة الأولى ، إذن فما فائدة الرباط ؟

فائدة الرباط أن يُعلم أنك لم تغفل عن عدوك وأنك لن تترك العدة والاستعداد له إلى أن يأتى بالمداهمة ، ولكن تكون أنت مستعدًّا لها فى كل وقت ، والرباط لا يكون فقط أن ترابط بالخيل للعدو المهاجم هجوما ماديا ، بل المرابطة تعني : الإعداد لكل ما يمكن أن يَرُدَّ عن الحق صيحة الباطل ، فمن المرابطة أن تعد الناشئة الإسلامية لوافدات الإلحاد قبل أن تفد ، لماذا ؟ .

لأن المسألة ليست كلها غزوًا بخيل وسلاح وعُدَد ، فقد يكون الغزو بالفكر الذى يتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر ، فإذن لابد أن تكون أيضا فى الرباط الذى يمد المؤمن بقدرة وطاقة المواجهة بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التى قد تفد على المؤمنين ، يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها .

لقد قلنا : إن آفة المناهج العلمية أنهم أخذوا مناهجهم عن الغرب ، فدرسوا التاريخ كما يدرسه الغرب ، ودرسوا الطبيعة كما يدرسها الغرب ونسوا أن لنا دينا يحمينا من كل هذه الأشياء ، فعندما يأتينى رجل التاريخ بمنهجه من الغرب ، ويقول : إن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان ، هنا يجب أن تكون عندنا مناعة وترابط ، ونقول له : فى أى سنة نشأت الثورة الفرنسية ؟

لقد نشأت منذ سنوات قليلة ، قد تزيد أو تنقص على المائتى سنة ، وأنتم تجهلون أن الدين الإسلامى جاء منذ أربعة عشر قرنا بحقوق الإنسان ، واقرأوا القرآن . فلو أن كل تلميذ حين يسمع أن الثورة الفرنسية هى التى أعلنت حقوق الإنسان ، يقول لهم : لا ، أنت تعلم أن ذلك حدث فى القرن السابع عشر لكن لماذا لا تلتفت إلى أنه منذ أربعة عشر قرنا جاء الإسلام بهذا المبدأ والتفت إلى الاساءة فى استعمال الحق ، فإذا كنت تجهل تشريع الله فلا يصح أن يؤدى بك هذا الجهل إلى طمس معالم الحق فى منهج الله .

وإذا قال دارس للطبيعة : إن الطبيعة أمدت الحيوان الفلانى باللون الذى يناسب البيئة التى يعيش فيها حتى لا يفتك به عدوه وهو بذلك يضلله ، نقول له : إن الطبيعة لا تمد ، الطبيعة ممدة من الله ، لا تقل : إن الطبيعة أمدت . إذن فالرباط لا يكون بقوة عسكرية فحسب بل بالقوة العلمية أيضا ، فخصوم الإسلام قد يئسوا من أن ينتصروا على الإسلام بقوة عسكرية بعد أن كتلوا كل قواهم فى الحروب الصليبية ، ولم يبق لهم إلا أن يَدخلوا علينا من خلال مناهجهم ومن خلال المستشرقين هناك ، والمستغربين منا فينقلوا لنا ثقافات أجنبية بعيدة عن منهجنا ، وهم معذورون لأنهم لا يعلمون منهج الله فى دين الله . إذن فالرباط لا بد أن يكون أيضا فى رباط الأفكار ، ورباط العلم المادى .

إن خصوم الإسلام يدخلون على الناس من مداخل متعددة فيجب أن ننبه النشء إليها ، يقولون : أوروبا ارتقت حضاريا وأنتم يا مسلمون تخلفتم . نقول لهم : هل كان التخلف مقارنا للإسلام ؟ لقد كانت الدولة الإسلامية هى الدولة الحضارية الأولى فى العالم لمدة ألف سنة ، وأوروبا التى تتشدقون بحضارتها كانت تعيش فى العصور المظلمة . إن هؤلاء لم يعرفوا تاريخنا أو هم يتكلمون لأناس لا يعرفون تاريخهم .

إذن فالمرابطة أن توضح أمور دينك توضيحا يقف أمام أى وافدة قبل أن تفد بالعدوان المسلح ، ويجب أن تقف لغزو الأفكار ولهدم المبادىء ، ولذلك قال الحق : « اصبروا » . و« صابروا » . و« رابطوا » ، وجماع كل ذلك « الصبر على » و« الصبر عن » و« الصبر فى » ، والمصابرة للعدو والتواصى بالصبر ، والرباط بمعنييه المادى والمعنوى ، أى بالأمور المادية والأمور المعنوية القيمية ، ويختم الحق الآية بقوله : « واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

ونعرف أنه حين قال لك : « اتق الله » تساوى أن يقول لك : « اتق النار » فمعنى « اتقوا الله » : أى اجعلوا بينكم وبين غضب ربكم وقاية . ما هى الوقاية ؟ أن تطيع ، وما هى الطاعة ؟ أن تنفذ ما أمر ، وأن تنتهى عما نهى . فالذى يفسر التقوى بأنها الطاعة نقول له : نعم لأنها الوسيلة إلى وقايتك من غضب الله وعذابه ، فالذى

يفسرها بهذا يفسرها بالوسيلة ، والذى يفسرها بالأخرى يفسرها بالغاية ، فعندما يقال لك : اتق الله ، أى اجعل بينك وبين النار التى هى من جنود الله وقاية ، أى اجعل بينك وبين غضب الله وقاية ، وإذا قال لك : اتّقِ الله يعنى أطعه فى أمره وفى نهيه ، فما هى الوسيلة لاتقاء النار واتقاء غضب الله ؟ إنها الطاعة ، فمرة تفسر التقوى بالوسيلة ومرة تفسر بالغاية .

وقلنا فى قوله : « لعلكم تفلحون » إن الفلاح إما أن يكون فى الدنيا وإما أن يكون فى الآخرة. فى الدنيا: بأن ترتفع كلمة الحق وكلمة الإيمان وتنتصروا ولا أحد يذلكم ولا يجعلكم أحد تابعين له . هذا لون من الفلاح ، ولكن على فرض أنهم فلحوا وضعفتم أنتم ، فى فترة من الزمن فثقوا أنكم تعملون لفلاح آخر هو فلاح الآخرة ، وإلا فالذين يخاطبون بهذه الآية قبل أن يدركوا نصرا للإسلام على أعدائه ، يفسرون الفلاح بماذا ؟ الذين جاهدوا وتعبوا وعاشوا مضطهدين لا استقرار فى حياتهم ، وبعد ذلك ماتوا قبل أن يُمكَّن للإسلام ، كيف يكون فلاحهم ؟ إن فلاحهم فى الآخرة ، ولذلك تجد الاحتياط فى قصة أهل الكهف :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ ﴾

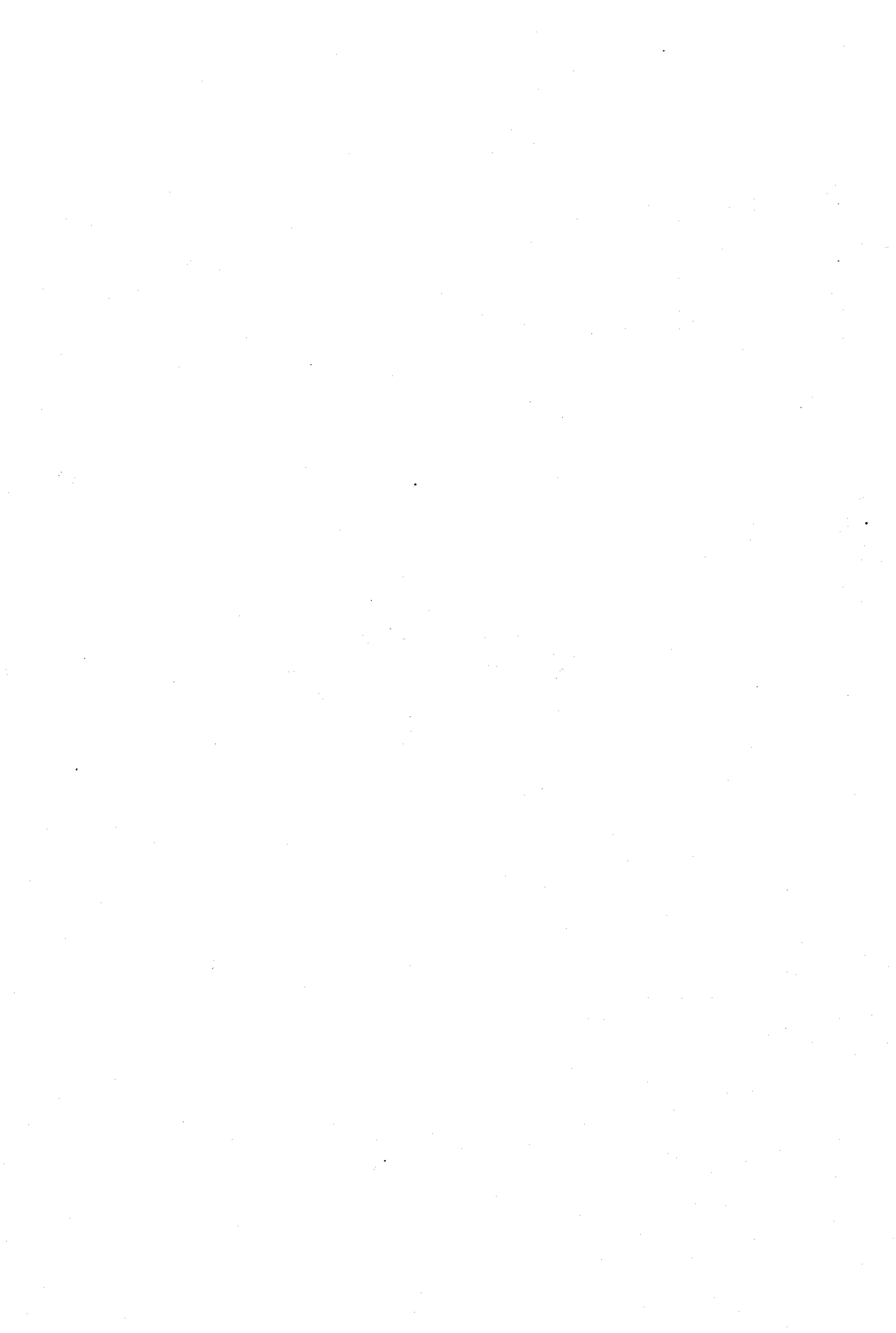
(سورة الكهف)

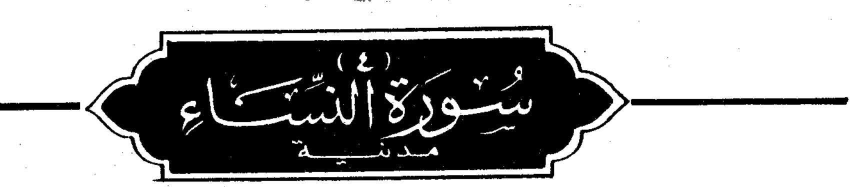
ونلحظ فى هذه القصة قوله الحق : « يرجموكم » هذه واحدة ، « أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبدا » .

إن كانوا يرجمونكم فسينتصرون عليكم فى الدنيا ، إنما ستأخذون الآخرة ، وإن

ردوكم إلى دينهم ، فلن تفلحوا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، إذن فعناصر الفلاح المرادة للإنسان ، إما فى الدنيا وإما فى الآخرة وإما فيهما معا.إنّ عناصر الفلاح أن ننفذ أوامر الله فى قوله : « اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » .






(٤)
سُورَةُ النِّسَاءِ
مدنية



عرضنا - فيما سبق - خواطرنا حول تسمية السور ، وهنا تأتى سورة النساء والاسم المختار لها اسم مكرم للجنس الآخر من النوع الإنسانى ، ونلحظ أن الحق لم ينزل سورة باسم سورة الرجال ، وجاء بسورة وسماها « سورة النساء » وتتعلق بها أحكام كثيرة ، وأيضا سيتكلم فى سورة المائدة عن حقوق النساء ، وأيضا سيتكلم فى سورة الأحزاب عن النساء ، وأيضا سيتكلم فى سورة الممتحنة عن النساء ، وفى سورة المجادلة عن النساء وفى سورة الطلاق ، وفى سورة التحريم عن النساء ، إنها أحكام منصوص عليها فى القرآن عن حقوق المرأة ، وهذه الأحكام جاءت لتتكلم عن الوعاء الحاضن للنفس البشرية .

ونحن نعرف أن مهمة الرجل مع الأجناس الدنيا فى الحياة مع الجماد فى المعمل ، ومع الحيوانات يربى ، ومع الزرع يزرع . إن الرجل يعمل مع تلك الأجناس ، والأجناس كما نعلم هى : جماد ، ونبات ، وحيوان ، وإنسان ، ومجال الإنسان الرجل هو العمل مع الجماد ومع النبات ومع الحيوان ، أما مجال المرأة فمع الإنسان ، أيوجد تكريم للمرأة أكثر من أن الله جعلها الحاضنة لأكرم مخلوقاته وهو الإنسان ؟

انظر إلى طفولة كل الأشياء ، النبات والحيوان تجدها طفولات قصيرة ، هناك حيوانات لا تطول طفولتها لأكثر من شهر ، وهناك حيوانات تستمر طفولتها أياما ، وهناك نبات تكون طفولته سبع سنين - وهذه طفولة الشجر المعمر - لكن طفولة الإنسان تستمر من الميلاد حتى أربع عشرة سنة ، وهى فترة حضانة طويلة ، ولماذا يجعل الله لهذا الإنسان المكرم حضانة طويلة ؟

إن مهمة الإنسان فى الحياة جليلة . إذن فطفولته تحتاج إلى عناية.وفى مرحلة الطفولة يتشرب الإنسان نضج ما حوله ليكون سلوكياته ، وعندما يكون فى حضن أمه فهو فى حضن المرأة ، بينما يكدح والده فى الحياة ، ويأتى لهما بالرزق ، ويسكن عند الزوجة .

فالمرأة عندما قاضت الرجل وخاصمته أمام القاضى وهو يريد أن يأخذ ابنه منها ، قالت للقاضى : لقد حمله خِفًا ، يعنى حمله فى ظهره خفيفا لا يدرى به ووضعه شهوة ، ولكننى حملته كرها على كره ؛ لذلك فبعد أن أنزل الحق فى آل عمران سورة وهم قدوة الاصطفاء فى الرسالات وفى التكليفات ، ومنهم جاء لنا ببعض الرسل ، وجاء منهم بمنفذين لمنهج الله مثل امرأة عمران ، فلم تكن هى ولا مريم عليهما السلام نبية ولا رسولة ولكن نفذت كل واحدة منهما ما أمرت به .

وبعد تخصيص سورة لآل عمران يأتى لنا الحق بسورة النساء .

والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب الذين آمنوا فانتظروا منه تكليفا. ساعة يقول: « يا أيها الذين آمنوا » فافهم أنه يريد أن يكلفك . وسبحانه يوضح لك : أنا لا أقتحم عليك اختيارك ، ولا أكلفك إلا بما كلفت أنت به نفسك لأنك آمنت بى ، ومادمت آمنت بى ربا إلها قادرا حكيما فاسمع منى .

إنّ الله لم يدخلك فى الإيمان فأنت الذى دخلت باختيارك فى الإيمان فيجب أن تستمع إلى من آمنت به ، وقلنا ؛ ـ ولله المثل الأعلى ـ الإنسان منا عندما يذهب إلى الطبيب فهو يختار هذا الطبيب ؛ لأنه أنسب الأطباء لعلاجه ، وساعة يذهب إلى مثل هذا الطبيب فهو يلتزم بأوامره ، ويأخذ تذكرة العلاج ويصرفها من الصيدلية ، وإن لم يجدها يحتال على أى واحد يسافر للخارج ليأتى بها ، وينفذ المريض ما بها من أوامر .

وسبحانه يقول هنا : « يا أيها الناس » إنه لا يطلب من الانسان أى تكليفات ، لكنه يطلب منك أيها الانسان أن تؤمن . فيوضح « يا أيها الناس » . إنه ينادى الناس : تعالوا إلى جانبى كى تروا أيؤمن بى أم لا يؤمن بى ؟ والمقصود بـ « يا أيها الناس » هم آدم وذريته .

والحق يبدأ سورة النساء بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ① ﴾

وساعة يدعو الله سبحانه الناس إلى تقواه يقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ومعنى « اتقوا ربكم » أى اجعلوا بينكم وبينه وقاية ، وماذا أفعل لأتقى ربنا ؟

أول التقوى أن تؤمن به إلها ، وتؤمن أنه إله بعقلك ، إنه ـ سبحانه ـ يعرض لك القضية العقلية للناس فيقول : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » ولم يقل : اتقوا الله ، لأن الله مفهومه العبادة ، فالإله معبود له أوامر وله نواهٍ ، لم يصل الحق بالناس لهذه بعد ، إنما هم لايزالون فى مرتبة الربوبية ، والرب هو : المتولى تربية الشيء ، خلقا من عدم وإمدادا من عدم ، لكن أليس من حق المتولى خلق الشيء ، وتربيته أن يجعل له قانون صيانة ؟

إن من حقه ومسئوليته أن يضع للمخلوق قانون صيانة . ونحن نرى الآن أن كل مخترع أو صانع يضع لاختراعه أو للشيء الذى صنعه قانون صيانة ، بالله أيخلق سبحانه البشر من عدم وبعد ذلك يتركهم ليتصرفوا كما يشاءون ؟ أم يقول لهم : اعملوا كذا وكذا ولا تعملوا كذا وكذا ، لكى تؤدوا مهمتكم فى الحياة ؟ إنه يضع دستور الدعوة للإيمان فقال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » .

إذن فالمطلوب منهم أن يتقوا ، ومعنى يتقوا أن يقيموا الوقاية لأنفسهم بأن ينفذوا أوامر هذا الرب الإله الذى خلقهم ، وبالله أيجعل خلقهم علة إلا إذا كان مشهودا بها له ؟ هو سبحانه يقول : « اتقوا ربكم الذى خلقكم » كأن خلقة ربنا لنا مشهود بها ، وإلا لو كان مشكوكا فيها لقلنا له : إنك لم تخلقنا ـ ولله المثل الأعلى .

أنت تسمع من يقول لك : أحسن مع فلان الذى صنع لك كذا وكذا ، فأنت مقر بأنه صنع أم لا ؟ فإذا أقررت بأنه صنع ما صنع فأنت تستجيب لمن يقول لك مثل ذلك الكلام . إذن فقول الله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم » فكأن خلق الله للناس ليس محل جدال ولا شك من أحد ، فأراد ـ سبحانه ـ أن يجذبنا إليه ويأخذنا إلى جنابه بالشيء الذى نؤمن به جميعا وهو أنه ـ سبحانه ـ خلقنا إلى الشيء الذى يريده وهو أن نتلقى من الله ما يقينا من صفات جلاله ، وجاء سبحانه بكلمة « رب » ولم يقل : « اتقوا الله » ، لأن مفهوم الرب هو الذى خلق من عدم وأمد من عُدْم ، وتعهد وهو المربى ويبلغ بالإنسان مرتبة الكمال الذى يراد منه وهو الذى خلق كل الكون فأحسن الخلق والصنع ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

إذن فقضية الخلق قضية مستقرة . ومادامت قضية مستقرة فمعناها : مادمتم آمنتم بأنى خالقكم فلى قدرة إذن ، هذه واحدة ، وربيتكم إذن فلى حكمة ، وإله له قدرة وله حكمة ، إما أن نخاف من قدرته فنرهبه وإما أن نشكر حكمته فنقر به ، « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » . لو لم يقل الحق : « وجعل منها زوجها » لما كملت ، لماذا ؟ لأنه سيقول فى آيات أخرى عن الإيجاد :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

إذن فخلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها هنا ، والناس تريد أن تدخل فى متاهة . هل خلق منها المقصود به خلق حواء من ضلع آدم أى من نفس آدم ؟ أناس

قالوا ذلك ، وأناس قالوا : لا ، « منها » تعنى من جنسها ، ودللوا على ذلك قائلين : حين يقول الله :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

أأخذ الله محمدا صلى الله عليه وسلم من نفوسنا وكونه ؟ لا ، إنما هو رسول من جنسنا البشرى ، وكأنه سبحانه قد أشار إلى دليل ؛ لأن خلْق حواء قد انطمست المعالم عنه ، ولأنه أعطانا بيان خلق آدم وتسويته من طين ومراحل خلقه إلى أن صار إنسانا ، ولذلك يجوز أن يكون قد جعل خلق آدم هو الصورة لخلق الجنس الأول ، وبعد ذلك تكون حواء مثله ، فيكون قوله سبحانه : « خلق منها » أى من جنسها ، خلقها من طين ثم صورها إلخ ؛ ولكن لم يعد علينا التجربة فى حواء كما قالها فى آدم ، أو المراد من قوله : « منها » أى من الضلع ، وهذا شىء لم نشهد أوله ، والشىء الذى لم يشهده الإنسان فالحجة فيه تكون بِمَنْ شهده ، وسبحانه أراد أن يرحمنا من متاهات الظنون فى هذه المسألة ، مسألة كيف خُلقنا ، وكيف جئنا ؟

إن كيفية خلقك ليس لك شأن بها ، فالذى خلقك هو الذى يقول لك فاسمع كلامه لأن هذه مسألة لا تتعلق بعلم تجريبى ؛ ولذلك عندما جاء « دارون » وأراد أن يتكبر ويتكلم ، جاءت النظرية الحديثة لتهدم كلامه ، قالت النظرية الحديثة لدارون : إن الأمور التى أثرت فى القرد الأول ليكون إنسانا ، لماذا لم تؤثر فى بقية القرود ليكونوا أناسا وينعدم جنس القرود ؟! وهذا سؤال لا يجيب عليه دارون ؛ لذلك نقول : هذا أمر لم نشهده فيجب أن نستمع ممن فعل ، والحق سبحانه يقول :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ومادام لم يشهدهم ، فهل يستطيع أحد منهم أن يأتى بعلم فيها ؟ إن أحدا لا يأتى بعلم فيها ، وبعد ذلك يرد على من يجىء بادعاء علم فيقول : « وما كنت متخذ المضلين عضدا » ، معنى مضلين أنهم سيضلونكم فى الخلق . كأن الله أعطانا مناعة

فى الأقوال الزائفة التى يمكن أن تنشأ من هذا عندما قال : « وما كنت متخذ المضلين عضدًا » ، فقد أوضح لنا طبيعة من يضللون فى أصل الخلق وفى كيفية الخلق ، فهم لم يكونوا مع الله ليعاونوه ساعة الخلق حتى يخبروا البشر بكيفية الخلق . فإن أردتم أن تعرفوا فاعلموا أنه سبحانه الذى يقول كيف خلقتم وعلى أى صورة كنتم ، ولكن من يقول كذا وكذا ، هم المضللون ، و« المضللون » هم الذين يلفتونكم عن الحق إلى الباطل .

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ولماذا لم يقل خلقكم من زوجين وانتهى ؟ لأنه عندما يُردّ الشىء إلى اثنين قد يكون لواحد من الاثنين هوى ، وإنما هذه ردت إلى واحدة فقط ، فيجب ألا تكون لكم أهواء متنازعة ، لأنكم مردودون إلى نفس واحدة ، أما عن نظرية « دارون » وما قاله من كلام فقد قيض الله لقضية الدين وخاصة قضية الإسلام علماء من غير المسلمين اهتدوا إلى دليل يوافق القرآن ، فقام العالم الفرنسى « مونيه » ، عندما أراد أن يرد على الخرافات التى يقولونها من أن أصل الإنسان كذا وكذا ، وقال : أنا أعجب ممن يفكرون هذا التفكير ، هل توجد المصادفة ما نسميه « ذكراً » ثم توجد المصادفة شخصا نسميه « أنثى » ويكون من جنسه لكنه مختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا جاءا بذكر كالأول أو بأنثى كالثانى ؟

كيف تفعل المصادفة هذه العملية ؟

سنسلم أن المصادفة خلقت آدم ، فهل المصادفة أيضا خلقت له واحدة من جنسه . ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا ينشأ بينهما سيال عاطفى جارف وهو أعنف الغرائز ، ثم ينشأ منهما تلقيح يُنشىء ذكرا كالأول أو ينشىء أنثى كالثانى ؟ أى مصادفة هذه ؟ هذه المصادفة تكون عاقلة وحكيمة ، سموها مصادفة ونحن نسميها الله .

لقد ظن « مونيه » ـ هداه الله إلى الإسلام وغفر له ـ أنه جاء بالدليل الذى يرد به على دارون ، نقول له : إن القرآن قد مس هذه المسألة حين قال : « اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » ، وهذه هى

العظمة ، إنه خلق الرجل وخلق الأنثى ؛ وهى من جنسه ، ولكنها تختلف معه فى النوع بحيث إذا التقيا معا أنشأ الله منهما رجالا ونساءً . إذن فهو عملية مقصودة ، وعناية وغاية وحكمة ، إذن فقول الله سبحانه وتعالى : « الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » . هذه جاءت بالدليل الذى هُدِى إليه العالم الفرنسى « مونيه » أخيرا .

« وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » وانظروا عظمة الأسلوب فى قوله « وبث » أى « نشر » وسنقف عند كلمة « نشر » لأن الخلق يجب أن ينتشروا فى الأرض ، كى يأخذوا جميعا من خيرات الله فى الأرض جميعا .

و« النشر » معناه تفريق المنشور فى الحيز ، فهناك شيء مطوى وشيء آخر منشور ، والشيء المطوى فيه تجمع ، والشيء المنشور فيه تفريق وتوزيع ، إذن فحيز الشيء المتجمع ضيق ، وحيز الشيء المبثوث واسع ، معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى حينما يقول : « وبث منهما » أى من آدم وحواء « رجالا كثيرا ونساء » واكتفى بأن يقول « نساء » ولم يقل : كثيرات لماذا ؟ لأن المفروض فى كل ذكورة أن تكون أقل فى العدد من الأنوثة . وأنت إذا نظرت مثلا فى حقل فيه نخل ، تجد كم ذكرا من النخل وكم أنثى ؟ ستجد ذكراً أو اثنين .

إذن القلة فى الذكورة مقصودة لأن الذكر مخصب ويستطيع الذكر أن يخصب آلافا ، فإذا قال الله : « وبث منهما رجالا كثيرا » فالذكورة هى العنصر الذى يفترض أن يكون أقل كثيرا ، فماذا عن العنصر الثانى وهو الأنوثة ؟ لابد أن يكون أكثر ، والقرآن يأتى لينبهك إلى المعطيات فى الألفاظ لأن المتكلم الله ، ولكن إذا نظرت لقوله : « وبث منهما » أى من آدم وحواء وهما اثنان « رجالا كثيرا ونساء » . فتكون جَمْعاً وهذا ليدلك على أن المتكاثر يبدأ بقلة ثم ينتهى بكثرة .

ونريد أن نفهم هذه كى نأخذ منها الدليل الإحصائى على وجود الخالق ،فهو « بث منهما رجالا كثيرا ونساء » والجمع البشرى الذى ظهر من الاثنين سيبث منه أكثر . . وبعد ذلك يبث من المبثوث الثانى مبثوثا ثالثاً ، وكلما امتددنا فى البث تنشأ

كثرة ، وعندما تنظر لأى بلد من البلاد تجد تعداده منذ قرن مضى أقل بكثير جدا من تعداده الآن ، مثال ذلك كان تعداد مصر منذ قرن لا يتعدى خمسة ملايين ، ومن قرنين كان أقل عدداً ، ومن عشرة قرون كان أقل ، ومن عشرين قرنا كان أقل ، إذن فكلما امتد بك المستقبل فالتعداد يزيد ، لأنه سبحانه يبث من الذكورة والأنوثة رجالاً كثيراً ونساء وسيبث منهم أيضاً عددا أكبر .

إذن فكلما تقدم الزمن تحدث زيادة فى السكان ، ونحن نرى ذلك فى الأسرة الواحدة ، إن الأسرة الواحدة مكونة عادة من أب وأم ، وبعد ذلك يمكن أن نرى منهما أبناء وأحفاداً وعندما يطيل الله فى عمر أحد الوالدين يرى الأحفاد وقد يرى أحفاد الأحفاد . إذن كلما تقدم الزمن بالمتكاثر من اثنين يزداد وكلما رجعت إلى الماضى يقل ؛ فالذين كانوا مليوناً من قرن كانوا نصف مليون من قرنين ، وسلسلها حتى يكونوا عشرة فقط ، والعشرة كانوا أربعة ، والأربعة كانوا اثنين والاثنان هما آدم وحواء .

فعندما يقول الحق : إنه خلق آدم وحواء ، وتحاول أنت أن تسلسل العالم كله سترجعه لهما ، ومادام التكاثر ينشأ من الاثنين ، فمن أين جاءا ؟ الحق سبحانه يوضح لنا ذلك بقوله : « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى » وهو بذلك يريحنا من علم الإحصاء . وكان من الضرورى أن تأتى هذه الآية كى تحل لنا اللغز فى الإحصاء ، وكلما أتى الزمن المستقبل كثر العالم وكلما ذهبنا إلى الماضى قل التعداد إلى أن يصير وينتهى إلى اثنين ، وإياك أن تقول إلى واحد ، لأن واحداً لا يأتى منه تكاثر ، فالتكاثر يأتى من اثنين ومن أين جاء الاثنان ؟ لابد أن أحدا خلقهما ، وهو قادر على هذا ، ويعلمنا الله ذلك فيقول : « خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » ونأخذ من « بث » « الانتشار » ، ولو لم يقل الله هذا لكانت العقول الحديثة تتوه وتقع فى حيرة وتقول : نسلسل الخلق حتى يصيروا اثنين ، والاثنان هذان كيف جاءا ؟ - إذن لابد أن نؤمن بأن أحدا قد أوجدهما من غير شىء .

« وبث منهما رجالا كثيرا » لأن النشر فى الأرض يجب أن يكون خاصا بالرجل ، فالحق يقول :

﴿ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الجمعة)

والحق يقول :

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾

(من الآية ١٥ سورة الملك)

والأنثى تجلس فى بيتها تديره لتكون سكناً يسكن إليها ، والرجل هو المتحرك فى هذا الكون ، وهى بذلك تؤدى مهمتها .

وبعدما قال : « اتقوا ربكم » يقول : « اتقوا الله » . لقد قدم الدليل أولا على أنه إله قادر ، وخلقكم من عدم وأمدكم وسخر العالم لخدمتكم ، وقدم دليل البث فى الكون المنشور الذى يوضح أنه إله ، فلا بد أن تتلقوا تعليماته ، ويكون معبوداً منكم ، أى مطاعاً ، والطاعة تتطلب منهجاً : افعل ولا تفعل ، وأنزل الحق القرآن كمنهج خاتم ، ويقول : « واتقوا الله الذى تساءلون به » .

انظر إلى « القفشة » ، للخلق الجاحد ، إنه ـ سبحانه ـ بعد أن أخذهم بما يتعاملون ويتراحمون ويتعاطفون به أوضح لهم : أنتم مع أنكم كنتم على فترة من الرسل إلا أن فطرتكم التى تتغافلون عنها تعترف بالله كخالق لكم .

وأنت إذا أردت إنفاذ أمر من الأمور ، وتريد أن تؤثر على من تطلب منه أمراً ، تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك ، لقد أخذ منهم الدليل ، فكونك تقول : سألتك بالله أن تفعل ذلك فلا بد أنك سألته بمعظَّم ، إذن فتعظيم الله أمر فطرى فى البشر ، والمطموس هو المنهج الذى يقول : افعل ولا تفعل . والإنسان من هؤلاء الجاحدين عندما يسهو ، ويطلب حاجة تهمه من آخر ، فهو يقول له : سألتك بالله أن تفعل كذا . ومادام قد قال : سألتك بالله فكأن هناك قضية فطرية مشتركة هى أن الله هو الحق ، وأنه هو الذى يُسأل به ، ومادام قد سئل بالله فلن يخيِّب رجاء من سأله .

إنه فى الأمور التى تريدون بهاتحقيق مسائلكم تسألون بالله وتسألون أيضاً بالأرحام

وتقولون : بحق الرحم الذى بينى وبينك ، أنا من أهلك ، وأنا قريبك وأمُّنا واحدة ، أرجوك أن تحقق لى هذا الأمر . ولماذا جاءت « الأرحام » هنا ؟ لأن الناس حين يتساءلون بالأرحام فهم يجعلون المسئولية من الفرد على الفرد طافية فى الفكر ، فمادمت أنا وأنت من رحم واحد ، فيجب أن تقضى لى هذا الشيء . إذن فمرة تسألون بالله الذى خلق ، ومرة تسألون بالأرحام لأن الرحم هو السبب المباشر فى الوجود المادى ، ومثال ذلك قول الحق :

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة النساء)

لقد جاء لنا بالوالدين اللذين هما السبب فى إيجادنا ، والله يريد من كل منا أن يبر والديه ، ولكن قبل ذلك لابد أن ينظر إلى الذى أوجدهما ، وأن يُصعد الأمر قليلا ليَعرف أن الذى أوجدهما هو الله سبحانه .

ويختم الحق الآية بقوله : « إن الله كان عليكم رقيبا » ، لأن كلمة « اتقوا » تعنى اجعل بينك وبين غضب ربك وقاية بإنفاذ أوامر الطاعة ، واجتناب ما نهى الله عنه « إن الله كان عليكم رقيبا » ، والرقيب من « رقب » إذا نظر ويقال : « مرقب » ، ونجد مثل هذا المرقب فى المنطقة التى تحتاج إلى حراسة ، حيث يوجد « كشك » مبنى فوق السور ليجلس فيه الحارس كى يراقب . ومكان الحراسة يكون أعلى دائما من المنطقة المحروسة ، وكلمة « رقيب » تعنى ناظراً عن قصد أن ينظر ، ويقولون : فلان يراقب فلانا أى ينظره ، صحيح أن هناك من يراه ذاهباً وآتياً من غير قصد منهم أن يروه ، لكن إن كان مراقباً ، فمعنى ذلك أن هناك من يرصده ، وسبحانه يقول : « إن الله كان عليكم رقيبا » . فليس الله بصيراً فقط ولكنه رقيب أيضاً ـ ولله المثل الأعلى .

نحن نجد الإنسان قد يبصر مالا غاية له فى إبصاره ، فهو يمر على كثير من الأشياء فيبصرها ، لكنه لا يرقب إلا من كان فى باله . والحق سبحانه رقيب علينا جميعا كما فى قوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وبعد أن تكلم سبحانه عن خلقنا أبا وأما وأنّه بث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، أراد أن يحمى هذه المسألة وأن يحمى المبثوث . والمبثوث قسمان : قسم اكتملت له القوة وأصبحت له صلاحية فى أن يحقق أموره النفعية بذاته ، وقسم ضعيف ليست له صلاحية فى أن يقوم بأمر ذاته ، ولأنه سبحانه يريد تنظيم المجتمع ؛ لذلك لابد أن ينظر القادرون فى المجتمع إلى القسم الضعيف فى المجتمع ، ومن القسم الضعيف الذى يتكلم الله عنه هنا ؟ إنهم اليتامى ، لماذا ؟

لأن الحق سبحانه حينما خلقنا من ذكر وأنثى ، آدم وحواء ، جعل لنا أطواراً طفولية ، فالأب يكدح والأم تحضن ، ويربيان الإنسان التربية التى تنبع من الحنان الذاتى ونَعرف أن الحنان الذاتى والعاطفة يوجدان فى قلب الأبوين على مقدار حاجة الابن إليهما ، الصغير عادة يأخذ من حنان الأب والأم أكثر من الكبير ، وهذه عدالة فى التوزيع ، لأنك إذا نظرت إلى الولد الصغير والولد الكبير والولد الأكبر ، تجد الأكبر أحظهم زمنا مع أبيه وأمه والصغير أقلهم زمنا ، فيريد الحق أن يعوض الصغير فيعطى الأب والأم شحنة زائدة من العاطفة تجاهه ، وأيضا فإن الكبير قد يستغنى والصغير مازال فى حاجة ، ولذلك قال سبحانه فى أخوة يوسف :

﴿ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

أى أنهم أقوياء وظنوا أنه كان يجب على أبيهم أن يحب الأقوياء . وهذا الظن دليل على أن الأب كان يعلم أنهم عصبة لذلك كان قلبه مع غير العصبة ، وهذا هو الأمر الطبيعى ، فهم جاءوا بالدليل الذى هو ضدهم .

إذن فحين يوجد الناشىء الذى يحتاج إلى أن يُربَّى التربية التى يعين عليها الحنان والعطف ، فلا بد أن نأتى لليتيم الذى فقد مصدر الحنان الأساسى ونقنن له ، ويأتى الحق سبحانه وتعالى ليوزع المجتمع الإنسانى قطاعات ، ويحمل كل واحد القطاع المباشر له ، فإذا حمل كل واحد منا القطاع المباشر له تتداخل العنايات فى القطاعات ، هذا سيذهب لأبيه وأمه ولأولاد أخيه ، وهذا كذلك ، فتتجمع الدوائر . وبعد ذلك يعيش المجتمع كله فى تكافل ، وهو سبحانه يريد أن يجعل وسائل الحنان ذاتية فى كل نفس ، ومادام اليتيم يقيم معنا كفرد فلا بد من العناية به .

إن اليتيم فرد فقد العائل له ولذلك يقولون : « درة يتيمة » أى وحيدة فريدة ، وهكذا اليتيم وحيد فريد ، إلا أنهم جاءوا فى الإنسان وفى الأنعام وفى الطير وقالوا : اليتيم فى الإنسان من فقد أباه ، واليتيم فى الأنعام من فقد أمه ، لماذا ؟ لأن الأنعام طلوقة تلقح الذكور فيها الإناث وتنتهى . والأم هى التى تربى وترضع ؛ فإذا جاء أحد آخر يمسها تنفر منه .

أما اليتيم فى الطير فمن فقدهما معاً ، فالطير عادة الزوج منها يألف الآخر ؛ ولذلك يتخذان عشا ويتناوبان العناية بالبيض ويعملان معاً ففيه حياة أسرية ، والحق سبحانه وتعالى جاء فى اليتيم الذى هو مظهر الضعف فى الأسوة الإنسانية وأراد أن يقنن له فقال :

﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾

وكيف نؤتى اليتيم ماله وهو لم يبلغ مبلغ الرجال بعد ، ونخشى أن نعطيه المال فيضيعه ؟

انظر إلى دقة العبارة فى قوله من بعد ذلك :

﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وقبل ذلك ماذا نفعل ؟ هل ندفع لهم الأموال ؟ الحق يوضح أنك ساعة تكون وليا على مال اليتيم فاحرص جيدا أن تعطى هذا اليتيم ماله كاملا بعد أن يستكمل نضجه

كاملا ، فأنت حفيظ على هذا المال ، وإياك أن تخلط مالك بماله أو تتبدل منه ، أى تأخذ الجميل والثمين من عنده وتعطيه من مالك الأقل جمالا أو فائدة .

إذن فقوله : « وآتوا اليتامى أموالهم » أى أن الله جعل المال لليتيم ولم يجعل للقيِّم عليه أن يتصرف فى هذا المال إلا تصرف صيانة ، وأيضا هنا ملحظ آخر هو ما شرحه لنا « وابتلوا اليتامى » فهناك أناس يريدون أن يطيلوا أمد الوصاية على اليتيم ، لكى ينتفع الواحد منهم بهذا المال فيوضح سبحانه : لا تنتظر إلى أن يبلغ الرشد ثم تقول نظره ، لا . أنت تدربه بالتجربة فى بعض التصرفات وتنظر أيستحسن التصرف أم لا ؟

إن قول الحق : « وابتلوا اليتامى » أى اختبروهم ، هل يستطيعون أن يقوموا بمصالحهم وحدهم ؟ فإن استطاعوا فاطمئنوا إلى أنهم ساعة يصلون إلى حد الحلم سيحسنون التصرف ، أعطوهم أموالهم بعد التجربة ؛ لأن اليتيم يعيش فى قصور عمرى ، وهو سبحانه يفرق بين اليتيم والسفيه ، فالسفيه لا يعانى من قصور عمرى بل من قصور عقلى ، وعندما تكلم سبحانه عن هذه المسألة قال :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

فهل هى أموالكم ؟ لا . فحين يكون المرء سفيها فاعلم أنه لا إدارة له على ملكه ، وتنتقل إدارة الملكية إلى من يتصرف فى المال تصرفا حكيما ، فاحرص على أن تدير مال السفيه كأنه مالك ؛ لأنه ليس له قدرة على حسن التصرف . لكن لما يبلغ اليتيم إلى مرحلة الباءة والنكاح والرشد يقول الحق :

﴿ فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه سبحانه يقول مرة فى الوصاية : « أموالكم » وفى العطاء يقول : « أموالهم » إذن فهو يريد ألا تبدد المال ، ثم يوضح . احرص على ثروة اليتيم أو السفيه وكأنها مالك ؛ لأنه مادام سفيها فمسئولية الولاية مطلوبة منك ، والمال ليس ملكا لك . خذ منه ما يقابل إدارة المال وقت السفه أو اليتم ، وبعد ذلك يأتى الحق سبحانه

وتعالى ليعلم القائمين على أمر اليتامى أو على أمر السفهاء الذين لا يحسنون إدارة أموالهم فيقول :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

اجعلوا الرّزق مما يخرج منها ، وإياكم أن تبقوها عندكم ، وإلا فما قيمة ولايتك ووصايتك وقيامك على أمر السفيه أو اليتيم ؟ إنك تثمر له المال لا أنْ تأكله أو لا تحسن التصرف فيه بحيث ينقص كل يوم ، لا . «وارزقوهم فيها » ، و« فى » هنا للسببية ، أى ارزقوهم بسببها ، ارزقوهم رزقا خارجا منها .

« وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » والخبيث هو الحرام والطيب هو الحلال ، ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ، فقد يكون ضمن مال اليتيم شيء جميل ، فيأخذه الوصى لنفسه ويستبدله بمثلٍ له قبيح ، مثال ذلك ، أن يكون ضمن مال اليتيم فرس جميل ، وعند الوصى فرس قبيح فيأخذه ويقول : فرس بفرس ، أو جاموسة مكان جاموسة ، أو نخلة طيبة بنخلة لا تثمر ، هنا يقول الحق : « ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب » .

وقوله سبحانه وتعالى:« ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم » يعنى إياكم ألا تجعلوا فرقا بين أموالهم وأموالكم فتأكلوا هذه مع تلك ، بل فرقوا بين أكل أموالكم والحفاظ على أموالهم لماذا ؟ تأتى الإجابة : « إنه كان حوبا كبيرا » أى إثما فظيعا .

ثم ينتقل الحق إلى قضية أخرى يجتمع فيها ضعف اليتم ، وضعف النوع : ضعف اليتم سواء أكان ذكراً أم أنثى ، وإن كانت أنثى فالبلوى أشد ؛ فهى قد اجتمع عليها ضعف اليتم وضعف النوع ، طبعا فاليتيمة عندما تكون تحت وصاية وليها ، يجوز أن يقول : إنها تملك مالا فلماذا لا أتزوجها لكى آخذ المال ؟ وهذا يحدث كثيرا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾

هنا يؤكد الحق الأمر بأن ابتعدوا عن اليتامى . فاليتيم مظنة أن يُظلم لضعفه ، وبخاصة إذا كان أنثى . إنّ الظلم بعامة محرم فى غير اليتامى ، ولكن الظلم مع الضعيفة كبير ، فهى لا تقدر أن تدفع عن نفسها ، فالبالغة الرشيدة من النساء قد تستطيع أن تدفع الظلم عن نفسها . وقوله الحق : « وإن خفتم ألا تقسطوا » من « أقسط » ، أى عدل ، والقسط من الألفاظ التى تختلط الأذهان فيها ، و« القسط » مرة يطلق ويراد به « العدل » ، إذا كان مكسور القاف ، ولذلك يأتى الحق سبحانه فيقول :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهكذا نعرف أن كلمة « قسط » تأتى مرة للعدل ومرة للجور .

فـ« قَسَطَ » « يَقْسِطُ » « قَسْطا » و« قُسوطًا » أى ظَلَم بفتح القاف فى « قَسطٍ » وضمها فى « قُسوط » .

والقِسط بكسر القاف هو العدل . . والقَسط بفتح القاف ـ كما قلنا ـ هو الظلم . وهناك مصدر ثانٍ هو « قسوط » لكن الفعل واحد ، وعندما يقول الحق : « وإن خفتم ألا تقسطوا » من أقسط . أى خفتم من عدم العدل وهو الظلم . وهناك فى اللغة ما نسميه همزة الإزالة ، وهى همزة تدخل على الفعل فتزيله ، مثال ذلك : فلان عتب على فلان ، أى لامه على تصرف ما ، ويقال لمن تلقى العتاب عندما يرد

على صاحب العتاب : أعتبه ، أى طمأن خاطره وأزال مصدر العتاب .

ويقال : محمد عتب على علىّ . فماذا كان موقف على ؟ يقال : أعتب محمداً أى طيب خاطره وأزال العتاب . ويقال أعجم الكتاب . فلا تفهم من ذلك أنه جعل الكتاب معجما ، لا ، فأعجمه أى أزال إبهامه وغموضه . كذلك « أقسط » أى أزال القَسْط والظلم . إذن « القِسط » هو العدل من أول الأمر ، لكن « أقسط . إقساطاً » تعنى أنه كان هناك جور أو ظلم وتم رفعه . والأمر ينتهى جميعه إلى العدل . فالعدل إن جاء ابتداء هو : قِسط بكسر القاف . وإن جاء بعد جور تمت إزالته فهو إقساط . فحين يقال « أقسط » و« تقسطوا » بالضم ، فمعناها أنه كان هناك جور وظلم تم رفعه ، ولذلك فعندما نقرأ القرآن نجده يقول :

﴿ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الجن)

والقاسطون هنا من القسط ـ بالفتح ـ ومن القسوط بالضم ، أى من الجور والظلم ، ونجد القرآن الكريم يقول أيضا :

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة المائدة)

أى أن الله يحب الذين إن رأوا ظلما أزالوه وأحلوا محله العدل .

الحق هنا فى سورة النساء يقول : « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى » أى إن خفتم ألا ترفعوا الظلم عن اليتامى ، ومعنى أن تخاف من ألا تقسط لأنك بار تعرف كيف تنقذ نفسك من مواطن الزلل . أى فإن خفتم أيها المؤمنون ألا ترفعوا الجور عن اليتامى فابتعدوا عنهم وليسد كل مؤمن هذه الذريعة أمام نفسه حتى لا تحدثه نفسه بأن يجور على اليتيمة فيظلمها . وإن أراد الرجل أن يتزوج فأمامه من غير اليتامى الكثير من النساء .

ومادامت النساء كثيرات فالتعدد يصبح واردا ، فهو لم يقل : اترك واحدة وخذ

واحدة ، لكنه أوضح : اترك اليتيمة وأمامك النساء كثيرات . إذن فقد ناسب الحال أن تجيء مسألة التعدد هنا ، لأنه سبحانه وتعالى يريد أن يرد الرجل الولى عن نكاح اليتيمات مخافة أن يظلمهن ، فأمره بأن يترك الزواج من اليتيمة الضعيفة ؛ لأن النساء غيرها كثيرات . « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » .

وقوله الحق : « ما طاب لكم من النساء » أى غير المحرمات فى قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة النساء)

وفى قوله سبحانه :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ ﴾

(سورة النساء)

إذن فما طاب لكم من النساء غير المحرمات هن اللاتى يحللن للرجل « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت

أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » وهنا يجب أن نفهم لماذا جاء هذا النص ؛ ولماذا جاء بالمثنى والثلاث والرباع هنا ؟

إنه سبحانه يريد أن يُزَهِّدَ الناس فى نكاح اليتيمات مخافة أن تأتى إلى الرجل لحظة ضعف فيتزوج اليتيمة ظالما لها ، فأوضح سبحانه : اترك اليتيمة ، والنساء غيرها كثير ، فأمامك مثنى وثلاث ورباع ، وابتعد عن اليتيمة حتى لا تكون طامعا فى مالها أو ناظراً إلى ضعفها أو لأنها لم يعد لها ولىّ يقوم على شأنها غيرك .

ونريد أن نقف هنا وقفة أمام قوله تعالى : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ما معنى مثنى ؟ يقال « مثنى » أى اثنين مكررة ، كأن يقال : جاء القوم مثنى ، أى ساروا فى طابور وصفٍ مكون من اثنين اثنين . هذا يدل على الوحدة الجائية .

ويقال : جاء القوم ثلاث ، أى ساروا فى طابور مكون من ثلاثة ؛ ثلاثة . ويقال : جاء القوم رباع . أى جاء القوم فى طابور يسير فيه كل أربعة خلف أربعة أخرى .

ولو قال واحد : إن المقصود بالمثنى والثلاث والرباع أن يكون المسموح به تسعة من النساء . نقول له : لو حسبنا بمثل ما تحسب ، لكان الأمر شاملا لغير ما قصد الله ، فالمثنى تعنى أربعة ، والثلاث تعنى ستة ، والرباع تعنى ثمانية ، وبذلك يكون العدد ثمانية عشر ، ولكنك لم تفهم ، لأن الله لا يخاطب واحداً ، لكن الله يخاطب جماعة ، فيقول:« وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » .

فإذا قال مدرس لتلاميذه : افتحوا كتبكم ، أيعنى هذا الأمر أن يأتى واحد ليفتح كل الكتب ؟ لا ، إنه أمر لكل تلميذ بأن يفتح كتابه ، لهذا فإن مقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً .

وعندما يقول المدرس : أخرجوا أقلامكم . أى على كل تلميذ أن يخرج قلمه .

وعندما يقال : اركبوا سياراتكم ، أى أن يركب كل واحد سيارته . إذن فمقابلة الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً ، وقوله الحق : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » هو قول يخاطب جماعة ، فواحد ينكح اثنتين وآخر ينكح ثلاث نساء ، وثالث ينكح أربع نساء .

والحق سبحانه وتعالى حينما يشرع الحكم يشرعة مًرة إيجاباً ومرة يشرعه إباحةً ، فلم يوجب ذلك الأمر على الرجل ، ولكنه أباح للرجل ذلك ،وفيه فرق واضح بين الإيجاب وبين الإباحة . والزواج نفسه حتى من واحدة مباح . إذن ففيه فرق بين أن يلزمك الله أن تفعل وأن يبيح لك أن تفعل . وحين يبيح الله لك أن تفعل ، ما المرجح فى فعلك ؟ إنّه مجرد رغبتك .

ولكن إذا أخذت الحكم ، فخذ الحكم من كل جوانبه ، فلا تأخذ الحكم ، بإباحة التعدد ثم تكف عن الحكم بالعدالة ، وإلا سينشأ الفساد فى الأرض ، وأول هذا الفساد أن يتشكك الناس فى حكم الله . لماذا ؟ لأنك إن أخذت التعدد ، وامتنعت عن العدالة فأنت تكون قد أخذت شقا من الحكم ، ولم تأخذ الشق الآخر وهو العدل ، فالناس تجنح أمام التعدد وتبتعد وتميل عنه لماذا ؟ لأن الناس شقوا كثيراً بالتعدد أخذاً لحكم الله فى التعدد وتركاً لحكم الله فى العدالة .

والمنهج الإلهى يجب أن يؤخذ كله ، فلماذا تكره الزوجة التعدد ؟ لأنها وجدت أن الزوج إذا ما تزوج واحدة عليها التفت بكليته وبخيره وببسمته وحنانه إلى الزوجة الجديدة ، لذلك فلابد للمرأة أن تكره زواج الرجل عليها بامرأة أخرى .

إن الذين يأخذون حكم الله فى إباحة التعدد يجب أن يلزموا أنفسهم بحكم الله أيضا فى العدالة ، فإن لم يفعلوا فهم يشيعون التمرد على حكم الله ، وسيجد الناس حيثياتٍ لهذا التمرد ، وسيقال : انظر ، إن فلاناً تزوج بأخرى وأهمل الأولى ، أو ترك أولاده دون رعاية واتجه إلى الزوجة الجديدة .

فكيف تأخذ إباحة الله فى شىء ولا تأخذ إلزامه فى شىء آخر ، إن من يفعل ذلك

يشكك الناس فى حكم الله ، ويجعل الناس تتمرد على حكم الله ـ والسطحيون فى الفهم يقولون : إنهم معذورون ، وهذا منطق لا يتأتى .

إن آفة الأحكام أن يؤخذ حكم جزئى دون مراعاة الظروف كلها ، والذى يأخذ حكما عن الله لابد أن يأخذ كل منهج الله .

هات إنساناً عدل فى العِشْرة وفى النفقة وفى البيتوتة وفى المكان وفى الزمان ولم يرجح واحدة على أخرى ، فالزوجة الأولى إن فعلت شيئاً فهى لن تجد حيثية لها أمام الناس . أما عندما يكون الأمر غير ذلك فإنها سوف تجد الحيثية للاعتراض ، والصراخ الذى نسمعه هذه الأيام إنما نشأ من أن بعضاً قد أخذ حكم الله فى إباحة التعدد ولم يأخذ حكم الله فى عدالة المعدد . والعدالة تكون فى الأمور التى للرجل فيها خيار . أما الأمور التى لا خيار للرجل فيها فلم يطالبه الله بها .

ومن السطحيين من يقول : إن الله قال : اعدلوا ، ثم حكم أننا لا نستطيع أن نعدل . نقول لهم : بالله أهذا تشريع ؟ ، أيعطى الله باليمين ويسحب بالشمال ؟ ألم يشرع الحق على عدم الاستطاعة فقال :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

ومادام قد شرع على عدم الاستطاعة فى العدل المطلق فهو قد أبقى الحكم ولم يلغه ، وعلى المؤمن ألا يجعل منهج الله له فى حركة حياته عضين بمعنى أنه يأخذ حكماً فى صالحه ويترك حكماً إن كان عليه . فالمنهج من الله يؤخذ جملة واحدة من كل الناس ؛ لأن أى انحراف فى فرد من أفراد الأمة الإسلامية يصيب المجموع بضرر . فكل حق لك هو واجب عند غيرك ، فإن أردت أن تأخذ حقك فأدِّ واجبك . والذين يأخذون حكم الله فى إباحة التعدد يجب أن يأخذوا حكم الله أيضا فى العدل ، وإلا أعطوا خصوم دين الله حججا قوية فى إبطال ما شرع الله ، وتغيير ما شرع الله بحجة ما يرونه من آثار أخذ حكم وإهمال حكم آخر .

والعدل المراد فى التعدد هو القسمة بالسوية فى المكان ، أى أن لكل واحدة من المتعددات مكاناً يساوى مكان الأخرى ، وفى الزمان ، وفى متاع المكان ، وفيما يخص الرجل من متاع نفسه ، فليس له أن يجعل شيئا له قيمة عند واحدة ، وشيئاً لا قيمة له عند واحدة أخرى ، يأتى مثلا ببجامة « منامة » صُوف ويضعها عند واحدة ، ويأتى بأخرى من قماش أقل جودة ويضعها عن واحدة ، لا . لابد من المساواة ، لا فى متاعها فقط ، بل متاعك أنت الذى تتمتع به عندها ، حتى أن بعض المسلمين الأوائل كان يساوى بينهن فى النعال التى يلبسها فى بيته ، فيأتى بها من لون واحد وشكل واحد وصنف واحد ، وذلك حتى لا تَدِلَّ واحدة منهن على الأخرى قائلة : إن زوجى يكون عندى أحسن هنداماً منه عندك . والعدالة المطلوبة - أيضاً - هى العدالة فيما يدخل فى اختيارك ؛ لأن العدالة التى لا تدخل فى اختيارك لا يكلف الله بها ، فأنت عدلت فى المكان ، وفى الزمان ، وفى المتاع لكل واحدة ، وفى المتاع لك عند كل واحدة ، ولكن لا يطلب الله منك أن تعدل بميل قلبك وحب نفسك ؛ لأن ذلك ليس فى مكنتك .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعطينا هذا فيقول : عن عائشة رضى الله عنها قالت : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم ويعدل ويقول : « اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب)[1] .

إذن فهذا معنى قول الحق :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

لأن هناك أشياء لا تدخل فى قدرتك ، ولا تدخل فى اختيارك ، كأن ترتاح نفسياً عند واحدة ولا ترتاح نفسياً عند أخرى ، أو ترتاح جنسياً عند واحدة ولا ترتاح عند أخرى ، لكن الأمر الظاهر للكل يجب أن تكون فيه القسمة بالسوية حتى لا تَدِلَّ واحدة على واحدة . وإذا كان هذا فى النساء المتعددات - وهن عوارض - حيث من الممكن أن يخرج الرجل عن أى امرأة - بطلاق أو فراق فما بالك بأولادها منه ؟ لابد أيضا من العدالة .

---

١ - رواه الإمام أحمد وأبو داود والدارمى .

والذى يفسد جو الحكم المنهجى لله أن أناساً يجدون رجلاً عدّد ، فأخذ إباحة الله فى التعدد ، ثم لم يعدل ، فوجدوا أبناءه من واحدة مهملين مشردين ، فيأخذون من ذلك حجة على الإسلام . والذين حاولوا أن يفعلوا ما فعلوا فى قوانين الأحوال الشخصية إنما نظروا إلى ذلك ، التباين الشديد الذى يحدثه بعض الآباء الحمقى نتيجة تفضيل أبناء واحدة على أخرى فى المأكل والملبس والتعليم !

إذن فالمسلم هو الذى يهجر دينه ويعرضه للنقد والنيل من أعدائه له . فكل إنسان مسلم على ثغرة من ثغرات دين الله تعالى فعليه أن يصون أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته من أى انحراف أو شطط ؛ لأن كل مسلم بحركته وبتصرفه يقف على ثغرة من منهج الله ، ولا تظنوا أن الثغرات فقط هى الشىء الذى يدخل منه أعداء الله على الأرض كالثغور ، لا ، الثغرة هى الفجوة حتى فى القيم يدخل منها خصم الإسلام لينال من الإسلام .

إنك إذا ما تصرفت تصرفاً لا يليق فأنت فتحت ثغرة لخصوم الله . فسُدَّ كل ثغرة من هذه الثغرات ، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد توسع فى العدل بين الزوجات توسعاً لم يقف به عند قدرته ، وإن وقف به عند اختياره ، فالرسول صلى الله عليه وسلم حين مرض كان من الممكن أن يعذره المرض فيستقر فى بيت واحدة من نسائه ، ولكنه كان يأمر بأن يحمله بعض الصحابة ليطوف على بقية نسائه فى أيامهن فأخذ قدرة الغير . وكان إذا سافر يقرع بينهن ، هذه هى العدالة .

وحين توجد مثل هذه العدالة يشيع فى الناس أن الله لا يشرع إلا حقاً ، ولا يشرع إلا صدقاً ، ولا يشرع إلا خيراً ، ويسد الباب على كل خصم من خصوم دين الله ، حتى لا يجد ثغرة ينفذ منها إلى ما حرم دين الله ، وإن لم يستطع المسلم هذه الاستطاعة فليلزم نفسه بواحدة . ومع ذلك حين يلزم المسلم نفسه بزوجة واحدة ، هل انتفت العدالة مع النفس الواحدة ؟ لا ، فلا يصح ولا يستقيم ولا يحل أن يهمل الرجل زوجه . ولذلك حينما شكت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن زوجها لا يأتى إليها وهى واحدة وليس لها ضرائر ، فكان عنده أحد الصحابة ، فقال له : أفتها « أى أعطها الفتوى » .

قال الصحابى : لك عنده أن يبيت عندك الليلة الرابعة بعد كل ثلاث ليال .

ذلك أن الصحابى فرض أن لها شريكات ثلاثا ، فهى تستحق الليلة الرابعة . وسُر عمر ـ رضى الله عنه ـ من الصحابى ؛ لأنه عرف كيف يفتى حتى فى أمر المرأة الواحدة .

إذن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة النساء)

أى لا تظنوا أن المطلوب منكم تكليفياً هو العدالة حتى فى ميل القلب وحبه ، لا . إنما العدالة فى الأمر الاختيارى ، ومادام الأمر قد خرج عن طاقة النفس وقدرتها فقد قال ـ سبحانه ـ:« فلا تميلوا كل الميل » . ويأخذ السطحيون الذين يريدون أن يبرروا الخروج عن منهج الله فيقولوا : إن المطلوب هو العدل وقد حكم الله أننا لا نستطيع العدل .

ولهؤلاء نقول : هل يعطى ربنا باليمين ويأخذ بالشمال ؟ فكأنه يقول : اعدلوا وأنا أعلم أنكم لن تعدلوا ؟ فكيف يتأتى لكم مثل هذا الفهم ؟ إن الحق حين قال : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » أى لا يتعدى العدل ما لا تملكون من الهوى والميل ؛ لأن ذلك ليس فى إمكانكم ، ولذلك قال : « فلا تميلوا كل الميل » .

نقول ذلك للذين يريدون أن يطلقوا الحكم غير واعين ولا فاهمين عن الله ، ونقوله كذلك للفاهمين الذين يريدون أن يدلسوا على منهج الله ، وهذه المسألة من المسائل التى تتعرض للأسرة ، وربها الرجل . فهب أن رجلاً ليس له ميل إلى زوجته ، فماذا يكون الموقف ؟ أمن الأحسن أن يطلقها ويسرحها ، أم تظل عنده ويأتى بامرأة تستطيع نفسه أن ترتاح معها ؟ أو يطلق غرائزه فى أعراض الناس ؟

إن الحق حينما شرّع ، إنما شرع دينا متكاملاً ، لا تأخذ حكماً منه لتترك حكما آخر .

والأحداث التى أرهقت المجتمعات غير المسلمة ألجأتهم إلى كثير من قضايا الإسلام . وأنا لا أحب أن أطيل ، هناك بعض الدول تكلمت عن إباحة التعدد لا لأن الإسلام قال به ، ولكن لأن ظروفهم الاجتماعية حكمت عليهم أنه لا يحل مشاكلهم إلا هذا ، حتى ينهوا مسألة الخليلات . والخليلات هنّ اللائى يذهب إليهن الرجال ليهتكوا أعراضهن ويأتوا منهن بلقطاء ليس لهم أب .

إنّ من الخير أن تكون المرأة الثانية ، امرأة واضحة فى المجتمع . ومسألة زواج الرجل منها معروفة للجميع ، ويتحمل هو عبء الأسرة كلها . ويمكن لمن يريد أن يستوضح كثيراً من أمر هؤلاء الناس أن يرجع إلى كتاب تفسير فى هذا الموضوع للدكتور محمد خفاجة حيث أورد قائمة بالدول وقراراتها فى إباحة التعدد عند هذه الآية .

وهنا يجب أن ننتبه إلى حقيقة وهى : أن التعدد لم يأمر به الله ، وإنما أباحه ، فالذى ترهقه هذه الحكاية لا يعدد ، فالله لم يأمر بالتعدد ولكنه أباح للمؤمن أن يعدد . والمباح أمر يكون المؤمن حراً فيه يستخدم رخصة الإباحة أو لا يستعملها ، ثم لنبحث بحثاً آخر . إذا كان هناك تعدد فى طرف من طرفين فإن كان الطرفان متساويين فى العدد ، فإن التعدد فى واحد لا يتأتى ، والمثل هو كالآتى :

إذا دخل عشرة أشخاص حجرة وكان بالحجرة عشرة كراسى فكل واحد يجلس على كرسى ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يأخذ واحد كرسياً للجلوس وكرسياً آخر ليمد عليه ساقيه ، لكن إذا كان هناك أحد عشر كرسياً ، فواحد من الناس يأخذ كرسياً للجلوس وكرسياً آخر ليستند عليه ، إذن فتعدد طرف فى طرف لا ينشأ إلا من فائض . فإذا لم يكن هناك فائض ، فالتعدد ـ واقعاً ـ يمتنع ، لأن كل رجل سيتزوج امرأة واحدة وتنتهى المسألة ، ولو أراد أن يعدد الزواج فلن يجد .

إذن فإباحة التعدد تعطينا أن الله قد أباحه وهو يعلم أنه ممكن لأن هناك فائضاً . والفائض كما قلنا معلوم ، لأن عدد ذكور كل نوع من الأنواع أقل من عدد الإناث . وضربنا المثل من قبل فى النخل وكذلك البيض عندما يتم تفريخه ؛ فإننا نجد عدداً

قليلاً من الديوك والبقية إناث . إذن فالإناث فى النبات وفى الحيوان وفى كل شيء أكثر من الذكور .

وإذا كانت الإناث أكثر من الذكور ، ثم أخذ كل ذكر مقابله فما مصير الأعداد التى تفيض وتزيد من الإناث ؟ إما أن تعف الزائدة فتكبت غرائزها وتحبط ، وتنفس فى كثير من تصرفاتها بالنسبة للرجل وللمحيط بالرجل ، وإما أن تنطلق ، تنطلق مع من ؟ إنها تنطلق مع متزوج . وإن حدث ذلك فالعلاقات الاجتماعية تفسد .

ولكن الله حين أباح التعدد أراد أن يجعل منه مندوحة لامتصاص الفائض من النساء ؛ ولكن بشرط العدالة . وحين يقول الحق : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » أى إن لم نستطع العدل الاختيارى فليلزم الإنسان وَاحدة .

وبعد ذلك يقول الحق : « أو ما ملكت أيمانكم » .

وهناك من يقف عند « ما ملكت أيمانكم » ويتجادل ، ونطمئن هؤلاء الذين يقفون عند هذا القول ونقول : لم يعد هناك مصدر الآن لملك اليمين ؛ لأن المسلمين الآن فى خنوع ، وقد اجترأ عليهم الكفار ، وصاروا يقتطعون دولاً من دولهم . وما هبَّ المسلمون ليقفوا لحماية أرض إسلامية . ولم تعد هناك حرب بين مسلمين وكفار ، بحيث يكون فيه أسرى ، و« ملك اليمين » .

ولكنا ندافع عنه أيام كان هناك ملك يمين . ولنر المعنى الناضج حين يبيح الله متعة السيد بما ملكت يمينه ، انظر إلى المعنى ، فالإسلام قد جاء ومن بين أهدافه أن يصفى الرِّق ، ولم يأت ليجىء بالرق .

وبعد أن كان لتصفية الرق سبب واحد هو إرادة السيد . عدَّدَ الإسلام مصارف تصفية الرق ؛ فارتكاب ذنب ما يقال للمذنب : اعتق رقبة كفارة اليمين . وكفارة ظهار فيؤمر رجل ظاهر من زوجته بأن يعتق رقبة وكفارة فطر فى صيام ، وكفارة قتل . . إلخ . . إذن فالإسلام يوسع مصارف العتق .

ومن يوسع مصارف العتق أيريد أن يبقى على الرق ، أم يريد أن يصفيه ويمحوه ؟

ولنفترض أن مؤمناً لم يذنب ، ولم يفعل ما يستحق أن يعتق من أجله رقبة ، وعنده جوار ، هنا يضع الإسلام القواعد لمعاملة الجوارى :

ـ إن لم يكن عندك ما يستحق التكفير ، فعليك أن تطعم الجارية مما تأكل وتلبسها ما يلبس أهل بيتك ، لا تكلفها ما لا تطيق ، فإن كلفتها فأعنها ، أى فضل هذا ، يدها بيد سيدها وسيدتها ، فما الذى ينقصها ؟ إن الذى ينقصها إرواء إلحاح الغريزة ، وخاصة أنها تكون فى بيت للرجل فيه امرأة ، وتراها حين تتزين لزوجها ، وتراها حين تخرج فى الصباح لتستحم ، والنساء عندهن حساسية لهذا الأمر ، فتصوروا أن واحدة مما ملكت يمين السيد بهذه المواقف ؟ ألا تهاج فيها الغرائز ؟

حين يبيح الله للسيد أن يستمتع بها وأن تَستمتع به ، فإنه يرحمها من هذه الناحية ويعلمها أنها لا تقل عن سيدتها امرأة الرجل فتتمتع مثلها . ويريد الحق أيضا أن يعمق تصفية الرق ، لأنه إن زوجها من رجل رقيق فإنها تظل جارية أَمَة ، والذى تلده يكون رقيقا ، لكن عندما تتمتع مع سيدها وتأتى منه بولد ، فإنها تكون قد حررت نفسها وحررت ولدها ، وفى ذلك زيادة فى تصفية الرق ، وفى ذلك إكرام لغريزتها . لكن الحمقى يريدون أن يؤاخذوا الإسلام على هذا !!

يقول الحق : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » فالعدل أو الاكتفاء بواحدة أو ما ملكت اليمين ، ذلك أقرب ألا تجوروا . وبعض الناس يقول : « أدنى ألا تعولوا » أى ألا تكثر ذريتهم وعيالهم . ونقول لهم : إن كان كذلك فالحق أباح ما ملكت اليمين ، وبذلك يكون السبب فى وجود العيال قد اتسع أكثر ، وقوله : « ذلك أدنى ألا تعولوا » أى أقرب ألا تظلموا وتجوروا ، لأن العول فيه معنى الميل ، والعول فى الميراث أن تزيد أسهم الأنصباء على الأصل ، وهذا معنى عالت المسألة ، وإذا ما زاد العدد فإن النصيب فى التوزيع ينقص .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴿٤﴾ ﴾

والمقصود بـ « صدقاتهن » هو المهور ، و« النِّحلة » هى العطية ، وهل الصداق عطية ؟ لا . إنه حق وأجر بضع . ولكن الله يريد أن يوضح لنا : أَىْ فليكن إيتاء المهور للنساء نحلة ، أى وازع دين لا حكم قضاء ، والنحلة هى العطية .

وانظر إلى اللمسات الإلهية والأداء الإلهى للمعانى ، لأنك إن نظرت إلى الواقع فستجد الآتى :

الرجل يتزوج المرأة ، وللرجل فى المرأة متعة ، وللمرأة أيضا متعة أى أن كُلًّا منهما له متعة وشركة فى ذلك ، وفى رغبة الإنجاب ، وكان من المفترض ألا تأخذ شيئاً ، لأنها ستستمتع وأيضا قد تجد ولداً لها ، وهى ستعمل فى المنزل والرجل سيكدح خارج البيت ، ولكن هذه عطية قررها الله كرامة للنساء « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » والأمر فى « آتوا » لمن ؟ إما أن يكون للزوج فقوله : « وآتوا النساء صدقاتهن » يدل على أن المرأة صارت زوجة الرجل ، وصار الرجل ملزماً بالصداق ومن الممكن أن يكون ديناً إذا تزوجها بمهر فى ذمته يؤديه لها عند يساره ، وإمّا أن يكون الأمر لولى أمرها فالذى كان يزوجه أختَه مثلا ، كان يأخذ المهر له ويتركها دون أن يعطيها مهرها ، والأمر فى هذه الآية ـ إذن ـ إما أن يكون للأزواج وإما أن يكون للأولياء . وحين يُشرِّع الحق لحماية الحقوق فإنه يفتح المجال لأريحيات الفضل .

لذلك يقول : « فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً » .

لقد عرَّف الحق الحقوق أولاً بمخاطبة الزوج أو ولى الأمر فى أن مهر الزوجة لها لأنه أجر البضع . ولكنه سبحانه فتح باب أريحية الفضل فإن تنازلت الزوجة فهذا أمر آخر ، وهذا أدعى أن يؤصل العلاقة الزوجية وأن يؤدم بينهما . والمراد هنا هو طيب

النفس ، وإياك أن تأخذ شيئاً من مهر الزوجة التى تحت ولايتك بسبب الحياء ، فالمهم أن يكون الأمر عن طيب نفس . « فإن طبن لكم عن شىء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً » . والهنىء هو الشىء المأكول وتستسيغه حين يدخل فمك . لكنك قد تأكل شيئاً هنيئاً فى اللذة وفى المضغ وفى الأكل ولكنه يورث متعبة صحية . إنه هنىء ، لكنه غير مرىء . والمقصود هو أن يكون طيب الطعم وليس له عواقب صحية رديئة . وهو يختلف عن الطعام الهنىء غير المرىء الذى يأكله الإنسان فيطلب من بعده العلاج .

إذن فكل أكل يكون هنيئاً ليس من الضرورى أن يكون مريئاً . وعلينا أن نلاحظ فى الأكل أن يكون هنيئاً مريئاً .

والإمام علىّ ـ رضوان الله عليه وكرم وجهه ـ جاء له رجل يشتكى وجعاً ، والإمام علىّ ـ كما نعرف ـ مدينة العلم والفتيا ، وهبه الله مقدرة على إبداء الرأى والفتوى .

لم يكن الإمام علىّ طبيباً . . لكن الرجل كان يطلب علاجاً من فهم الإمام علىّ وإشراقاته .

قال الإمام علىّ للرجل : خذ من صداق امراتك درهمين واشتر بهما عسلاً ، وأذب العسل فى ماء مطر نازل لساعته ـ أى قريب عهد بالله ـ واشربه فإنى سمعت الله يقول فى الماء ينزل من السماء :

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا ﴾

(من الآية ٩ سورة ق)

وسمعته سبحانه وتعالى يقول فى العسل :

﴿ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة النحل)

وسمعته يقول فى مهر الزوجة :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

فإذا اجتمع فى دواء البركة والشفاء الهنىء والمرىء عافاك الله إن شاء الله . لقد أخذ الإمام عليّ ـ رضوان الله عليه وكرّم الله وجهه ـ عناصر أربعة ليمزجها ويصنع منها دواءً ناجعاً ، كما يصنع الطبيب العلاج من عناصر مختلفة وقد صنع الإمام علىّ علاجاً من آيات القرآن .

وبعد ذلك ينتقل الحق إلى قضايا اليتامى والسفهاء والمال والوصاية والقوامة ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ ﴾

ومن هو السفيه ؟ إنه الذى لا صلاح له فى عقل ولا يستطيع أن يصرّف ماله بالحكمة . ومَن الذى يعطى ماله إلى سفيه ؟ إن الحق يقول ذلك ليعلمنا كيفية التصرف فى المال ـ ومثال على ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

هل أحد منا يلمز نفسه ؟ لا ، ولكن الإنسان يلمز خصمه ، ولمز الخصم يؤدى إلى لمز النفس لأن خصْمه سيلمزه ويعيبه أو لأنكما سواء . إذن فقول الحق : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » يعنى أن الله يريد أن يقول : إن السفيه يملك المال ، إلا أن سفهه يمنعه من أن يحسن التصرف . وعدم التصرف الحكيم يذهب بالمال ويفسده ، وحين يكون سفيهاً فالمال ليس له ـ تصرفا وإدارة ـ ولكن المال لمن يصلحه بالقوامة .

أو أن الحق سبحانه وتعالى يعالج قضية كان لها وجود فى المجتمع وهى أنَّ الرجل إذا ما كان له أبناء ، وكبروا قليلا ، فهو يحب أن يتملص من حركة الحياة ، ويعطى لهم حق التصرف فى المال . وإن كان تصرفهم لا يتفق مع الحكمة ، فكأنه قال سبحانه : « لا » إياك أن تعطى أموالك للسفهاء بدعوى أنهم أولادك . وإياك أن تملك أولادك ما وهبه الله لك من رزقك ؛ لأن الله جعل من مالك قياماً لك ، وإياك أن تجعل قيامك أنت فى يد غيرك .

« ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما . وارزقوهم فيها » وهل السفيه لا يعيش ؟ وهل يأكل السفيه دون أكل الرشيد ؟ أَيَلْبَسُ السفيه دون لبس الرشيد ؟ أيسكن السفيه دون مسكن الرشيد ؟ أيبتسم الإنسان فى وجه الرشيد ولا يبتسم فى وجه السفيه ؟ لا ؛ لذلك يأمر الحق ويقول : « وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » ذلك أمر بحسن معاملة السفيه ، وإياكم أن تعيروهم بسفههم ، ويكفيهم ما هم فيه من سفه .

ويرجع الحق من بعد ذلك إلى اليتامى :

﴿ وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾

إن الله سبحانه وتعالى يأمر فى التعامل مع اليتامى بأن يبدأ الولى فى اختبار اليتيم

وتدريبه على إدارة أمواله من قبل الرشد ، أى لا تنتظر وقت أن يصل اليتيم إلى حد البلوغ ثم تبتليه بعد ذلك ، فقبل أن يبلغ الرشد ، لا بد أن تجربه فى مسائل جزئية فإذا تبين واتضح لك اهتداء منه وحسن تصرف فى ماله ؛ لحظتها تجد الحكم جاهزاً ، فلا تضطر إلى تأخير إيتاء الأموال إلى أن تبتليه فى رشده . بل عليك أن تختبره وتدربه وتمتحنه وهو تحت ولايتك حتى يأتى أوان بلوغ الرشد فيستطيع أن يتسلم منك ماله ويديره بنفسه . وحتى لا تمر على المال لحظة من رشد صاحبه وهو عندك .

فسبحانه يقول : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافا » .

فعندما يبلغ اليتيم الرشد وقد تم تدريبه على حسن إدارة المال . وعرف الوصى أن اليتيم قد استطاع أن يدير ماله ، ومن فور بلوغه الرشد يجب على الوصى أن يدفع إليه ماله ، ولا يصح أن يأكل الوصى مال اليتيم إسرافا . والإسراف هو الزيادة فى الحد ؛ لأنه ليس ماله ، إنه مال اليتيم . وعندما قيل لرجل شره : ماذا تريد أيها الشره ؟ قال الشره : « أريد قصعة من ثريد أضرب فيها بيدى كما يضرب الولى السوء فى مال اليتيم » . أنجانا الله وإياكم من هذا الموقف ، ونجد الحق يقول : « ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا » .

إن الحق سبحانه يحذرنا من الإسراف فى مال اليتيم فى أثناء مرحلة ما قبل الرشد ، وذلك من الخوف أن يكبر اليتيم وله عند الولى شيء من المال أى أن يسرف الولى فينفق كل مال اليتيم قبل أن يكبر اليتيم ويرشد ، والله سبحانه وتعالى حين يشرع فهو بجلال كماله يشرع تشريعا لا يمنع قوامة الفقير العادل غير الواجد . كان الحق قادرا أن يقول : لا تعطوا الوصية إلا لإنسان عنده مال لأنه فى غنى عن مال اليتيم .

لكن الحق لا يمنع الفقير النزيه صاحب الخبرة والإيمان من الولاية .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الولى : « ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا

فليأكل بالمعروف » فلا يقولن أحد عن أحد آخر : إنه فقير ، ولو وضعنا يده على مال اليتيم فإنه يأكله . لا ، فهذا قول بمقاييس البشر ، لا يجوز أن يمنع أحد فقيرا مؤمنا أن يكون وليا لليتيم ؛ لأننا نريد من يملك رصيدا إيمانيا يعلو به فوق الطمع فى المال ؛ لذلك يقول الحق عن الوصى على مال اليتيم : إن عليه مسئولية واضحة .

فإن كان غنيا فليستعفف ، وإن كان فقيرا فليأكل بالمعروف . وحددوا المعروف بأن يأخذ أجر مثله فى العمل الذى يقوم به .

وكلمة المعروف تعنى الأمر المتداول عند الناس ، أو أن يأخذ على قدر حاجته . ويقول الحق : « فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيبا » وانظروا الحماية ، هو سبحانه يصنع الحماية للولى أو الوصى ، فالحق يعلم خَلْقَه ، ـ وخُلُقَه من الأغيار ـ والولى على اليتيم لابد أن يلى الأمر بحكمة وحرص ؛ حتى لا يكرهه اليتيم . وربما قد يراضيه فى كل شىء . نقول له : لا ، أعطه بقدَر حتى لا تفسده . فإذا ما أعطى الولى اليتيم بقدر ربما كرهه اليتيم ؛ لأن اليتيم قد يرغب فى أشياء كمالية لا تصلح له ولا تناسب إمكاناته ، وعندما يصل اليتيم إلى سن الرشد قد يتركز كرهه ضد الوصى ، فيقول له : لقد أكلت مالى ؛ لذلك يوضح الحق للولى أو الوصى : كما حميت اليتيم بحسن ولايتك أحميك أنا من رشد اليتيم .

لذلك يجب عليك ـ أيها الولى ـ حين تدفع المال إليه أن تشهد عليه ، لأنك لا تملك الأغيار النفسية ، فربما وَجد عليك وكرهك ؛ لأنك كنت حازما معه على ماله ، وكنت تضرب على يده إذا انحرف . وإذا ما كرهك ربما التمس فترة من الفترات وقام ضدك واتهمك بما ليس فيك ؛ لذلك لابد من أن تحضر شهودا عدولا لحظة تسليمه المال . وهذه الشهادة لتستبرىء بها من المال فحسب ، أما استبراء الدِّين فموكول إلى الله « وكفى بالله حسيبا » .

هذا وإن سورة النساء تعالج الضعف فى المرأة والضعف فى اليتيم ، لأن الحال فى المجتمع الذى جاء عليه الإسلام أنهم كانوا لا يورثون النساء ولا يورثون الصغار الذين لم تشتد أجنحتهم ، وكانت القاعدة الغريبة عندهم هى : من لم يطعن برمح

ولم يذد عن حريم أو عن مال ولم يشهد معارك فهو لا يأخذ من التركة . وكانت هذه قمة استضعاف أقوياء لضعفاء . وجاء الإسلام ليصفي هذه القاعدة . بل فرض وأوجب أن تأخذ النساء حقوقهن وكذلك الأطفال ، ولهذا قال الحق سبحانه :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾

ومَن الذى يفرض هذا النصيب ؟ إنه الله الذى ملك وهو الذى فرض .

هنا نلاحظ أن المرحوم الشهيد صاحب الظلال الوارفة الشيخ سيد قطب لحظ ملحظا جميلا هو : كيف يكون للمتوفى أولاد أو نساء محسوبون عليه ولا يأخذون ؟ إن الصغار كانوا أولى أن يأخذوا لأن الكبار قد اشتدت أعوادهم وسواعدهم ، فالصغار أولى بالرعاية ، وأيضا إذا كانت قوانين « مندل » فى الوراثة توضح أن الأولاد يرثون من أمهاتهم وآبائهم وأجدادهم الخصال الحسنة أو السيئة ، أو المرض أو العفة أو الخلقة ، فلماذا لا تورثونهم أيضا فى الأموال ؟

وحين نسمع قول الحق : « نصيبا مفروضا » فلا بد أن يوجد فارض ، ويوجد مفروض عليه ، والفارض هنا هو الله الذى ملك ، وفيه فرق دقيق بين « فرض » و« أوجب » فالفرض يكون قادما من أعلى ، لكن الواجب قد يكون من الإنسان نفسه ، فالإنسان قد يوجب على نفسه شيئا .

وحين يتكلم الحق عن النصيب المفروض ، فقد بين أن له قدرا معلوما ، ومادام للنصيب قدر معلوم ، فلا بد أن يتم إيضاحه . . ولم يبين الحق ذلك إلا بعد أن يُدخل فى العملية أناسا قد لا يورثهم ، وهم ممن حول الميت ممن ليسوا بوارثين ،

ويوضح سبحانه الدعوة إلى إعطاء مَن لا نصيب له ، إياكم أنْ يلهيكم هذا النصيب المفروض عمن لا نصيب له فى التركة .

لذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٨ ﴾

وحين يحضر أولو القُرْبى واليتامى والمساكين مشهد توزيع المال ، وكل واحد من الورثة الذين يتم توزيع مال المورِّث عليهم انتهت مسائله ، قد يقول هؤلاء غير الوارثين : إن الورثة إنما يأخذون غنيمة باردة هبطت عليهم مثل هذا الموقف يترك شيئا فى نفوس أولى القُربى واليتامى والمساكين .

صحيح أن أولى القُربى واليتامى والمساكين ليسوا وارثين ، ولن يأخذوا شيئا من التركة فرضاً لهم ، ولكنهم حضروا القسمة ؛ لذلك يأتى الأمر الحق : « فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » فلو أنهم لم يحضروا القسمة لاختلف الموقف . فيأمر سبحانه بأن نرزق اليتامى وأولِى القُربى والمساكين حتى نستل منهم الحقد أو الحسد للوارث ، أو الضغن على المورِّث ، وبذلك يشيع فى الناس شيء من الألفة ومن المحبة ومن حب الخير لأنهم قد نالوا شيئا من الخير مع هؤلاء ، فلا يكونون حاقدين على الورثة ولا على المورِّث ، ولا يكتفى الحق بالأمر برزق هؤلاء الأقارب واليتامى والمساكين ، ولكن يأمر أن نقول لهم : قولا معروفا ، مثل أن ندعو الله لهم أن يزيد من رزقهم ، وأن يكون لهم أموال وأن يتركوا أولادا ويورثوهم ، ومن الذى يجب عليه أن يقوم بمثل هذا العمل ؟ إنهم الوارثون إن كانوا قد بلغوا الرشد ، ولكن ماذا

يكون الموقف لو كان الوارث يتيما ؟ فالحضور هم الذين يقولون لأولى القُربى واليتامى والمساكين : إنه مال يتيم ، وليس لنا ولاية عليه ، ولو كان لنا ولاية لأعطيناكم أكثر ، وفى مثل هذا القول تطييب للخاطر .

« وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا » يجب أن تكونوا فى ذلك الموقف ذاكرين أنه إذا كنتم أنتم الضعفاء واليتامى وغير الوارثين فمن المؤكد أن السرور كان سيدخل إلى قلوبكم لو شرعنا لكم نصيبا من الميراث . إذن فليذكر كل منكم أنه حين يطلب الله منه ، أنك قد تكون مرة فى موقف من يطلب الله له ولأولاده . إذن فالحكم التشريعى لا يؤخذ من جانب واحد ، وهو أنه يُلزم المؤمن بأشياء ، ولكن لنأخذ بجانب ذلك أنه يلزم غيره من المؤمنين للمؤمن بأشياء .

إن الحكم التشريعى يعطيك ، ولذلك يأخذ منك . ولهذا قلنا فى الزكاة : إياك أن تلحظ يا من تؤدى الزكاة أننا نأخذ منك حيفا ثمرة كدحك وعرقك لنعطيها للناس ، نحن نأخذ منك وأنت قادر لنؤمِّنك إن صرت عاجزا . وسوف نأخذ لك من القادرين . إنه تأمين ربانى حكيم . .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٩ ﴾

والإنسان حين يترك ذرية ضعيفة يتركها وهو خائف عليهم أن يضيعهم الزمان .

فإن كان عندك أيها المؤمن ذرية ضعيفة وتخاف عليها فساعة ترى ذرية ضعيفة تركها غيرك فلتعطف عليها ، وذلك حتى يعطف الغير على ذريتك الضعيفة إن تركتها . واعلم أن ربنا رقيب وقيوم ولا يترك الخير الذى فعلته دون أن يردّه إلى ذريتك . وقلنا ذات مرة : إن معاوية وعَمرو بن العاص اجتمعا فى أواخر حياتهما ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : يا أمير المؤمنين ماذا بقى لك من حظ الدنيا ؟ . وكان معاوية قد صار أميراً للمؤمنين ورئيس دولة قوية غنية ، فقال معاوية : أما الطعام فقد مللت أطيبه ، وأما اللباس فقد سئمت ألينه ، وحظى الآن فى شربة ماء بارد فى ظل شجرة فى يوم صائف .

وصمت معاوية قليلاً وسأل عَمْراً : وأنت يا عَمرو ماذا بقى لك من متع الدنيا ؟ .

وكان سيدنا عمرو بن العاص صاحب عبقرية تجارية فقال : أنا حظى عين خرارة فى أرض خوارة تدر علىّ حياتى ولولدى بعد مماتى .

إنه يطلب عين ماء مستمر فى أرض فيها أنعام وزروع تعطى الخير .

وكان هناك خادم يخدمهما ، يقدم لهما المشروبات ، فنظر معاوية إلى الخادم وأحب أن يداعبه ليشركه معهما فى الحديث .

فقال للخادم : وأنت يا « وردان » ماذا بقى لك من متاع الدنيا ؟ أجاب الخادم : بقى لى من متع الدنيا يا أمير المؤمنين صنيعة معروف أضعها فى أعناق قوم كرام لا يؤدونها إلىّ طول حياتى حتى تكون لعقبى فى عقبهم . لقد فهم الخادم عن الله قوله :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

فالذين يتقون الله فى الذرية الضعيفة يضمنون أن الله سيرزقهم بمن يتقى الله فى ذريتهم الضعيفة .

وقد تكلمنا مرة عن العبد الصالح الذى ذهب إليه موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

لقد جرب العبد الصالح موسى فى خرق السفينة ـ كما توضح الآيات ـ فقال العبد الصالح :

﴿ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ثم ما كان من أمر الغلام الذى قتله العبد الصالح وقول موسى له : « لقد جئت شيئا نكرا » .

ثم جاءا إلى أهل قرية فطلبا منهم الطعام ، وحين يطلب منك ابن سبيل طعاماً فاعلم أنها الحاجة الملحة ؛ لأنه لو طلب منك مالاً فقد تظن أنه يكتنز المال ، ولكن إن طلب لقمة يأكلها فهذا أمر واجب عليك .

فماذا فعل أهل القرية حين طلب العبد الصالح وموسى طعاماً لهما ؟ .

يقول الحق :

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إنها قرية لئيمة ، ووجد العبد الصالح فى القرية جداراً يريد أن يسقط وينقض فأقامه ، واعترض موسى ؛ لأن عنده حفيظة على أهل القرية فقد طلبا منهم طعاماً فلم يطعموهما ، وقال سيدنا موسى : إنك لو شئت لاتخذت عليه أجراً ؛ لأن أهل القرية لئام ، وما كان يصح أن تقيم لهم الجدار إلا إذا أخذت منهم أجرا .

لقد غاب عن موسى ما لم يغَيِّب الله سبحانه عن العبد الصالح ، فبالله لو أن الجدار وقع وهم لئام لا يطعمون من استطعمهم ، ثم رأوا الكنز المتروك لليتامى المساكين ، فلا بد أنهم سيغتصبون الكنز . إذن فعندما رأيت الجدار سيقع أقمته حتى أوارى الكنز عن هؤلاء اللئام . ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فالعلة فى هذه العملية هى الحماية لليتيمين ، ولنلق بالاً ولْنَهْتَمَّ بملاحِظ النص ، لا بد أن العبد الصالح قد أقام الجدار بأسلوب جَدَّد عمراً افتراضياً للجدار بحيث إذا بلغ اليتيمان الرشد وقع الجدار أمامهما ؛ ليرى كلاهما الكنز ، لقد تم بناء الجدار على مثال القنبلة الموقوتة بحيث إذا بلغا الرشد ينهار الجدار ليأخذا الكنز . إنه توقيت إلهى أراده الله ؛ لأن والد اليتيمين كان صالحاً ، اتقى الله فيما تحت يده فأرسل الله له جنوداً لا يعلمهم ولم يرتبهم ليحموا الكنز لولديه اليتيمين ، لذلك فلنفهم جيداً فى معاملتنا ، قول الحق :

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

لماذا ؟ لأن الإنسان عندما يكون شاباً فذاتيته تكون هى الموجودة . لكن كلما تقدم الإنسان فى السن تقدمت ذاتية أولاده عنده ، ويحرم نفسه ليعطى أولاده ، وعندما يرى أنّ عياله مازالوا ضعافاً ، وجاءت له مقدمات الموت فهو يحزن على مفارقة هؤلاء الضعاف ، فيوضح الحق لكل عبد طريق الأمان : إنك تستطيع وأنت موجود أن تعطى للضعاف قوة ، قوة مستمدة من الالتحام بمنهج الله وخاصة رعاية ما تحت يدك من يتامى ، بذلك تؤمن حياة أولادك من بعدك وتموت وأنت مطمئن عليهم . .

والقول السديد من الأوصياء : ألّا يؤذوا اليتامى ، وأن يكلموهم كما يكلمون أولادهم بالأدب الحسن والترحيب ويدعوهم بقولهم يا بنى ويا ولدى .

وحين يتقى المؤمن الله فيما بين يديه يرزقه الله بمن يتقى الله فى أولاده .

ومازال الحق يضع المنهج فى أمر اليتامى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

لماذا يركز القرآن على هذه الجزئية ؟ لأن الله يريد من خلقه أن يستقبلوا قدر الله فيمن يحبون وفيمن يحتاجون إليهم برضا ، فإذا كان الطفل صغيراً ويرى أباه يسعى

فى شأنه ويقدم له كل جميل فى الحياة وبعد ذلك يموت ، فإن كان هذا الصغير قد رأى واحداً مات أبوه وكفله المجتمع الإيمانى الذى يعيش فى كفالة عوضته عن أب واحد بآباء إيمانيين متعددين ، فإذا مات والد هذا الطفل فإنه يستقبل قدر الله وخطبه بدون فزع . فالذى يجعل الناس تستقبل الخطوب بالفزع والجزع والهلع أنهم يرون أن الطفل إذا ما مات أبوه وصار يتيماً فإنه يضيع ، ويقول الطفل لنفسه : إن أبى عندما يموت سأصير مضيعاً . لكن لو أن المجتمع حمى حق اليتيم وصار كل مؤمن أباً لليتيم وكل مؤمنة أمًّا لليتيم لاختلف الأمر ، فإذا ما نزل قضاء الله فى أبيه فإنه يستقبل القضاء برضا وتسليم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة النساء)

إنَّ كل العملية السلبية والنهبية أهم ما فيها هو الأكل ؛ لأن الأكل هو المتكرر عند الناس ، وهو يختلف عن اللباس ، فكل فصل يحتاج الإنسان إلى ملابس تناسبه ، لكن الأكل عملية يومية ؛ لذلك فأى نهب يكون من أجل الأكل . ولذلك نقول فى أمثالنا العامية عن النهاب : « فلان بطنه واسعة » إنها مسألة الأكل .

وقد أوضح الحق هذا الأمر لأكل مال اليتيم : أنت تحشو فى بطنك ناراً . ويعنى ذلك أنه يأكل فى بطنه ما يؤدى إلى النار فى الآخرة . وهذا قد يحدث عقاباً فى الدنيا فيصاب آكل مال اليتيم فى بطنه بأمراض تحرق أحشاءه ، ويوم القيامة يرى المؤمنون هؤلاء القوم الذين أكلوا مال اليتيم ، وعليهم سمات أكل مال اليتيم : فالدخان يخرج من أفواههم . وإياك أن تفهم أن البطون هى التى ستكون ممتلئة بالنار فقط ، وألا يكون هناك نار أمام العيون . بل سيكون فى البطون نار وسيصلون سعيراً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾ ﴾

ونعم الرب خالقنا ؛ إنه يوصينا فى أولادنا ، سبحانه رب العرش العظيم ، كأننا عند ربنا أحب منا عند آبائنا . وقوله الكريم : « يوصيكم الله فى أولادكم » توضح أنه رحيم بنا ومحب لنا . ومادة الوصية إذا ما استقرأناها فى القرآن نجد ـ بالاستقراء ـ أن مادة الوصية مصحوبة بالباء ، فقال سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

وقال سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وقال الحق أيضاً :

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾

(من الآية ١٤ سورة لقمان)

كل هذه الآيات جاءت الوصية فيها مصحوبة بالباء التى تأتى للإلصاق .

لكن عندما وصّى الآباء على الأبناء قال : « يوصيكم الله فى أولادكم » فكأن الوصية مغروسة ومثبتة فى الأولاد ، فكلما رأيت الظرف وهو الولد ذكرت الوصية . وما هى الوصية ؟ إنها « للذكر مثل حظ الأنثيين » وقلنا من قبل : إن الحق قال :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

ولم يحدد النصيب بعد هذه الآية مباشرة إلا بعد ما جاء بحكاية اليتامى وتحذير الناس من أكل مال اليتيم ، لماذا ؟ لأن ذلك يربى فى النفس الاشتياق للحكم ، وحين تستشرف النفس إلى تفصيل الحكم ، ويأتى الحكم بعد طلب النفس له ، فإنه يتمكن منها . والشيء حين تطلبه النفس تكون مهيأة لاستقباله ، لكن حينما يعرض الأمر بدون طلب ، فالنفس تقبله مرة وتعرض عنه مرة أخرى . ونلحظ ذلك فى مناسبة تحديد أنصبة الميراث .

فقد قال الحق سبحانه أولا :

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ﴾

(من الآية ٧ سورة النساء)

وعرض بعد ذلك أمر القسمة ورعاية اليتامى والمساكين وأولى القُربى ، ثم يأتى الأمر والحكم برعاية مال اليتيم والتحذير من نهبه ، وبعد ذلك يقول : « يوصيكم الله فى أولادكم » ويأتى البند الأول فى الوصية « للذكر مثل حظ الأنثيين » ولماذا لم يقل « للأنثيين مثل حظ الذكر » . أو « للأنثى نصف حظ الذكر » ، هذه معان يمكن أن تعبر عن المطلوب .

لقد أراد الله أن يكون المقياس ، أو المكيال هو حظ الأنثى ، ويكون حظ الرجل هنا منسوبًا إلى الأنثى ، لأنه لو قال:« للأنثى نصف حظ الرجل » لكان المقياس هو الرجل ، لكنه سبحانه جعل المقياس للأنثى فقال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » .

والذين يقولون : هذا أول ظلم يصيب المرأة ، نريد المساواة . نقول لهم : انظروا إلى العدالة هنا . فالذكر مطلوب له زوجة ينفق عليها ، والأنثى مطلوب لها ذكر ينفق عليها ، إذن فنصف حظ الذكر يكفيها إن عاشت دون زواج ، وإن تزوجت فإن النصف الذى يخصها سيبقى لها ، وسيكون لها زوج يعولها .

إذن فأيهما أكثر حظا فى القسمة ؟ إنها الأنثى . ولذلك جعلها الله الأصل والمقياس حينما قال : « للذكر مثل حظ الأنثيين » فهل فى هذا القول جور أو فيه محاباة للمرأة ؟ إن فى هذا القول محاباة للمرأة ؛ لأنه أولا جعل نصيبها المكيال الذى يُرد إليه الأمر ؛ لأن الرجل مطلوب منه أن ينفق على الأنثى ، وهى مطلوب لها زوج ينفق عليها . إذن فما تأخذه من نصف حظ الذكر يكون خالصا لها ، وكان يجب أن تقولوا : لماذا حابى الله المرأة ؟ لقد حابى الله المرأة لأنها عِرض ، فَصَانَها ، فإن لم تتزوج تجد ما تنفقه ، وإن تزوجت فهذا فضل من الله ، ثم يقول الحق : « فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك » .

وأنا أريد أن نستجمع الذهن هنا جيدا لنتعرف تماما على مراد الحق ومسالك القرآن فى تنبيه الأذهان لاستقبال كلام الله . فقد كرم الله الإنسان بالعقل ، والعقل لا بد له من رياضة . ومعنى الرياضة هو التدريب على حل المسائل ، وإن طرأت مشكلات هيأ نفسه لها بالحل ، وأن يملك القدرة على الاستنباط والتقييم ، كل هذه من مهام العقل . فيأتى الحق فى أهم شيء يتعلق بالإنسان وهو الدين ، والدليل إلى

الدين وحافظ منهجه هو القرآن ، فيجعل للعقل مهمة إبداعية .

إنه ـ سبحانه ـ لا يأتى بالنصوص كمواد القانون فى الجنايات أو الجنح ، ولكنه يعطى فى مكان ما جُزْءًا من الحكم ، ويترك بقية القانون لتتضح معالمه فى موقع آخر من القرآن بجزئية أخرى ، لأنه يريد أن يوضح لنا أن المنهج الإلهى كمنهج واحد متكامل ، وأنه ينقلك من شيء إلى شيء ، ويستكمل حكما فى أكثر من موقع بالقرآن . وذلك حتى تتعرف على المنهج ككل . وأنك إذا كنت بصدد شيء فلا تظن أن هذا الشيء بمفرده هو المنهج ، ولكن هناك أشياء ستأتى استطرادا تتداخل مع الشيء الذى تبحث عن حكم الله فيه ، مثال ذلك : مسألة اليتيم التى تتداخل مع أحكام الميراث . وهذه الآية تعطينا مثل هذه المسألة لماذا ؟ لأن الله يريد لك يا صاحب العقل الدربة فى الإطار الذى يضم الحياة كلها . وما يهمك أولا هو دينك ، فلتعمل عقلك فيه ، فإذا أعملت عقلك فى الدين أعطيت عقلك النشاط ليعمل فى المجال الآخر .

لكن إذا غرق ذهنك فى أى أمر جزئى فهذا قد يبعد بك عن الإطار العام لتنشغل بالتفاصيل عن الهدف العام .

وأولادنا من الممكن أن يعلمونا من تجربة من ألعابهم ، فالطفل يلعب مع أقرانه « الاستغماية » ، ويختبىء كل قرين فى مكان ، ويبحث الطفل عن أقرانه .

ونحن نلعب أيضا مع أولادنا لعبة إخفاء شيء ما فى يد ونطبق أيدينا ونترك الابن يخمن بالحدس فى أى يد يكون الشيء ، إنها دربة للعقل على الاستنباط ، فإن كان الولد سريع البديهة قوى الملاحظة ويمتلىء بالذكاء ، فهو يرى يَدَىْ والده ليقارن أى يد ترتعش قليلا ، أو أى يد ليست طبيعية فى طريقة إطباق الأب لها فيختارها ، وينتصر بذلك ذكاء الولد ، وهذه عملية ترويض للطفل على الاستنباط والفهم ، وبذلك تعلم الطفل ألا يأخذ المسائل ضربة لازب بدون فكر ولا دُربة .

والحق سبحانه أراد أن تكون أحكامه موزعة فى المواقع المختلفة ، ولننظر إلى قوله : « يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإن كن نساء فوق اثنتين

فلهن ثلثا ما ترك » أى أنه إن لم ينجب المورث ذكرا وكان له أكثر من اثنتين فلهن ثلثا ما ترك .

أما لو كان معهن ذكر ، فالواحدة منهن ستأخذ نصف نصيب الذكر ، وإن كانت الوارثة بنتا واحدة ، فالآية تعطيها النصف من الميراث « وإن كانت واحدة فلها النصف » وبقى شىء لم يأت الله له بحكم ، وهو أن يكون المورث قد ترك ابنتين . وهنا نجد أن الحق قد ضمن للاثنتين فى إطار الثلاث بنات أو أكثر أخذ الثلثين من التركة ، هكذا قال العلماء ، ولماذا لم ينص على ذلك بوضوح ؟ لقد ترك هذه المهمة للعقل ، فالبنت حينما ترث مع الذكر تأخذ ثلث التركة ، وعندما تكون مع ابنة أخرى دون ذكر ، تأخذ الثلث .

فإذا كانت مع الذكر وهو القائم بمسئولية الكدح تأخذ الثلث ، ولذلك فمن المنطقى أن تأخذ كل أنثى الثلث إن كان المورث قد ترك ابنتين . وهناك شىء آخر ، لتعرف أن القرآن يأتى كله كمنهج متماسك ، فهناك آية أخرى فى سورة النساء تناقش جزئية من هذا الأمر ليترك للعقل فرصة العمل والبحث ، يقول سبحانه :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ۚ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد جاء الحق هنا بأختى المورث وأوضح أن لهما الثلثين من التركة إن لم يكن للمورث ولد ـ ابن أو بنت ـ فإذا كان للأختين الثلثان ، فأيهما ألصق بالمورث ، البنتان أم الأختان ؟ إن ابنتى المورث ألصق به من أختيه ، ولذلك فللبنتين الثلثان ، فالابنة إن كانت مع أخيها فستأخذ الثلث ، وإن كانت قد ورثت بمفردها فستأخذ النصف . وإن كانت الوارثات من البنات أكثر من اثنتين فسيأخذن الثلثين ، وإن

كانتا اثنتين فستأخذ كل منهما الثلث ، لماذا ؟ لأن الله أعطى الأختين ثلثى ما ترك المورث إن لم يكن له أولاد .

ومن العجيب أنه جاء بالجمع فى الآية الأولى الخاصة بتوريث البنات ، وجاء بالمثنى فى الآية التى تورث الأخوات ، لنأخذ المثنى هناك - فى آية توريث الأخوات - لينسحب على الجمع هنا ، ونأخذ الجمع هنا - فى آية توريث البنات - لينسحب على المثنى هناك .

لقد أراد الحق أن يجعل للعقل مهمة البحث والاستقصاء والاستنباط وذلك حتى نأخذ الأحكام بعشق وحسن فهم ، وعندما يقول سبحانه : « يستفتونك » فمعنى يستفتونك أى يطلبون منك الفتوى ، وهذا دليل على أن المؤمن الذى سأل وطلب الفتيا قد عشق التكليف ، فهو يحب أن يعرف حكم الله ، حتى فيما لم يبدأ الله به الحكم . وقد سأل المؤمنون الأوائل وطلبوا الفتيا عشقا فى التكليف « يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة » والكلالة مأخوذة من الإكليل وهو ما يحيط بالرأس ، والكلالة هى القرابة التى تحيط بالإنسان وليست من أصله ولا من فصله .

﴿ إِنِ امْرُؤٌا هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

وهذه الآية تكمل الآية الأولى . ونعود إلى تفصيل الآية الأولى التى نحن بصدد خواطرنا الإيمانية عنها : « ولأبوية لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد ، فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » .

ومعنى ذلك أن المورث إن لم يكن له أولاد فللأم الثلث ، والأب له الثلثان ، فإن كان للمورث إخوة أشقاء أو لأب أو لأم فللأم السدس حسب النص القرآنى « فإن

كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصى بها أو دين » ، وذلك بعد أن تنفذ وصية المورث ، ويؤدَّى الدَّيْن الذى عليه . والوصية هنا مقدمة على الدين ؛ لأن الدين له مُطالب ، فهو يستطيع المطالبة بدينه ، أما الوصية فليس لها مطالب ، وقد قدمها الحق للعناية بها حتى لا نهملها . ويذيل الحق هذه الآية :

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

فإياك أن تحدد الأنصباء على قدر ما تظن من النفعية فى الآباء أو من النفعية فى الأبناء ، فالنفعية فى الآباء تتضح عندما يقول الإنسان : « لقد ربانى أبى وهو الذى صنع لى فرص المستقبل » . والنفعية فى الأبناء تتضح عندما يقول الإنسان : إن أبى راحل وأبنائى هم الذين سيحملون ذكرى واسمى والحياة مقبلة عليهم . فيوضح الحق : إياك أن تحكم بمثل هذا الحكم ؛ فليس لك شأن بهذا الأمر : « لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا » .

ومادمت لا تدرى أيهم أقرب لك نفعا فالتزم حكم الله الذى يعلم المصلحة وتوجيهها فى الأنصبة كما يجب أن تكون .

ونحن حين نسمع : « إن الله كان عليما حكيما » أو نسمع : « إن الله كان غفورا رحيما » فنحن نسمعها فى إطار أن الله لا يتغير ، ومادام كان فى الأزل عليما حكيما وغفورا رحيما فهو لا يزال كذلك إلى الأبد .

فالأغيار لا تأتى إلى الله ، وثبت له العلم والحكمة والخبرة والمغفرة والرحمة أزلاً وهو غير متغير ، وهذه صفات ثابتة لا تتغير . لذلك فعندما تقرأ : « إن الله كان عليماً حكيماً » أو « إن الله كان غفوراً رحيما » فالمسلم منا يقول بينه وبين نفسه : ولا يزال كذلك .

والحق يقول من بعد ذلك :

وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى الثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾

والآيات تسير فى إيضاح حق الذكر مثل حظ الأنثيين ؛ وهذه عدالة ؛ لأن الرجل حين تموت امرأته قد يتزوج حتى يبنى حياته ، والمرأة حين يموت زوجها فإنها تأخذ ميراثها منه وهى عرضة أن تتزوج وتكون مسئولة من الزوج الجديد .

إن المسألة كما أرادها الله تحقق العدالة الكاملة . والكلالة ـ كما قلنا ـ أنه ليس للمتوفى والد أو ولد ، أى لا أصل له ولا فصل متفرع منه .

فإذا كان للرجل الكلالة أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس ، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث ، وذلك أيضاً من بعد الوصية التى يوصى بها أو دين . ولماذا يتم تقرير هذاالأمر ؟ لنرجع مرة أخرى إلى آية الكلالة التى جاءت فى آخر سورة النساء .

إن الحق يقول فيها :

﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة النساء)

فى الآية الأولى التى نحن بصددها يكون للواحد من الإخوة سدس ما ترك إذا انفرد ، فإذا كان معه غيره فهم شركاء فى الثلث . هذا إذا كانوا إخوة من الأم . أما الآية التى يختص بها الحق الأختين بالثلثين من التركة إذا لم يكن معهما ما يعصبهما من الذكور فهى فى الإخوة الأشقاء أو الأب ، هكذا يفصل القرآن ويوضح بدقة مطلقة .

وماذا يعنى قوله الحق : « غير مضار وصية من الله والله عليم حليم » ؟

إنه سبحانه يريد إقامة العدل ، فلا ضرر لأحد على الإطلاق فى تطبيق شرع الله ؛ لأن الضرر إنما يأتى من الأهواء التى تفسد قسمة الله . فقد يكون هناك من يرغب ألا يرث العم من بنات أخيه الشقيق ، أو لأب ، أو يريد آخر ألا يُدْخل أولاد الإخوة الذكور أشقاء أو لأب فى ميراث العمة أو بنات العم الشقيق أو لأب ، لمثل هؤلاء من أصحاب الهوى نقول : إن الغرم على قدر الغنم ، بالله لو أنك مت وتركت بنات ولهن عمّ ، أليس مطلوباً من العم أن يربى البنات ؟ فلماذا يجبر الحق العم على رعاية بنات أخيه إن توفى الأخ ولم يترك شيئاً ؟ لذلك يجب أن تلتفت إلى حقيقة الأمر عندما يأتى نصيب للعم فى الميراث . وعلينا أن نعرف أن الغرم أمامه الغنم .

وقلنا:إن القرآن الكريم يجب أن يؤخذ جميعه فيما يتعلق بالأحكام ، فإذا كان فى

سورة النساء هذه يقول الحق سبحانه وتعالى فى آخر آية منها :

﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

فما الفرق بين الكلالة حين يجعل الله للمنفردة النصف وللاثنتين الثلثين ، وبين الكلالة التى يجعل الله فيها للمنفرد السدس ، ويجعل للأكثر من فرد الاشتراك فى الثلث دون تمييز للذكر على الأنثى ؟

لابد أن نفرق بين كلالة وكلالة . .

هما متحدتان فى أنه لا أصل ولا فرع للمتوفى . والمسألة هنا تتعلق بالإخوة .

ونقول:إن الإخوّة لها مصادر متعددة . هذه المصادر إما إخوة من أب وأم ، وإما أخوة لأب،وإما إخوة لأم . فإذا كان أخ شقيق أو لأب فهو من العصبة الأصيلة ، وهما المعنيان فى الآية ١٧٦ من السورة نفسها .

وبذلك تكون آية السدس والثلث التى نحن بصددها الآن متعلقة بالإخوة لأم . إذن فالكلالة إما أن يكون الوارث أخا لأم فقط ، وإما أن يكون أخـًا لأب ، أو أخـًا لأب وأم . فالحكمان لذلك مختلفان ؛ لأن موضع كل منهما مختلف عن الآخر . وإلا لو أن مستشرقاً قرأ هذه الآية وقرأ الآية الأخرى وكلتاهما متعلقتان بميراث الكلالة ، وأراد هذا المستشرق أن يبحث عن شيء يطعن به ديننا ويطعن به القرآن لقال ـ والعياذ بالله ـ : القرآن متضارب ، فهو مرة يقول : للكلالة السدس،ومرة يقول : الثلث ، ومرة أخرى النصف،ومرة أخرى الثلثان،ومرة للذكر مثل حظ الأُنثيين ! ونرد

على من يقول ذلك : أنت لم تلاحظ المقصود الفعلى والواقعى للكلالة ؛ لذلك فأنت تفهم شيئا وتغيب عنك أشياء .

والحق قال : « من بعد وصية يوصى بها أو دين » ولنا أن نلاحظ أن فى كل توريث هذه « البعدية » أى أن التوريث لا يتأتى إلا من بعد الوصية الواجبة النفاذ والدَّيْن .

ولنا أن نسأل : أيهما ينفذ أولاً ، الوصية أم الدين ؟

والإجابة : لاشك أنه الدين ؛ لأن الدين إلزام بحق فى الذمة ، والوصية تطوع ، فكيف تقدم الوصية ـ وهى التطوع ـ على الدين ، وهو للإلزم فى الذمة .

وعندما يقول : « غير مضار » لابد أن نعرف جيداً أن شرع الله لن يضر أحداً ، وما المقصود بذلك ؟ المقصود به الموصى ، ففى بعض الأحيان يكون المورِّث كارهاً لبعض المستحقين لحقهم فى ميراثه ، فيأتى ليوصى بمنع توريثهم أو تقليل الأنصباء ، أو يأتى لواحد بعيد يريد أن يعطيه شيئاً من الميراث ولا يعطى لمن يكرهه من أهله وأقاربه المستحقين فى ميراثه ، فيقر لذلك الإنسان بدين ، فإذا ما أقر له بدين حتى وإن كان مستغرقاً للتركة كلها ، فهو يأخذ الدين وبذلك يترك الورثة بلا ميراث .

و هذا يحدث فى الحياة ونراه ، فبعض من الناس أعطاهم الله البنات ولم يعطيهم الله ولداً ذكراً يعصِّبهم ، فيقول الواحد من هؤلاء لنفسه : إن الأعمام ستدخل ، وأبناء الأعمام سيدخلون فى ميراثى ، فيريد أن يوزع التركة على بناته فقط ، فيكتب ديناً على نفسه للبنات . ونقول لهذا الإنسان : لا تجحف ، أنت نظرت إلى أن هؤلاء يرثون منك ، ولكن يجب أن تنظر إلى الطرف المقابل وهو أنك إذا مت ولم تترك لبناتك شيئاً وهن لا عصبة لهن ، فمن المسئول عنهن ؟ إنهم الأعمام ، فالغرم هنا مقابل الغنم . . ولماذا تطلب البنات الأعمام أمام القضاء ليأخذن النفقة منهم فى حالة وفاة الأب دون أن تكون له ثروة . فكيف تمنع عن إخوتك ما قرره الله لهم ؟

وهناك بعض من الناس يرغب الواحد منهم ألا يعطى عمومته أو إخوته لأى سبب

من الأسباب ، فماذا يفعل ؟ إنه يضع الوصيــة ؛ لذلك حدد الإسلام الوصية بمقدار الثلث ، حتى لا تحدث مضارة للورثة .

وقد حاول البعض من هؤلاء الناس أن يدّعوا كذباً ، أن هناك ديناً عليهم ، والدين مستغرق للتركة حتى لا يأخذ الأقارب شيئاً .

والإنسان فى هذا الموقف عليه أن يعرف أنه واقف فى كل لحظة فى الحياة أو الممات أمام الله ، وكل إنسان أمين على نفسه .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

(من الآية ١١ سورة النساء)

والحق يلفتنا ألا نضر أحداً بأى تصرف ؛ لأنها توصية من الله لكل ما يتعلق بالحكم توريثاً ووصيةً وآداء دين ، كل ذلك توصية من الله ، والتوصية ليست من مخلوق لمخلوق، ولكنها من الله ؛ لذلك ففيها إلزام وفرض ، فسبحانه القائل :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

والوصية هنا افتراض ، ومثل ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ومادامت التوصية تأتى من المالك الأعلى ، فمعنى ذلك أنها افتراض ، ويذيل الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية : « والله عليم حليم » أى إياكم أن تتصرفوا تصرفا قد يقره ويمضيه القضاء ، ولكنه لا يبرئكم أمام الله ؛ لأنه قد قام على باطل .

مثال ذلك : هناك إنسان يموت وعليه دين ، عندئذ يجب تسديد الدين ، لكن أن يكتب الرجل دينا على نفسه غير حقيقى ليحرم بعضا من أقاربه من الميراث فعليه أن يعرف أن الله عليم بالنوايا التى وراء التصرفات . فإن عمَّيتم أيها البشر على قضاء الأرض ، فلن تعموا على قضاء السماء .

وهذه مسألة تحتاج إلى علم يتغلغل فى النوايا ، إذن فمسألة القضاء هذه هى خلاف بين البشر والبشر ، ولكن مسألة الديانة وما يفترضه الحق ، فهو موضوع بين الرب وبين عبيده، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حديث شريف : « إنما أنا بشر وأنكم تختصمون إلىّ ، فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضىَ له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم ، فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها »[1] .

إن الرسول يعلمنا أنه بشر ، أى أنه لا يملك علم الغيب ومداخل المسائل ، وعندما يرفع المسلمون إليه قضاياهم فقد يكون أحدهم أكثر قدرة على الفصاحة وذلاقة اللسان ، ويستطيع أن يقلب الباطل حقا ، والآخر قليل الحيلة ، فيحكم النبى بمقتضى البيِّنة القضائية ، ولكن الأمر الواقع يتنافى مع تسلسل الحق ؛ لذلك يعلمنا أنه بشر ، وأننا حين نختصم إليه يجب ألا يستخدم واحد منا ذلاقة اللسان فى أخذ ما ليس له ؛ لأنه حتى لو أخذ شيئا ليس له بحكم من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليعلم أنه يأخذ قطعة من الجحيم .

إذن فمعنى ذلك انه يجب علينا أن نحذر فى الأمور ، فلا نُعَمِّى ولا نأخذ شيئا بسلطان القضاء ونهمل مسألة الديانة . فالأمور التى تتعلق بالدِّين لا يجوز للمؤمن المساس بها ، إياكم أن تظنوا أن حكم أى حاكم يحلل حراما أو يحرم حلالا ، لا . فالحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، والقاضى عليه أن يحكم بالبينات الواضحة .

ومثال على ذلك : هب أنك اقترضت من واحد ألفا من الجنيهات ، وأخذ عليك صكا ، ثم جاء المقترض وسدد ما عليه من قرض وقال لمن اقترض منه : « عندما

---

(١) رواه مالك ، وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود عن أم سلمة رضى الله عنها .

تذهب إلى منزلك أرجو أن ترسل لى الصك » ثم سبق قضاء الله ، وقال أهل الميت: « إن الصك عندنا » واحتكموا إلى القضاء ليأخذوا الدَّين.هنا يحكم القضاء بضرورة تسديد الدين مرة أخرى ، لكن حكم الدِّين فى ذلك يختلف ، فالرجل قد سدد الدين ولا يصح أبداً أن يأخذ الورثة الدَّين مرة أخرى إذا علموا أن مورِّثهم حصل على دينه .

ولذلك يقول لنا الحق : « والله عليم حليم » حتى نفرق بين الديانة وبين القضاء . والحق يقول لنا:إنه « حليم » فإياك أن تغتر بأن واحدا حدث منه ذلك ، ولم ينتقم الله منه فى الدنيا ، فعدم انتقام الله منه فى الدنيا لا يدلّ على أنه تَصَرَّفَ حلالا ، لكن هذا حلم من الله وإمهال وإرجاء ولكنَّ هناك عقابا فى الآخرة .

وبعد بيان هذه الأمور يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

الأحكام المتقدمة والأمور السابقة كلها حدود الله ، وحين يحدّ الله حدودا . . أى يمنع أن يلتبس حق بحق ، أو أن يلتبس حق بباطل ؛ فهو الذى يضع الحدود وهو الذى فصل حقوقا عن حقوق .

ونحن عندما نقوم بفصل حقوق عن حقوق فى البيوت والأراضى فنحن نضع حدودا واضحة ، ومعنى « حد » أى فاصل بين حقين بحيث لا يأخذ أحد ما ليس له

من آخر . والحدود التى نصنعها نحن والتى قد لا يتنبه إليها كثير من الناس ، هى نوعان : نوع لا يتعدى بالبناء ، فعندما يريد واحد أن يبنى ، فالأول يبنى على الأرض التى هى حق له ، ويكون الجداران ملتصقين بعضهما ببعض . وعندما يزرع فلاح بجانب فلاح آخر فكل فلاح يزرع فى أرضه وبين القطعتين حد ، وهذا يحدث فى النفع .

لكن لنفترض أن فلاحا يريد أن يزرع أرزا ، وجاره لن يزرع أرزا ، فالذى لن يزرع الأرز قد تأخذ أرضه مياها زائدة ، فالمياه تصلح للأرز وقد تفسد غيره ، ولذلك يكون الحكم هنا أن يقيم زارع الأرز حدا اسمه « حد الجيرة » ليمنع الضرر ، وهو ليس « حد الملكية » فزارع الأرز هنا ينقص من زراعته مسافة مترين ، ويصنع بهما حد الجيرة ، حتى لا تتعدى المياه التى يُروى بها الأرز إلى أرض الجار . إنه حد يمنع الضرر ، وهو يختلف عن الحد الذى يمنع التملك .

إذن فمن ناحية حماية الإنسان لنفسه من أن يوقع الضرر بالآخرين عليه أن ينتبه إلى المقولة الواضحة : « لا تجعل حقك عند آخر حدك ، بل اجعل حقك فى الانتفاع بعيدا عن حدك »، وهذا فى الملكية . وذلك إذا كان انتفاعك بما تملكه كله سيضر بجارك . وكذلك يعاملنا الله ، ويقول فى الأوامر :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

وفى النواهى يقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى أنك إذا ما تلقيت أمرا ، فلا تتعد هذا الأمر ، وهذه هى الملكية ، وإذا ما تلقيت نهيا فلا تقرب الأمر المنهى عنه . مثال ذلك النهى عن الخمر ، فالحق لا يقول : « لا تشرب الخمر » ، وإنما يقول : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » . أى لا تذهب إلى المكان الذى توجد فيه من الأصل ، كن فى جانب وهذه الأشياء فى جانب آخر .

ولذلك قلنا فى قصة أكل آدم من الشجرة : أقال الحق : « لا تأكلا من الشجرة » ؟ أم قال ولا تقربا هذه الشجرة ؟ سبحانه قال :

﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾

(من الآية ١٩ من سورة الأعراف)

وهذا حد اسمه « حد عدم المضارة » إنه أمر بعدم الاقتراب حتى لا يصاب الإنسان بشهوة أو رغبة الأكل من الشجرة . وكذلك مجالس الخمر لأنها قد تغريك . ففى الأوامر يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تعتدوها » وهذا ما يتعلق بالملكية .

وفى النواهى يقول سبحانه : « تلك حدود الله فلا تقربوها » ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول هذا الحديث : « الحلال بيِّن والحرام بيِّن وبينهما أمور مُشْتَبِهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبّهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى المشبّهات وقع فى الحرام ، كراع يرعى حول الحمى يُوشك أن يُواقِعَه ، ألا وإن لكل ملك حِمى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب »[1] .

لذلك تجنب حدود الله . مثال ذلك قول الحق :

﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

إن الحق يأمر المعتكف بالمسجد أنه عندما تأتى له زوجه لتناقشه فى أمر ما فعلى المؤمن أن يمتثل لأمر الله بعدم مباشرة الزوجة فى المسجد . ولا يجعل المسائل قريبة من المباشرة ، لأن ذلك من حدود الله . وسبحانه يقول : « تلك حدود الله فلا تقربوها » .

وهنا فى مسائل الميراث يقول الحق :

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير .

﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة النساء)

وكان يكفى أن يقول الحق ـ من بعد بيان الحدود ـ : «ومن يطع الله » ولكنه قال : « ومن يطع الله ورسوله » وذلك لبيان أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضع حدودا من عنده لما حل ، وأن يضع حدودا لما حرم . وهذا تفويض من الله لرسوله فى أنه يُشرِّع ، لذلك فلا تقل فى كل شيء : « أريد الحكم من القرآن » .

ونرى من يقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . هؤلاء لم يلتفتوا إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم مفوض فى التشريع وهو القائل :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

إنه صلى الله عليه وسلم مفوض من الله ، وهؤلاء الذين ينادون بالاحتكام إلى القرآن فحسب يريدون أن يشككوا فى سنة رسول الله ، إنهم يحتكمون إلى كتاب الله ، وينسون أو يتجاهلون أن فى الكتاب الكريم تفويضا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يشرع .

هم يقولون : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال أحللناه وما وجدنا فيه من حرام حرمناه . وقولهم لمثل هذا الكلام دليل على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقول ، لأنهم لو لم يقولوا لقلنا :

يا رسول الله لقد قلت : روى المقدام بن معدى كرب قال : حرم النبى صلى الله عليه وسلم « أشياء يوم خيبر منها الحمار الأهلى وغيره فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:يوشك أن يقعد الرجل منكم على أريكته يحدث بحديثى فيقول:بينى وبينكم

كتاب الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه وما وجدنا فيه حراما حرمناه وإن ما حرم رسول الله كما حرم الله »[1] .

فكيف يا سيدى يا رسول الله ذلك ، ولم يقل أحد هذا الكلام ؟

إذن فقولهم الأحمق دليل على صدق الرسول فيما أخبر . ويسخرهم الحق ، فينطقون بمثل هذا القول لنستدل من قول خصوم النبى على صدق كلام النبى . .

والحق يقول : « ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات » والذى يطيع الله ورسوله فى الدنيا هو من أخذ التكليف وطبقه ويكون الجزاء هو دخول الجنة فى الآخرة . لكن إدخال الجنة هل هو منهج الدين ، أو هو الجزاء على الدين ؟

إنه الجزاء على الدين ، وموضوع الدين هو السلوك فى الدنيا ، ومن يسير على منهج الله فى الدنيا يدخل الجنة فى الآخرة ، فالآخرة ليست موضوع الدين ، لكن موضوع الدين هو الدنيا ، فعندما تريد أن تعزل الدنيا عن الدين نقول لك : لم تجعل للدين موضوعا ، إياك أن تقول:موضوع الدين هو الآخرة لأن الآخرة هى دار الجزاء ، وفى حياتنا نأخذ هذا المثل : هل الامتحان موضوع المناهج ، أو أن المناهج يقرأها الطالب طوال السنة ، وهى موضوع الامتحان ؟

إن المناهج التى يدرسها الطالب هى موضوع الامتحان ، وكذلك فالدنيا هى موضوع الدِّين ، والآخرة هى جزاء لمن نجح ولمن رسب فى الموضوع ؛ لذلك فإياكم أن تقولوا : دنيا ودين ، فلا يوجد فصل بين الدنيا والدين ؛ لأن الدنيا هى موضوع الدين . فالدنيا تُقابلها الآخرة والدين لهما . الدنيا مزرعة والآخرة محصدة . بهذا نرد على من يقول : إن الدنيا منفصلة عن الدين .

ومَن يطع الله ورسوله يدخله جنة واحدة أو جنتين أو جنات ، وهل دلالة « مَن » للواحد ؟ لا ، إن « من » تدل على الواحد ، وتدل على المثنى وتدل على الجمع ،

---

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن جابر .

مثال ذلك نقول : جاء مَن لقيته أمس ونقول أيضا : جاء من لقيتهما أمس ، وتقول ثالثا : جاء من لقيتهم أمس . . إذن فـ« مَن » صالحة للمفرد والمثنى والجمع .

والحق هنا لا يتكلم عن مفرد هنا أو جمع . كما قلنا فى أول الفاتحة :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾

(سورة الفاتحة)

على الرغم من أن القياس أن تقول : « إياك أعبد وإياك أستعين » . لكن قال الحق سبحانه : « إياك نعبد وإياك نستعين » ليوضح لنا أن المؤمنين كلهم وحدة واحدة فى العبادة .

وهناك من يقول إذا دلت : (مَن) على المفرد فقد لحظنا لفظها ، وإذا دلت على المثنى أو الجمع فقد لحظنا معناها .

ولمن يقول ذلك نقول : إن هذا الكلام غير محقق علميا ؛ لأن لفظ « من » لم يقل أحد إنه للمفرد . بل إنها موضوعة للمفرد والمثنى والجمع . فلا تقل : استعمل لفظ « من » مراعاة للفظ أو مراعاة للمعنى ، لأن لفظ « من » موضوع لمعان ثلاثة هى المفرد والمثنى والجمع .

وقد سألنى أخ كريم فى جلسة من الجلسات : لماذا يقول الحق سبحانه فى سورة الرحمن :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ ﴾

(سورة الرحمن)

فقلت له : إن سورة الرحمن استهلها الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ ﴾

(سورة الرحمن)

وبعد ذلك قال الحق :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال سبحانه :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

وقال تعالى :

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

إذن فمن خاف مقام ربه ، هو من الجن أو من الإنس ، إن كان من الجن فله جنة ، وإن كان من الإنس فله جنة أخرى . إذن فمن خاف مقام ربه فله جنتان .

وهناك من يقول هناك جنتان لكل واحد من الإنس والجن ، لأن الله لا يعانى من أزمة أماكن ، فحين شاء أزلا أن يخلق خلقا أحصاهم عدا من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة ، وعامل الكل على أنه مؤمن مطيع ، وأنشأ لكل واحد مكانه فى الجنة ، وعامل سبحانه الكل على أنه عاصٍ ، وأنشأ له مقعدا فى النار ، وذلك حتى لا يفهم أحد أن المسألة هى أزمة أماكن .

فإذا دخل صاحب الجنة جنته ، بقيت جنة الكافر التى كانت معدة له على فرض أنه مؤمن ، لذلك يقول الحق :

﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الزخرف)

فيرث المؤمنون ما كان قد أعد لغيرهم لو آمنوا .

إذن فالمعانى نجدها صوابا عند أى أسلوب من أساليب القرآن .

وهنا يقول الحق : « يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار » ويجب أن نفهم أن النهر هو الشق الذى يسيل فيه الماء وليس هو الماء ، الحق يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » فأين تجرى الأنهار ؟

أتجرى الأنهار تحت زروعها ، أم تحت بنيانها ؟ ونعرف أن الزروع هى التى تحتاج إلى مياه ، ونحن نريد أن نبعد المياه عن المبانى كيف ؟ ولكن ليس هناك شىء مستحيل على الله ، لأنها تصميمات ربانية .

فالخلق قد تشق نهرا ، ونجد من بعد ذلك النشع يضرب فى المبانى ، لكن تصميمات الحق بطلاقة القدرة ؛ تكون فيه الجنات تجرى من تحتها مياه الأنهار ، ولا يحدث منها نشع ، سواء من تحت أبنية الجنات أو من تحت زروعها والذى يقبل على أسلوب ربه ويسأله أن يفيض عليه ويلهمه ، فهو ـ سبحانه ـ يعطيه ويمنحه فالحق مرة يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » ومرة أخرى يقول : « جنات تجرى تحتها الأنهار » فهذا ممكن وذاك ممكن .

فقوله ـ سبحانه ـ « جنات تجرى تحتها الأنهار » قد يشير إلى أن الأنهار تكون آتية من موقع آخر وتجرى وتمر من تحت الجنات . لا . هى تجرى منها أيضا يقول الله تعالى : « جنات تجرى من تحتها الأنهار » حتى لا يظن أحد أن هناك من يستطيع أن يسد عنك المياه من أعلى . إنها أنهار ذاتية . وعندما نقرأ أن الأنهار تجرى من تحت الجنات بما فيها ومن فيها من قصور فقد يقول قائل : ألا أستطيع أن آخذ من هذه وأنا مهندس أضع تصميمات مبانى الدنيا وآخذ من قول الحق إنه من الممكن أن تقيم مبانى تجرى من تحتها الأنهار ؟ وبالفعل أخذ البشر هذا الأمر اللافت .

نحن نقيم القناطر وهى مبانٍ وتجرى من تحتها الأنهار ، وعندما تكون المواصفات

صحيحة فى الطوب والأسمنت إلى آخر المواصفات فلا نشع يحدث ولا خلخلة فى المبنى . فالخلل الذى يحدث فى المبانى عندنا ، إنما يأتى من أثر الخيانة فى التناول . ومن الممكن أن تجرى الأنهار تحت قصور الجنة . التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ألَا يوحى ذلك للمهندس المسلم أن يحيا فى هذه اللفتة الإلهية ويأخذ منها علما ويستطيع أن يقيم مبانى تجرى من تحتها الأنهار ؟ لو تنبهت إلى ذلك إيمانية مهندس وأخذ يتعلم عن ربه كيفية أداء العمل . لفعل ذلك بتوفيق الله .

ولنتكلم على مصر التى تعانى من أزمة إسكان ، ونجد أن المساحة المائية تأخذ قدرا كبيرا من الأرض ، سواء أكانت النيل ، أم الفروع التى تأخذ من النيل ، وكذلك الترع الصغيرة وكذلك الطرق فلو أن هناك هندسة إيمانية لاستغلت المساحات والمسطحات المعطلة ، نقيم عليها مبانى تسع مرافق الدولة كلها ، ويتم إنجاز المبانى فوق الطرق وفوق المياه وفوق المصارف . وليس معنى ذلك أن نبنى كل الأماكن حتى تصير مسدودة بالمبانى ، ولكن نبنى الثلث ، ونترك فراغا مقدار الثلثين حتى لا نفسد المنظر ، ولا نتعدى على أرض خضراء مزروعة ، إنها إيحاءات إيمانية على المهندس المسلم أن يفكر فيها .

إن بلدا كالقاهرة تحتاج إلى مرافق مختلفة متنوعة ، ونستطيع أن نبنى على الفراغات سواء أكانت فراغات فى مساحات النيل شرط مراعاة الفراغات والزروع اللازمة لجمال البيئة وتنقيتها من التلوث . أم نبنى المرافق تحت الأرض ، ولن تكون هناك أزمات للإسكان أو المرافق ، هذا بالإضافة إلى الانتفاع بالصحراء فى هذا المجال .

والحق يقول : « جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » صحيح أن الجنة ستكون نعيما ليس على قدر تصورك ولكن على قدر كمال وجمال قدرة الحق ، فالنعيم الذى يتنعم فيه الإنسان يكون على قدر التصور فى معطيات النعيم ، وقلنا قديما : إن عمدة إحدى القرى قال : أريد أن أبنى مضيفة وحجرة للتليفون ، ومصطبة نفرشها . هذا هو النعيم فى تصور العمدة . ونحن فى الحياة نخاف أن نترك النعيم بالموت أو يتركنا النعيم . لكن كيف يكون النعيم عند صانع كل التصورات وهو

الحق سبحانه وتعالى ؟ لذلك تكون جنات النعيم دائمة ، فلا أنت تموت ولا هى تذهب .

والخلود هنا له معنى واضح إنه بقاء لا فناء بعده « وذلك الفوز العظيم » وما هو « الفوز » ؟

إنه النصر ، إنه الغلبة ، إنه النجاح ، إنه الظفر بالمطلوب .

فإذا كان فوزنا فى الدنيا يعطينا جائزة نفرح بها ، فالفرح قد يستمر مدة الدنيا التى يملكها الواحد منا ، فما بالنا بالفوز الذى يأتى فى الآخرة وهو فوز الخلود فى جنة من صنع ربنا ، أليس ذلك فوزا عظيما ؟

إننا إذا كنا نفرح فى الدنيا بالفوز فى أمور جزئية فما بالنا بالفوز الذى يمنحه الحق ويليق بعظمته سبحانه وتعالى ، ولو قسنا فوز الدنيا بفوز الآخرة لوجدنا فوز الآخرة له مطلق العظمة ، ومهما ضحى المؤمن فى سبيل الآخرة ، فهناك فوز يعوض كل التضحيات ، ويسمو على كل هذا .

وإذا قال قائل : ألم يكن من الأفضل أن يقول : ذلك الفوز الأعظم نقول له : إنك سطحى الفهم لأنه لو قال ذلك لكان فوز الدنيا عظيما ، لأن الأعظم يقابله العظيم ، والعظيم يقابله الحقير فحين يقول الحق عن فوز الآخرة : إنه عظيم ، فمعنى ذلك أن فوز الدنيا حقير ، والتعبير عن فوز الآخرة هو تعبير من الحق سبحانه .

وبعد ذلك يأتى الحق بالمقابل : فيقول :

﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾

وسبحانه قال من قبل : « تلك حدود الله » . والحدود إما أن تبين الأوامر وحدها وإما أن تبين النواهى وحدها . فهى شاملة أن يطيعها الطائع أو يعصيها العاصى .

فإن كنت تطيع فلك جزاء الطاعة وتأخذ الجنات والخلود والفوز العظيم . لكن ماذا عمن يعصى ؟ إن له المقابل ، وهذا هو موقفه وجزاؤه أنّ له العذاب . « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين » .

هنا نجد « نارا » واحدة ، وهناك نجد « جنات » . هذا ملحظ أول ، وإذا كنا منتبهين ونقبل على كتاب الله ، ونعرف أن المتكلم هو الله ، فإننا نجد الملحظ الثانى وهو خلود للمؤمنين فى الجنات ، أما الكافر فسيدخل النار . ولم يقل الحق:نيراناً ، ولم يقل الحق أيضاً:« خالدين » لماذا ؟ لأن المؤمنين سيكونون فى الجنة على سرر متقابلين ، ويتزاورون ، وكل واحد يستمتع بكل الجنان ، وأيضاً إن المرء إذا كان له من عمله الصالح الكثير وقصر أولاده الذين اشتركوا معه فى الإيمان ، فإن الحق ـ سبحانه ـ يلحق به ذريته ويكون هو وذريته فى النعيم والجنان كرامة له . فتكون الجنات مع بعضها وهذا أدعى للإنس .

ولكن الموقف يختلف مع الكافر ، فلن يلحق الله به أحداً وكل واحد سيأخذ ناره ، وحتى لا يأنسوا مع بعضهم وهم فى النار ، فالأنس لن يطولوه أيضاً ، فكل واحد فى ناره تماماً مثل الحبس المنفرد فى زنزانة . ولن يأنس واحد منهم بمعذب آخر . إذن فهناك « جنات » و« نار » و« خالدين » و« خالداً » ، وكل استخدام للكلمة له معنى . والطائع له جنات يأتنس فيها بذريته وإخوته أهل الإيمان ويكونون خالدين جميعاً فى الجنات ،أما العاصى فهو فى النار وحده خالداً « وله عذاب مهين » .

إن العذاب يكون مرة أليماً ، ومثال ذلك أن يؤلم واحد عدوه فيتجلد عدوه حتى لا يرى شماتة الذى يعذبه . ويقول الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهمو
أنى لِرَيْبِ الدهر لا أتضعضع

فيكتم الألم عن خصمه ، لكن هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فهناك إهانة فى النفس ، فعذاب الله يجمع الألم والإهانة ، إياك أن تفهم أن هناك من يقدر على أن يتجلد كما يتجلد البشر عند وقوع العذاب فى الدنيا ـ إن عذاب الآخرة مهين ومذل للنفس فى آن واحد .

وهكذا نجد أن المرحلة الأولى من سورة النساء عالجت وحدة الإنسان أباً ، ووحدته أماً ، وعالجت كيف بث الله منهما رجالاً كثيراً ونساء . وعالجت السورة أيضاً ما يطرأ مما يجرى به قدر الله فى بعض خلقه بأن يتركوا أيتاماً ضعافاً ، وأنّه سبحانه أراد استبقاء الحياة الكريمة للنفس الإنسانية ؛ لذلك طلب أن نصنع الخير والمودة مع اليتامى ، ووضع أسلوب التعامل الإيمانى معهم ، وأن نكون أوصياء قائمين بالعدالة والإرادة الحسنة العفيفة لأموالهم ، إلى أن يبلغوا سن الرشد فيتسلموها .

وأيضا عالجت السورة أمراً آخر وهو استبقاء الحياة الكريمة للنساء والأطفال ضمن النسيج الاجتماعى . ذلك أن العرب كانوا يمنعون النساء من الميراث ، ويمنعون ـ كذلك ـ من الميراث من لم يطعن برمح ولم يضرب بخنجر أو سيف ولم يشترك فى رد عدوان . فأراد الله سبحانه لهذه الفئة الذليلة المضطهدة أن تأخذ حقها ليعيش العنصران فى كرامة ويستبقيا الحياة فى عزة وهمة وفى قوة ، فشرع الحقُّ نصيباً محدداً للنساء يختلف عن نصيب الرجال مما قل أو كثر ، وبعد ذلك استطرد ليتكلم عن الحقوق فى المواريث . وأوضح سبحانه الحدود التى شرعها لهذا الأمر ، فمن كان يريد جنات الله فليطع الله ورسوله فيما حدّ من حدود . ومن استغنى عن هذه الجنات فليعص الله ليكون خالدا فى النار .

إذن فالحياة الإنسانية هبة من الله لعباده ، ومن كرمه سبحانه أن أوجد لها ـ قبل أن يوجدها ـ ما يقيم أود الحياة الكريمة لذلك الإنسان المكرم ، فوفد الإنسان على الخير ، ولم يفد الخير على الإنسان ، أى أنّ الحق سبحانه لم يخلق الإنسان أولاً ثم صنع له من بعد ذلك الشمس والقمر والأرض والعناصر . لا ، لقد خلق الله هذه العناصر التى تخدم الإنسان أولاً وأعدها لاستقبال الطارق الجديد ـ الإنسان ـ الذى اختاره سبحانه ليكون خليفة فى الأرض . فالخير فى الأرض الذى نستبقى به الحياة سبق وجود

الإنسان ، وهذه عناية من الحق الرحمن بمخلوقه المكرم وهو الإنسان . وجعل الله للإنسان وسيلة للتكاثر وربطها بعملية الإمتاع ، وهذه الوسيلة فى التكاثر تختلف عن وسائل التكاثر فى الزروع والحيوانات ، فوسيلة التكاثر فى كل الكائنات هى لحفظ النوع فقط .

وأراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يكون الإمتاع مصاحباً لوسيلة التكاثر الإنسانى ، ذلك أن المشقَّات التى يتطلبها النسل كثيرة ، فلابد أن يجعل الله فى عملية التكاثر متعة تغرى الإنسان .

وأراد الحق سبحانه بذلك أن يأتى بالضعاف ليجعل منهم حياة قوية .

ويوصينا الحق باليتيم من البشر ، وقد يقول قائل :

مادام الحق سبحانه وتعالى يوصينا حتى ننشىء من اليتيم إنساناً قوياً وأن نحسن إلى اليتيم ، فلماذا أراد الله أن يموت والد اليتيم؟ . نقول : جعل الحق هذا الأمر حتى لا تكون حياة الإنسان ضربة لازب على الله ، إنه يخلق الإنسان بعمر محدد معروف له سبحانه ومجهول للإنسان ، فالإنسان قد يموت جنيناً أو طفلاً أو صبياً أو رجلاً أو هرماً ، بل نحن نجد فى الحياة إنساناً هرماً مازال يحيا بيننا ويموت حفيده ، لماذا ؟ .

لأن الله أراد أن يستر قضية الموت عن الناس ، فلا معرفة للإنسان بالعمر الذى سوف يحياه ولا بزمان الموت ، ولا مكان الموت ، حتى يكون الإنسان منا دائماً على استعداد أن يموت فى أى لحظة . ومادام الإنسان يعيش مستعدا لأن يموت فى أى لحظة ، فعليه أن يستحى أن يلقى الله على معصية . وأيضا لنعلم أن المنهج الإيمانى ؛ منهج يجعل المؤمنين جميعا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا ، فإذا مات رجل وترك طفلاً يتيماً ، ووجد هذا اليتيم آباء من المجتمع الإيمانى ، فإن المنهج الإيمانى يستقر فى قلب اليتيم اطمئناناً ويقيناً . ومن حكمة الموت ألا يفتن أحد فى أبيه أو فى الأسباب الممنوحة من الله للآباء ، بل نكون جميعا موصولين بالله .

ومادام الحق سبحانه قد وضع لنا الأسباب لاستبقاء الحياة ، ووضع لنا أسلوب

السعى فى الأرض لتستبقى الحياة بالحركة فيها ، فقد وضع أيضا الوسيلة الكريمة لاستبقاء النوع وجعل من حركة الأصل ما يعود على الفرع ، فلم يُغر الله الإنسان وحده بالحركة لنفسه ، ولكن أغراه أن يتحرك فى الحياة حركة تسعه وتسع من يعول ، ويوضح الحق للإنسان : أن حركتك فى الأرض ستنفع أولادك أيضاً .

ولذلك أوجد الله سبحانه فى نفس كل والد غريزة الحنان والحب . ونحن نرى هذه الغريزة كآية من آيات الله متمكنة فى نفوس الآباء . ولهذا يسعى الأب فى الحياة ليستفيد هو وأولاده . والذى يتحرك حركة واسعة فى الحياة قد يأتى عليه زمان يكفيه عائد حركته بقية عمره ؛ لأنه تحرك بهمة وإخلاص ؛ وأفاء الله عليه الرزق الوفير ، وقد يتحرك رجل لمدة عشرين عاماً أو يزيد ويضمن لنفسه ولأولاده من بعده الثروة الوفيرة ، وهناك من يكد ويتعب فى الحياة ويكسب رزقاً يكفيه ويكفى الأبناء والأحفاد .

وهكذا نجد الذين يتحركون لا يستفيدون وحدهم ، فقط ولكن المجتمع يستفيد أيضاً . وتشاء حكمة الله العالية بأن يفتت الثروة بقوانين الميراث لتنتشر الثروة وتتوزع بين الأبناء فتشيع فى المجتمع ، وهذا اسمه التفتيت الانسيابى . كأن نجد واحدا يملك مائة فدان وله عدد من الأبناء والبنات . وبعد وفاة الرجل يرث الأبناء والبنات كل تركته ، وهكذا تتفتت الثروة بين الأبناء تفتيتاً انسيابياً وليس بالتوزيع القهرى الذى يُنشىء الحقد والعداوة ، ويريد الحق أن نحترم حركة المتحرك ، وأن تعود له حركة حياته ولمن يعول فقال سبحانه :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

هو سبحانه لا يقول لأى واحد : هات المال الذى وهبته لك . وقلت سابقا : إنه سبحانه وتعالى يحنن عبداً على عبد فيقول :

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الحديد)

إن الله سبحانه يحترم حركة العبد ، ويحترم ما ملك العبد بعرقه ، ويوصى الحق العبد الغنى : إن أخاك العبد الفقير فى حاجة ، فأقرضنى ـ أنا الله ـ بإعطائك الصدقة أو الزكاة لأخيك الفقير . ولم يقل للعبد الغنى : أقرض أخاك ، ولكنه قال أقرضنى . لماذا ؟ لأنه سبحانه هو الذى استدعى الخلق إلى الوجود ، وهو المتكفل برزقهم جميعاً . . المؤمن منهم والكافر . ولذلك ضمن الرزق للجميع وأمر الأسباب بأن تستجيب حتى للكافر ، لأنه سبحانه هو الذى استدعاه للوجود .

وسبحانه وضع هذا التوريث ، ليصنع التفتيت الإنسيابى للملكية حتى لا يأتى التفتيت القسرى الذى يجعل بعضاً من الأبناء وقد نشأوا فى نعمة وأخذوا من مسائل الحياة ما يريدون ، وعندما يأتى عليهم هذا التفتيت القسرى ، يصبحون من المساكين الذين فاجأتهم الأحداث القسرية بالحرمان ، فهم لم يستعدوا لهذا الفقر المفاجىء . لكن عندما يأتى التفتيت الانسيابى فكل واحد يعد نفسه لما يستقبله ، وبذاتية راضية وبقدرة على الحركة ، ولذلك قال الحق :

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة محمد)

إنه سبحانه لا يقول : أنا الذى ملكتك هذا المال ، ولا أنا الذى رزقتك هذا الرزق ، مع أنه ـ سبحانه ـ هو الذى ملكك ورزقك هذا المال حقا ولكنه يوضح لك حقك فى الحركة ، فيقول بعد ذلك :

﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة محمد)

ولو ألح عليك فأنت تبخل بها لأنك جنيتها بتعب وعرق . ولكن ما الفرق بين إنسان لم يسرف على نفسه ، بل عاش معتدلا ، ثم أبقى شيئا لأولاده ؛ والذى جاء بدخله كله وبدده فيما حرمه الله وأسرف على نفسه فى المخدرات وغيرها ، ما الفرق بين هذا وذاك ؟ .

الفرق هو احترام الحق سبحانه لأثر حركة الإنسان فى الحياة ، لذلك يوضح : أنا لا أسألكم أموالكم ، لأنى إن سألتكم أموالكم فقد تبخلون ، لأن مالكم عائد من أعمالكم .

ويقول الحق : « ويخرج أضغانكم » وإذا ظهر وخرج الضغن فى المجتمع فالويل للمجتمع كله ؛ ولذلك نجد أن كل حركة من هذه الحركات القسرية ينشأ منها بروز الضغن فى المجتمع كله ، وساعة يبرز الضغن فى المجتمع ، انتهى كل شىء جميل . ولذلك وضع الحق أسس ووسائل استبقاء الحياة الكريمة .

وضع أسسا للضعيف بما يحميه ، وكذلك للنساء اللاتى كن محرومات من الميراث قبل الإسلام ، وجعل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لتوريث الأطفال والأبناء والنساء حدوداً « تلك حدود الله » وإياكم أن تتعدوا هذه الحدود ؛ لأن الإنسان إذا ما تعدى هذه الحدود ، فلا بد أن يكون من أهل النار ـ والعياذ بالله ـ فقد وضع الله تلك القواعد لاستبقاء حياتك وحياة من تعول .

وهناك لون آخر من الاستبقاء ، هو استبقاء النوع ، لأن للإنسان عمرًا محدودًا فى الحياة وسينتهى ؛ لذلك يجب أن يستبقى الإنسان النوع فى غيره ، كيف ؟ نحن نتزوج كى يرزقنا الله بالذرية والبنين والحفدة وتستمر حلقات ، وهذا استبقاء للنوع الإنسانى

والحق يريد أن يكون الاستبقاء للنوع كريماً ؛ لذلك يأمرنا الحق ـ سبحانه ـ أن نستبقى النوع بأن نختار له الوعاء الطاهر ، فإياك أن تستبقى نوعا من وعاءٍ خبيثٍ نجس ، اختلطت فيه مياه أناس متعددين ، فلا يدرى أحد لمن ينسب الولد فيصير مضيعاً فى الكون ، مجهول النسب فأوضح الله للإنسان أن يختار لنفسه الوعاء النظيف ليستبقى النوع بكرامة .

والحصول على الأوعية النظيفة يكون بالزواج . فيختار الرجل أنثى عفيفة ذات دين وترضى به زوجاً أمام أعين الناس جميعاً ، ويصير معروفا للجميع أن هذه امرأة هذا ، وهذا زوجها ، دخوله وخروجه غير ممقوت أو موقوت . وما ينشأ من الذرية

بعد ذلك يكون قطعا منسوبا إليه . ويخجل الإنسان أن يكون ابنه مهينا أو عاريا أو جائعا أو غير معترف به ؛ لذلك يحاول الأب أن يجعل من ابنه إنسانا مستوفيا لكل حقوقه مرفوع الرأس غير مهين ، لا يقدحه واحد فَيَسُبُّهُ وينال منه قائلا : جئت من أين ؟ أو من أبوك ؟ فلا يعيش الطفل كسير الجناح ذليلا طوال عمره . فأراد سبحانه استبقاء النوع برابطة تكون على عين الجميع ، وأن تكون هذه الرابطة على الطريق الشرعى .

ومن العجيب أننا نجد هذه المسألة ذات آثار واضحة فى الكون ، فالتى تحاول أن تزيل أثر جريمتها يجبرها الحنان الطبيعى كأم ألا تلقى ابنها الوليد فى البحر بل أمام مسجد ؛ فالطفل مربوط بحنان أمه ولكن الحنان غير شرعى ولذلك ترمى الأم الزانية بطفلها أمام المسجد حتى يلتقطه واحد من الناس الطيبين ، فالزانية نفسها تعرف أنه لا يدخل المسجد إلا إنسان طيب قد يحن على الوليد ويأخذ هذا الطفل ويصير مأمونا عليه .

وهى لا تلقى بوليدها عند خمارة أو دار سينما ، ولكن دائما تضعه عند أبواب المساجد ، فالحنان يدفعها إلى وضع الطفل غير الشرعى فى مثل هذا المكان ؛ لأنها تخاف عليه ، لذلك تلفه وتضعه فى أحلى الملابس ، وإن كانت غنية فإنها تضع معه بعضا من المال ؛ لأن الحنان يدفعها إلى ذلك ، والحياء من الذنب هو الذى يجعلها تتخلص من هذا الطفل .

إنها - كما قلنا - تحتاط بأن تضعه فى مكان يدخله أناس طيبون فيعثر عليه رجل طيب ، يأخذه ويكون مأمونا عليه . إذن فحتى الفاسق المنحرف عن دين الله يحتمى فى دين الله ، وهذا شىء عجيب .

والله يريد أن يبنى بقاء النوع على النظافة والطهر والعفاف ولا يريد لجراثيم المفاسد أن توجد فى البيوت ، لذلك يشرع العلاقة بين الرجل والمرأة لتكون زواجا أمام أعين الناس . ويأخذ الرجل المرأة بكلمة الله .

وأضرب هذا المثل : نحن نجد الرجل الذى يحيا فى بيت مطل على الشارع وله

ابنة وسيمة والشباب يدورون حولها ، ولو عرف الرجل أن شابا يجيء ويتعمد لينظر إلى ابنته فماذا يكون موقف الرجل من الشاب ؟ إن الرجل قد يسلط عليه من يضربه أو يبلغ ضده الشرطة ويغلى الرجل بالغيظ والغَيْرة .

وما موقف الرجل نفسه عندما تدق الباب أسرة شاب طيب يطلبون الزواج من ابنته ؟ يفرح الرجل ويسأل الابنة عن رأيها ، ويبارك للأم ويأتى بالمشروبات ويوجه الدعوات لحفل عقد القران ، فما الفرق بين الموقفين ؟

لماذا يغضب الأب من الشاب الذى يتلصص ؟ لأن هذا الشاب يريد أن يأخذ البنت بغير حق الله ، أما الشاب الذى جاء ليأخذ الابنة زوجة بحق الله وبكلمة الله فالأب يفرح به وينزل الأمر عليه بردا وسلاما . وبعد ذلك يتسامى الأمر ، ويتم الزفاف ويزور الأب ابنته صباح الزفاف ويرغب أن يرى السعادة على وجهها .

إن الفارق بين الموقفين هو ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم : « الصلاة الصلاة ، وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله فى النساء فإنهن عَوانٍ فى أيديكم[١] أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[٢] .

ومادام الله هو الذى خلق الرجل والمرأة وشرع أن يجتمعا وتكون كلمة الشاب : « أريد أن أتزوج ابنتك » بردا وسلاما على قلب الأب ، ويكون الفرح والاحتفال الكبير ؛ لأن هذه مسألة عفاف وطهر . والله يريد أن يجعل استبقاء النوع الإنسانى استبقاءً نظيفا لا يُخجل أن تجيء منه ولادة ، ولا يخجل منه المولود نفسه ، ولا يُذَم فى المجتمع أبدا ، إذا استبقينا النوع بهذا الشكل ؛ فهذا هو الاستبقاء الجميل للنوع . واستبقاء النوع هو الذى تأتى من أجله العملية الجنسية وأراد الله أن يشرعها حلالا على علم الناس ويعرفها الجميع .

وقد سألنى سائل وأنا فى الجزائر : لماذا تقوم العلاقة بين الرجل والمرأة على كلمات

---

(١) عوانٍ : أسيرات جمع عانية .

(٢) رواه النسائى وابن ماجه .

نحو : « زوجتك موكلتى ، أو تقول هى : زوجتك نفسى » ويقبل الرجل ، وتنكسر العلاقة بكلمة « أنت طالق » ؟ وأجبته : لماذا يستبيح الرجل لنفسه أن يمتلك بضع الزوجة بكلمتين ؟ ويستكثر أن تخرج من عصمته بكلمتين ؟ فكما جاءت بكلمة تذهب بكلمة .

إن الحق سبحانه وتعالى كما استبقى الحياة بالعناصر التى تقدمت ، يريد أن يستبقى النوع بالعناصر التى تأتى ، وأوضح لنا أن كل كائن يتكاثر لابد له من إخصاب ، والإخصاب يعنى أن يأتى الحيوان المنوى من الذكر لبويضة الأنثى كى ينشأ التكاثر ، والتكاثر فى غير الإنسان يتم بعملية قسرية .

ففى الحيوانات نرى الأنثى وهى تجأر بالصوت العالى عندما تنزل البويضة فى رحمها كالبقرة مثلا ، حتى يقول الناس جميعا:إن البقرة تطلب الإخصاب ، وعندما يذهب بها صاحبها إلى الفحل ليخصبها تهدأ ، ولا تمكن فحلا آخر منها من بعد ذلك ، وهكذا يتم حفظ النوع فى الحيوانات .

أما فى النباتات ؛ فالأنثى يتم تلقيحها ولو على بعد أميال . ونحن نعرف بعضا من ذكور النبات وإناثها مثل ذكر النخل والجميز ، لكننا لا نعرف التفريق بين ذكورة وأنوثة بعض النباتات ، وقد يعرفها المتخصصون فقط ، وبعض النباتات تكون الذكورة والأنوثة فى عود واحد كالذرة مثلا ؛ فالأنوثة توجد فى « الشراشيب » التى توجد فى « كوز » الذرة ، وعناصر الذكورة توجد فى السنبلة التى يحركها الهواء كى تنزل لتخصب الأنوثة . وكذلك القمح . وهناك أنواع من النباتات لا نعرف ذكورتها ! بالله أيوجد أحدٌ عنده ذكر مانجو أو ذكر برتقال ؟

إذن هناك أشياء كثيرة لا نعرفها ، لكن لا بد من أن تتلاقح إخصابا لينشأ التكاثر ، فيوضح ربنا : اطمئنوا أنا جعلت الرياح حاملة لوسائل اللقاح ، يأخذ الريح اللواقح إلى النباتات ، والنبات الذى يكون تحت مستوى الريح يسخر الله له أنواعا من الحشرات غذاؤها فى مكانٍ مخصوصٍ من النبات وله لون يجذبها ، حشرة يجذبها اللون الأحمر ، وحشرة يجذبها اللون الأبيض ؛ لأن الحشرة تذهب للذكورة فيعلق بها حيوان الذكورة ، فتذهب إلى الأنثى المتبرجة بالزينة ، وهذه العملية تحدث

ولا ندرى عنها شيئا .

من الذى يلقح ؟ من الذى يعلمها ؟ إنه الله القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، فاستبقى لنا الأنواع غريزيا وقسريا ، بدون أن نعرف عن الكثير منها شيئا ، حتى المطر لا يمكن أن ينزل إلا إذا حدثت عملية تلقيح . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن الحق قد استبقى لك أيها الإنسان أنواع مقومات حياتك بما لا تدريه ، وجعل هذه المسائل قسرية بحيث يؤدى كل كائن وظيفته وتنتهى المسألة ، لكن حين كان لك اختيار ، وتوجد مشقات كثيرة فى الإنجاب وحفظ النوع ، فقد قرن ـ سبحانه ـ حفظ النوع بالمتعة ، وإياك أن تعزل حفظ النوع عن المتعة ، فإن أخذت المتعة وحدها فقد أخذت الفرع وتركت الأصل ، فلا بد أن تفعلها لحفظ النوع المحسوب عليك .

إذن فإياك أن تلقى حيوانك المنوى إلا فى وعاء نظيف ، محسوب لك وحدك كى لا تنشأ أمراض خبيثة تفتك بك وبغيرك ، ولكيلا ينشأ جيل مطموس النسب ، ولكيلا يكون مهينا ولا مدنسا فى حياته ؛ فإياكم أن تأخذوا قضية حفظ النوع منفصلة عن المتعة فيها .

ولذلك ـ فسبحانه ـ سيتكلم عن المرأة عندما تتصل بامرأة بالسحاق ، أو الرجل يكتفى بالرجل باللواط للمتعة ، أو رجل ينتفع بامرأة على غير ما شرع الله . فعندما تنتفع امرأة مع امرأة ، وينتفع الرجل بالرجل للاستمتاع ، نقول لها : أنت أيتها المرأة أخذتِ المتعة وتركتِ حفظ النوع ، وأنت يا رجل أخذت المتعة وتركت حفظ النوع ، والحق يريد لك أن تأخذ المتعة وحفظ النوع معا . فيوضح سبحانه أنه لا بد أن تكون المتعة فى ضوء منهج الله .

واسمعوا قول الله :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ ﴾

و« اللاتى » اسم موصول لجماعة الإناث ، وأنا أرى أن ذلك خاص باكتفاء المرأة بالمرأة . وماذا يقصد بقوله : « فاستشهدوا عليهن أربعة » ؟ إنه سبحانه يقصد به حماية الأعراض ، فلا يلغ كل واحد فى عرض الآخر ، بل لا بد أن يضع لها الحق احتياطا قويا ، لأن الأعراض ستجرح ، ولماذا « أربعة » فى الشهادة ؟ لأنهما اثنتان تستمتعان ببعضهما ، ومطلوب أن يشهد على كل واحدة اثنان فيكونوا أربعة ، وإذا حدث هذا ورأينا وعرفنا وتأكدنا ، ماذا نفعل ؟

قال سبحانه : « فأمسكوهن فى البيوت » أى احجزوهن واحبسوهن عن الحركة ، ولا تجعلوا لهن وسيلة التقاء إلى أن يتوفاهن الموت « أو يجعل الله لهن سبيلا » وقد جعل الله .

والذين يقولون : إن هذه المسألة خاصة بعملية بين رجل وامرأة ، نقول له : إن كلمة « واللاتى » هذه اسم موصول لجماعة الإناث ، أما إذا كان هذا بين ذكر وذكر . ففى هذه الحالة يقول الحق :

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة النساء)

الآية هنا تختص بلقاء رجل مع رجل ، ولذلك تكون المسألة الأولى تخص المرأة مع المرأة ، ولماذا يكون العقاب فى مسألة لقاء المرأة بالمرأة طلبا للمتعة هو الإمساك فى البيوت حتى يتوفاهن الموت ؟ لأن هذا شر ووباء يجب أن يحاصر ، فهذا الشر معناه الإفساد التام ، لأن المرأة ليست محجوبة عن المرأة ؛ فلأن تحبس المرأة حتى تموت خير من أن تتعود على الفاحشة . ونحن لا نعرف ما الذى سوف يحدث من أضرار ، والعلم مازال قاصرا ، فالذى خلق هو الذى شرع أن يلتقى الرجل بالمرأة فى إطار الزواج وما يجب فيه من المهر والشهود ، وسبحانه أعد المرأة للاستقبال ، وأعد الرجل للإرسال ، وهذا أمر طبيعى ، فإذا دخل إرسال على استقبال ليس له ، فالتشويش يحدث .

وإن لم يكن اللقاء على الطريقة الشرعية التى قررها من خلقنا فلا بد أن يحدث أمر خاطىء ومضر ، ونحن عندما نصل سلكا كهربائيا بسلك آخر من النوع نفسه . . أى سالب مع سالب أو موجب مع موجب تشب الحرائق ، ونقول : « حدث ماس كهربائى » ، أى أن التوصيلة الكهربائية كانت خاطئة . فإذا كانت التوصيلة الكهربائية الخاطئة فى قليل من الأسلاك قد حدث ما حدث منها من الأضرار ، أفلا تكون التوصيلة الخاطئة فى العلاقات الجنسية مضرة فى البشر ؟

إننى أقول هذا الكلام ليُسَجَّل ، لأن العلم سيكشف ـ إن متأخرا أو متقدما ـ أن لله سرا ، وحين يتخصص رجل بامرأة بمنهج الله « زوجنى . . وتقول له زوجتك » فإن الحق يجعل اللقاء طبيعيا . أما إن حدث اختلاف فى الإرسال والاستقبال فلسوف يحدث ماس صاعق ضار ، وهذه هى الحرائق فى المجتمع .

أكرر هذا الكلام ليسجل وليقال فى الأجيال القادمة : إن الذين من قبلنا قد اهتدوا إلى نفحة من نفحات الله ، ولم يركنوا إلى الكسل ، بل هداهم الإيمان إلى أن يكونوا موصولين بالله ، ففطنوا إلى نفحات الله . والحق هو القائل :

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة فصلت)

فإذا كنا قد اهتدينا إلى معرفة أن اتصال سلك صحيح بسلك صحيح فالكهرباء تعطى نورا جميلا . أما إذا حدث خطأ فى الاتصال ، فالماس يحدث وتنتج منه حرائق ، كذلك فى العلاقة البشرية ، لأن المسألة ذكورة وأنوثة .

والحق سبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

فإذا كان النور الجميل يحدث من الاتصال الصحيح بين الموجب والسالب فى غير الإنسان ، وتحدث الحرائق إن كان الاتصال خاطئا ، فما بالنا بالإنسان ؟

وفى بعض رحلاتنا فى الخارج ، سألنا بعض الناس :

ـ لماذا عَدَّدتم للرجل نساءً ، ولم تعددوا رجالا للمرأة ؟

هم يريدون أن يثيروا حفيظة المرأة وسخطها على دين الله ؛ حتى تقول المرأة الساذجة ـ متمردة على دينها ـ : « ليس فى هذا الدين عدالة » ، لذلك سألت من سألونى : أعندكم أماكن يستريح فيها الشباب المتحلل جنسيا ؟

فكان الجواب : نعم فى بعض الولايات هناك مثل هذه الأماكن .

قلت : بماذا احتطتم لصحة الناس ؟

قالوا : بالكشف الطبى الدورى المفاجىء .

قلت : لماذا ؟

قالوا : حتى نعزل المصابة بأى مرض .

قلت : أيحدث ذلك مع كل رجل وامرأة متزوجين ؟

قالوا : لا .

قلت : لماذا ؟؟ فسكتوا ولم يجيبوا ، فقلت : لأن الواقع أن الحياة الزوجية للمرأة مع رجل واحد تكون المرأة وعاء للرجل وحده لا ينشأ منها أمراض ، ولكن المرض ينشأ حين يتعدد ماء الرجال فى المكان الواحد .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يستبقى النوع بقاء نظيفاء لذلك قال :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ۝١٥ ﴾

(سورة النساء)

والمقصود بـ « نسائكم » هنا المسلمات ، لأننا لا نشرع لغيرنا ، لأنهم غير مؤمنين بالله . وطلب الشهادة يكون من أربعة من المسلمين ، لأن المسلم يعرف قيمة العرض والعدالة . وإن شهدوا فليحدث حكم الله بالحبس فى البيوت .

وقد عرفنا ذلك فيما يسمى فى العصر الحديث بالحجر الصحى الذى نضع فيه أصحاب المرض المعدى . وهناك فرق بين من أُصِبْن بـ « مرض معدٍ » ومن أصبن بـ « العطب والفضيحة » .

فإذا كنا نعزل أصحاب المرض المعدى فكيف لا نعزل اللاتى أصبن بالعطب والفضيحة ؛ لذلك يقول الحق : « فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا » أى أن تظل كل منهما فى العزل إلى أن يأتى لكل منهن ملك الموت . وحدثتنا كتب التشريع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حمل الآية على أنها تختص بزنا يقع بين رجل وامرأة وليس بين امرأتين .

عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « خذوا عنى خذوا عنى : البكر بالبكر جلد مائة ونفى سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم »[1] .

ثم جاء التشريع بعد ذلك فصفى قضية الحدود إلى أن البكر بالبكر جلد . . والثيب بالثيب رجم . وبعض من الناس يقول : إن الرجم لم يرد بالقرآن .

---

(١) رواه مسلم عن عبادة بن الصامت .

نرد فنقول : ومن قال:إن التشريع جاء فقط بالقرآن ؟ لقد جاء القرآن معجزة ومنهجا للأصول ، وكما قلنا من قبل : إن الحق قال :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾

(من الآية ٧ سورة الحشر)

وبعد ذلك نتناول المسألة : حين يوجد نص ملزم بحكم ، قد نفهم الحكم من النص وقد لا نفهمه ، فإذا فهمنا فله تطبيق عملى فى السيرة النبوية .

فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بالنص فقط ولكن جاء بالعمل نفسه ، فالأسوة تكون بالفعل فى إقامة الحد ؛ لأن الفعل أقوى من النص ، فالنص قد يوجد ولا يطبق لسبب كالنَّسْخ للحكم مثلا ، أما الفعل فإنه تطبيق ، وقد رجم الرسول ماعزا والغامدية ورجم اليهودى واليهودية عندما جاءوا يطلبون تعديل حكم الرجم الوارد بالتوراة . إذن فالفعل من الرسول أقوى من النص وخصوصا أن الرسول مشرع أيضا .

وقال واحد مرة : إن الرجم لمن تزوج ، فماذا نفعل برجل متزوج قد زنا بفتاة بكر ؟

والحكم هنا : يُرجم الرجل وتجلد الفتاة ، فإن اتفقا فى الحالة ، فهما يأخذان حكما واحدا . وإن اختلفا فكل واحد منهما يأخذ الحكم الذى يناسبه .

وحينما تكلم الحق عن الحد فى الإماء ـ المملوكات ـ قال :

﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾

(سورة النساء)

ويفهم من ذلك الجلد فقط ، لأن الرجم لا يمكن أن نقوم بتقسيمه إلى نصفين ، فالأمة تأخذ فى الحد نصف الحرة ، لأن الحرة البكر فى الزنا تجلد مائة جلدة ، والأمة تجلد خمسين جلدة .

ومادام للأمَة نصف حد المحصنة ، فلا يأتى ـ إذن ـ حد إلا فيها ينصَّف ، والرجم لا ينصًّف ، والدليل أصبح نهائيا من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مشرع وليس مستنبطا ، وقد رجم رسول الله . ولماذا تأخذ الأمَةُ نصف عقاب الحرة ؟ لأن الإماء مهدورات الكرامة ، أما الحرائر فلا . ولذلك فهند امرأة أبى سفيان قالت : أَوَ تزنى الحرة ؟ قالت ذلك وهى فى عنف جاهليتها . أى أن الزنا ليس من شيمة الحرائر ، أما الأمَةُ فمهدورة الكرامة نظرا لأنه مُجترأ عليها وليست عرض أحد .

لذلك فعليها نصف عقاب المحصنات ، وقد تساءل بعضهم عن وضع الأمة المتزوجة التى زنت ، والرجم ليس له نصف .

نقول : الرجم فقد للحياة فلا نصف معه ، إذن فنصف ما على المحصنات من العذاب ، والعذاب هو الذى يؤلم . ونستشهد على ذلك بآية لنبين الرأى القاطع بأن العذاب شىء ، والقتل وإزهاق الحياة شىء آخر ، ونجد هذه الآية هى قول الحق على لسان سليمان عليه السلام حينما تفقد الطير ولم يجد الهدهد :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآية ٢١ من سورة النمل)

إذن ، فالعذاب غير الذبح ، وكذلك يكون العذاب غير الرجم . فالذى يحتج به البعض ممن يريدون إحداث ضجة بأنه لا يوجد رجم ؛ لأن الأمة عليها نصف ما على المحصنات ، والرجم ليس فيه تنصيف نقول له : إن ما تستشهد به باطل ؛ لأن الله فرق بين العذاب وبين الذبح ، فقال على لسان سليمان : « لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه » فإذا كان العذاب غير إزهاق الروح بالذبح ، والعذاب أيضا غير إزهاق الروح بالرجم . إذن فلا يصح أن يحاول أحد الإفلات من النص وفهمه على غير حقيقته ولنناقش الأمر بالعقل :

حين يعتدى إنسان على بكر ، فما دائرة الهجوم على العرض فى البكر ؟ إنها أضيق من دائرة الهجوم على الثيب ؛ لأن الثيب تكون متزوجة غالبا ، فقصارى ما فى البكر أن الاعتداء يكون على عرضها وعرض الأب والأخ . أما الثيب فالاعتداء يكون على

عرض الزوج أيضا ، وهكذا تكون دائرة الاعتداء أكبر ، إنه اعتداء على عرض الأب والأم . والإخوة والأعمام مثل البكر ، وزاد على ذلك الزوج والأبناء المتسلسلون . فإذا كان الآباء والأمهات طبقة وتنتهى ، فالأبناء طبقة تستديم ؛ لذلك يستديم العار . واستدامة العار لا يصح أن تكون مساوية لرقعة ليس فيها هذا الاتساع ، فإن سوينا بين الاثنين بالجلد فهذا يعنى أن القائم بالحكم لم يلحظ اتساع جرح العرض .

إن جرح العرض فى البكر محصور وقد ينتهى لأنه يكون فى معاصرين كالأب والأم والإخوة ، لكن ما رأيك أيها القائم بالحكم فى الثيب المتزوجة ولها أولاد يتناسلون ؟ إنها رقعة متسعة ، فهل يساوى الله ـ وهو العادل ـ بين ثيب وبكر بجلد فقط ؟ إن هذا لا يتأتى أبدا .

إذن فالمسألة يجب أن تؤخذ مما صفّاه رسول الله وهو المشرِّع الثانى الذى امتاز لا بالفهم فى النص فقط ، ولكن لأن له حق التشريع فيما لم يرد فيه نص ! فسنأخذ بما عمله وقد رجم رسول الله فعلا ، وانتهى إلى أن هذا الحكم قد أصبح نهائيا ، الثيب بالثيب هو الرجم ، والبكر بالبكر هو الجلد ، وبكر وثيب كل منهما يأخذ حكمه ، ويكون الحكم منطبقا تماما ، وبذلك نضمن طهارة حفظ النوع ؛ لأن حفظ النوع هو أمر أساسى فى الحياة باستبقاء حياة الفرد واستبقاء نوعه ، فاستبقاء حياة الفرد بأن نحافظ عليه ، ونحسن تربيته ونطعمه حلالا ، ونحفظ النوع بالمحافظة على طهارة المخالطة .

والحق سبحانه وتعالى يمد خلقه حين يغفلون عن منهج الله بما يلفتهم إلى المنهج من غير المؤمنين بمنهج الله ، ويأتينا بالدليل من غير المؤمنين بمنهج الله ، فيثبت لك بأن المنهج سليم . ولقد تعرضنا لذلك من قبل مرارا ونكررها حتى تثبت فى أذهان الناس قال الحق :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

فلا يقولن قائل : إن القرآن أخبر بشيء لم يحدث لأن الإسلام لم يطبق ولم يظهر على الأديان كلها . ونرد عليه : لو فهمت أن الله قال : « ليظهره على الدين كله » وأضاف سبحانه : « ولو كره المشركون » ، « ولو كره الكافرون » كما جاء فى موقع آخر من القرآن الكريم ، لقد أوضح الحق أن الإسلام يظهر ويتجلى مع وجود كاره له وهو الكافر والمشرك . ولم يقل سبحانه : إن الإسلام سيمنع وجود أى كافر أو مشرك .

وكيف يكره الكفار والمشركون إظهار الله للإسلام ؟ إنهم لا يدينون بدين الإسلام ، لذلك يحزنهم أن يظهر الإسلام على بقية الأديان . وهل يظهر الإسلام على الأديان بأن يسيطر عليها ويبطل تلك الأديان ؟ لا . إنه هو سبحانه يوضح بالقرآن والسنة كما يوضح لأهل الأديان الأخرى :

بأنكم ستضطرون وتضغط عليكم أحداث الدنيا وتجارب الحياة فلا تجدون مخلصا لكم مما أنتم فيه إلا أن تطبقوا حكما من حكم الإسلام الذى تكرهونه .

وحين تضغط الحياة على الخصم أن ينفذ رأى خصمه فهذا دليل على قوة الحجة ، وهذا هو الإظهار على الدين كله ولو كره الكافرون والمشركون ، وهذا قد حدث فى زماننا ، فقد روعت أمة الحضارة الأولى فى العالم وهى الولايات المتحدة الأمريكية منذ عام ١٩٨١ بما يثبت صدق الإسلام فى أنه حين ضمن ووضع للمخالطات التى تبقى النوع نظاما ، وهو التعاقد العلنى والزواج المشروع ، فالحق قد ضمن صحة الخلق . لكن الحضارة الأمريكية لم تنتبه إلى عظمة قانون الحق سبحانه فَرُوِّعت بظهور مرض جديد يسمى « الإيدز » و« إيدز » مأخوذة من بدايات حروف ثلاث كلمات : حرف « A » ، وحرف « I » ، و« D » .

ومعنى اسم المرض بالترجمة العربية الصحيحة « نقص مناعى مكتسب » والوسيلة الأولى للإصابة به هى المخالطة الشاذة ، ونشأت من هذه المخالطات الشاذة فيروسات ، هذه الفيروسات مازال العلماء يدرسون تكوينها ، وهى تفرز سموما وتسبب آلاما لا حصر لها ، وإلى الآن يعيش أهل الحضارة الغربية هول الفزع والهلع من هذا المرض .

ومن العجيب أن هذه الفيروسات تأتى من كل المخالطات الشاذة سواء أكانت بين رجل ورجل ، أو بين رجل وامرأة على غير ما شرع الله .

لقد جعل الحق سبحانه وتعالى عناصر الزواج « إيجابا » و« قبولا » و« علانية » إنه جعل من الزواج علاقة واضحة محسوبة أمام الناس ، هذا هو النظام الربانى للزوج الذى جعل فى التركيب الكيميائى للنفس البشرية « استقبالا » و« إرسالا » .

والبشر حين يستخدمون الكهرباء . . فالسلك الموجب والسلك السالب ـ كما قلنا ـ يعطيان نورا فى حالة استخدامهما بأسلوب طبيعى ، لكن لو حدث خلل فى استخدام هذه الأسلاك فالذى يحدث هو ماس كهربائى تنتج منه حرائق . وكذلك الذكورة والأنوثة حين يجمعها الله بمنطق الإيجاب والقبول العلنى على مبدأ الإسلام ، فإن التكوين الكيميائى الطبيعى للنفس البشرية التى ترسل ، والنفس البشرية التى تستقبل تعطى نورا وهو أمر طبيعى .

وأوضحنا من قبل أن الإنسان حين يجد شابا ينظر إلى إحدى محارمه ، فهو يتغير وينفعل ويتمنى الفتك به ، لكن إن جاء هذا الشاب بطريق الله المشروع وقال والد الشاب لوالد الفتاة : « أنا أريد خطبة ابنتك لابنى » فالموقف يتغير وتنفرج الأسارير ويقام الفرح .

إنها كلمة الله التى أثرت فى التكوين الكيميائى للنفس وتصنع كل هذا الإشراق والبِشر ، وإعلان مثل هذه الأحداث بالطبول والأنوار والزينات هو دليل واضح على أن هناك حاجة قد عملت وأحدثت فى النفس البشرية مفعولها الذى أراده الله من الاتصال بالطريق النظيف الشريف العفيف .

فكل اتصال عن غير هذا الطريق الشريف والعفيف لابد أن ينشأ عنه خلل فى التكوين الإنسانى يؤدى إلى أوبئة نفسية وصحية قد لا يستطيع الإنسان دفعها مثل ما هو كائن الآن .

وعلى هذا فيكون قول الحق سبحانه :

﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة النساء)

وكانت هذه مرحلة أولية إلى أن طبق الرسول إقامة الحد . ويقول الحق :

﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى تواب ورحيم ، ونعرف أن صفة المبالغة بالنسبة لله لا تعنى أن هناك صفة لله تكون مرة ضعيفة ومرة قوية ، وكل صفات الله واحدة فى الكمال المطلق . وقلت من قبل : إننى عندما أقول : « فلان أكّال » قد يختلف المعنى عن قولى : « فلان آكل » ، فبمثل هذا القول أبالغ فى وصف إنسان يأكل بكثرة ، فهل هو يأكل كثيرا فى الوجبة الواحدة ، أو أن الوجبة ميزانها محدود لكن هذا الموصوف يعدد الوجبات ، فبدلا من أن يأكل ثلاث مرات فهو يأكل خمس مرات ، عندئذ يقال له : « أكّال » ، أى أنّه أكثر عدد الوجبات ، وإن كانت كل وجبة فى ذاتها لم يزد حجمها .

أو هو يأتى فى الوجبة الواحدة فيأكل أضعاف ما يأكله الإنسان العادى فى الوجبة العادية ، فيأكل بدلا من الرغيف أربعة ، فنقول:إنه « أكول » ، إذن فصيغة المبالغة فى الخلق إما أن تنشأ فى قوة الحدث الواحد ، وإما أن تنشأ من تكرار الحدث الواحد .

إن قولك: « الله توَّابٌ » معناه أنه عندما يتوب على هذا وذاك وعلى ملايين الملايين من البشر ، فالتوبة تتكرر . وإذا تاب الحق فى الكبائر أليست هذه توبة عظيمة ؟ هو تواب ورحيم لأنه سبحانه وتعالى يتصف بعظمة الحكمة والقدرة على الخلق والإبداع ، وهو الذى خلق النفس البشرية ثم قنن لها قوانين وبعد ذلك جرم من يخالف هذه القوانين ، وبعد أن جرم الخروج عن القوانين وضع عقوبة على الجريمة .

والتقنين فى ذاته يقطع العذر ، فساعة أن قنن الحق لا يستطيع واحد أن يقول : « لم أكن أعلم » ؛ لأن ذلك هو القانون ، وحين يجرم فهذا إيذان منه بأن النفس البشرية قد تضعف ، وتأتى بأشياء مخالفة للمنهج ، فنحن لسنا ملائكة ، وسبحانه حين يقنن يقطع العذر ، وحين يجرم فهو إيذان بأن ذلك من الممكن أن يحدث . وبعد ذلك يعاقب ، وهناك أفعال مجرمة ، ولكن المشرِّع الأول لم يجرمها ولم يضع لها قانونا ، لا عن تقصير منه ، ولكن التجريم يأتى كفرع .

إن الله سبحانه قد قدر أن النفس البشرية قد تفعل ذلك ، كالسرقة ـ مثلا ـ إنه سبحانه وضع حدا للسرقة ، وقد تضعف النفس البشرية فتسرق ، أو تزنى ؛ لذلك فالحد موجود ، لكن هناك أشياء لا يأتى لها بالتجريم والعقوبة ، وكأنه سبحانه يريد أن يدلنا من طرف خفى على أنها مسائل ما كان يتصور العقل أن تكون . مثال ذلك اللواط ، لم يذكر له حداً ، لماذا ؟ لأن الفطرة السليمة لا تفعله ، بدليل أن اللواط موجود فى البشر وغير موجود فى الحيوان .

لكن ليس معنى ألا يجرم الحق عملا أنه لا يدخل فى الحساب ، لا ، إنه داخل فى الحساب بصورة أقوى ؛ لأن التجريم والعقوبة على التجريم تدل على أن الفعل من الممكن أن يحدث ، وحين يترك هذه المسألة بدون تجريم ، فمعنى ذلك أن الفطرة السليمة لا يصح أن تفعلها ، ولذلك لم يضع لها حدا أو تجريما ، وترك الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المكلف بالتشريع أن يضع حدا لهذه المسألة .

إذن فعدم وجود نص على جريمة أو عقوبة على جريمة ليس معناه ألا يوجد حساب عليها ، لا . هناك حساب ، فقد تكون العقوبة أفظع ، وقد أمر الرسول صلى الله

عليه وسلم بإلقاء الفاعل للواط والمفعول به من أعلى جبل . إن عقوبتهما أن يموتا بالإلقاء من شاهق جبل ، إذن فالعقوبة أكثر من الرجم . وهكذا نعرف أن عدم التجريم وعدم التقنين بالعقوبة لأى أمر غير مناسب للعقل وللفطرة السليمة دليل على أن هذا الأمر غير مباح ، والحق لم يترك تلك الأمور سكوتا عنها ، ولكن هو إيحاء من طرف خفى أن ذلك لا يصح أن يحدث ، بدليل أنها لا تحدث فى الحيوانات التى هى أدنى من الإنسان .

وبعد ذلك قد يتعلل الإنسان الفاعل لمثل هذا القبح الفاحش بأنها شهوة بهيمية . نقول : يا ليت شهوتك المخطئة فى التعبير عن نفسها بهيمية ؛ لأن البهائم لا يحدث منها مثل ذلك الفعل أبدا ، فلا أنثى الحيوانات تقترب من أخرى ، وكذلك لا يوجد ذكر حيوان يقترب من ذكر آخر ، وإذا ما حملت أنثى الحيوان فإنها لا تسمح لأى ذكر من الحيوانات بالاقتراب منها ، إذن فالقبح الفاحش من المخالطة على غير ما شرع الله يمكن أن نسميها شهوة إنسانية ، فالبهائم لا ترتكب مثل تلك الأفعال الشاذة . ومن يقول عن الشهوة إنها بهيمية فهو يظلم الحيوانات . والحق سبحانه وتعالى على الرغم من هذه الخطايا يوضح لنا : أنه التواب الرحيم ، لماذا ؟

انظر الحكمة فى التوبة وفى قبولها ، فلو لم تحدث معصية من الإنسان الذى آمن ، لفقَد التكليف ضرورته . معنى التكليف أنه عملية يزاحم الإنسان فيها نفسه ويجاهدها لمقاومة تنفيذ المعاصى أو لحملها على مشقة الطاعة .

فمقاومة الإنسان للمعاصى خضوعاً للتكليف الإيمانى دليل على أن التكليف أمر صحيح ، اسمه « تكليف » وإلا لخلقنا الله كالملائكة وانتهت المسألة . وحين يشرع الله التوبة ، فذلك يدل على أن الإنسان ضعيف ، قد يضعف فى يوم من الأيام أمام معصية من المعاصى ، وليس معنى ذلك أن يطرده الله من عبوديته له سبحانه ، بل هو يقنن العقوبة ، وتقنين العقوبة للعاصى دليل على أنه سبحانه لم يُخرج الذى اختار الإسلام وعصى من حظيرة الإسلام أو التكليف ، ولو فرضنا أن الحق سبحانه لم يقنن التوبة لصارت اللعنة مصير كل من يضعف أمام شهوة ، ولصار العاصى متمرداً لا يأبه ولا يلتفت من بعد ذلك إلى التكليف ، يَلِغ فى أعراض الناس ويرتكب كل الشرور .

إذن فساعة شرع الله التوبة سدَ على الناس باب « الفاقدين » الذين يفعلون ذنباً ثم يستمرون فيه ، ومع ذلك فسبحانه حين تاب على العاصى رحم من لم يعص إنه القائل : « إن الله كان تواباً رحيما» . ولو قال الحق إنه تواب فقط لأذنب كل واحد منا لكى يكون الوصف معه وقائم به لا محالة ، ولكنه أيضا قال : « تواباً رحيماً » أى أنه يرحم بعضاً من خلقه فلا يرتكبون أى معصية من البداية . فالرحمة ألا تقع فى المعصية .

وبعد ذلك يشرع الحق سبحانه وتعالى للتوبة :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

ولنلتفت إلى دقة الأداء القرآنى ، هو سبحانه يقول : « إنما التوبة على الله » وقد يقول واحد : مادام الحق شرع التوبة ، فلأفعل ما أريد من المعاصى وبعد ذلك أتوب . نقول له : إنك لم تلتفت إلى الحكمة فى إبهام ساعة الموت ، فما الذى أوحى لك أنك ستحيا إلى أن تتوب ؟ فقد يأخذك الموت فجأة وأنت على المعصية ، وعليك أن تلتفت إلى دقة النص القرآنى :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

وفعل السوء بجهالة ، أى بعدم استحضار العقوبة المناسبة للذنب ، فلو استحضر الإنسان العقوبة لما فعل المعصية . بل هو يتجاهل العقوبة ، لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[١] .

فلو كان إيمانه صحيحاً ويتذكر تماما أن الإيمان يفرض عليه عدم الزنا ، وأن عقوبة الزنا هى الجلد أو الرجم ، لما قام بذلك الفعل .

والحق قد قال : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » فهناك من يفعل المعصية ويخطط لها ويفرح بها ويُزْهَى بما ارتكب ويفخر بزمن المعصية ، وهناك من تقع عليه المعصية وبمجرد أن تنتهى يظل نادماً ويضرب نفسه ويعذبها ويتساءل لماذا فعلت ذلك ؟ .

وأضرب مثلاً للتمييز بين الاثنين ، نجد اثنين يستعد كل منهما للسفر إلى باريس ، واحد منهما يسأل قبل سفره عن خبرة من عاشوا فى عاصمة فرنسا ، ويحاول أن يحصل على عناوين أماكن اللهو والخلاعة ، وما إن يذهب إلى باريس حتى ينغمس فى اللهو ، وعندما يعود يظل يفاخر بما فعل من المعاصى .

وأما الآخر فقد سافر إلى باريس للدراسة ، وبيْنما هو هناك ارتكب معصية تحت إغراء وتزيين ، إذن هو إنسان وقعت عليه المعصية ودون تخطيط ، وبعد أن هدأت شِرَّة الشهوة غرق فى الندم ، وبعد أن عاد استتر من زمن المعصية . هكذا نرى الفارق بين المخطط للمعصية وبين من وقعت عليه المعصية .

والله سبحانه حين قدَّر أمر التوبة على خلقه رحم الخلق جميعاً بتقنين هذه التوبة ، وإلا لغرق العالم فى شرور لا نهاية لها ، بداية من أول واحد انحرف مرة واحدة فيأخذ الانحراف عملاً له ، والمهم فى التائب أن يكون قد عمل السوء بجهالة ، ثم تاب من قريب . والرسول صلى الله عليه وسلم حين حدد معنى « من قريب » قال :

---

(١) رواه أحمد والبخارى عن أبى هريرة ، وفى رواية عن مسلم وأحمد : (ولا يَغُلُّ أحدكم حين يَغُلُّ وهو مؤمن فإياكم إياكم) وزاد عبدالرزاق : (ولا ينتهب النهبة وهو مؤمن) .

(إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١] .

والحوار الذى دار بين الحق وبين إبليس :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إن إبليس قال ذلك وظن أنه سيهلك البشر جميعا ويوقعهم فى المعصية إلا عباد الله الذين اصطفاهم وأخلصهم له ، لكن الله ـ سبحانه ـ خيَّب ظنه وشرع قبول توبة العبد ما لم يغرغر ، لم يصل إلى مرحلة خروج الروح من الجسد . فإذا ما قدم العبد التوبة لحظة الغرغرة فماذا يستفيد المجتمع ؟ لن يستفيد المجتمع شيئاً من مثل هذه التوبة ؛ لأنه تاب وقت ألاّ شر له ؛ لذلك فعلى العبد أن يتوب قبل ذلك حتى يرحم المجتمع من شرور المعاصى . « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة » هل يتوب أولا ، ثم يتوب الله عليه ؟

أنه سبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة التوبة)

هنا وقف العلماء وحق لهم أن يتساءلوا : هل يتوب العبد أولاً وبعد ذلك يقبل الله التوبة ؟ أم أن الله يتوب على العبد أولاً ثم يتوب العبد ؟، صريح الآية هو : « ثم تاب عليهم ليتوبوا » ونقول : وهل يتوب واحد ارتجالاً منه ، أو أن الله شرع التوبة للعباد ؟. لقد شرع الله التوبة فتاب العبد ، فقبل الله التوبة .

نحن إذن أمام ثلاثة أمور : هى أن الله شرع التوبة للعباد ولم يرتجل أحد توبته ويفرضها على الله ، أى أن أحداً لم يبتكر التوبة ، ولكن الذى خلقنا جميعاً قدَّر أن الواحد قد يضعف أمام بعض الشهوات فوضع تشريع التوبة . وهو المقصود بقوله: « ثم تاب عليهم » أى شرع لهم التوبة وبعد ذلك يتوب العبد إلى الله « ليتوبوا »

---

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه والبيهقى فى شعب الإيمان ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم فى المستدرك .

وبعد ذلك يكون القبول من الله وهو القائل :

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾

(من الآية ٣ سورة غافر)

تأمل كلمة « إنما التوبة على الله » تجدها فى منتهى العطاء ، فإذا كان الواحد فقيراً ومديناً وأحال دائنه إلى غنى من العباد فإنّ الدائن يفرح ؛ لأن الغنيّ سيقوم بسداد الدين وأدائه إلى الدائن ، فما بالنا بالتوبة التى أحالها الله على ذاته بكل كماله وجماله ، إنه قد أحال التوبة على نفسه لا على خلقه ، وهو سبحانه أوجب التوبة على نفسه ولا يملك واحد أن يرجع فيها ، ثم قال : « ثم يتوبون من قريب » أى أن العبد يرجو التوبة من الله ، وحين قال : « فأولئك يتوب الله عليهم » أى أن سبحانه قابل للتوب وغافر للذنب وحين يقول سبحانه : « وكان الله عليماً حكيماً » فنحن نعلم أن كل تقنين لأى شىء يتطلب علماً واسعاً بما يمكن أن يكون وينشأ . والذين يتخبطون فى تقنينات البشر ، لماذا يقنون اليوم ثم يعدلون عن التقنين غداً ؟ لأنهم ساعة قننوا غاب عنهم شىء من الممكن أن يحدث ، فلما حدث ما لم يكن فى بالهم استدركوا على تقنينهم .

إذن فالاضطراب ينشأ من عدم علم المقنن بكل أحوال من يقنن لهم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، والمقنن من البشر قد لا يستوعب الأحداث الماضية ، وذلك لأنه لا يستوعبها إلا فى بيئته أو فى البيئة التى وصله خبرها ، فحتى فى الماضى لا يقدر ، ولا فى المستقبل يقدر ، وكذلك فى الحاضر أيضاً ، فالحاضر عند بيئة ما يختلف عن الحاضر فى بيئة أخرى . ونحن نعرف أن حواجز الغيب ثلاثة : أى أن ما يجعل الشىء غيباً عن الإنسان هو ثلاثة أمور :

الأمر الأول : هو الزمن الماضى وما حدث فيه من أشياء لم يرها المعاصرون ولم يعرفوها ؛ لذلك فالماضى قد حُجز عن البشر بحجاب وقوع الأحداث فى ذلك الماضى ، ولذلك يلفتنا الله سبحانه وتعالى فى تصديق رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول سبحانه :

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ورسول الله لم يكن مع موسى ساعة أن قضى الله لموسى الأمر ، ومع ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أميًا لا يمكنه أن يقرأ التاريخ أويتعلمه . ويقول أيضا سبحانه :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ آل عمران)

أى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشهد تلك الأزمان التى يأتيه خبرها عن الله ، والرسول أمى بشهادة الجميع ولم يجلس إلى معلم . إذن فالذى اخترق حجاب الزمن وأخبر الرسول بتلك الأحداث هو الله .

والأمر الثانى : هو حجاب الحاضر ، حيث يكون الحجاب غير قادم من الزمن لأن الزمن واحد ، ولكن الحجاب قادم من اختلاف المكان ، فأنا أعرف ما يحدث فى مكانى ، ولكنى لا أعرف ما الذى يحدث فى غير المكان الذى أوجد به ، ولا يقتصر الحجاب فى الحاضر على المكان فقط ولكن فى الذات الإنسانية بأن يُضمر الشخصُ الشىء فى نفسه . فالحق يقول :

﴿ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

هنا يخبر الله سبحانه الرسول عن شيء حاضر ومكتوم فى نفوس أعدائه . وبالله لو لم يكونوا قد قالوه فى أنفسهم ، لما صدقوا قول الرسول الذى جاءه إخباراً عن الله . وقد خرق الله أمام رسوله حجاب الذات وحجاب المكان .

والأمر الثالث : هو حجاب المستقبل ، فيقول القرآن :

﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

ونلحظ أن كلمة « سيهزم » فيها حرف « السين » التى تُنبىء عن المستقبل ، وقد نزلت هذه الآية فى مكة وقت أن كان المسلمون قلة وهم مضطهدون ولا يستطيعون

الدفاع عن أنفسهم . وعندما يسمعها عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ينفعل ويقول لرسول الله : أى جمع هذا ؟

وجاء الجمع فى بدر وولَّى الدبر . حدث ذلك الإخبار فى مكة ، ووقعت الأحداث بعد الهجرة . وكانت الهجرة فى الترتيب الزمنى مستقبلاً بالنسبة لوجود المسلمين فى مكة .

أكان من الممكن أن يقول سبحانه : « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » لولا أن ذلك سيحدث بالفعل ؟

لو حدث غير ذلك لكذبه المؤمنون به .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال ذلك إبلاغاً عن الله وهو واثق ، ويطلقها الله على لسان رسوله حُجة فيمسكها الخصم ، ثم يثبت صدقها لأن الذى قالها هو من يخلق الأحداث ويعلمها .

ويأتى فى الوليد بن المغيرة وهو ضخم وفحل وله مهابة وصيت وسيد من سادة قريش ، فيقول الحق :

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

أى سنضربه بالسيف ضربة تجعل على أنفه علامة فى أعلى منطقة فيه . ويأتى يوم بدر ، فيجدون الضربة على أنف الوليد . لقد قالها الحق على لسان رسوله فى زمن ماض ويأتى بها الزمن المستقبل ، وعندما تحدث هذه المسألة فالذين آمنوا بمحمد وبالقرآن الذى نزل على محمد يتأكدون من صدق رسول الله فى كل شىء . ويأخذون الجزئية البسيطة ويرقُّونها فيصدقون ما يخبرهم به من أمر الدنيا والآخرة . ويقولون :

ـ إذا أخبرنا رسول الله بغيب يحدث فى الآخرة فهو الصادق الأمين ، ويأخذون من أحداث الدنيا الواقعة ما يكون دليلاً على صدق الأحداث فى الآخرة .

ويذيل الحق الآية : « وكان الله عليماً حكيماً » أى عليما بالتقنينات فشرَّع التوبة لعلمه ـ جل شأنه ـ بأنه لو لم يشرِّع التوبة ، لكان المذنب لمرة واحدة سبباً فى شقاء العالم ؛ لأنه ـ حينئذ ـ يكون يائساً من رحمة الله .

إذن فرحمة منه ـ سبحانه ـ بالعالم شرّع الله التوبة . وهو حكيم فإياك أن يتبادر إلى ذهنك أن الحق قد حمى المجرم فحسب حين شرع له التوبة ، إنه سبحانه قد حمى غير المجرم أيضا . وساعة نسمع الزمن فى حق الحق سبحانه وتعالى كقوله : « كان » فلا نقول ذلك قياساً على زماننا نحن ، أو على قدراتنا نحن ، فكل ما هو متعلق بالحق علينا أن نأخذه فى نطاق « ليس كمثله شيء » .

فقد يقول كافر : « إن علم الله كان » ويحاول أن يفهمها على أنه علم قد حدث ولا يمكن تكراره الآن ، لا ، فعلم الله كان ولا يزال ؛ لأن الله لا يتغير ، ومادام الله لا يتغير ، فالثابت له من قبل أزلاً يثبت له أبداً . والحكمة هى وضع الشيء فى موضعه . ومادام قد قدر سبحانه وضع الشيء ، فالشيء إنما جاء عن علم ، وحين يطابق الشيء موضعه فهذه هى مطلق الحكمة .

والحق يقول :

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة النساء)

لقد شرع الله سبحانه التوبة ليتوب عباده ، فإذا تابوا قَبِلَ توبتهم ، وهذا مبنى على العلم الشامل والحكمة الدقيقة الراسخة . وانظروا إلى دقة العبارة فى قوله : « إنما التوبة على الله » ، فساعة يوجد فعل إيجابى يقال : على مَن ، لكن عندما لا يأتى بفعل إيجابى لا يقال : على مَن ، بل يقال : ليس بالنفى . إنّ الحق عندما قرر التوبة عليه ـ سبحانه ـ وأوجبها على نفسه ، للذين يعملون السوء بجهالة ويتوبون فوراً ، إنه يدلنا أيضاً على مقابل هؤلاء ، فيقول :

﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾

هنا يوضح الحق أن توبة هؤلاء الذين يعملون السيئات لم توجد من قريب . وهم يختلفون عن الذين كتب الله قبول توبتهم ، هؤلاء الذين يعيشون وتستحضر نفوسهم قِيَم المنهج ، إلا أن النفوس تضعف مرة . أما الذين لا يقبل منهم التوبة فهم أصحاب النفوس التى شردت عن المنهج فى جهات متعددة ، وهم لم يرتكبوا « سوءاً » واحداً بل ارتكبوا السيئات . فالذى ارتكب سوءاً واحداً فذلك يعنى أنه ضعيف فى ناحية واحدة ويبالغ ويجتهد فى الزوايا والجوانب الأخرى من الطاعات التى لا ضعف له فيها ليحاول ستر ضعفه .

إنك ترى أمثال هذا الإنسان فى هؤلاء الذين يبالغون فى إقامة مشروعات الخير ، فهذه المشروعات تأتى من أناس أسرفوا على أنفسهم فى ناحية لم يقدروا على أنفسهم فيها فيأتوا فى نواحى خير كثيرة ، ويزيدوا فى فعل الخير رجاء أن يمحو الله سيئاتهم التى تركوها وأقلعوا وتابوا عنها .

ومن ذلك نعلم أن أحداً لا يستطيع أن يمكر مع الله ؛ فالذى أخذ راحته فى ناحية ، يوضح له الله : أنا سآتى بتعبك من نواحٍ أخرى لصالح منهجى ، ويسلط الله عليه الوهم ، ويتخيل ماذا ستفعل السيئة به ، فيندفع إلى صنع الخير . وكأن الحق يثبت للمسىء : أنت استمتعت بناحية واحدة ، ومنهجى ودينى استفادا منك كثيراً ، فأنت تبنى المساجد والمدارس وتتصدق على الفقراء ، كل هذا لأن عندك سيئة واحدة .

إذن فلا يمكن لأحد أن يمكر على الله ، وعبر القرآن عن صاحب السيئة بوصف هذه الزلة بكلمة « السوء » ، ولكنه وصف الشارد الموغل فى الشرود عن منهج الله بأنه يفعل « السيئات » ، فهو ليس صاحب نقطة ضعف واحدة ، لكنه يقترف سيئات متعددة ، ويمعن فى الضلال ، ولا يقتصر الأمر على هذا بل يؤجل التوبة إلى لحظة بلوغ الأجل ، بل إنهم قد لا ينسبون الخير الصادر منهم إلى الدين مثلما يفعل الملاحدة ، أو الجهلة الذين لا يعلمون بأن كل خير إنما يأمر به الدين .

مثال ذلك مذهب « الماسونية » ، يقال : إن هذا المذهب وضعه اليهود ، والظاهر فى سلوك الماسونيين أنهم يجتمعون لفعل خير ما يستفيد منه المجتمع ، وما خفى من أفعال قمة أعضاء الماسونية أنهم يخدمون أغراض الصهيونية ، وقد ينضم إليهم بعض ممن لا يعرفون أهداف الماسونية الفعلية ليشاركوا فى عمل الخير الظاهر . ونقول لكل واحد من هؤلاء : انظر إلى دينك ، تجده يحضك على فعل مثل هذا الخير ، فلماذا تنسبه إلى الماسونية ولا تفعله على أنه أمر إسلامى . ولماذا لا تنسب هذا الخير إلى الإسلام وتنسبه لغير الإسلام ؟

وفى هذا العصر هناك ما يسمّى بأندية « الروتارى » ويأخذ الإنسان غرور الفخر بالانتماء إلى تلك الأندية ، ويقول : « أنا عضو فى الروتارى » وعندما تسأله : لماذا ؟ يجيب : إنها أندية تحض على التعاون والتواصل والمودة والرحمة ، ونقول له : وهل الإسلام حرم ذلك ؟ لماذا تفعل مثل هذا الخير وتنسبه إلى « الروتارى » ، ولا تفعل الخير وتنسبه إلى دينك الإسلام ؟ إذن فهذا عداء للمنهج .

ونجد الشاردين عن المنهج ، مثلهم كمثل الرجل الذى قالوا له : ما تريد نفسك الآن ؟ وأراد الرجل أن يحاد الله فقال : تريد نفسى أن أفطر فى يوم رمضان ، وعلى كأس خمر ، وأشترى كأس الخمر هذه بثمن خنزير مسروق .

إنه يريد فطر رمضان وهو محرّم ، ويفطر على خمر وهى محرمة ، وبثمن خنزير والخنزير حرام على المسلم ، والخنزير مسروق أيضا . وسألوه : ولماذا كل هذا التعقيد ؟ فقال : حتى تكون هذه الفعلة حراماً أربع مرات .

إذن فهذه مضارة لله ، وهذا رجل شارد عن المنهج . فهل هذا يتوب الله عليه ؟ لا ، « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت » وعند لحظة الموت يبدأ الجبن وتتمثل أخلاق الأرانب ، ولماذا لم يصر على موقفه للنهاية ؟ لأنه جاء إلى اللحظة التى لا يمكن أن يكذب فيها الإنسان على نفسه « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن » لكن التوبة لا تقبل ، ولن ينتفع بها المجتمع ، وشر مثل هذا الإنسان انتهى ، وتوبته تأتى وهو لا يقدر على أى عمل ، إذن فهو يستهزىء بالله ؛ فلا تنفعه التوبة .

ولكن انظروا إلى رحمة الله واحترامه للشهادة الإيمانية التى يقر فيها المؤمن بأنه : « لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » .

هذا المؤمن جعله الله فى مقابل الكافر ، فيأخذ عذاباً على قدر ما فعل من ذنوب ، ويأتى احترام الحق سبحانه لإيمان القمة لقوله : « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله » فيوضح سبحانه : لن نجعلك كالكافر ؛ بدليل أنه عطف عليه « ولا الذين يموتون وهم كفار » ، وإنما يقدر للمؤمن العاصى من العذاب على قدر ما ارتكب من معاصٍ ، ويحترم الحق إيمان القمة ، فيدخلون الجنة ؛ لذلك لم يقل الحق : إنهم خالدونَ فى النار . وإنما قال : « أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً » و« أولئك » تعنى الصنفين ـ المؤمن والكافر ـ فالعذاب لكل واحد حسب ذنبه .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ

فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾

وقلنا : ساعة ينادى الحق عباده الذى آمنوا به يقول سبحانه : « ياأيها الذين آمنوا » ، فمعناها : يا من آمنتم بى بمحض اختياركم ، وآمنتم بى إلهاً له كل صفات العلم والقدرة والحكمة والقيومية ، مادمتم قد آمنتم بهذا الإله اسمعوا من الإله الأحكامَ التى يطلبها منكم . إذن فهو لم يناد غير مؤمن وإنما نادى من آمن باختياره وبترجيح عقله فالحق يقول :

﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة البقرة)

يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعالج قضية تتعلق بالنساء وباستضعافهم . لقد جاء الإسلام والنساء فى الجاهلية فى غَبْن وظلم وحيف عليهن . و ـ سبحانه ـ قال : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » وكلمة « ورث » تدل على أن واحداً قد توفى وله وارث ، وهناك شىء قد تركه الميت ولا يصح أن يرثه أحدٌ بعده ؛ لأنه عندما يقول : « لا يحل لكم أن ترثوا » ، فقد مات مورِّث ؛ ويخاطب وارثاً . إذن فالكلام فى الموروث ، لكن الموروث مرة يكون حِلاً ، ولذلك شرع الله تقسيمه ، وتناولناه من قبل ، لكن الكلام هنا فى متروك لا يصح أن يكون موروثاً ، ما هو ؟

قال سبحانه : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، وهل المقصود ألا يرث الوارث من مورثه إماء تركهن ؟ لا . إن الوارث يرث من مورثه الإماء اللاتى تركهن ، ولكن عندما تنصرف كلمة « النساء » تكون لأشرف مواقعها أى للحرائر ، لأن الأخريات تعتبر الواحدة منهن ملك يمين ، « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها » ، وهل فيه ميراث للنساء برضى ؟ وكيف تورث المرأة ؟

ننتبه هنا إلى قوله سبحانه « كرها » ، وكان الواقع فى الجاهلية أن الرجل إذا مات

وعنده امرأة جاء وليه ، ويلقى ثوبه على امرأته فتصير ملكا له،وإن لم تقبل فإنه يرثها كرها ، أو إن لم يكن له هوى فيها فهو يحبسها عنده حتى تموت ويرثها ، أو يأتى واحد ويزوجها له ويأخذ مهرها لنفسه ؛ كأنه يتصرف فيها تصرف المالك ؛ لذلك جاء القول الفصل :

« لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن » ، و« العضل » فى الأصل هو المنع ، ويقال : « عضلت المرأة بولدها » ، ذلك أصل الاشتقاق بالضبط . فالمرأة ساعة تلد فمن فضل الله عليها أن لها عضلات تنقبض وتنبسط ، تنبسط فيتسع مكان خروج الولد ، وقد تعضل المرأة أثناء الولادة ، فبدلا من أن تنبسط العضلات لتفسح للولد أن يخرج تنقبض ، فتأتى هنا العمليات التى يقومون بها مثل القيصرية .

إذن فالعضل معناه مأخوذ من عضلت المرأة بولدها أى انقبضت عضلاتها ولم تنبسط حتى لا يخرج الوليد ، وعضلت الدجاجة ببيضها أى أن البيضة عندما تكون فى طريقها لتنزل فتنقبض العضلة فلا تنزل البيضة لأن اختلالا وظيفيا قد حدث نتيجة للحركة الناقصة ، ولماذا تأتى الحركة ناقصة للبسط ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى لم يشأ أن يجعل الأسباب فى الكون تعمل آليا وميكانيكيا بحيث إذا وجدت الأسباب يوجد المسبب ، لا . ففوق الأسباب مسبب إن شاء قال للأسباب : قفى فتقف .

إذن فكل المخالفات التى نراها تتم على خلاف ما تؤديه الأسباب إنما هى دليل طلاقة القدرة ، فلو كانت الأشياء تسير هكذا ميكانيكيا ، فسوف يقول الناس : إن الميكانيكا دقيقة لا تتخلف . لكن الحق يلفتنا إلى أنه يزاول سلطانه فى ملكه ، فهو لم يزاول السلطان مرة واحدة ، ثم خلق الميكانيكا فى الكون والأسباب ثم تركها تتصرف ، لا ، هو يوضح لنا : أنا قيوم لا تأخذنى سِنَةٌ ولا نوم ، أقول للأسباب اعملى أو لا تعملى ، وبذلك نلتفت إلى أنه المسيطر .

ونجد هذه المخالفات فى الشواذ فى الكون ، حتى لا تَفْتِنَّا رتابة الأسباب ، ولنذكر الله باستمرار ، ويكون الإنسان على ذكر من واهب الأسباب ومن خالقها ، فلا تتولد عندنا بلادة من أن الأسباب مستمرة دائما ، ويلفتنا الحق إلى وجوده ، فتختلف

الأسباب لتلفتك إلى أنها ليست فاعلة بذاتها ، بل هى فاعلة لأن الله خلقها وتركها تفعل ، ولو شاء لعطلها .

قلنا هذا فى معجزة إبراهيم عليه السلام ، حيث ألقاه أهله فى النار ولم يُحرق ، كان من الممكن أن ينجى الله إبراهيم بأى طريقة أخرى ، ولكن هل المسألة نجاة إبراهيم ؟ إن كانت المسألة كذلك فما كان ليمكّنهم منه ، لكنه سبحانه مكنهم منه وأمسكوه ولم يفلت منهم ، وكان من الممكن أن يأمر السماء فتمطر عندما ألقوه فى النار ، وكان المطر كفيلا بإطفاء النار ، لكن لم تمطر السماء بل وتتأجج النار . وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

بالله أهذا غيظ لهم أم لا ؟ هذا غيظ لهم ؛ فقد قدرتم عليه وألقيتموه فى النار ، وبعد ذلك لم ينْزِل مطر ليطفىء النار ، والنار موجودة وإبراهيم فى النار ، لكن النار لا تحرقه . هذه هى عظمة القدرة .

إذن فما معنى « تعضلوهن » ؟ العضل : أخذنا منه كلمة « المنع » ؛ فعضلت المرأة أى قبضت عضلاتها فلم ينزل الوليد ، وأنت ستعضلها كيف ؟ بأن تمنعها من حقها الطبيعى حين مات زوجها ، وأن من حقها بعد أن تقضى العدة أنْ تتزوج من تريد أو من يتقدم لها ، وينهى الحق : « ولا تعضلوهن » أى لا تحبسوهن عندكم وتمنعوهن ، لماذا تفعلون ذلك ؟ « لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن » كأن هذا حكم آخر ، لا ترثوا النساء كرها هذا حكم ، وأيضا لا تعضلوهن حكم ثانٍ .

والمثال عندما يكون الرجل كارها لامرأته فيقول لها : والله لن أطلقك ، أنا سأجعلك موقوفة ومعلقة لا أكون أنا لك زوجا ولا أمكنك أيضا من أن تتزوجى . وذلك حتى تفتدى نفسها فتُبرىء الرجل من النفقة ومؤخر الصداق ؛ فيحمى الإسلام المرأة ويحرم مثل تلك الأفعال .

ولكن متى تعضلوهن ؟ هنا يقول الحق : « إلا أن يأتين بفاحشة مبينة » لأنهم

سيحبسونهن ، وهذا قبل التشريع بالحد . وقال بعض الفقهاء : للزوج أن يأخذ من زوجته ما تفتدى به نفسها منه وذلك يكون بمال أو غيره إذا أتت بفاحشة من زنا أو سوء عشرة ، وهذا ما يسمى بالخلع وهو الطلاق بمقابل يطلبه الزوج .

ويتابع الحق : « وعاشروهن بالمعروف » وكلمة « المعروف » أوسع دائرة من كلمة المودة ؛ فالمودة هى أنك تحسن لمن عندك ودادة له وترتاح نفسك لموادته ، أنك فرح به وبوجوده ، لكن المعروف قد تبذله ولو لم تكره ، وهذه حلت لنا إشكالات كثيرة ، عندما أراد المستشرقون أن يبحثوا فى القرآن ليجدوا شيئا يدعون به أن فى القرآن تعارضا فيقولون : قرآنكم يقول :

﴿ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

(سورة المجادلة)

كيف لا يواد المؤمن ابنه أو أباه أو أحداً من عشيرته لمجرد كفره . والقرآن فى موقع آخر منه يقول ؟

﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة لقمان)

ونقول : إن هؤلاء لم يفهموا الفرق بين المودة والمعروف . فـ « الود » شىء و« المعروف » شىء آخر . الود يكون عن حُب ، لكن المعروف ليس ضروريا أن يكون عن حُب ، ساعة يكون جوعان سأعطيه ليأكل وألبى احتياجاته المادية . هذا هو المعروف ، إنما الوُد هو أن أعمل لإرضاء نفسى . وساعة يعطف الرجل المؤمن على أبيه الكافر لا يعطف عليه نتيجة للوُد ، إنما هو يعطف عليه نتيجة للمعروف ؛ لأنه حتى لو كان كافرا سيعطيه بالمعروف .

ألم يعاتب الحق ـ سبحانه ـ إبراهيم فى ضيف جاء له فلم يكرمه لأنه سأله وعرف منه : أنه غير مؤمن لذلك لم يضيّفه ؟ فقال له ربنا : أمن أجل ليلة تستقبله فيها تريد أن تغير دينه ، بينما أنا أرزقه أربعين سنة وهو كافر ؟ فماذا فعل سيدنا إبراهيم ؟ جرى فلحق بالرجل . وناداه فقال له الرجل : ما الذى جعلها تتغير هذا التغيير المفاجىء فقال له إبراهيم : « والله إن ربى عاتبنى لأنى صنعت معك هذا . فقال له الرجل : أربك عاتبك وأنت رسول فىّ وأنا كافر به ، فنعم الرب ربٌّ يعاتب أحبابه فى أعدائه ، فأسلم .

هذا هو المعروف ، الحق يأمرنا أننا يجب أن ننتبه إلى هذه المسائل فى أثناء الحياة الزوجية ، وهذه قضية يجب أن يتنبه لها المسلمون جميعا كى لا يُخربوا البيوت . إنهم يريدون أن يبنوا البيوت على المودة والحب فلو لم تكن المودة والحب فى البيت لخُربَ البيت ، نقول لهم : لا . بل « عاشروهن بالمعروف » حتى لو لم تحبوهن ، وقد يكون السبب الوحيد أنك تكره المرأة لأن شكلها لا يثير غرائزك ، يا هذا أنت لم تفهم عن الله ؛ ليس المفروض فى المرأة أن تثير غريزتك ، ولكن المفروض فى المرأة أن تكون مصرفا ، إن هاجت غريزتك كيماويا بطبيعتها وجدت لها مصرفا . فأنت لا تحتاج لواحدة تغريك لتحرك فيك الغريزة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « إذا رأى أحدكم امرأة حسناء فأعجبته فليأت أهله فإن البضع واحد ومعها مثل الذى معها »[1] .

أى أن قطعة اللحم واحدة إن هاجت غريزتك بطبيعتها فأى مصرف يكفيك ، ولذلك عندما جاء رجل لسيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وقال : يا أمير المؤمنين أنا كاره لامرأتى وأريد أن أطلقها ، قال له : أوَ لَمْ تُبن البيوت إلا على الحب ، فأين القيم ؟ . لقد ظن الرجل أن امرأته ستظل طول عمرها خاطفة لقلبه ، ويدخل كل يوم ليقبلها ، فيلفته سيدنا عمر إلى أن هذه مسألة وجدت أولا وبعد ذلك تنبت فى الأسرة أشياء تربط الرجل بالمرأة وتربط المرأة بالرجل .

لذلك يقول الحق : « وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » ، أنت كرهتها فى زاوية وقد تكون الزاوية التى كرهتها فيها

---

(١) رواه الخطيب عن عمر .

هى التى ستجعلها تحسن فى عدة زوايا ؛ لكى تعوض بإحسانها فى الزوايا الأخرى هذه الزاوية الناقصة ، فلا تبن المسألة على أنك تريد امرأة عارضة أزياء لتثير غرائزك عندما تكون هادئا ، لا . فالمرأة مصرف طبيعى إن هاجت غرائزك بطبيعتها وجدت لها مصرفا ، أما أن ترى فى المرأة أنها ملهبة للغرائز فمعنى ذلك أنك تريد من المرأة أن تكون غانية فقط . وأن تعيش معك من أجل العلاقة الجنسية فقط ، لكن هناك مسائل أخرى كثيرة ، فلا تأخذ من المرأة زاوية واحدة هى زاوية الانفعال الجنسى ، وخذ زوايا متعددة .

وأعلم أن الله وزع أسباب فضله على خلقه ، هذه أعطاها جمالاً ، وهذه أعطاها عقلاً ، وهذه أعطاها حكمة ، وهذه أعطاها أمانة ، وهذه أعطاها وفاء ، وهذه أعطاها فلاحًا ، هناك أسباب كثيرة جدا ، فإن كنت تريد أن تكون منصفا حكيما فخُذ كل الزوايا ، أما أن تنظر للمرأة من زاوية واحدة فقط هى زاوية إهاجة الغريزة ، هنا نقول لك : ليست هذه هى الزاوية التى تصلح لتقدير المرأة فقط . « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »

وانظر إلى الدقة فى العبارة « فعسى أن تكرهوا » فأنت تكره ؛ وقد تكون محقا فى الكراهية أو غير محق ، إنما إن كرهت شيئا يقول لك الله عنه : « ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » فاطمئن إنك إن كرهت فى المرأة شيئا لا يتعلق بدينها ، فاعلم أنك إن صبرت عليه يجعل الله لك فى بقية الزوايا خيراً كثيراً . ومادام ربنا هو مَن يجعل هذا الخير الكثير فاطمئن إلى أنك لو تنبهت لزاوية أنت تكرهها ومع ذلك تصبر عليها ، فأنت تضمن أن ربنا سيجعل لك خيراً فى نواحٍ متعددة ، إن أى زاوية تغلبت على كرهك سيجعل الله فيها خيرا كثيرا .

إن الحق يطلق القضية هنا فى بناء الأسرة ثم يُعمم ، وكان بإمكانه أن يقول : فعسى أن تكرهوهن ويجعل الله فيهن خيرا ، لا . فقد شاء أن يجعلها سبحانه قضية عامة فى كل شىء قد تكرهه ، وتأتى الأحداث لتبين صدق الله فى ذلك ، فكم من أشياء كرهها الإنسان ثم تبين له وجه الخير فيها . وكم من أشياء أحبها الإنسان ثم تبين له وجه الشر فيها ، ليدلك على أن حكم الإنسان على الأشياء دائما غير دقيق ،

فقد يحكم بكره شيء وهو لا يستحق الكره ، وقد يحكم بحب شيء وهو لا يستحق الحب .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يأتى بالأشياء مخالفة لأحكامك « فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » فقدر دائما فى المقارنة أن الكرهَ منك وجَعْل الخير فى المرأة من الله ، فلا تجعل جانب الكره منك يتغلب على جانب جعل الخير من الله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ ﴾

فإذا ضاقت بك المسائل ، بعد أن عاشرت بالمعروف ولم يعد ممكنا أن تستمر الحياة الزوجية فى إطار يرضى عنه الله ، وتخاف أن تنفلت من نفسك إلى ما حرم الله ، ماذا تفعل ؟ يقول سبحانه : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » أى لك أن تستبدل مادامت المسألة ستصل إلى جرح منهج الله ، وعليك فى هذا الاستبدال أن ترعى المنهج الإيمانى مثلما أشار به سيدنا الحسن رضى الله عنه على الرجل الذى كان يستشيره فى واحد جاء ليخطب ابنته . قال سيدنا الحسن ـ رضى الله عنه ـ : إن جاءك الرجل الصالح فزوجه ، فإنه إن أحب ابنتك أكرمها ، وإن كرهها لم يظلمها .

والحق يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » فهذا يعنى أن الرغبة قد انصرفت عن الأولى نهائيا ، ولا يمكن التغلب عليها بغير الانحراف عن المنهج . وقد يحدث أن يضيق الرجل بزوجته وهو لا يعانى من إلحاح فى الناحية الغريزية ، فيطلقها ولا يتزوج ، فما شروط المنهج فى هذا الأمر ؟

يقول الحق : « وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا » . كلمة « قنطار » وكلمة « قنطرة » مأخوذة من الشيء العظيم . وقنطار تعنى « المال » . وقدروه قديما بأنه ملء مَسْك البقرة ، و« المسك » هو الجلد ، فعندما يتم سلخ البقرة يصبح جلدها مثل القربة ، وملء مَسْكها يسمى قنطارا ، والقنطار المعروف عندنا الآن له سمة وَزْنِيّة ، والحق حين يعظم المهر بقنطار يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » فهو يأتى لنا بمثل كبير وينهانا بقوله : « فلا تأخذوا منه شيئا » . لماذا ؟ لأنك يجب أن تفهم أن المهر الذى تدفعه ليس منساحا على زمن علاقتك بالمرأة إلى أن تنتهى حياتكما ، بل المهر مجعول ثمنا للبضع الذى أباحه الله لك ولو للحظة واحدة ، فلا تحسبها بمقدار ما مكثت معك ، لا ، إنما هو ثمن البضع ، فقد كشفت نفسها لك وتمكنت منها ولو مرة واحدة .

إذن فهذا القنطار عمره ينتهى فى اللحظة الأولى ، لحظة تَمكُّنِك منها . « وآتيتم إحداهن قنطارا » وهذه هى المسألة التى قال فيها سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : أخطأ عمر وأصابت امرأة ، لأنه كان يتكلم فى غلاء المهور ؛ فقالت له المرأة : كيف تقول ذلك والله يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » ، فقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

عن عمر رضى الله عنه أنه نهى وهو على المنبر عن زيادة صداق المرأة على أربعمائة درهم ثم نزل ، فاعترضته امرأة من قريش فقالت : أما سمعت الله يقول : (وآتيتم إحداهن قنطارا) ؟ فقال : اللهم عفوا كل الناس أفقه من عمر ثم رجع فركب المنبر فقال : « إنى كنت قد نهيتكم أن تزيدوا فى صدُقاتهن على أربعمائة درهم فمن شاء أن يعطى من ماله ما أحب »[1] .

وعن عبدالله بن مصعب أن عمر ـ رضى الله عنه ـ قال : « لا تزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية من فضة ، فمن زاد أوقية جعلتُ الزيادة فى بيت المال ، فقالت امرأة : ما ذاك لك ، قال ولِمَ ؟ فقالت : لأن الله تعالى يقول : « وآتيتم إحداهن قنطارا » فقال عمر : « امرأة أصابت ورجل أخطأ » .

---

(١) رواه سعيد بن منصور ، وأبو يعلى .

ثم ينكر القرآن مجرد فكرة الأخذ فيقول : « أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا » لماذا ؟ لأنه ليس ثمن استمتاعك بها طويلا ، بل هو ثمن تمكنك منها ، وهذا يحدث أوَّل ما دخلت عليها . وإن أخذت منها شيئا من المهر بعد ذلك فأنت آثم ، إلاَّ إذا رضيت بذلك ، والإثم المبين هو الإثم المحيط .

ويأتى الحق من بعد ذلك بمزيد من الاستنكار فيقول : « وكيف تأخذونه » . إنه استنكار لعملية أخذ شيء من المهر بحيثية الحكم فيقول :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

فلو أدركتم كل الكيفيات فلن تجدوا كيفية تبرر لكم الأخذ ، لماذا ؟ لأن الحق قال : « وكيف تأخذونه » وانظر للتعليل : « وقد أفضى بعضكم إلى بعض » . إذن فثمن البُضْع هو الإفضاء ، وكلمة « أفضى بعضكم إلى بعض » كلمة من إله ؛ لذلك تأخذ كل المعانى التى بين الرجل والمرأة ، و« أفضى » مأخوذة من « الفضاء » والفضاء هو المكان الواسع ، و« أفضى بعضكم » يعنى دخلتم مع بعض دخولا غير مضيق .

إذن فالإفضاء معناه : أنكم دخلتم معا أوسع مداخَلة ، وحسبك من قمة المداخلة أن عورتها التى تسترها عن أبيها وعن أخيها وحتى عن أمها وأختها تبينها لك ، ولا يوجد إفضاء أكثر من هذا ، ودخلت معها فى الاتصال الواسع ، أنفاسك ، ملامستك ، مباشرتك ، معاشرتك ، مدخلك ، مخرجك ، فى حمامك ، فى المطبخ ، فى كل شيء حدثت إفضاءات ، وأنت مادمت قد أفضيت لها وهى قد أفضت لك كما قال الحق أيضا فى المداخلة الشاملة :

﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة البقرة)

أى شىء تريد أكثر من هذا !؟ ولذلك عندما تشتد امرأة على زوجها ، قد يغضب ، ونقول له : يكفيك أن الله أحل لك منها ما حرمه على غيرك ، وأعطتك عرضها ، فحين تشتد عليك لا تغضب ، وتذكَّر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى »[1] .

« وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » والميثاق هو : العهد يؤخذ بين اثنين ، ساعة سألت وليها : « زوجنى » فقال لك : زوجتك ، ومفهوم أن كلمة الزواج هذه ستعطى أسرة جديدة ، وكل ميثاق بين خلق وخلق فى غير العرض هو ميثاق عادى ، إلا الميثاق بين الرجل والمرأة التى يتزوجها ؛ فهذا هو الميثاق الغليظ ، أى غير اللين ، والله لم يصف به إلا ميثاق النبيين فوصفه بأنه غليظ[2] ، ووصف هذا الميثاق بأنه غليظ . ففى هذه الآية « أفضى بعضكم إلى بعض » فهنا إفضاء وفى آية أخرى يكون كل من الزوجين لباسا وسترا للآخر « هن لباس لكم وأنتم لباس لهن » لهذا كان الميثاق غليظا ، وهذا الميثاق الغليظ يحتم عليك إن تعثرت العشرة أن تتحملها وتعاملها بالمعروف ، وإن تعذرت وليس هناك فائدة من استدامتها فيصح أن تستبدلها ، فإن كنت قد أعطيتها قنطارا إياك أن تأخذ منه شيئا ، لماذا ؟ لأن ذلك هو ثمن الإفضاء ، ومادام هذا القنطار هو ثمن الإفضاء وقد تم ، فلا تأخذ منه شيئا ، فالإفضاء ليس شائعا فى الزمن كى توزعه ، لا .

والحق يقول : « وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » هنا يجب أن نفهم أن الحق حين يشرع فهو يشرع الحقوق ، ولكنه لا يمنع الفضل ، بدليل أنه قال :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

---

(١) رواه الترمذى عن عائشة ، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس ورواه الطبرانى فى الكبير عن معاوية .
(٢) الآية رقم ٧ من سورة الأحزاب .

إذن ففيه فرق بين الحق وما طاب لكم ، والأثر يحكى عن القاضى الذى قال لقومه : أنتم اخترتمونى لأحكم فى النزاع القائم بينكم فماذا تريدون منى ؟! أأحكم بالعدل أم بما هو خير من العدل ؟ فقالوا له : وهل يوجد خير من العدل ؟ قال : نعم ، الفضل . فالعدل : أن كل واحد يأخذ حقه ، والفضل : أن تتنازل عن حقك وهو يتنازل عن حقه ، وتنتهى المسألة ، إذن فالفضل أحسن من العدل ، والحق سبحانه وتعالى حين يشرع الحقوق يضع الضمانات ، ولكنه لا يمنع الفضل بين الناس :

فيقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣٧ سورة البقرة)

ويقول الحق فى آية الدَّين :

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويأمركم الحق أن توثقوا الدَّيْن . . لأنكم لا تحمون مال الدائن فحسب بل تحمون المدين نفسه ، لأنه حين يعلم أن الدَّيْن موثق عليه ومكتوب عليه فلن ينكره ، لكن لو لم يكن مكتوبا فقد تُحدثه نفسه أن ينكره ، إذن فالحق يحمى الدائن والمدين من نفسه قال : « ولا تسأموا أن تكتبوه » ، وقال بعدها :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَـٰنَتَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٨٣ سورة البقرة)

فقد تقول لمن يستدين منك : لا داعى لكتابة إيصال وصكٍّ بينى وبينك ، وهذه أريحية لا يمنعها الله فمادام قد أمن بعضكم بعضا فليستح كل منكم وليؤد الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه .

ومادام قد جعل للفضل مجالا مع تسجيل الحقوق فلا تنسوا ذلك . فما بالنا بالميثاق الغليظ بين الرجل والمرأة . . وغلظ الميثاق إنما يتأتى بما يتطلبه الميثاق ، ولا يوجد ميثاق أغلظ مما أخذه الله من النبيين ومما بين الرجل والمرأة ؛ لأنه تعرض لمسألة لا تباح من الزوجة لغير زوجها ، ولا من الزوج لغير زوجته . إن على الرجل أن يوفى حق المرأة ولا يصح أن ينقصها شيئا إلا إذا تنازلت هى . فقد سبق أن قال الحق :

﴿ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ﴾

(من الآية ٤ سورة النساء)

ومادامت النفس قد طابت ، إذن فالرضا بين الطرفين موجود ، وذلك استطراق أنسى بين الرجل والمرأة . فالمهر حقها ، ولكن لا يجب أن يقبض بالفعل ، فهو فى ذمة الزوج ، إن شاء أعطاه كله أو أخّره كله أو أعطى بعضه وأخر بعضه . ولكن حين تنفصل الزوجة بعد الدخول يكون لها الحق كاملا فى مهرها ، إن كان قد أخره كله فالواجب أن تأخذه ، أو تأخذ الباقى لها إن كان قد دفع جزءا منه كمقدم صداق . ولكن حين تنتقل ملكية المهر إلى الزوجة يفتح الله باب الرضا والتراضى بين الرجل والمرأة فقال : « فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا » فهو هبة تخرج عن تراضٍ . وذلك مما يؤكد دوام العشرة والألفة والمودة والرحمة بين الزوجين . وبعد ذلك يبقى حكم آخر . هَبْ أن الخلاف استعر بين الرجل والمرأة .

حالة تكره هى وتحب أن تخرج منه لا جناح أن تفتدى منه نفسها ببعض المال لأنها كارهة ، ومادامت هى كارهة ، فسيضطر هو إلى أن يبنى بزوجة جديدة ، إذن فلا مانع أن تختلع المرأة منه بشىء تعطيه للزوج :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٢٩ سورة البقرة)

والحق سبحانه وتعالى أراد أن يعطينا الدليل على أن حق المرأة يجب أن يحفظ لها ، ولذلك جاء بأسلوب تناول مسألة أخذ الزوج لبعض مهر الزوجة فى أسلوب التعجب :

﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾

(الآية ٢١ سورة النساء)

فكأن «وكيف تأخذونه » هذه دليل على أنه لا يوجد وجه من وجوه الحق يبيح لك أن تأخذ منها مهرها ، فساعة يستفهم فيقول : « كيف » فهذا تعجيب من أن تحدث هذه ، وقلنا : إن كل المواثيق بين اثنين لا تعطى إلا حقوقاً دون العرض ، ولكن ميثاق الزواج يعطى حقوقاً فى العرض ، ومن هنا جاء غلظ الميثاق ، وكل عهد وميثاق بين اثنين قد ينصب إلى المال ، وقد ينصب إلى الخدمة ، وقد ينصب إلى أن تعْقل عنه الدِّيَة ، وقد ينصب إلى أنك تعطيه مثلاً المعونة ، هذه ألوان من المواثيق إلا مسألة العرض ، فمسألة العرض عهد خاص بين الزوجين ، ومن هنا جاء الميثاق الغليظ .

وبعد ذلك يتناول الحق سبحانه وتعالى قضية يستديم بها طهر الأسرة وعفافها وكرامتها وعزتها ، ويبقى لأطراف الأسرة المحبة والمودة فلا يدخل شيء يقضى على هذه المحبة والمودة ويُدخل نزغ الشيطان فيها . قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ ﴾

فكأن هذه مسألة كانت موجودة ، كان ينكح الولد زوج أبيه التى هى غير أمه . و« صفوان بن أمية » وهو من سادة قريش قد خلف أباه أمية بن خلف على « فاختة بنت الأسود بن المطلب » كانت تحت أبيه ، فلما مات أبوه تزوجها هو ، ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعد هذه القضية من محيط الأسرة ، لماذا ؟ . لأن الأب والابن لهما من العلاقات كالمودّة والرحمة والحنان والعطف من الأب ، والبر والأدب ، والاستكانة ، وجناح الذل من الابن ، فحين يتزوج الرجل امرأة وله ابن ، فذلك دليل على أن الأب كان متزوجاً أمه قبلها ، وكأن الزيجة الجديدة طرأت على الأسرة .

وسبحانه يريد ألا يجعل العين من الولد تتطلع إلى المرأة التى تحت أبيه ، ربما راقته ، ربما أعجبته ، فإذا ما راقته وأعجبته فأقل أنواع التفكير أن يقول بينه وبين نفسه : بعدما يموت أبى أتزوجها ، فحين يوجد له الأمل فى أنه بعدما يموت والده يتزوجها ، ربما يفرح بموت أبيه ، هذا إن لم يكن يسعى فى التخلص من أبيه ، وأنتم تعلمون سعار الغرائز حين تأتى ، فيريد الحق سبحانه وتعالى أن يقطع على الولد أمل الالتقاء ولو بالرجاء والتمنى ، وأنه يجب عليه أن ينظر إلى الجارية أو الزوجة التى تحت أبيه نظرته إلى أمه ، حين ينظر إليها هذه النظرة تمتنع نزعات الشيطان .

فيقول الحق : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم » والنكاح هنا يُطلق فينصرف إلى الوطء والدخول ، وقد ينصرف إلى العقد ، إلا أن انصرافه إلى الوطء والدخول - أى العملية الجنسية - هو الشائع والأوْلى ، لأن الله حينما يقول : « الزانى لا ينكح إلا زانية » معناها أنَّه ينكح دون عقد وأن تتم العملية الجنسية دون زواج .

والحق هنا يقول : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » فما هو السلف هذا ؟ إن ما سلف كان موجوداً ، أى جاء الإسلام فوجد ذلك الأمر متبعاً ، وجاء الإسلام بتحريم مثل هذا الأمر . فالزمن الجديد بعد الإسلام لا يحل أن يحدث فيه ذلك وإن كان عقد النكاح قد حدث قبل الإسلام ، ولذلك قال - سبحانه - : « إلا ما قد سلف » فجاء بـ(ما) وهى راجعة للزمن . كأن الزمن الجديد لا يوجد فيه هذا .

هب أن واحداً قد تزوج بامرأة أبيه ثم جاء الحكم . . أيقول سلف أن تزوّجتها قبل الحكم ! نقول : لا الزمن انتهى ، إذن فقوله : « ما قد سلف » يعنى الزمن ، وما دام الزمن انتهى يكون الزمن الجديد ليس فيه شىء من مثل تلك الأمور . لذا جاءت (ما) ولو جاءت (مَن) بدل (ما) لكان الحكم أن ما نكحت قبل الإسلام تبقى معه ، لكنه قال (إلا ما قد سلف) فلا يصح فى المستقبل أن يوجد منه شىء البتة ويجب التفريق بين الزوجين فيما كان قائما من هذا الزواج .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يبين لنا أنه حين يشرِّع فهو يشرع ما تقتضيه الفطرة

السليمة . فلم يقل : إنكم إن فعلتم ذلك يكون فاحشة ، بل إنه برغم وجوده من قديم كان فاحشة وكان فعلاً قبيحاً « إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » وما كان يصح بالفطرة أن تكون هذه المسألة على تلك الصورة ، إلا أنّ الناس عندما فسدت فطرتهم لجأوا إلى أن يتزوج الرجل امرأة أبيه ، ولذلك إذا استقرأت التاريخ القديم وجدت أن كل رجل تزوج من امرأة أبيه كان يُسمَّى عندهم نكاح « المقت » والولد الذى ينشأ يسمُّونه « المقتى » أى المكروه .

إذن فقوله : « إنه كان » أى قبل أن أحكم أنا هذا الحكم « كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً » . فالله يوضح : إننى أشرع لكم ما تقتضيه الفطرة . والفطرة قد تنطمس فى بعض الأمور ، وقد لا تنطمس فى البعض الآخر لأن بعض الأمور فاقعة وظاهرة والتحريم فيها يتم بالفطرة .

مثال ذلك : أن واحداً ما تزوج أمه قبل ذلك ، أو تزوج ابنته ، أو تزوج أخته . إذن ففيه أشياء حتى فى الجاهلية ما اجترأ أحدٌ عليها . إذن جاء بالحكم الذى يحرم ما اجترأت عليه الجاهلية وتجاوزت وتخطت فيه الفطرة ، فقال سبحانه : « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف » أى مضى .

لقد وصف سبحانه نجاح الأبناء لزوجات آبائهم بأنه « كان فاحشة » أى قبحاً ، و« مقتاً » أى مكروهاً ، « وساء سبيلاً » أى فى بناء الأسرة .

ثم شرع الحق سبحانه وتعالى يبين لنا المحرمات وإن كانت الجاهلية قد اتفقت فيها ، إلا أن الله حين يشرع حكماً كانت الجاهلية سائرة فيه لا يشرعه لأن الجاهلية فعلته ، لا . هو يشرعه لأن الفطرة تقتضيه ، وكون الجاهلية لم تفعله ، فهذا دليل على أنها فطرة لم تستطع الجاهلية أن تغيرها ، فقال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ

وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ
وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن
نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟
دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ
أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن
تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

من الذى يحلل ويحرم ؟ إنه الله ، فهم رغم جاهليتهم وغفلتهم عن الدين حرموا زواج المحارم ؛ فحتى الذى لم يتدين بدين الإسلام توجد عنده محرمات لا يقربها . أى أنهم قد حرموا الأم والبنت والأخت .. إلخ ، من أين جاءتهم هذه ؟ الحق يوضح :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة فاطر)

ومنهج السماء أنزله الله من قديم بدليل قوله :

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾

(سورة طه)

فبمجرد أن خلق الله آدم وخلق زوجته ، أنزل لهما المنهج ، هذا المنهج مستوفى الأركان ، إذن فبقاء الأشياء التى جاء الإسلام فوجدها على الحكم الذى يريده الإسلام إنما نشأ من رواسب الديانات القديمة ، وإن أخذ محل العادة ومحل الفطرة . . أى أن الناس اعتادوه وفطروا عليه ولم يخطر ببالهم أن الله شرعه فى ديانات سابقة .

والعلوم الحديثة أعانتنا فى فهم كثير من أحكام الله ، لأنهم وجدوا أن كل تكاثر سواء أكان فى النبات أم فى الحيوان أم فى الإنسان أيضاً ، كلما ابتعد النوعان « الذكورة والأنوثة » فالنسل يجىء قوياً فى الصفات . أما إذا كان الزوج والزوجة أو الذكر والأنثى من أى شىء : فى النبات ، فى الحيوان ، فى الإنسان قريبين من اتصال البنية الدموية والجنسية فالنسل ينشأ ضعيفاً ، ولذلك يقولون فى الزراعة والحيوان : « نهجن » أى نأتى للأنوثة بذكورة من بعيد . والنبى عليه الصلاة والسلام يقول لنا :

(اغتربوا لا تضْوُوا) وقال : « لا تنكحوا القرابة القريبة فإن الولد يخلق ضاويا »[1]

فالرسول يأمرنا حين نريد الزواج ألا نأخذ الأقارب ، بل علينا الابتعاد ، لأننا إن أخذنا الأقارب فالنسل يجىء هزيلاً . وبالاستقراء وجد أن العائلات التى جعلت من سنتها فى الحياة ألا تنكح إلا منها ، فبعد فترة ينشأ فيها ضعف عقلى ؛ أو ضعف جنسى ؛ أو ضعف مناعى ، فقول رسول الله : « اغتربوا لا تضووا »أى إن أردتم لزواج فلا تأخذوا من الأقارب ، لأنكم إن أخذتم من الأقارب تهزلوا ، فإن « ضوِى » بمعنى « هزل » فإن أردتم ألا تضووا ، أى ألا تهزلوا فابتعدوا ، وقبلما يقول النبى هذا الكلام وجد بالاستقراء فى البيئة الجاهلية هذا . ولذلك يقول الشاعر الجاهلى :

أنصح من كان بعيد الهم

---

(١) رواه إبراهيم الحربى مرفوعا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ورواه موقوفا على عمر ، وقد روى براهيم الحربى فى غريب الحديث عن عمر رضى الله عنه قال : (يا بنى السائب قد أضويتم فانكحوا فى الغرائب) من كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالى » .

تزويج أبناءِ بنات العمِ
فليس ينجو من ضَوًى وسُقْم

فقد يضوى سليل الأقارب ، وعندنا فى الأحياء الشعبية عندما يمدحون واحداً يقولون : « فتوة » أى فتى لم تلده بنت عم قريبة . وفى النبات يقولون : إن كنت تزرع ذرة فى محافظة الغربية لابد أن تأتى بالتقاوى من محافظة الشرقية مثلا ، وكذلك فى البطيخ الشيليان . يأتون ببذوره من أمريكا ؛ فيزرعونها فيخرج البطيخ جميلاً لذيذا ، بعض الناس قد يرفض شراء مثل تلك البذور لغلو ثمنها . فيأخذ من بذور ما زرع ويجعل منه التقاوى ، ويخرج المحصول ضعيفاً . لكن لو ظل يأتى به من الخارج وإن وصل ثمن الكيلو مبلغاً كبيراً فهو يأخذ محصولاً طيباً .

وكذلك فى الحيوانات وكذلك فينا ؛ ولذلك كان العربى يقول : ما دكّ رءوس الأبطال كابن الأعجمية ؛ لأنه جاء من جنس آخر . أى أن هذا الرجل البطل أخذ الخصائص الكاملة فى جنس آخر . فلقاح الخصائص الكاملة بالخصائص الكاملة يعطى الخصائص الأكمل ، إذن فتحريم الحق سبحانه وتعالى زواج الأم والأخت وكافة المحارم وإن كانت عملية أدبية إلا أنها أيضاً عملية عضوية . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم » لماذا ؟ لأن هذه الصلة صلة أصل ، والصلة الأخرى صلة فرع ، الأمهات صلة الأصل ، والبنات صلة الفرع ، « وأخواتكم » وهى صلة الأخ بأخته إنّها بنوة من والد واحد ، « وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » .

إذن فالمسألة مشتبكة فى القرابة القريبة . والله يريد قوة النسل ، قوة الإنجاب ، ويريد أمرا آخر هو : أن العلاقة الزوجية دائما عرضة للأغيار النفسية ، فالرجل يتزوج المرأة وبعد ذلك تأتى أغيار نفسية ويحدث بينهما خلاف مثلما قلنا فى قوله تعالى : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج » ؛ ويكره منها كذا وكذا ، فكيف تكون العلاقة بين الأم وابنها إذا ما حدث شىء من هذا ؟! والمفروض أن لها صلة تحتم عليه أن يظل على وفاء لها ، وكذلك الأمر بالنسبة للبنت ، أو الأخت ، أو العمة ، أو الخالة ، فيأمر الحق الرجل : ابتعد بهذه المسألة عن مجال الشقاق .

ومن حسن العقل وبعد النظر ألا ندخل المقابلات فى الزواج ، أو ما يسمى « بزواج البدل » ، حيث يتبادل رجلان الزواج ، يتزوج كل منهما أخت الآخر مثلا ، فإذا حدث الخلاف فى شيء حدث ضرورةً فى مقابله وإن كان الوفاق سائداً . فحسن الفطنة يقول لك : إياك أن تزوج أختك لواحد لأنك ستأخذ أخته ، فقد تتفق زوجة مع زوجها ، لكن أخته قد لا تتوافق مع زوجها الذى هو شقيق للأخرى . وتصوروا ماذا يكون إحساس الأم حين ترى الغريبة مرتاحة عند ابنها لكن ابنتها تعانى ولا تجد الراحة فى بيت زوجها . ماذا يكون الموقف ؟ نكون قد وسعنا دائرة الشقاق والنفاق عند من لا يصح أن يوجد فيه شقاق ولا نفاق .

والحكمة الإلهية ليست فى مسألة واحدة ، بل الحكمة الإلهية شاملة ، تأخذ كل هذه المسائل ، « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم » والمحرم هنا بطبيعة الحال هن الأمهات وإن علون ، فالتحريم يشمل الجدة سواء كانت جدة من جهة الأب ، أو جدة من جهة الأم . وما ينشأ منها . وكل واحدة تكون زوجة لرجل فأمها محرمة عليه ، « وبناتكم » وبنات الابن وكل ما ينشأ منها ، وكذلك بنات البنت ، « وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم » .

ولماذا يحرم الحق « أمهاتكم اللاتى أرضعنكم » ؟ لأنها بالإرضاع أسهمت فى تكوين خلايا فيمن أرضعته ؟ ففيه بَضْعَة منها ، ولهذه البَضْعَة حُرمة الأمومة ، ولذلك قال العلماء : يحرم زواج الرجل بامرأة جمعه معها رضاعة يغلب على الظن أنها تُنشيء خلايا ، وحلل البعض زواج من رضع الرجل منها مصة أو مصتين مثلا ، إلا أن أبا حنيفة رأى تحريم أى امرأة رضع منها الرجل ، وأفتى المحققون وقالوا : لا تحرم المرأة إلا أن تكون قد أرضعت الرجل ، أو رضع الرجل معها خمس رضعات مشبعات ، أو يرضع من المرأة يوما وليلة ويكتفى بها ، وأن يكون ذلك فى مدة الرضاع . وهى بنص القرآن سنتان . « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » .

وهذه المسألة حدث الكلام فيها بين سيدنا الإمام على ـ رضوان الله عليه وكرم الله

وجهه ـ وسيدنا عثمان ـ رضى الله عنه ـ حينما جاءوا بامرأة ولدت لستة شهور وكان الحمل الشائع يمكث تسعة أشهر ، وأحيانا نادرة يولد الطفل بعد سبعة أشهر ، لكن أن تلد امرأة بعد ستة شهور فهذا أمر غير متوقع . . ولذلك أراد عثمان ـ رضى الله عنه ـ أن يقيم الحد عليها ؛ لأنها مادام ولدت لستة أشهر تكون خاطئة ، لكنْ سيدنا على ـ رضوان الله عليه وكرم الله وجهه ـ أدرك المسألة .

قال : يا أمير المؤمنين ، لماذا تقيم عليها الحد ؟ فقال عثمان بن عفان : لأنها ولدت لستة أشهر وهذا لا يكون . وأجرى الله فتوحاته على سيدنا على ، وأجرى النصوص على خياله ساعة الفتيا ، وهذا هو الفتح ، فقد يوجد النص فى القرآن لكن النفس لا تنتبه له ، وقد تكون المسألة ليست من نص واحد . بل من اجتماع نصين أو أكثر ، ومن الذى يأتى فى خاطره ساعة الفتيا أن يطوف بكتاب الله ويأتى بالنص الذى يسعفه ويساعده على الفتيا ، إنه الإمام على ، وقال لسيدنا عثمان : الله يقول غير ذلك ، قال له : وماذا قال الله فى هذا ؟ قال :

﴿ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ﴾

(من الآية ٢٣٣ سورة البقرة)

إذن فإتمام الرضاعة يكون فى حولين كاملين أى فى أربعة وعشرين شهرا ، ـ والتاريخ محسوب بالتوقيت العربى ـ والحق سبحانه قال أيضا :

﴿ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الأحقاف)

فإذا كان مجموع أشهر الحمل والرضاع ، ثلاثين شهرا ، والرضاع التام أربعة وعشرون شهرا ، إذن فمدة الحمل تساوى ستة أشهر .

هكذا استنبط سيدنا على ـ رضى الله عنه وكرم الله وجهه ـ والإنسان قد يعرف آية وتغيب عنه آيات ، والله لم يختص زمنا معينا بحسن الفتيا وحرم الأزمنة الأخرى ، وإنما فيوضات الله تكون لكل الأزمان ، فقد يقول قائل : لا يوجد فى المسلمين من يصل بعمله إلى مرتبة الصحابة ، ومن يقول ذلك ينسى ما قاله الحق فى سورة الواقعة :

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

(سورة الواقعة)

أى أن الآخرين أيضا لن يحرموا من أن يكون فيهم مقربون قادرون على استيعاب النصوص لاستنباط الحكم ، إذن فالرضاع : مصة أو مصتان ؛ هذا مذهب ، وعشر رضعات مذهب آخر ، وخمس رضعات مشبعات مذهب ثالث ، وأخذ جمهور الفقهاء بالمتوسط وهو خمس رضعات مشبعات تحرمن الزواج ، لكن بشرط أن تكون فى مدة الرضاع ، فلو رضع فى غير مدة الرضاعة ، نقول : إنه استغنى بالأكل وأصبح الأكل هو الذى يعطيه مقومات البنية .

إذن فمسألة الرضاع متشعبة ؛ لأن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »[1] .

والمحرم من الرضاع هو : الأم من الرضاع ، والبنت من الرضاع ، والأخت من الرضاع ، والعمة من الرضاع ، والخالة من الرضاع ، وهكذا نرى أنها عملية متشعبة تحتاج من كل أسرة إلى اليقظة ، لأننا حين نرى أن بركة الله لا تحوم حول كثير من البيوت لا بد أن ندرك لها أسبابا ، أسباب البعد عن استقبال البركة من الله . . فالإرسال الإلهى مستمر ، ونحن نريد أجهزة استقبال حساسة تحسن الاستقبال ، فإذا كانت أجهزة الاستقبال خربة ، والإرسال مستمراً فلن يستفيد أحد من الإرسال ، وهب أن محطة الإذاعة تذيع ، لكن المذياع خرب ، فكيف يصل الإرسال للناس ؟

إذن فمدد الله وبركات الله المتنزلة موجودة دائما . . ويوجد أناس لا يأخذون هذه البركات ؛ لأن أجهزة استقبالها ليست سليمة ، وأول جهاز لاستقبال البركة أن البيت يبنى على حل فى كل شىء . . يعنى : لقاء الزوج والزوجة على حل ، وكثير من

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة .

الناس يدخلون فى الحرمة وإن لم يكن بقصد ، وهذا ناشىء من الهوس والاختلاط والفوضى فى شأن الرضاعة ، والناس يرضعون أبناءهم هكذا دون ضابط وليس الحكم فى بالهم . وبعد ذلك نقول لهم : يا قوم أنتم احتطتم لأولادكم فيما يؤدى إلى سلامة بنيتهم ، فكان لكل ولد ملف فيه : شهادة الميلاد ، وفيه ميعاد تلقى التطعيمات ضد الدفتريا ، وشلل الأطفال وغير ذلك .

فلماذا يا أسرة الإسلام لا تضعون ورقة فى هذا الملف لتضمنوا سلامة أسركم ، ويكتب فى تلك الورقة من الذى أرضع الطفل غير أمه ، وساعة يأتى للزواج نقول : يا موثق هذا ملفه إنه رضع من فلانة ، فى هذا الملف تُدرج أسماء النساء اللاتى رضع منهن . . فنبنى بذلك أسرة جديدة على أسس إيمانية سليمة ، بدلا من أن نفاجىء رجلا تزوج امرأة ، وعاشا معا وأنجبا وبعد ذلك يتبين أنهما رضعا معا ، وبذلك تصير المسألة إلى إشكال شرعى وإشكال مدنى وإشكال اجتماعى ناشىء من أن الناس لم تُعد لمنهجها الإيمانى ما أعدته لمنهجها المادى .

إذن فلا بد من التزام كل أسرة أن تأتى فى ملف ابنها أو بنتها وتضع ورقة فيها أسماء من رضع منهن المولود . وعلى كل حال لم تعد هناك الآن ضرورة أن نأتى بمرضعة للأولاد ، فاللبن الجاف من الحيوانات يكفى ويؤدى المهمة ، وصرنا لا ندخل فى المتاهة التى قد تؤدى بنا فى المستقبل إلى أن الإنسان يتزوج أخته من الرضاعة أو أمه من الرضاعة ، أو أى شىء من ذلك ، وبعد ذلك تمتنع بركة الله من أن تمتد إلى هذه الأسرة . « حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة » . ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب »[1] .

وجاء القرآن بالأمور البارزة فيها فقط ، « وأمهات نسائكم » فإذا تزوج رجل من امرأة ولها أم ، بالله أيتزوج أمها أيضا ؟ إنها عملية غير مقبولة ، « وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن » . الربيبة هى بنت المرأة من غير زوجها ، فقد يتزوج رجل من امرأة كانت متزوجة من قبل وترملت أو طلقت بعد أن ولدت

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن عائشة .

بنتا . هذه البنت يسمونها « ربيبة » وزوج الأم الجديد سيُدخلها فى حمايته وفى تربيته ، وبذلك تأخذ مرتبة البنوة . والأمر هنا مشروط : « من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا قد دخلتم بهن فلا جناح عليكم » فمادام الرجل قد عقد على المرأة ولم يدخل بها تكون بنتها غير محرمة . أما العقد على البنت حتى دون دخول فإنه يحرم الأمهات .

« وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » أى زوجة الابن ، وكلمة « من أصلابكم » تدل على أنه كان يطلق لفظ « الأبناء » على أناس ليسوا من الأصلاب ، وإلا لو أن كلمة « الأبناء » اقتصرت فى الاستعمال على أولاد الإنسان من صلبه ، لما قال : « أبنائكم الذين من أصلابكم » .

إذن كان يوجد فى البيئة الجاهلية أبناء ليسوا من الأصلاب هم أبناء التبنى ، وكانت هذه المسألة شائعة عند العرب ، فكان الرجل يتبنى طفلا ويلحقه بنسبه ويطلق عليه اسمه ويرثه . وجاء الإسلام ليقول : لا ، لا يصح أن تنسب لنفسك من لم تنجبه ، لأنه سيدخل فى مسألة أخوة لابنتك مثلا ، وسيدخل على محارمك ، ولذلك أنهى الله هذه المسألة ، وجاء هذا الإنهاء على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت المسألة متأصلة عند العرب .

ونعلم أن زيد بن حارثة خُطف من أهله ، وبعد ذلك بيع على أنه رقيق ، واشتراه حكيم بن حزام . وأخذته سيدتنا خديجة وبعد ذلك وهبته لسيدنا رسول الله . وصار زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعندما علم أهل زيد أن ولدهم الذى خُطف قديما موجود فى مكة جاءوا إليها ، فرأوا زيد بن حارثة ، ولما سألوه أن يعود معهم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا أخيره بين أن يذهب معكم أو أن يبقى معى ، انظروا إلى زيد بن حارثة كيف صنع به إيمانه وحبه لسيدنا رسول الله : قال : ما كنت لأختار على رسول الله أحداً . وظل مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأراد الرسول أن يكرمه على العادة التى كانت شائعة فسماه « زيد بن محمد » وتبناه .

إذن فالمسألة وصلت إلى بيت النبوة ، التبنى وصل بيت رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وأراد الله أن ينهى هذه المسألة فقال سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأحزاب)

هذا يدل على أن صرامة التشريع لا تجامل أحداً حتى ولا محمدا بن عبدالله وهو رسول ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » .

وبعض الناس الذين يتسقطون للقرآن يقولون : إن رسول الله كان عنده إبراهيم وكان عنده الطيب وكان عنده القاسم ، ونقول : أكان هؤلاء رجالا ؟! لقد ماتوا أطفالا ، والكلام « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » ، وهب أنهم كبروا وصاروا رجالا ، أقال من رجالكم أم من رجاله ؟ قال : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » أى لا يمنع أن يكون أبا أحد من رجاله ، هو أبو القاسم وأبو الطيب وأبو إبراهيم هم أولاده فافهموا القول .

وهذه المسألة أخذت ضجة عند خصوم الاسلام والمستشرقين والحق سبحانه وتعالى وإن كان قد عدل لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فتعديل الله لرسوله يشرف رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن من الذى يعدل لمحمد ؟ إنه الله الذى أرسله .

ويقول : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » . ومفهوم هذه العبارة أن المحرمة إنما هى حليلة الابن من الصلب . وقوله : « من أصلابكم » يدل على أنه كان هناك أبناء ليسوا من الصلب ، إذن فالتبنى كان موجوداً قبل نزول هذا الحكم ، وأراد الله أن يبطل عادة التبنى ، وكانت متغلغلة فى الأمة العربية ، فأبطلها على يد سيدنا رسول الله ، لا مشرعا ينقل حكم الله فحسب ، ولكن مطبقا يطبق حكم الله فى ذاته وفى نفسه حتى يأخذ الحكم قداسته ، ويجب أن نفطن إلى أن فكرة التبنى كانت فى ذاتها تهدف إلى أن ولدا نجيبا يلحقه رجل به ليعطيه كل حقوق أولاده كلون من التكريم .

ولذلك علينا أن نلحظ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تصرف بالكمال البشرى

فى إطار العدل البشرى ، والعدل هو : القسط ، وساعة تبني زيد بن حارثة وسماه زيد بن محمد إنما كان يهدف إلى أن يعوضه والده ، لأن زيداً اختار رسول الله على أبيه ، إذن فكان ذلك التبنى من رسول الله كمالا وعدلا بشريا بالنسبة للوفاء لواحد آثر اختياره على اختيار أهله فإذا أراد الله أن يصوب فيكون كمالا إلهيا وعدلا إلهيا ، فلا غضاضة عند أحد أن يُصوِّب الكمال البشرى بالكمال الإلهى ، ولا أن يصوب العدل البشرى والقسط البشرى بالعدل الإلهى والقسط الإلهى ، وأنزل الله وهو أحكم القائلين هذا الحكم بعبارة تعطى ذلك كله :

﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾

(من الآية ٥ سورة الأحزاب)

أى إن دعاءهم لآبائهم « أقسط عند الله » . وكلمة : « أقسط » إياكم أن تكونوا بعدتم ونأيتم بها عن « عظيم » و« أعظم » ، إنك ساعة تأتى بصيغة التفضيل يكون المقابل لها وصفا من جنسها ، فـ « أعظم » المقابل لها « عظيم » ، و« أقسط » المقابل لها « قِسْط » ، فما فعله رسول الله هو قِسْطٌ وعدل ، ولكن ما عدله الله أقسط مما صنعه رسول الله . إذن فيجب أن نفطن إلى أن الكمال البشرى والعدل البشرى شيء ، والكمال الإلهى والعدل الإلهى شيء آخر . ومن نقله الله من عدل بشريته إلى عدل ألوهيته يكون قد تلقى نعمة كبرى .

وإذا ما حاول المستشرقون أن يأخذوا هذه المسألة على أن ربنا عدل له ويحاولوا أن يلصقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خطأ ما ، نقول لهم : أنتم لا تحسنون تقدير الأمر ولا تفهمون المراد من ذلك ، فالذى صوب هو الله الذى أرسله ، وقد صوب له فعلا فعله فى إطار البشرية ، وقال الحق : « هو أقسط عند الله » ومن الذى يجعل البشر متساوين مع الله فى القسط والعدل والكمال ؟

إن هناك قصة طار بها المستشرقون فرحا وكذلك يروجها خصوم الإسلام من أبناء الإسلام ؛ لأن من مصلحة خصوم الإسلام ، وكذلك الذين لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ؛ يروجون أن هذا الدين يحتوى على أكاذيب ـ والعياذ بالله ـ فمادام الواحد منهم لا يقدر أن يحمل نفسه على منهج الدين لا يكون له مندوحة ولا نجاة إلا أن يقول :

هذا الدين غير صحيح ؛ لأن هذا الدين إن كان صحيحا فسوف يهلك هو ومن على شاكلته ، فيكذبون أنفسهم وينكرون على الدين أملاً فى النجاة فى ظنهم إذ لا منجى ولا أمل لهؤلاء إلا أن يكون الدين كذبا كله .

لننظر إلى القصة التى طار بها المستشرقون فرحا : النبى صلى الله عليه وسلم هو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب ، وكان عبدالمطلب له بنت اسمها : أميمة بنت عبدالمطلب ، وهى بذلك تكون أختا لعبدالله بن عبدالمطلب . وأنجبت أميمة بنتا اسمها « برّة » ، وغير النبى صلى الله عليه وسلم اسمها ، لأنه صلوات الله وسلامه عليه كان له ملحظ فى الأسماء ، اسمها « برّة » . والاسم جميل لأنه من البر وهو صفة تجمع كل خصال الخير ، لكن رسول الله كره أن يقال فيما بعد : خرج رسول الله من عند « برّة » ، فسماها « زينب » .

« برّة » هذه هى بنت أميمة فهى ابنة عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وزيد ابن حارثة ـ كما قلنا ـ كان طفلا ثم خُطف وَسُرِق ، وبيع وانصرف إلى ملكية رسول الله ، وبعد ذلك أراد رسول الله أن يكرمه على ما يقتضيه كماله البشرى وعدله البشرى فسماه « زيد بن محمد » .

وعندما أراد زيد بن محمد أن يتزوج . . زوّجه رسول الله من « برة » على مضض منها ، لأنه مَوْلى ، وهى بنت سيد قريش . وكان ملحظ الرسول صلى الله عليه وسلم أنه يريد أن يجعل من المسلمين مزيجا واحداً ، فلا فرق بين مَوْلى وسيد ، وزوّج بنت عمته لزيد ، وبعد الزواج لم ينشأ بينهما ودّ ، وكل هذه تمهيدات الأقدار للأقدار .

- بالله لو أنها كانت أخذته عن حب وكان بينهما وئام ، وبعد ذلك أراد الله أن يشرّع فهل يشرع على حساب قلبين متعاطفين متحابين ليمزقهما ؟ لا ، المسألة ـ إذن ـ تمهيد من أولها ، فلم تكن لها رغبة فيه . وعندما يجد الرجل أن المرأة ليس لها رغبة فيه ، تهيج كرامته ، وخصوصا أنه صار ابنا بالتبنى لرسول الله ، ويكون رفض امرأةٍ له مسألةً ليست هينة ، وتصعب عليه نفسه ، فيأتى لرسول الله شاكيا ، وقال له : لم

تعجبنى معاشرة « برّة » وأريد أن أفارقها ، وكان ذلك تمهيداً من الله سبحانه لأنه يريد أن ينهى مسألة التبنى ، فقد كانوا فى الجاهلية يحرمون أن يتزوج الرجل امرأة ابنه المتبنى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأحزاب)

ومادام يقول له : « أمسك عليك زوجك » فالكلام إذن قد جاء معبرًا عن رغبة زيد فى أن يفارقها ، لكن خصوم الإسلام وأبواقهم من المسلمين يقولون فى قوله : « وتخفى فى نفسك » إن محمدا كان معجبا بالمرأة ويريد أن يتزوجها ، ويخفى هذه الحكاية .

نقول لهم : كونوا منطقيين وافهموا النص ، فربنا يقول : « وتخفى فى نفسك » ، أنتم أخذتم منها أن النبى كان يريد أن يتزوجها . والحق قال : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » . فإذا كنت تريد أن تعرف ما أخفاه رسول الله ، فاعرف ما أبداه الله ، هذه هى عدالة الاستقبال ، وبدلا من أن تقول هذا الكلام كى تشفى مرض نفسك انظر كيف أعطاك ربنا من تفاصيل الحكاية . قال سبحانه : « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » فماذا أبدى ربنا ؟ وحين يبدى ربنا أمرًا يكون هو عين ما أخفاه رسوله ، فلما ذهب زيد للنبى وقال له : أريد أن أفارق « برّة » قال له : « أمسك عليك زوجك » لأن رسول الله عَلِم مِنَ الله أنه يريد أن يزوجه « برة » التى هى امرأة زيد الذى تبناه كى ينهى مسألة التبنى ، وأن امرأة المتبنى لا تحرم على الرجل ، ويطبقها رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه .

راجع أصله و خرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر . .

لكنْ هناك أناس مازال عندهم مرض فى قلوبهم ، وأناس منافقون ، والرسول عليه الصلاة والسلام أراد أن يكون هذا الأمر واردا من الله فى قرآنه . فلو كان قد قال هذا الأمر بمجرد الإيحاء الذى جعله الله بينه وبينه لقالوا : هذا كلام منه هو ؛ لذلك قال محمد صلى الله عليه وسلم لزيد : أمسك عليك زوجك ، فينزل ربنا الأمر كله قرآنا ، فلم يقل محمد : ألهمَنى ربنا ، أو ألقى فى رُوعى ، لا ، جاء هذا الأمر قرآنا ، ولذلك يقدم الحق سبحانه وتعالى لهذه المسألة فى سورة الأحزاب فيقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

فالله أنعم على زيد بالإسلام وأنعمت أنت يا رسول الله عليه بالتبنى فلا تخش الناس أن يقولوا : طلق المرأة من زيد ليتزوجها . كأن زواج « زيد » من « زينب » ، كان لغاية واحدة وهى أن تكون « برة » التى سماها رسول الله « زينب » منكوحة لزيد الذى تبناه رسول الله بدليل : « فلما قضى زيد منها وطرا » أى أدى المهمة ، فأردنا أن نعطى الحكم : « زوّجنا » فمن الذى زوّج ؟ إنه الله ، وليس رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى تزوج .

فإن كنتم تريدون أن تصعدوا المسألة فاتركوا رسول الله فى حاله ، وصعدوها إلى ربنا ، فقوله سبحانه : « فلما قضى زيد منها وطرا » يدل على أن أصل الزواج من البداية ممهد له ، فالغاية منه أن يقضى زيد منها وطرا وهو متبنى رسول الله ، ويكون هذا الزواج عن كره منها ، إنها غير موافقة عليه ، وتنتقل المسألة عند زيد إلى عزة

ويقول : لا أريدها . ويذهب إلى الرسول ويقول : أريد أن أطلق « برّة » فيقول له الرسول : « أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه » . والذى أبداه الله هو قوله لرسوله : « فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها » كأن الغاية من النكاح أن يقضى زيد منها وطرا وتنتهى الحكاية بالنسبة لزيد ، ويأتى الحكم بالنسبة لرسول الله فيقول ربُّنا : « زوجناكها » .

فالذى يريد أن يمسك المسألة لا يمسكها على الرسول ، لكن عليه أن يصعدها إلى ربنا ، « زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » . كأن العملية جاءت من أجل أن ما أبداه ربنا فى زواج الرجل من مطلقة الولد المتبنى إذا قضى منها وطرا ، هذا ما أبداه ربنا ، إن الله حكم بأن الذى أخفاه النبى صلى الله عليه وسلم سيبديه ، إن الوحى هو الذى بيّن السبب الباعث على زواج الرسول بزينب إنه قوله تعالى : « لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا » .

فالعلة فى هذه العملية : يا ناس ، يا محمد ، يا زيد ، يا زينب ، أو يا من يحب أن يرجف ، العلة فى كل ذلك علة إلهية من كمال إلهى وعدل إلهى يتركز فى قوله سبحانه : « لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » ، والأدعياء : هم الذين يتبنونهم من غير ولادة .

ومادام ربنا يريد أمرا فلا بد أن يفعل ، وأنتم آمنتم بأنه رسول ، وإن لم تؤمنوا بأنه رسول يكون تكذيبكم برسالته أكبر من أنكم تنقدون تصرفه ، فإن كنتم مكذبين أنه رسول ، فما شأنكم إذن ؟ إن تكذيبكم له كرسول هو أشد من أن تنقدوا تصرفا من تصرفاته بأنه تزوج ممن كانت امرأة ابنه المتبنى . وإن آمنتم بأنه رسول ، فهذا الرسول مبلغ عن الله .

إذن ففعل الرسول المبلغ عن الله هو الميزان للأعمال لا ما تنصبونه أنتم من موازين . أتقولون للرسول الذى أرسله ربنا كى يبلغ منهجه ويطبق هذا المنهج ويكون هو ميزانا للتصرفات ، تقولون له : سنأخذ تصرفاتك ونعيدها على الميزان

الذى نضعه ؟ ما كان يصح أن يفعل أحد هذا ، فإن قلت ذلك فقد عملت الميزان من عندك ، ونقلت الأمر إلى غير الحق ، وهذا أول خطأ ؛ فالأصل فى الرسول أن كل فعل له هو الكمال ، ولا تأتى أنت بميزان الكمال وتأتى للرسول وتقول له : كيف فعلت هذه العملية ؟ لأنك عندما تقول ذلك فقد نصبت ميزان كمال من عندك ، وتأخذ تصرف الرسول لتزنه بميزان الكمال من عندك ، وهذا مناقض للحق لأنك آمنت بأنه رسول .

ويعد ذلك يأتى بالقضية العامة ليقول سبحانه :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

وكلمة « أبا أحد » أى لم يكن أباً لأحد ، ماذا تفهم منها ؟ نفهم منها أنه أبوكم كلكم ، « ما كان محمد أبا أحد » لأنه أبو الجميع ، بدليل أن أزواجه أمهاتكم ، ومحرمات عليكم ، فهو إذن والدكم كلكم ؛ إذن فخذ بالك من دقة الأداء « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » وبمنطق الواقع هو أب لكم كلكم ؛ لذلك هو لا يأخذ واحداً فقط ويقول : هذا ابنى ، لا ، هو أب لكم كلكم . وكل المؤمنين أولاده بدليل أن أزواجه أمهات لهم ، قد يقول واحد : لقد كان عنده أبناء .

نقول له : إن أبناءه لم يبلغوا سن الرجولة ، وهب أنهم بلغوا سن الرجولة حتى باعتبار ما سيكون . فهؤلاء ليسوا رجالكم ولكنهم رجاله . « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » والرسالة وختم النبوة به فوق شرف الأبوة . وجاء الحق بذلك حتى لا يحزن زيد ، فرسول الله قد شرفه ، وإن شرفك يا زيد أنك كنت تدعى ابن محمد ، فما يشرفك أكثر أنك مؤمن بمحمد كرسول ، فالعظمة فى محمد صلى الله عليه وسلم أنه جاء رسولاً .

ولذلك قلنا : إن هذه جعلت بنوة الدم بلا قيمة عند الأنبياء ، ونجد أن النبى جاء بسلمان وهو من فارس وليس من قبيلته ولا هو بعربى وقال :

(سلمان منا آل البيت)[1]

وقول الحق : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم » بمفهوم العبارة ونضحها الذوقى والأدائى والأسلوبى أنه أبوكم كلكم ، فلا ينفرد به أحد دون الآخر ، « ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليماً » وبعدما كان زيدُ ابنَ محمد ، أصبح زيدا ابن حارثة ، ومحمد هو رسول الله ، ومادمت أنت مؤمنا به ـ يا زيد ـ فرسول الله هذه تعوض إلغاء الأبوة بالتبنى بالنسبة لك ، ثم إنك داخل فى الأبوة العامة من رسول الله للمؤمنين ؛ لأنك آمنت به كرسول ، إذن فعندما نحقق فى هذه العبارة نجد أنه يُسلِّ زيدًا أيضاً . وخير من هذا ـ أنك يا زيد ـ إن فقدت بين الناس اسم زيد ابن محمد ، وكنت تجعل ذلك شرفاً لك ، فأنت الوحيد من صحابة رسول الله الذى يُذكر فى القرآن باسمه الشخصى ، وتصبح كلمة « زيد » قرآنا يُذْكر ويُتلى ، ويتعبد بتلاوته ، ومحفوظا على الألسنة ؛ ومرفوع الذِّكر ، إذن فقد عوضك الله يا زيد ، فقد قال الحق : « فلما قضى زيد منها وطراً » وهب أنه بقى زيد ابن محمد ، فما الذى يحدث ؟ سنقرأها فى السيرة ، لكن يرتفع شرف ذلك عندما نقرأها فى كتاب الله المعجزة المتعبد بتلاوته ، الذى ضمن الله حفظه ، فقد ضمن الله تخليد اسم زيد إلى أن تقوم الساعة ، إذن فذكره كزيد ابن محمد فى حياته أوْلى أو ذكر زيد فى القرآن ؟ إن ذكر اسمه فى القرآن أولى ، « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليماً » .

إذن فقول الحق سبحانه : « وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم » يدل على أن حلائل الأبناء المتبنين حل لكم ، بعد أن كانوا ـ فى الجاهلية ـ يحرمون ذلك ، ويقول الحق من بعد ذلك : « وأن تجمعوا بين الأختين » وتحريم الجمع فى الزواج بين الأختين لأن بينهما رحماً يجب أن تظل معه المودّة والرحمة والصفاء ، لكن إذا كانتا تحت رجل واحد تحدث عداوة ، « وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله كان غفوراً رحيماً » وهذا الجزء من الآية « وأن تجمعوا بين الأختين » مع استثناء الحق .

فى قوله : « وأحل لكم ما وراء ذلك » قد حصل فى فهمها والمراد منها خلاف . .

---

(١) رواه الطبرانى فى الكبير ورواه الحاكم فى المستدرك .